إحسان عبد القدوس

لا أنام

الطبعة الثانيـــة ـ يناير ســــنة ١٩٥٨

الإهـــداء

الى اطيب البنات قلبا .. واشدهن احساسا بضميرها .. وكل جريمتها انهـا ارادت ان تكون اكثر من انسان ..

الى ((ن)) .. وقد اعطتني قصـــتها ، ثم ذهبت بعيدا .. بعد ان اخذت حفنة من ايامي وقطعة من قلبي !..

أنا الخير والشر معا .. لأني إنسان ،

احسان ..

الجُزْءُ الأَوَّلْ

لا أَنَام

عزيزى احسان . .

أنا نادية لطفى . .

وأنت لا تعرفنى ، وان كنت قد استطعت أن ادير عنقك فى المرتين اللتين وقعت عيناك فيهما علىّ .. مرة على شاطىء سيدى بشر بالاسكندرية ، ومرة فى فندق سميراميس بالقاهرة .. وفى كلتا المرتين لم أهتم بالتفاتتك كثيرا ، فقد تعودت أن أدير أعناق الرجال !! .

وقد مضت علىّ ثلاثة شهور وأنا أكتب لك هذا الخطاب، او هذه « الكراسة » ، ولم أكن أنوى أبدا أن أكتب لك كل هذه القصة الطويلة .. قصتى .. كان كل ما أهويه أن أسألك سؤالا واحدا : « هل الله موجود ؟ » .

ولكنى وجدت انه سؤال سخيف .. فانى أشعر فعلا بوجود الله ، وتملأنى الرهبة كلما ذكرته ، بل انى قضيت سنوات من عمرى أصلى الفروض الخمس وألف حول رأسى طرحة بيضاء وأتسربل بقميص أبيض طويل الأكمام ينزل حتى يغطى أطراف قدمى ، ويرتفع حتى يغطى عنقى ، كلما وقفت للصلاة ، وكأنى ملاك يزفونه الى السماء .. الى المجهول .. الى الله !!

نعم .. انى مقتنعة بوجود الله مقتنعة الى الحد الذى

يجعل القلم يرتعش فى يدى الآن وأنا أكتب كلمات الشك فى وجوده .. يرتعش من الخوف .. وها أنذا أسمع نفسى أردد فى صدري : أستغفر الله العظيم .. أستغفر الله العظيم ! .

ربما أردت أن أسألك : ما هو الله ؟

نعم .. ما هو الله ؟! ..

قل لى : ما هو الله ؟!..

انه الحق ، وهو الفضيلة ، وهو الخير .. فلا يستطيع نبى أن يدعونا الى عبادة الضلال أو الخطيئة ، أو الشر .

وهو القادر .. فلا يمكن لأهل الأرض أن يجتمعوا على عبادة اله ضعيف لا حول له ولا قوة ..

اذن ، لماذا تركنا الحق القادر ، للضلال الضعيف ؟!..

لماذا تتخلى عنا الفضيلة للخطيئة ؟!..

لماذا ينتصر الشر فينا على الخير ؟!..

قل لى : لماذا ؟..

وقل لى : ما هو الله اذن ؟!..

لقد قيل لى أن الله سبحانه وتعالى خلقنا وخلق فينا العقل والارادة لنميز بهما بين الخير والشر ، ثم تركنا ليختبر سلوكنا فى الحياة .. ليجرى لنا امتحانا .. فمن نجح كان نصيبه الجنة ومن « سقط » كان للنار ..

قيل لى هذا الكلام ، وحاولت أن أقتنع به ، فلم أستطع..

لا يمكن أن تكون فى السماء وزارة معارف تلقى الينا

بأوراق الأسئلة ، ثم تتلقى أوراق الاجابة لتعرضها على لجان التصحيح !!.

ثم هب انى «سقطت» فى هذا الامتحان ، فمن المسؤول؟..

المسؤول هو عقلى الغبى ، وارادتى الضعيفة !!..

ومن الذى وضع فى رأسى هذا العقل الغبى ، وزودنى بهذه الارادة الضعيفة ؟

من الذى خلقنى هكذا ؟..

انه الله ..

الله هو المسؤول عن سقوطى فى امتحان السماء .. فكيف أعاقب عن جريمة لست مسؤولة عنها ؟ .. كيف أحترق بالنار لذنب لم أجنه ، ولمجرد أن السماء ظلمتنى فكان نصيبى منها عقلا قاصرا وارادة ضعيفة ؟ ! ..

لا .. ألف مرة لا .. لايمكن أن يكون هذا هو الله .. ان الله ليس فى حاجة الى امتحان الناس ، فهو يعرفهم منذ يخلقهم .. وهو أرحم بهم من أن يتركهم لمركة يتنازعهم فيها الخير والشر .. انه ليس كأباطرة الرومان الذين كانوا يطلقون الأسود على رعاياهم ليتسلوا بمناظر العراك بين الوحش والانسان ، وبرؤية الدماء تسيل على أرض الملعب.. انه الله .. الرؤوف الرحيم .. انه الحب وهو السلام .. ولابد ان هناك تفسيرا آخر له ، لابد ان هناك تفسيرا آخر للخير والشر.. وللجنة والنار .. ولمقاييس الحساب فى السماء ..

أم هل كفرت ؟..

انى أحس بوجيب قلبى يشتد ، وأحس كأن فى صدرى انسانة أخرى تلطم خديها وتصرخ وتولول كأنها تودعنى الى الجحيم ..

انى أكرر مرة ثانية : أستغفر الله العظيم .. أستغفر الله العظيم ..

وسيغفر الله لى حتما ، فهو يعلم انه لم يدفعنى الى كل هذا التساؤل والشك الا انى ضحية نفسى .. نفسى التى لاذنب لى فيها .. نفسى التى غلبتنى دائما ، ودفعتنى دائما الى الشر .. الى الخطيئة ..

نعم ياعزيزى احسان ، انى شريرة .. انى مدمنة شر !!..

ورغم ذلك فالشر لايبدو على وجهى .. انه وجه برىء كوجه طفلة لم يمتد بها العمر بعد حتى تقف على الأرض وتسير فى زحام الناس ويتعكر نقاؤها بضجيجهم .. وعيناى فى لون الزرع الأخضر وقد بلله الندى ، لاتلمح فيهما أبدا شيئا مما فى نفسى ، حتى عندما أبكى لا تعبران عن البكاء . انما تنسكب فوقهما الدموع كأن يدا غريبة تطوعت بغسلهما .. وفمى الصغير ترسمه شفتان مكتنزتان ، لم أشعر أبدا بحاجة لأن أصبغهما بالأحمر ، فهما دائما فى لون حبات الكريز — على حد تعبيرك فى احدى قصصك — حتى ليخيل اليك انك لا تكاد تلمسهما حتى يتفجر منهما الدم .. وشعرى أصفر كالذهب عيار ١٨ لا عيار ٢٤ فهو أصفر غامق ليست فيه هذه اللمعة الوهاجة ، وكأنه كنز ثمين تركته للصدأ ..

وهو شعر طويل أجمعه أحيانا فوق رأسي ، وأحيانا أدليه في ضفيرتين كأنهما سهمان من الذهب المجدول تشيران الى صدري .. والى قلبي !!..

وباختصار .. أنا جميلة .. واحدة من أجمل فتيات القاهرة ، وقد قلت لك اني تعودت أن أدير أعناق الرجال بما فيهم عنقك .. ولكني لست فخورة بجمالي ولست متباهية به .. فلم ينقذني الجمال من الشر ، بل ربما كان سببا من الأسباب التي تدفعني اليه . وكم تمنيت على الله الذي وهبني الجمال أن يسترده مني نظير أن يدلني على طريق الخير !..

انما وصفت لك نفسي لتعرف انه ليس في مظهري مايدلك على ما تحتمل به روحي ، وليس في وجهي ما يحذرك مني . انما فيه ما يجذبك الي ، وما يطمئنك ، بل قد تغرك مني سمات البراءة فتخاف علي من الناس ومن الدنيا .. وأنا لا أخاف الا من نفسي ، ولا أطلب الحماية الا من نفسي ..

ورغم ذلك فلا تتصور اني قتلت أو سرقت ، أو أن الشر الذي أحدثك عنه يتمثل في جريمة من الجرائم التي تنص عليها القانون وتعرض أمام المحاكم .. لا .. أبدا .. ولكن هل الشر كله قتل وسرقة ؟.. وهل استطاع القانون أن يحصر كل أنواع الجرائم ؟!

ان جرائمي كلها لم ينص عليها قانون الا قانون السماء . ولم تعرض على محاكم الا محكمة الضمير ..

ولأحدثك عن جريمة من جرائمي .

كنت فى الثانية عشرة من عمرى ، وكنت أعود من المدرسة مخترقة شوارع الدقى ، والخادم النوبى يتبعنى حاملا حقيبتى ..

ولاحظت فتى يقف على جانب الطريق وينظر الى فاغرا فاه كأنه المصعوق ..

انى ما زلت أذكره حتى اليوم .. كان فى حوالى السادسة عشرة من عمره طويلا . عريض الكتفين ، كأنه من أبطال الألعاب الرياضية فى مدرسته ، وكان وجهه أسمر قويا لم تستطع سمات القوة فيه أن تخفى طيبته وسذاجته .. بل ربما أوحى اليك بأنه ضعيف الذكاء .

وتكرر وقوفه على جانب الطريق فى موعد عودتى من المدرسة .. ودائما ينظر الى فاغرا فاه كالمصعوق .. وكنت فى هذه السن قد أحسست بجمالى ، وكنت أستطيع أن أفسر نظرة الفتى تفسيرها الصحيح .. فبدأت أبتسم بينى وبين نفسى كلما لمحته بطرف عينى واقفا مكانه ، وبدأت أتعمد أن أتثنى قليلا فى مشيتى عندما أمر من أمامه وأشيح عنه بوجهى فى حركة متعمدة لأشعره بأنى أحس بوجوده ..

وكنت أصل الى البيت فأفكر فيه ، ولكن تفكيرى بدأ يتخذ — دون تعمد منى — اتجاها خبيثا .. كنت كالطفلة التى تفكر فى تحطيم دميتها لسبب لا تدريه الا الرغبة فى التحطيم .. كنت أريد أن أراه محطما دون ذنب جناه ..

وانسقت انسياقا لاشعوريا فى تنفيذ الخطة الخبيثة ..

بدأت أبتسم له .. وبدأت أتباطأ فى مشيتى .. وتعمدت كلما مررت به أن أفتعل حديثا مع الخادم النوبى حتى أسمعه صوتى .. الى أن أفاق من الصاعقة التى تلم به كلما رآنى ، فبدأ يبتسم لى بدوره وبدأ يسير ورائى عدة خطوات . الى أن يلحظه الخادم النوبى فيبتعد ..

وعندما قدرت أن الخطة قد نضجت . وأن الساعة الحاسمة قد دنت .. خرجت من المدرسة وتعمدت أن أهرب من الخادم الذى ينتظرنى على الباب ، وسرت وحيدة الى البيت .. وعندما مررت أمامه ابتسمت له ابتسامة كبيرة .. أكبر من الابتسامة التى تعودت أن أوجهها اليه كل يوم ..

ولاحظ هو أن الخادم النوبى لايتبعنى فتبعنى ثم اقترب منى حتى أصبحت أسمع أنفاسه بأذنى .. وسمعت صوته لأول مرة :

— بونسوار ..

لم أتكلم وانما هززت رأسى فتأرجحت الضفيرتان خلف رأسى كأنهما تردان تحيته ..

وسكت كأنه يستجمع شجاعته ، ثم قال :

— أقدر أكلمك !!..

ولم أرد ، انما أسرعت الخطى ، وفى صدرى شعور خبيث جارف لا أدرى كنهه .. شعور فيه خوف ، وفيه لذة ، وفيه رهبة ، وفيه تردد .. كشعور المقامر وهو يقامر بكل مايملك..

وعاد يقول :

— تسمحى تقفى دقيقة واحدة ..

ولم أرد أيضا ، وأسرعت أكثر فى خطاى ، والشعور الخبيث اللذيذ يشتد فى صدرى ، وتشتد معه ضربات قلبى.

وبدأنا نقترب من بيتى ، وخفت أن يعدل عن متابعتى فالتفت اليه وابتسمت ابتسامة كبيرة أخرى ، ألصقته بخطاى. وسمعته يقول :

— وبعدين معاكى .. مالك بتمدى كده ليه .. شوية شوية حتجرى !!

وكنا قد أصبحنا أمام الباب .. باب بيتى .. وفجأة وبلا مقدمات استدرت اليه بكل جسمى وصرخت فى وجهه بكل غضب :

— أظن كفاية كده .. دى قلة أدب .. عايز منى ايه .. جاى ورايا ليه !!

وعاد الفتى ينظر الىّ كالمصعوق ..

وهبّ عم عثمان البواب على صوت صراخى وهرع الى جانبى . ثم نظر الى الفتى المصعوق وقدر الموقف حسب عقليته ، فمد يده ولكم الفتى فى صدره لكمة قوية ، وهو يصيح :

— يالله انجر من هنا ..

ولم يهن على الفتى أن يضربه البواب — خصـوصا أمامى — فرد له لكمته .. فاذا بعـم عثمان يصرخ صراخا رفيعا كأنه العويل ، واذا بكل بوابى وخدم المنازل المجاورة

يتجمعون وينهالون جميعا على الفتى ضربا وصفعا حتى وقع على الأرض .. ثم قام وأخذ يعدو بعيدا بكل قواه ..

ووقفت أنا عند الباب أشاهد كل ذلك ..

كانت خطتي قد نجحت وحطمت الدمية !!..

ولكن هل كنت سعيدة ؟

لقد فزعت وأنا أرى الفتى المسكين بين أيدي البوابين والخدم وكدت اصرخ فيهم وأندفع اليهم لأخلصه من بين ايديهم . . ولكن شيئا سمرني في الأرض وكتم صراخي . . وعندما استطعت أن أتحرك جريت الى غرفتي وانكفأت فوق الفراش وأخذت أبكي . بكيت كثيرا ورغم ذلك فلم تستطع الدموع أن ترحمني ولا أن تغسل جريمتي ..

ولم انم ليلتها ، وقضيت عدة ليال لا انام . . ظل قلبي منقبضا حتى يكاد في انقباضـــه يحبس الدم عن عروقي ، وظللت كلما تذكرت فعلتي هذه أحس بالخجل من نفسي ! . خجل مر جارح كأن سكينا يشق صدري ، حتى لأضطر ان افعل أي شيء .. أن أصرخ .. أن أتشاجر مع أحد من الخدم.. ان اكسر شيئا مما في البيت .. ان أضرب كلبي .. حتى أداري خجلي من نفسي ! ! .

لماذا ؟ ! ..

لماذا ارتكبت هذه الجريمة ؟ ! .. وما الذي دفعني اليها وأنا في هذا العمر الصغير ؟ ..

ولماذا لم يقف الله بجانبي ليحول بيني وبين الشر ؟ ..

أم هل كنت ضحية للشيطان ؟..

وما هو الشيطان ؟ ..

أليس هو مخلوقا من مخلوقات الله ؟ اذن .. ما هى حكمة الله فى أن يخلق مخلوقا يدفعنا الى الشر ؟ ..

واذا كان الشيطان ملاكا خرج عن طاعة الله ، فلماذا لم يعاقبه الله فيمحوه من الكون ويريحنا من شروره ؟ .. لماذا يتركه بيننا ثم يحاسبنا نحن البشر على ما يدفعنا اليه هـذا الشيطان من شرور ؟!

استغفر الله ، فلا بد أن له فى ذلك حكمة ..

وقد استغفرت الله كثيرا .. ولكن استغفارى له لم يحل بينى وبين الشر .

تعددت جرائمى ، وأصبحت كلما مشى بى العمر أتفنن فى وضع خطط معقدة أنفذها فى دقة .. ثم يحل بى عقب كل جريمة هذا الفزع الذى ينتابنى .. الفزع من نفسى .. وأقضى ليالى لا أنام ، يعذبنى خلالهـا قلبى المنقبض ، وضميرى الذليل ، وفكرى المعذب ، والخجل المر الجارح الذى يشق صدرى ..

وقد مضت عدة شهور قبل أن أتناسى هذه الجريمة التى حدثتك عنها ، وقد كانت جريمة صغيرة لم تترك وراءها من آثار الا أن أبى صمم على أن أذهب الى المدرسة وأعود منها فى سيارة ، رغم قرب المسافة بينها وبين البيت ..

ولكنى أذكر جريمة أكبر من هذه ..

كنت قد أصبحت فى الرابعة عشرة من عمرى ، وكانت لى زميلة فى المدرسة أكبر منى سنا ، ولعلها كانت فى السادسة عشرة واسمها كوثر !!

لم تكن كوثر صديقتى . ولكنى كنت أعجب بها .. كانت سمراء جميلة ، رقيقة ، هادئة ، طيبة .. تمشى كأنها تسبح فى الفضاء ، وتتكلم كأنها تترنم بنغم جميل ، وتبتسم كأنها تشرق ، وتسدل شعرها الأسود الطويل خلف ظهرها كأنها ملاك يحتمى بالليل من النهار ..

كان كل البنات يحببنها .. وكنت أنا أيضاً أكاد أحبها ..

وفى فترة أجازة الصيف التقيت بكوثر على شاطىء سيدى بشر بالاسكندرية ولم يدر بيننا أكثر من تحية عابرة نتبادلها كل صباح أثناء سيرنا على الشاطىء .. ثم مرت أيام لاحظت بعدها أن ابن خالى .. مدحت .. يتبعها اينما سارت.. ثم يقضى اليوم تحت « الشمسية » أمام « كابينتها » .. ولا ينتقل من تحت الشمسية الا اذا انتقلت كوثر من « الكابين » !! ..

وكان من السهل على أن ألحظ انه قد نشأ بينهما حب .. هذا النوع من الحب العف البرىء الذى ينشأ بين فتاة قد أحكم أهلها رقابتها ، وشاب قوى الخلق سليم الغرض .. حب لا يتجاوز عادة كلمات يتبادلها الاثنان خلسة وراء « الكابين » وبعيدا عن أعين الأهل .

ولم يطلعنى ابن خالى على حبه .. انما أصبح كثير

الاهتمام بى ، يدعونى الى أن أجلس معه تحت الشمسية .
ويحدثنى حديثا طويلا ينتهى به الى مدرستى والى زميلاتى..
وكان يعلم ان كوثر زميلتى وكان يريدنى أن أتحدث عنها ،
ولكنى كنت أتجاهل هدفه ، وكنت أصمت .. وعندما تقرأ
قصتى ستعلم انى أجيد الصمت !!

وكذلك كوثر أصبحت تهتم بى..أصبحت تبذل مجهودا
كبيرا لمصادقتى ، وكانت تصمم على أن تدعونى الى كابينتها
وتقدم لى المثلجات .. ولكنى — وبلا تعمد — كنت أصد
محاولاتها وأتجاهل صداقتها التى تعرضها على .

وبدأ الشعور الخبيث يزحف على صدرى ..

بدأت أحس بالرغبة البشعة فى تحطيم الدمية .. وكانت
أمامى دميتان لأحطمهما ! ..

ترى ما الذى يدفع الطفل الى تحطيم الدمى ! ..

وأقسم لك انى قاومت هذا الشعور وهذه الرغبة بعنف..
بكل ارادتى وبكل أعصابى .. فلم يكن هناك أى دافع معقول
يثيرنى على هذا الحب العف البرىء .. كنت أحب ابن خالى
كأخ لى وأتمنى له الهناء ، وكنت أكاد أحب كوثر وأتمنى لها
هى أيضا الهناء .. لم يكن هناك داع لأن أحقد عليهما أو أغار
منهما أو أخاف على ابن خالى منها أو أخاف عليها من ابن
خالى .. فلماذا أفكر فى تحطيمهما ؟ .. لماذا أرتكب جريمة
فى حقهما ؟! .

ونجحت فى التغلب على شعورى الخبيث طوال فترة

الصيف . كل ما فعلته انى كنت أتعمد أن أبدو مع ابن خالى كثيرا ، وان أجلس معه طويلا تحت « الشمسية » ، وقد أتمادى قليلا فى مداعبته ، خصوصا عندما تكون كوثر أمامنا جالسة فى « الكابين » ولم يكن ذلك — حتى هذا الوقت — يدخل ضمن أى خطة موضوعة !! .

وعدنا الى القاهرة ، والى المدرسة . وفوجئت بكثير من الطالبات يتحدثن عن حب كوثر .. حبها لابن خالى مدحت !

تجاهلت هذه الأحاديث .. لم أشترك فيها ، ولم أدع أحدا يتبادلها معى .. انما بدأت هذه الأحاديث تذكى الشعور الخبيث فى صدرى ، وبدأت الرغبة فى التحطيم تستبد بى ، وأصبحت كلما لجأت الى فراشى لا أنام .. انما أفكر .. وأفكر .. الى أن وضعت خطة .. وبدأت تنفيذها .. وبدأت أتلذذ بشعورى ، أتلذذ بالخوف والرهبة ، والتردد .. لذة امتحان الذكاء .. لذة النشوة بالأمل المرتقب .. لذة المقامر وهو يقامر بكل ماله !! ..

وكانت لى صديقة من بنات الجيران وليست من طالبات المدرسة اتفقت معها ولقنتها الخطة .

وطلبت نمرة تليفون مدحت وعندما سمعت صوته أعطيت السماعة لصديقتى التى قالت وهى تفتعل اللهفة والخوف كأن أحدا يراقبها ، بينما أذنى بجانب أذنها فوق السماعة :

— ألو .. مدحت .. أزيك يا مدحت .

ورد مدحت :

— ازيك يا افندم .. ؟ ..

وقالت صديقتي :

— مش عارفني يا مدحت .. أنا كوثر !!..

وهتف مدحت في صــوت مرتعش كأن قلبه قد تعلق بسلك التليفون :

— كوثر !! أنا كنت محتار أشــوفك ازاى وأكلمك ازاى ، من يوم ما ..

وقاطعته صديقتي في صوت كوثر :

— أنا مش حاقدر أكلمك دلوقت .. أوريفوار ..

وهتف كأنه يتعلق بها :

— بس اسمعى يا كوثر ..

وقالت صديقتي على عجل :

— بعدين .. بعدين يا مدحت !! ..

ثم أعادت السماعة مكانها ..

وابتســمت أنا في نشوة .. نشوة الذكاء ! ..

وبعد يومين حادثنا مدحت مرة أخرى — صديقتي وأنا — وتكلمت صديقتي — على أنها كوثر — بنفس الصوت الخائف كأن أحدا يراقبها وكأنها على عجل :

— اسمع يا مدحت فوت بكره من قدام المدرسة واحنا خارجين ، علشان أشوفك .. أوريفوار !!

ولم أمكن المسكين من أن يتحدث كلمة واحدة !!

وفى اليوم التالى ذهبت الى المدرسة ، وأنا أفتعل الشرود والحيرة والحزن ، ثم تأبطت ذراع احدى زميلاتى ، وانتحيت بها جانبا ، وقلت لها بهمس :

— أقــدر أقول لك سر .. بس تحلفى وحيــاة مامتك ماتقوليش لحد !!

والتمعت عينا زميلتى غبطة .. فان واحدة من الزميلات لم تكن تعلم عنى سرا .. وكان جمالى — ولا أغالى اذا قلت انى كنت أجمل من فى المدرسة — يدفع الطالبات الى اكتساب صداقتى والى معرفة أسرارى ، ولكنى كنت أحيرهن ولا أقول لهن شيئا .. كنت اتلذذ بأن أبدو أمامهن سرا مغلقا !!.

وقالت زميلتى :

— وحياة ماما .. وحياة ماما .. ما حاقول لحد ..

قلت لها وأنا أفتعل التردد والخجل :

— أصل ابن خالى حيفوت على النهارده بالعربية قدام باب المدرسة .. وعايزاكى تلخمى « أبله زينب » المشرفة لغاية ما أكلمه كلمتين ..

وفغرت الزميلة فاها دهشة ، ثم صاحت :

— ابن خالك .. مدحت !؟..

— أيوه ..

— انت بتحبيه !؟..

— من فضلك .. هو اللى بيحبنى !!

— طيب وما تكلمهش فى بيتكم ليه ؟

— بعدين أقول لك ..

— بس قوليلى يا نادية علشان أفهم ، وأقـدر أسبك الحكاية معاكى . .

— أصله ياستى جه يخطبنى ، وبابا مرضيش الا بعد ما يخلص الجامعة وأكون أنا بأه عندى ستاشر سنة .. ومن يومها ما بيجيش البيت ..

واتسعت عينا زميلتى حتى بدت كالعبيطة ، ثم قالت فى لجلجة :

— لكن .. لكن ..

ثم سكتت ..

وقلت وأنا أعلم ما تريد قوله :

— لكن ايه ؟!..

— ولا حاجة !!.

ولست فى حاجة الى أن أقول لك ان « السر » قد ذاع بين الطالبات فى نفس اليوم ، حتى وصل الى كوثر ..

ورأيتها من بعيد مهمومة تعسة .. كأنها كبرت مائة عام!!

وخرجنا من المدرسة ..

ومثلت دور الحائرة المرتبكة وأخذت ألتفت حولى حتى رأيت ابن خالى فى سيارته ، فنظرت الى زميلتى كأنى أستنجد بها واستنجزها وعدها .. وفعلا بدأت الزميلة تشغل « أبله زينب » بالحديث بينما الطـالبات يتجمعن فى سـيارات المدرسة ..

وخطوت أنا الى سيارة ابن خالي وأخذت أحدثه في لهفة وعجلة كأني أرتكب اثما .. كنت أسأله عن « طنط » وعن اخوته وعن خالي في لهجة أقرب الى مطارحات الغرام .. وكان يجيبني في اقتضاب ، وهو يدور بعينيه في خجل وتردد باحثا عن كوثر . وكنت أحرك رأسي أمام اتجاهات عينيه حتى لا يراها !

وتركت ابن خالي وعدت وركبت في سيارة المدرسة ، وأنا أدعي الحياء والارتباك ..

واستقبلتني الطالبات بالتغامز والابتسام ، ما عدا كوثر فقد كانت صامتة منزوية ، وكان وجهها ممتقعا . كأنما امتصصت دماءها كلها !!

وجاءت زميلتي تسألني في لهفة :

— قال لك ايه ؟ ..

قلت هامسة :

— حب يقابلني بره ، مارضيتش !..

وابتسمت بيني وبين نفسي .. أحسست بنشوة خبيثة .. نشوة الغرور بذكائي !!..

واستطعت بعد ذلك أن أجعل ابن خالي ينتظر أمام باب المدرسة مرتين .. وفي كل مرة كنت أمثل نفس الدور ، وأمتص مزيدا من دماء كوثر !!..

ثم انتقلت الى الحلقة الثانية من الخطة .. كأنه لم تكفني الحلقة الأولى !!..

انقطعت أياما عن الاتصال بابن خالي بالتليفون — باسم كوثر — ثم عدت واتصلت به بواسطة جارتي العزيزة ، وسمعته يقول كأن قلبه ينفطر من الشوق :

— انتي فين ياكوثر .. شغلتيني عليكي لدرجة اني دورت على نمرتكم في الدفتر لغاية ما لقيتها وكل ما أضربلك يرد على صوت تاني ، أروح قافل السكة .. كنتي فين ؟!..

وأجابت صديقتي كما لقنتها :

— ما قدرتش يا مدحت .. ما قدرتش أكلمك أبدا .. أصل التليفون في أودة المكتب وبابا قاعد فيها ليل ونهار ..

وقال مدحت كأنه يبحث عن طريق الخلاص :

— وبعدين .. حنفضل كده على طول .. ده أنا بقالي جمعتين حابس نفسي جنب التليفون !!..

وقالت صديقتي وهي تدعي العجلة :

— اسمع يا مدحت .. ابعت لي جواب على شباك البوستة ، وأنا حارد عليك .. ما فيش طريقة غير كده .. اوريفوار بأه !.

— استني بس ياكوثر ..

— ما أقدرش .. أنا سامعه رجلين بابا .. اوريفوار !!..

وبعد يومين ذهبت الى مكتب البريد واستلمت خطاب مدحت .. وفتحته وقرأته .. وأحسست بقلبي يغوص في صدري كأنه يتوارى مني .. أحسست بضلوعي تنطبق وتكاد تنغرز في لحمي . كان خطابا رقيقا أنيقا عفا ، فيه حنين ، وفيه

حب ، وفيه عذاب تحبسه الكبرياء ، كدموع الرجل لاتنطلق ولكنها تلمع فى عينيه ..

ولم أنم ..

بت ليلتى على فراش من الجمر .. أحاول أن أهرب من نفسى فلا أستطيع ، وأحاول أن أتنصل من جرمى فيزداد التصاقا بى كأن رأسى يلتهب ، وضميرى يصرخ ويكاد صراخه يمزق جسدى ..

لقد تعذبت ليلتها يا احسان .. تعذبت كثيرا ..

وقررت مع الصباح أن أعدل عن كل هذا .. أن أعدل عن اتمام هذه الجريمة البشعة !!..

ولكنى ما كدت أرى نفسى بين الطالبات حتى عاد الشعور الخبيث يجتاحنى .. كالجندى عندما يجد نفسه وسط ميدان المعركة فتستبد به شهوة القتل .. حتى لو قتل ابن خاله !!..

وتذكرت ضحكاتى مع جارتى ونحن نسخر من العاشقين ..

وتذكرت همسات الطالبات حول خطوبتى المزعومة الى مدحت ..

وتذكرت نشوتى بذكائى وأنا أرى خطتى تنتصر ..

واذا بى أندفع فى تمثيل المسرحية التى بدأتها .. فأتعمد أن أجلس فى مكان منزو من حوش المدرسة ثم آخذ فى قراءة خطاب مدحت ، وأتنهد فى افتعال .. حتى أكاد أتنهد بصوت مسموع !

وتأتى احدى الزميلات وتسألنى عن أمر الخطاب ، فأحاول أن أخفيه عنها . وترجونى وتستحلفنى .. الى أن أطلعها على جزء منه بعد أن أطوى الجزء الذى يحمل كلمة : « حبيبتى كوثر » !!

ويذاع أمر الخطاب بين الطالبات .. وتأتى كل منهن لتطلع عليه .. وألمح كوثر من بعيد وقد ازدادت امتقاعا حتى كأنه لم يعد فيها مزيد من الدم لأمتصه !!..

وأندفع فى نشوتى ..

فأعود الى البيت وأستدعى صديقتى ونجلس سويا لكتب خطابا لمدحت ونوقعه باسم « كوثر » .. كنا نضحك عند كل كلمة نكتبها . وكنا نلجأ الى القصص والمجلات لنختار من بينها عبارات الحب والهيام .. الى أن صنعنا خطابا محشوا بكلمات الحب الضخمة المفتعلة ، وأرسلته الى مدحت ..

واستلمت الرد بعد أيام .. وعدت أتنهد بصوت مسموع فى فناء المدرسة !!..

وأخيرا اقتنعت بأنى حطمت الدمية .

حطمت الحب العف البرىء الذى نشأ بين زميلتى وابن خالى وكان يمكن أن يعيش الى الأبد !!..

وكنت فى الوقت نفسه قد سئمت هذه اللعبة .. سئمت الاتصال التليفونى بابن خالى ، وكتابة الخطابات الغرامية له، وتمثيل دور العاشقة ..

ومضت أسابيع ، لم أفعل فيها شيئا .. الا انى كنت أحس بالضيق ، وبصراخ ضميرى كلما رأيت كوثر ..

كانت قد ذبلت حتى برزت عظام وجهها من تحت وجنتيها. ولم تعد رقيقة ولا هادئة .. انما كانت دائما عصبية خشنة تتشاجر مع الزميلات بسبب وبغير سبب ، ثم تنزوى وحيدة تفكر كأنها تهضم آلامها .. ثم بدأت تمرض ، وبدأت تغيب عن المدرسة أياما وتعود أياما ..

وكنت دائما أحاول أن أقنع نفسى بأن ليس لى يد فيما ألم بها . وانى لم أفعل الا «مقلبا» صغيرا من مقالب الزميلات بعضهن لبعض .. ولكنى لم أقتنع ..

وبدأت لا أنام ..

الى أن جاءنى ابن خالى يوما .. وكان هو أيضا ذابلا تعسا كشجرة تفاح أصابها العطب .. واختلى بى فى ركن من البيت وقال هامسا كأنه لا يقوى على حمل أنفاسه :

— أنا حاطلب منك حاجة ياناديه ، عمرى ما طلبتها من حد أبدا ..

وفتحت عينى فى براءة كأنى دهشة بينما قلبى يتقطر أسى ، وقلت :

— ايه يا ترى ؟!..

وقال مدحت وهو لا يزال يهمس :

— حاجة مهمة جدا .. سعادتى كلها متوقفة عليها .. ولولا كده ما كنتش طلبتها منك ..

قلت وأنا لا أزال أدعى الدهشة :

— ايه بس !!..

قال وقد بدأت شفتاه ترتعشان :

— تعرف كوثر زميلتكم فى المدرسة ؟

قلت كأنى أتذكر :

— أيوه ..

قال وهو يخرج من جيبه خطابا :

— اديها الجواب ده ..

قلت وقد ارتبكت :

— بس مش أعرف ..؟

وقاطعنى :

— ما تسألينيش عن حاجـة . أرجوكى يابنت خالى ما تسألنيش !!..

ثم ابتعد كالطيف النحيف ..

وتركنى مبهوتة تكاد أنفاسى تختنق فى صدرى ..

ماذا أفعل بهذا الخطاب ؟..

لم تكن أمامى خطة لأضعها .. لم يكن أمامى الا أن أكذب ، أو أقول الصدق !!..

لماذا لا أقول الصدق ؟ ..

لماذا لا أعترف لابن خالى ولكوثر بجريمتى وأنقذ حبهما الجميل .. بل أنقذ مستقبلهما !؟!..

لم أستطع ..

لم أقو على الاعتراف ..

وقضيت ليلتى أتعذب .. ولا أنام !

وفى اليوم التالى ذهبت الى المدرسة وفى جيبى الخطاب .. ولم أكن فى حاجة الى أن أدعى الشرود والارتباك ، فقد كنت فعلا شاردة مرتبكة تمزقنى الحيرة بين نفسى الشريرة الجبانة ، وضميرى الصاحى الذى لا ينام ..

كان ضميرى يتغلب أحيانا فأكاد أتقدم الى كوثر لأعترف لها وأسلمها الخطاب ، ولكن نفسى الشريرة لا تلبث أن تغلبه فأعود وأحجم عن الاعتراف .

وانتهى اليوم ..

وعدت الى بيتى لأجد ابن خالى فى انتظارى واللهفة ترتسم فى عينيه ..

وقلت له قبل أن يسألنى وأنا أهرب بعينى من عينيه :

— كوثر مارضيتش تاخد الجواب .. وقالتلى انها اتخطبت ..

وكأنى طعنته بسكين ..

لقد بهت لون وجهه حتى أصبح فى لون الفراغ ، وارتعشت شفتاه حتى خلت انهما تتساقطان عن فمه ، وزاغت عيناه حتى كأنه لم يعد يرى ..

ومد يده وأخذ منى الخطاب ، وهو يقول فى صوت ضعيف مبحوح كأنه الحشرجة :

— مرسى .. أنا آسف قوى .. آسف يا نادية !!

وتركنى ...

وأقسم لك أن ما حل بمدحت وكوثر حل بى منذ ذلك اليوم . فلم أعد آكل ولا أضحك ولا أنام ولا أتذوق الحياة.. وهزلت ونحل عودى وامتقع لونى وبدأ أبى يطوف بى على الأطباء ..

كنت أحس كأن مسام جسدى كلها تتفصد بجريمتى .. وكنت أحس كأن ضربات رئتى قرعات فوق طبل أجوف فى موكب جنائزى .. وكنت أحس بنبضات قلبى كأنها قبضة يد فوق عنقى تنطبق وتنفرج ..

نعم .. تعذبت كثيرا ولأيام طويلة .

ولست بحاجة لأن أقول لك ماذا حدث بعد ذلك .. لقد خطبت كوثر فى الصيف التالى وكأنها انتحرت ، فقد كان خطيبها أبعد انسان يمكن أن يحقق آمالها وأحلامها .. أما مدحت فقد ترك أمره للزمن ليرتق قلبه بخيوط النسيان .. أما أنا فقد ظلت هذه الجريمة كالبقعة السوداء فى ثوبى الداخلى .. أراها كل مساء وأنا أخلع ثيابى عن نفسى ، وأتذكرها كلما التقيت بمدحت وأتساءل : « هل كان يمكن أن يكون مدحت زوجا لكوثر ، وأنا التى هدمت عش أحلامهما » ؟ !

ترى ما الذى يدفع الطفل الى أن يتسلق الشجرة ليهدم عش العصفور ، ثم يبكى اذا مات العصفور ؟ ! .

ما الذى يدفعه الى ارتكاب هذا الجرم ؟ ..

ثم ما الذى يدفعه الى الندم ؟.

أجبنى ..

ولكنك لن تستطيع أن تجيبنى الا اذا عرفتنى وعرفت قصتى .

وربما - بعد أن تعرف قصتى -- ستعرف أن الوقت قد فات ، وأنك لن تستطيع أن تسعفنى برأيك ، ولا أن تمد يدك لتنقذ ما بقى منى .

فقط ، دعنى أكتب اليك لأزيح الثقل عن صدرى ، لعلى أرتاح .. ولعلى بعد ذلك أستطيع أن أنام ..



- ٢ -

من أين أبدأ قصتى ؟..

انى حائرة .. فكل يوم من أيامى هو بداية للقصة ، وكل يوم نهاية لها .. ولكنى أذكر يوما بالذات لا أستطيع أن أنساه .. يوما أحسست فيه أن حياتى بدأت تتحرك بعنف .. أحسست أن الأحداث تدفعنى بعد أن كنت أنا التى تدفع الأحداث ، وانى لم أعد أملك الدنيا ، ولكن الدنيا أصبحت تملكنى ...

كنت قد بلغت السادسة عشرة من عمرى وكنت قد انتهيت من طواف بعديد من المدارس العربية والانجليزية والفرنسية ، الى مدرسة « مدام اورلى » بالمعادى .. طالبة فى القسم الداخلى .

وجاء أبى الى المدرسة بعد ظهر أحد الأيام .. وأذكر أنه كان يوم ثلاثاء .. واستأذن مديرة المدرسة فى أن يصحبنى الى البيت ..

كان يبدو عليه الارتباك ، وكان وجهه محتقنا حتى تعمدت أن أشم فمه وهو يقبلنى لأتأكد من أنه لم يشرب خمرا فى يومه قد تكون السبب فى احتقان وجهه .. كان كأنه يعانى أزمة حياء ، أو أنه يخفى فى صدره شيئا لا يدرى كيف يبوح به ، وكيف ينفض عبأه ..

وسرت بجانبه صامتة وهو صامت ، الى أن خرجنا من المدرسة وركبنا السيارة .. هو فى مقعد القيادة وأنا الى جانبه ، وتحركت بنا السيارة صوب القاهرة وكلانا لا يزال صـامتا .

وحاولت أن أقطع هذا الصمت ، أو حاولت أن أشجعه على الكلام ، فسألته عن « دادا حليمة » فأجاب باقتضاب وعلى شفتيه ابتسامة لا معنى لها :

— كويسة !!..

وعدت أسأله عن عبده السفرجى ، فأجاب بنفس الاقتضاب ونفس الابتسامة :

— كويس !!..

وسألته مرة ثالثة عن أخبار العزبة فلم تتغير لهجته ، وأجاب :

— الحمد لله !!..

وأخيرا قررت أن أصمت ، واستدرت الى نافذة السيارة أتلهى بمناظر الطريق .. الى أن سمعته يتنحنح كأنه يستجمع ارادته ليتكلم ، ثم سمعته يتنحنح مرة ثانية ، ثم سمعته يقول :

— تعرفى يا نادية .. انا مش عاجبانى عيشتك فى المدرسة الداخلية دى !!..

والتفت اليه .. ولم يكن ينظر الى ، انما كان يقود السيارة

وعيناه تائهتان كأنه ينظر بهما الى ما فى نفســه ، لا الى الطريق ..

وقلت وأنا أقترب منه وقد تيقظ اهتمامى :

— ليه يا بابا .. دى مدرسة كويسة !!..

قال وهو لا يزال يهرب بعينيه منى :

— ولو .. مهما كانت كويسة ، ما كنتش أحب أن بنتى تتربى فى مدارس داخلية .. وانتى عارفة انى ما دخلتكيش داخلية الا غصب عنى .. ماكنش ممكن بعد ما بقيتى فى السن ده انك تقعدى معايا لوحــدى .. وتعيشى فى بيت مافهش واحدة ست تاخد بالها منك ..

وسكت قليلا كأنه يستريح وقلت :

— البركة فى دادا حليمة .. دى واقه بتحبنى زى ماما وأكتر .

قال وعيناه معلقتان أمامه :

— برضه اسـمها خدامة .. مش ممكن تعرف تعمل منك واحدة ست ..

والتفت الى لفتة سريعة ثم عاد ينظر أمامه ، واستطرد فى صوت حنون كأن قلبه بين شفتيه :

— أنا طول عمرى عايش مشغول عليكى .. حاجات كتير فى حياتك كنت أحب أطمئن عليها وماكنتش أقدر ، لأنى ماكنتش عارف أكلمك فيها ازاى . وأسألك عنها ازاى .. حاجات مش ممكن تكلمك عنها الا واحدة ست .. ويوم

ما حطيتك فى المدرسة الداخلية ابتديت أنشغل عليكى أكتر .. كنت أقعد طول الليـل أسـأل نفسى : يا ترى نامت ولا مانامتش .. ياترى اتعشيت ولا ما اتعشتش .. ياترى مبسوطة ولا زعلانة .. بقيت زى المجنون ، وكنتى دايما وحشانى . كنت اتعودت أصبح بيكى كل يوم ، وأبوسك كل ما أرجع البيت .. حسيت ان الدنيا كلها بقت فاضية ، وكرهت البيت ، وكرهت العزبة .. وابتديت أشرب أكتر .. شرب من غير طعم .. وكل ما أفكر أطلعك من الداخليـة وأرجعك البيت أخاف عليكى من عيشتك معايا .. من عيشتك فى بيت راجل عازب .. بيت ما فهش واحدة ست !!

ولم أتأثر بهذا الحنان الذى يفيض به كلام أبى ، انما احسست أنه يرمى الى شىء لم يقله بعد .. شىء انقبض له صدرى ..

وقلت ، والكلام يجف فوق شفتى :

— انما أنا عمرى ما اشتكيت من حاجة يا بابا .. عمرى ما حسيت انى محرومة من حاجة .. ولما كنت بتوحشنى وأنا فى المدرسة كنت عارفة ان كل حاجة بتعملها لمصلحتى ..

وأوقف أبى السيارة على جانب طريق المعادى فى ظل شجرة ضخمة ، واستدار الى بجسمه ، وأخذ يداعب ضفيرتى — كعادته — ثم حاول أن يبتسم ابتسامة كبيرة ، وقال وهو ينظر فى عينى نظرة مسكينة كأنه يستجدينى :

— مصلحتك ومصلحتى اننا نقعد مع بعض على طول..

ده أنا يوم ما حتتجوزى حاشترط على جوزك انه يتجوزنا احنا الاتنين ..

وحاول أن يضحك ، ولكن ضحكته سقطت جوفاء كأنها سقطت فى بئر ضحلة ..

وحاولت أنا أيضا أن أضحك ، ولكنى لم أستطع حتى أن أزور ضحكة .. كان قلبى قد بدأ يزداد انقباضا ، وكان كل شىء فىّ يرتجف كأنى واقفة على حافة هاوية وأخاف من يدفعنى اليها .

وصمت أبى ريثما ازدرد ضحكته ، ثم قال وهو يضع يده على كتفى فى حنان ويحاول أن يقربنى منه :

— ما كانش فيه طريقة انك تعدى معايا وأنا مطمئن عليكى ، الا انى أتجوز .

واتسعت عيناى كأنى رأيت شبحا ، وقلت أقاطعه وكأنى أصرخ :

— اتجوزت ؟! .

قال وهو يخفى عينيه عنى :

— أيوه يا نادية .. أنا بقالى أربعتاشر سنة عايش من غير جواز علشان خاطرك .. انما كان لازم أتجوز دلوقت علشان خاطرك برضه ..

قلت وأنا أكاد أبكى :

— مرسى ..

قال :

— ما كانش ليه شرط فى الست اللى أتجوزها الا انها تقدر تاخد بالها منك ، وتعتنى بشبابك .. وتساعدنى فى اسعادك .. ولقيتها .. وأنا واثق انك حتحبيها ..

قلت فى لهجة أقرب الى التهكم :

— المهم انك انت اللى تحبها ..

قال ورنة الاخلاص فى صوته :

— اذا حبتيها حاحبها أنا كمان ..

قلت وكأنى أتكلم فى صمت :

— مبروك !!

قال وهو يشدنى من ضفيرتى :

— مبروك كده حاف !؟.

واقتربت منه لأقبله .. وأنا أقول :

— المهم عندى سعادتك يابابا ..

قال وهو يعانى حرجا شديدا :

— مرسى ..

وسكتنا نحن الاثنين ، وعادت السيارة تتحرك بنا نحو القاهرة .

ولم أستطع أن أفسر شعورى فى ذلك اليوم .. ربما احتدم ساعتها صراع بين عاطفتى وعقلى .. عاطفتى تنكمش وتتلوى كأنها مست بقضيب محمى فى النار .. وعقلى يسخر من عاطفتى ويناقشها فى الحاح ويتهمها بالأنانية والجحود .. وكان يجب أن أنزل على حكم العقل .. فأبى لم يكن

يتجاوز التاسعة والثلاثين من عمره .. كان شابا .. وكان من حقه أن يتزوج .. بل انى ساءلت نفسى أكثر من مرة : لماذا لا يتزوج .. وكنت كلما رأيت سـيدة جميـلة أتصورها زوجة له ..

ولكنك لا تعرف ما كان بينى وبين أبى .. لا تعرف أنى لم أكن له مجرد ابنة ؛ بل كان لى عليه كل حقوق الزوجة ..

لقد تفتح وعيى وأمى مطلقة .. كانت قد طلقت وعمرى لايتجاوز العامين ، وتزوجت من آخر ، وتركتنى لأبى ..

ولا أدرى لماذا طلقت أمى ، ولا لماذا تركتنى لأبى وأنا فى هذه السن الصغيرة !!.

لماذا تخلت عن حضانتى .. وتنازلت عن حقها فيّ .. وحرمتنى من حقى فيها ؟

لست أدرى .. فقد كان أبى وأمى كلاهما يتحفظ فى رواية قصة طلاقهما ، وكان أفراد العائلة يتبادلون النظرات المريبة كلما جاء ذكر هذا الطلاق أمامى ، وكنت أنا قد نشأت وقصة هذا الطلاق ملقاة وراء ظهرى ، لا أفكر فيها الا نادرا وفى فترات متباعدة .. فاذا ما فكرت فيها أحسست انى تائهة وسط ضباب كثيف ، أو انى أمام صندوق مغلق ملقى فى البيت .. ولا أملك مفتاحه !!

كل ما علمته ان أبى تزوج أمى عن حب .. وان حبهما وزواجهما أثارا ضجة وسط العائلتين، وكلتا العائلتين عارضت فى الحب وعارضت فى الزواج .. حتى اضطرا — أبى وأمى —

أن يهربا ويتزوجا ، ويضعا العائلتين أمام الأمر الواقع .. وكان أبي أيامها في الثالثة والعشرين من عمره ، وأمي لا تتجاوز السابعة عشرة ..

ولكن هذا الحب العنيف لم يستطع أن يحمي الزواج، فانفض بعد ثلاث سنوات بالطلاق .. ولم يبق من آثاره سواي !!..

وقد نشأت وأنا أحمل أمي مسؤولية فشل زواجها بأبي، ولا أدري لماذا .. ربما لأني كنت ملتصقة بأبي أكثر من التصاقي بها .. ولأني كنت أحس بأني مسئولة عن الدفاع عن أبي وعن تصرفاته حتى لو كان ضمن هذه التصرفات طلاق أمي .

وقد وهب أبي حياته كلها لي ..

كان يشرف بنفسه على كل دقيقة من عمري .. كان يراقب بنفسه مواعيد تناولي الطعام ثم يجلس معي الى أن أفرغ منه ، وكان يدخل بي الى الحمام ويغسلني بيديه ، وكان يشتري لي ثيابي ، ويقيم الليل بجانب فراشي اذا مرضت ، ويقرأ دائما كتب الأطفال ليروي لي منها القصص ، ويقرأ كتب التربية والطب ليتعلم كيف يربيني وكيف يعتني بي .. وهي كتب لا يزال يحتفظ بها في مكتبته حتى اليوم ..

ولم يكن يكتفي أبدا بالمربيات الأجنبيات اللاتي يستأجرهن ، بل كانت كل منهن لا تحتمل ولا تطيق شدة اهتمامه بي فتهجر البيت لتحل أخرى محلها .. وكان كل

ذلك على حساب شبابه .. لقد باعني هذا الشباب فلم يمتع به نفسه .. لم أعرف عنه انه تغيب يوما عن موعد الغداء ، أو أنه تأخر عن العودة الى البيت فى المساء قبل أن أنام .. ولم أعرف عنه ان فى حياته امرأة .. كل ما كنت أعرفه عنه انه تعود أن يشرب ثلاث كئوس من الويسكي كل ليلة .. يشربها فى البيت وهو جالس يقرأ أو يستمع الى الراديو أو الى « الريكوردر » ..

وكان أول ما تفتح عليه احساسي بعد أن تعديت دور الطفولة هو انه ليس فى الحياة الا أبى ، وليس له الا أنا ..

ثم بدأت أحس بوضعى فى البيت .. أحس بأنى « السيدة » الوحيدة فيه . وكان بيتا كبيرا فى الدقى مكونا من طابقين ، ذا حديقة كبيرة ، تملكه العائلة .. وكنت أنا وأبى نقيم فى الدور الأول ، ويقيم عمى فى الدور الثانى .. وهو عم أعزب ، لم يتزوج فى حياته انما عرف عنه كثرة مغامراته النسائية .. وكانت شخصيته تختلف اختلافا كبيرا عن شخصية أبى ، كان أكبر منه بعام واحد ، وكان فنانا يهوى الرسم بالزيت ، وكان بوهيميا فى حياته ، يسخر من كل شىء حوله ، ويتكلم كثيرا ، ويضحك كثيرا ، ولا يحمل هما ، ولا يعبأ بشىء ، ولا يبقى على شىء ..

لم يكن يشترك مع أبى الا فى حبى .. كان يحبنى ، ولكن مظاهر حبه كانت تختلف عن مظاهر حب أبى .. فلم يكن فى حبه يتحمل مسئوليتى ، انما يدللنى كثيرا ويغرقنى

دائما فى فيض من الهدايا والقبلات .. وكنت أحبه ، وأميل الى مرحه ومداعباته ولكنى لم أكن أقدره تقديرى لأبى .. كان أبي هو مثلى الأعلى فى الرجال ، بجده ووقاره ، وكان عمى فى نظرى شابا عابثا ، ولكنه لا يصلح أبا لى ولا لأى فتاة أخرى ..

وعندما تقدم بى العمر ، وأصبحت فى الثامنة أو التاسعة من عمرى ، بدأت أعتبر نفسى مسئولة عن هذا البيت الكبير بمن فيه ..

وقد اتخذت هذه المسئولية مظهرا أكبر من سنى .. كنت أتعمد أن أبدو جادة أمام الخدم .. حتى عندما جاءت الينا « دادا حليمة » وأصبحت بمثابة أمى .. كنت دائما أضع بينى وبينها حجابا ، وأشعرها انى السيدة وهى الخادمة ، فلم أكن أسمح لها بتقبيلى ، ولم أكن أسمح لها بأن تجلس بجانبى ، انما تجلس دائما على الأرض تحت قدمى وهى تروى لى القصص وأخبار الجيران ، ولم أكن أسمح حتى بأن تناديني باسمى مجردا ..

وأذكر انها قالت لى يوما ضمن حديثها :

— يا نادية يابنتى .. مش كده ..

فنظرت اليها نظرة عنيفة وقلت فى جفاف :

— من فضلك يادادا .. أنا مش بنتك !!..

وأحسستْ بالصدمة تكاد تخلع قلبها .. ولكنها حنت رأسها وقالت فى ذل :

— أصلى ياست نادية كنت عايزة أقول ...

وأكملت حديثها ..

وقد بدأت أتلذذ بهذه المسئولية وهذه السلطات التى منحتها لنفسى فى البيت ، والتى شجعنى عليها أبى .. فبدأت أتعمد القاء الأوامر الى الخدم ، وأتلذذ وهم يهرعون الى تلبيتها .. وأتعمد انتحال الأسباب للومهم وأحيانا لطردهم من البيت ، وأتلذذ وهم يقفون أمامى صاغرين أو يخرجون من البيت أذلاء .. كانوا قد عرفوا انى صاحبة الأمر والنهى، وان كلمتى لا ترد ، مهما كان فى هذه الكلمة من عبث الصغار، وكانوا قد عرفوا أن غضبى من غضب أبى .. وان أبى يهون عليه أى شىء الا أن أغضب أو يسمح لأحد باغضابى ..

وكنت قد اعتبرت نفسى مسئولة عن كل ما أستطيع أن أعيه من حياة أبى .. كنت أهتم بطعامه وأجلس معه الى المائدة — عندما لا أكون فى المدرسة — وأحتم عليه أن يأكل من كل صنف أقدمه له ، وكنت أدخل غرفه وأشارك الخدم فى اعدادها ، وأقف معه وهو يرتدى ثيابه فأناوله الحذاء والجورب وأختار له رباط العنق .. وأجلس معه فى المساء وهو يتناول كؤوس الويسكى الثلاث ، وأحاول بكل ما أوتيت من ذكاء أن أفهم حديثه عن العــزبة وعن القطن والقمح والفلاحين ..

وكان أبى سعيدا بهذا التدخل من جانبى فى حياته وفى حياة البيت .. وكان يشجعنى عليه ، وكان يطلعنى شيئا

فشينا على مركزنا العائلى وتفاصيل حالتنا المالية ، كأنه كان يعدنى للحياة !

وتماديت الى ان أصبحت أحاسبه .. كنت أحاسبه كلما تأخر عن موعده ، وأحاسبه اذا قال لى انه باع فدانا من أراضيه ، وأحاسبه كلما تشاجر مع عمى .. وكان أسعد ما يكون عندما يسمعنى أحاسبه .. وكان يؤدى الحساب أمامى كأنى زوجته أو امه !..

الى هذا الحد بلغ تدليله لى ..

وقد شغلتنى هذه الحياة عن طفولتى وصباى .. لم أكن أميل الى اللعب مع البنات بقدر ما أميل الى القاء أوامرى على الخدم ومراقبة تنفيذها .. ولم أكن أميل الى الحديث مع صديقاتى والجلوس اليهن بقدر ما أميل الى الحديث مع أبى والجلوس اليه .. بل لم أحاول أن تكون لى صديقات.. وليس لى صــديقات حتى اليوم ، وكل من عرفتهن ليس بينهن صديقة .. كلهن بنات جمعتنى بهن الصدفة أو الزمالة، وكلهن كنت أتعمد انتقاءهن من مستوى أقل من مستواى، وأعرفهن لفترة ، ثم أقاطعهن أو أهملهن .. وربما كنت أعرفهن لمجرد حاجتى اليهن فى تنفيذ خطة خطرت لى أو لتسليتى ساعة فراغ ، ثم أنساهن بمجرد قضاء حاجتى منهن .. ولم تستطع واحدة منهن أن تدخل حياتى ، أو تكون موضع سرى أو تشغل حيزا من قلبى ..

لم يكن فى حياتى انسان الا أبى .. ولم يكن فى قلبى الا أبى ..

حتى عندما بدأت أحس بأنوثتى ، وعندما بدأ ذهنى يتفتح عما يدور بين الصبيان والبنات .. لم يستطع صبى من أولاد الجيران أو من الصبيان الذين كانوا يلاحقوننى أن يثير اهتمامى .. كنت أعتبرهم جميعا « عيال » ، وكنت أسمع عن مغامرات زميلاتى مع هؤلاء « العيال » فأسخر منهن ، وأدبر « المقالب » لأفرق بين كل منهن وصديقها .. ثم أضحك الى أن ينتابنى الندم على ما فعلته فأبكى ..

ورغم ذلك فقد كان «العيال» من أولاد الجيران ، وممن يلاحقوننى .. يشبعون غرورى .. كنت لا أتصور أن يمر أحدهم بى دون أن يلتفت الىّ ، ولا أتصور أن يبدى أحدهم اهتماما بفتاة أخرى أكثر من اهتمامه بى ..

وأذكر وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى أن بدأ شاب من أولاد الجيران يلاحقنى .. كان أجمل شباب الحى ، وابن أكبر وأغنى عائلة فيه .. وكان عربيدا مدللا يملك سيارة يطوف بها شوارع الحى ليل نهار ، ويزعج سكانه بالأبواق المختلفة الأنغام التى تحملها سيارته .. كان حلم بنات الحى .. واسمه حسن ..

ولم يكن حسن يتجاوز السادسة عشرة من عمره ..

وقد تعود أن يطوف حول بيتى عدة مرات كل مساء — بعد موعد عودتى من المدرسة — ثم يضغط على أبواق

سيارته بطريقة تخرج نغم اللحن المعروف : « خـد البزة واسكت ، خد البزه ونام » !! .. وكان ينتظرني الى أن أخرج في سيارتنا وحدي أو بصحبة أبي فيقود سـيارته ورائي ويلاحقني بنفس النغم .. ولم أكن أدخـل دارا من دور السينما أو أطوف بالمحال التجارية ، أو أسير على الشاطىء ، الا وأجده ورائي ..

وعرفت بنات الحي أن حسن يلاحقني وأنه يحبني ..

واعتبر حسن اني أصبحت له ، وأنه صاحب الحق الوحيد في ملاحقتي .. فكان يتشاجر مع كل فتى آخر يحاول نفس محاولته .. وقامت في الحي أكثر من معركة عنيفة بين الفتيان، بسببي وبسبب حسن ..

كل ذلك دون أن ينال مني شيئا . لم ينل حتى مجرد ابتسامة . بل اني كنت أتعمد أن أحدجه بنظرة احتقار كلما وقعت عيناي عليه . نظرة يستقبلها واجما ثم يفيق منها ليعاود ملاحقتي .. كنت فعلا أعتبره « عيل » ، ولم يكن يثير في شيئا ، ولا يستحوذ على بعض تفكيري أو بعض قلبي ..

كل ما كان يثيره هو ارضاء غروري .. وكلما تمادى في ملاحقتي وتماديت في صده .. تمادي غروري في تهمه .. حتى أصبح مروره أمام البيت كل مساء وسماعي لحن : « خد البزة واسكت » كأنه وجبة طعام أشبع بها غروري ..

وتعب حسن من ملاحقتي ..

وتعب من التوسل لبنات الجيران لاقناعى بأن أقابله ، أو أحادثه ق التليفون ، أو أبتسم له ..

وكنت أرفض وساطة بنات الجيران وأقول لهن انه « عيل » ..

وسمع أنى اصفه بأنه عيل .. وبعد أسبوع رأيته وقد أطلق شاربه .. شاربا خفيفا هزيلا كأنه ظل لأنفه فوق شفتيه !!..

وضحكت كثيرا عندما لمحت شاربه الهزيل .. ولكنى بقيت مصرة على اعتباره « عيل » ، ومصرة على احتقاره ..

وفجأة انقطع عنى حسن ..

لم يعد يلاحقنى ، ولم أعد أسمع نغم « خد البزة واسكت » ..

وبدأت أحس بالضيق .. بدأت أحس كأنى اهنت ، وكأن كرامتى ابتذلت أمام بنات الحى ..

وتقصيت حتى عرفت انه بدأ يلاحق فتاة أخرى اسمها مرفت ..

وكانت مرفت فتاة طيبة سهلة كثيرة الضحك « مهرجة »، ولا أنكر انها كانت جميلة .. وكان يجب أن أترك حسن لها وأتركها لحسن ، ما دمت لا أريده ، ولا يثير ق شيئا الا غرورى ..

ولكن هذا الغرور كان كافيا ليدفع خطط الشر الى

رأسي . وبدأت لا أنام .. بدأت أقاوم نفسي حتى لا أرتكب اثما في حق مرفت الطيبة السهلة البريئة .. ولكنني لم استطع..

وفي يوم من الأيام ذهبت الى بيت مرفت ، وكنت أعلم أنها ليست فيه ، واستقبلتني أمها بترحاب واحتفاء وحنو فقد كانت زيارتي لأحد من أهل الحي نادرة ..

وسألت في براءة :

— مرفت موجودة ياطنط ؟!..

وأجابت وهي تمسك بيدي لتجلسني بجانبها :

— لا والله يا بنتي .. راحت تزور بنت خالتها ..

قلت وأنا لا أزال أحتفظ ببراءتي :

— ده أنا كنت جايه أهنيها !!..

وقالت أمها وفي عينيها تساؤل :

— الله يهنيكي .. بايه ياترى ؟!

قلت بسذاجة :

— بخطبتها .. ولو انها لسه ما عزمتنيش !!

وقالت الأم المسكينة في دهشة :

— خطبتها !! خطبتها لمين ؟! .

قلت دون أن أفقد أعصابي أو يهتز وتر منها :

— لحسن ال ...

ثم توقفت عندما رأيت نظرات حادة في عيني الأم كأنها نظرات الرعب .. وادعيت الارتباك والحيرة والخجل وأخذت أضغط احدى يدي بالأخرى .. وقلت كأني أتلعثم :

— هيه .. هيه مرفت مش اتخطبت ؟!
وتماسكت الأم وقالت كأنها تحاول أن تكتم صرخة :
— لا يابنتي .. ما اتخطبتش ..
ثم ركزت عيناها في عيني وسألتني :
— سمعتي الكلام ده منين .. مين اللي قال لك ؟ .
قلت وأنا أهرب بعيني من عينيها :
— بنات أصحابي ..
ثم قمت منتفضة ، قائلة :
— عن اذنك ياطنط .. أحسن بابا مستنيني .. أنا آسفة قوي !.

وودعتني الأم المسكينة حتى الباب وداعا باردا !!..

وكانت نتيجة هذه الخطة الساذجة الشريرة ، أن فرضت رقابة عائلية شديدة على مرفت حالت بينها وبين لقاء حسن.. وذهبت أم مرفت الى والدة حسن تشكو لها ملاحقة ابنها لابنتها ، فحرم حسن من سيارته عقابا له ..

وعرف الحي كله انى صاحبة « المقلب » وقاطعتني بناته .. ولكن الغريب أن حسن عاد الى ملاحقتي ، وعاد يمر أمام البيت كل مساء .. وان كان قد أصبح يمر سائرا على قدميه لا بسيارته .. وعلت بالتالى الى احتقاره والتعالى عليه وارضاء غروري !!..

ولكني تعذبت .. لا لأن الحي عرف عني هذا «المقلب» ولا لأن البنات قاطعتني .. تعذبت لأني ندمت ..

ندمت على جريمة ارتكبتها فى حق صديقة بريئة .. جريمة لم أكن فى حاجة اليها . وبدأت أعانى انقباض صدرى حتى يكاد فى انقباضه يحبس الدم فى عروقى .. وأعانى الخجل من نفسى .. خجل مر جارح كأن سكينا يشق صدرى .. وبدأت أفتعل أزمات فى البيت ، فأتشاجر خلالها مع الخدم، أو أكسر شيئا ، أو أضرب كلبى حتى أدارى هذا الخجل .. خجلى من نفسى !!..

ومضت أسابيع وأنا . . لا أنام !!

وكانت هناك أسباب أخرى كثيرة تحرمنى من النوم ..

كان هناك جانب من حياتى ، ومن شخصيتى ، يعذبنى ، ويأكل فى صدرى وأعصابى ، ويشرب روحى ، ويتركنى جافة صلدة كالحجر .. الحجر الجميل !

فان حبى العظيم لأبى .. هذا الحب الذى كان كل حياتى، لم يستطع أن يملأ فراغا كبيرا تركته وحدتى معه ..

كنت أحبه الى حد أنى لا أستطيع أن أشكو له .. كنت أعتبر نفسى مسئولة عن سعادته الى حد انى لم أكن أجرؤ على أن أعكر هذه السعادة بشكواى .. وكنت أريد أن أقنعه بأنى سعيدة ، وبأنه لاينقصنى شىء ، الى حد أن أخفيت عنه كل آلامى وكل حيرتى ..

وكانت هناك أشياء كثيرة تؤلمنى وأحتاج الى أن أفرج عنها بالشكوى .. أشياء تمر بكل طفلة وبكل صبية وبكل شابة .. وكانت هناك مظاهر فى الحياة تصادفنى وأحتار

أمامها وأحتاج لمن يرشدنى عن حقيقتها .. بل كانت هناك تغيرات جسمانية تمر بى ولا افهمها ولا أجد من أسأله عنها..

لم أجرؤ على الشكوى اليه .. لأنى أخاف عليــه من شكواى ..

ولم أسأله عن حيرتى .. لأنى كنت أخجل منه .. ولأنى كنت أعلم انه رجل ، وكنت أعتبر أنه لا يستطيع أن يفهم شيئا من أمور النساء !!

لقد كان أبى على حق عندما قال لى يوم صحبنى فى سيارته ليطلعنى على خبر زواجه ، ان هناك نواحى كثيرة فى حياتى كان يجب أن يبحثها معى ولا يستطيع ، لأنه لا يمكن أن تبحثها معى الا سيدة !!..

نعم .. هذا صحيح .. لقد كانت هناك نواح كثيرة فى حياتى لم يدخلها سواى !!..

ولا زلت أذكر اليــوم الأول الذى انطلقت فيه شارة انوثتى .. كنت فى الحادية عشرة من عمرى .. وأحسست فى صباح أحد الأيام بالتغيير الجسمانى الذى يلم بى .. واستمر هذا التغيير يلم بى يوما بعد يوم ويصحبه ألم يشتد ساعة بعد ساعة ، حتى وضح لى وتأكدت منه ..

وارتبكت ..

لم أدر ماذا أفعل ..

لم يكن أحد قد أطلعنى على ما يمكن أن أفعله ، ولم يكن حولى من أستطيع أن أسأله .. حتى « دادا حليمة » لم

أجرؤ على سؤالها فقد كان الحجاب الذى وضعته بينى وبينها يحول دون أن أطلعها على أسرارى الخاصة .. وقد خيل الىّ أن ما يحدث لى هو سر خاص .. بل أعز سر خاص .. وانه ليس من كرامتى أن أطلع عليه أحدا ..

ومرت أيام وأنا فى آلامى وارتباكى .. أغلق على نفسى الباب وأبكى وأضغط على معدتى حتى أكتم صرير السكين التى تمزقها .. ثم أفعل فى نفسى أى شىء يخطر لى ويخيل الى انه ما يجب فعله .. ثم أجفف دموعى وأشد ظهرى وأضع ابتسامة بين شفتى وأخرج من الغرفة لملاقاة والدى ..

وكل ما لاحظه والدى أيامها هو الاصفرار الذى طغى على وجهى .. وقد طمأنته وقلت له انى مصابة ببرد خفيف!!..

الى أن اكتشفت « دادا حليمة » قطعة من ثيابى .. فجاءتنى واللهفة بين عينيها ، والفرحة فوق شفتيها ، وهى تقول :

— والنبى نفسى أزغرد ياست نادية .. عقبال ما تكبرى وأشوفك عروسة فى بيت جوزك !!..

واستقبلت لهفتها ببرود ، ولكنى كنت حريصة على قبول نصائحها والاستماع اليها .. كنت أستمع ، كأن فى استماعى اليها .. تنازلا منى عن كرامتى .. عن مركزى كسيدة الى مركزها كخادمة !!..

ولابد أن « دادا حليمة » أطلعت والدى على ما ألم بى ، فقد تعمد فى الأيام التالية أن يكثر من السؤال عن صحتى ،

وأن يدقق النظر فى وجهى أكثر من عادته ، وأن يغالى فى تدليلى والعناية بى واجابة مطالبى .. ولكنه لم يجرؤ أبدا أن يجعل هذا الذى ألم بى موضوعا لحديث بينى وبينه ..

وقس على ذلك كل ما كان يخطــر على حيــاتى من مشكلات ..

وقد كان من نتيجة حبس شكواى أن تعودت الصمت.. كنت كثيرة الصمت .. أستطيع أن أجلس أياما دون أن أتكلم .. بل انى أصبحت أعاقب كل من أغضب منه بصمتى .. وهو صمت من النوع البارد الذى يثير أعصاب من حولك..

وهذا الصمت أعاننى على أن أخفى ما فى رأسى وما فى قلبى .. لم يكن أحد يعلم أبدا ما يدور خلف وجهى البرىء وعينى الخضراوين .. كنت سرا مغلقا .. وكنت أتلذذ بأن أكون سرا مغلقا . .

وعودتنى وحدتى مع أبى ، أن أشعر بمسئوليتى نحو نفسى .. وكان يخيل الىّ انى مسئولة دائما عن الدفاع عن نفسى .. الدفاع عن نفسى ضد حوادث الحياة وضد الناس..

كنت أعتقد أن أبى لا يفهم حياة النساء .. فاعتبرت انى أنا وحدى مسئولة عن كل ما يخطر لى فى هذه الحياة . فكنت متحفزة دائما .. عنيفة دائما .. أسىء الظن دائما .. وأبدأ بالهجوم دائما وأدع احتمال الشر يسبق احتمال الخير . . وكان سلاحى الوحيد — قبل جمالى — ذكائى !!..

وعرف عنى هذا كل من يحيط بى من أهلى وزميلاتى

وخدم البيت .. فخافوا منى .. وخافوا من ذكائى .. واقتربوا منى على حذر !!..

ولكن أين أمى فى كل ذلك ؟..

لقد كانت دائما موجودة فى بيت زوجها ....

وهى زوجة مدللة ، لا تعرف من الحياة الا جانبها المرح، ولا تحمل هما الا هم اختيار ثيابها والتردد على الحفلات واقامة الحفلات .. وليس معنىهذا انها زوجة عابثة .. ولكنها فقط مدللة ، ولم يفقدها دلالها حرصها على سمعتها وعلى بيتها وعلى حب زوجها .

وكان هناك دائما شىء ضخم كثيف يفصل بينى وبينها ، حتى لكأنها تعيش فى دنيا غير الدنيـــا التى أعيش فيها .. ولا أدرى ما هو هذا الشىء .. وربما احساسى بأنها المسئولة عن طلاقها من أبى هو الذى كان يقف بينى وبينها . بل انى أحيانا كنت ألوم أبى على زواجه منها .. وكنت أعتبر هذا الزواج غلطة فى حياته ، حتى لو كان وجودى هو نتيجــة هذه الغلطة !!.

وربما لأنى لم أكن أشبهها فى شىء حتى فى شكلى .. فأنا شقراء لأبى ، وهى سمراء ، وعيناى فى لون عينى أبى وعيناها سوداوان ، وأنا فارعة العود لأبى ، وهى متوسطة الطول ... وكنت متحفظة فى شعورى وربما باردة — كأبى — وكانت هى منطلقة الشعور تفيض أنوثة ورقة ..

ربما كان كل ذلك هو الذى يفصل بينى وبينها .. ورغم

ذلك فقد كنت أحبها ، وان كان حبا فيه كثير من التحفظ وفيه كثير من عدم الرضا .. وكنت أزورها كل أسبوع مرة، وقد أقضي اليوم كله معها ومع زوجها ومع اخوتي منها — ولدين وبنت — ولكنى لم أحاول أبدا أن أدخلها فى حياتي الخاصة ، ولم تكن هي تلح كثيرا فى معرفة شيء لايبدو لها .. ربما دون تعمد اهمالي ، وربما لأني كنت أحس بحرج شديد يلم بها كلما جاء ذكر أبي وذكر حياتي معه ..

انما كنت أذهب اليها وأنا سعيدة .. لأنها كانت مرحة .. لا تترك اليوم يمر دون أن تضع فيه الكثير من مرحها .. وكانت فى كل مرة أذهب اليها تجلس الى البيانو وتعزف عليه لحن « رقص الهوانم » ثم تعلمني الرقص البلدي .. وقد تعلمت الرقص فعلا وأجدته ، ووصل اعجاب أمي برقصي الى حد أن صنعت لي « بدلة رقص » حمراء ، كانت تلبسها لي وأنا أرقص أمامها ، دون أن يكون معنا أحد .. وقد ظللت أرقص لها الى أن أصبحت فى الرابعة عشرة من عمري.. فأضربت عن الرقص ..

هذه هي أمي ..

لم يكن لها أبدا نصيب فى حياتي ، ولم تستطع أبدا أن تعرف ابنتها ..

* * *

هذه — باختصار — هي أنا ، كما كنت يوم أطلعني أبي على نبأ زواجه .



...صنعت لى أمى « بدلة رقص » حمراء كانت تلبسها لى وأنا أرقص أمامها ...
وقد ظللت أرقص لها إلى أن أصبحت فى الرابعة عشرة من عمرى ...

ووصلنا الى البيت ..

ونزلت من السيارة وصعدت السلم كأنى أصعد الى عالم جديد مجهول لا أعرفه ..

واستقبلنى عبده السفرجى ، وخيل الى أن تحيته فيها برود .. وكأنه قد عزلنى عن العرش الذى أجلس عليه .. عرش « سيدة البيت » ..

وتقدمت سيدة شابة ترحب بى ..

وعرفت أنها زوجة أبى ..



كانت سمراء .. كأمي .. وكانت فى السابعة والعشرين من عمرها ..

لم يكن أبرز ما فيها جمالها .. انه جمال من ذلك النوع الذى تفترض وجوده مقدما ، كجمال الشجر وجمال الغروب وجمال ملايين النساء .. جمال لا يبهرك ولا يلوى عنقك ، ولكنك تفتقده ان لم تجده أو تمر به ..

وربما كان أبرز ما فيها هو هذا الهدوء الذى يشع منها كأنه عبير عطر مهدىء للأعصاب .. كان كل ما فيها هادئا .. نظرات عينيها ، وابتسامتها وعقصة شعرها ، ولون ثوبها المحتشم ، ومشيتها ، وصوتها الخفيض ، وحديثها المسترخى العف ..

وكان هذا الهدوء يدفعك الى احترامها والى الاطمئنان اليها والثقة بها ..

ورغم ذلك فعندما قدمنى اليها أبى لأول مرة ، لم أستطع أن أقابل هدوءها بهدوء .. لم أستطع أن أسيطر على ابتسامتى فكادت تقع من فوق شفتى ، ولم أستطع أن أسيطر على يدى وأنا أمدها لمصافحتها فارتعشت فى يدها ، وبحثت عن كلمة فى رأسى أنطق بها فلم أجد فى رأسى الا دويا مرتبكا كصوت الراديو عندما لا يكون مضبوطا على محطة الاذاعة ..

ووقف أبي بيننا .. بين زوجته وابنته .. مرتبكا هو الآخر ، مكتفيا بابتسامة بلهاء ليس لها معنى ..

وكانت هي أول من تكلمت ..

قالت وهي تلفني بنظرات طيبة حنونة :

— أهلا بنادية .. ده انتى أحلى كتير من صورتك ..

قلت وأنا أتمتم :

— مرسى ياطنط ..

وابتسم أبي عندما سمع كلمة « طنط » كأنه وجد فيها حلا لاشكال .. وقال وهو لا يزال يحاول أن يخفى ارتباكه:

— اسمحوا لى أنزل شوية .. عندي مشوار .. ومش حاغيب أكتر من نصف ساعة ..

وتركنا وحدنا ..

وجلسنا في البهو . وبدأت طنط « صاف » — وهو اسم الدلع « لصفية » — تبذل مجهودا كبيرا لتشدني معها في حديث طويل .. ولكنى كنت متحفظة ، وكان شيء في رأسى يدفعني بعيدا عن حديثها ..

كنت أفكر في حياتي الجديدة معها ، وفي وضعى الجديد بالنسبة لأبي ، وبالنسبة للخدم ، وبالنسبة للبيت ..

من فينا سيدة البيت ؟..

هي طبعا ..

وأنا .. ما هو وضعى ، وما هو نصيبى ؟!.

ولم أستطع أن أحدد وضعى الجديد في البيت .. كنت

اضن بأن أتنازل عن حق من حقوقى التى اكتسبتها على مر عمرى ، وكنت أعلم انى يجب أن أتنازل عن الكثير من هذه الحقوق .. سواء أردت أو لم أرد !.

وكنت عندما أضيق بفكرى أنظر اليها وهى تتحدث وأسائل نفسى .. ألم يجد أبى أجمل منها ؟!.

وهل كنت أفضل أن يختار أبى زوجة أجمل من هذه ؟..

ربما .. فلو انه اختار زوجة جميلة خليعة مدللة طائشة .. من هذا الصنف من النساء اللاتى كنت أعلم انهن يلاحقنه للزواج به ، لوجدت مائة سبب لأكرهها وأكيد لها .. أما هذه الزوجة الهادئة المحترمة المحتشمة .. فكيف أكرهها ، وأى عذر لى اذا كدت لها ، أو سلطت عليها روح الشر التى تعيش فى صدرى ؟..

لقد أحسست منذ اللحظة الأولى أن هذه السيدة أقوى منى .. أقوى منى بطيبتها ، وحرصها على أن تسعد أبى وتسعدنى ، وحرصها على البيت الذى يضمها .. حرصها على أن تبقى دائما فيه ..

وطالت جلستنا سويا .. وتحدثنا فى عشرات الموضوعات عن المدرسة ، وعن الخدم ، وعن العائلة ..

حدثتنى عن نفسها .. وسألتنى عن نفسى ..

وطالت غيبة أبى .. فاستأذنت فى أن أنصرف الى غرفتى لأبدل ثيابى ، فقامت معى وهى تقول :

-- أنا سمحت لنفسى أدخل أودتك واتتى فى المدرسة .

واسحيلى أهنيكى على ذوقك .. كل حاجة فيها جميلة وحلوة زيك ..

وأحسست انها تغالى فى رأيها .. فلم تكن غرفتى جميلة الى هذا الحد .. لم يكن البيت كله جميلا قبل أن تدخله .. انما كان بيتا مزدحما بقطع الأثاث الثمينة القديمة ، رصت بجانب الجدران بنفس النظام الذى رسمته أمى قبل أن تطلق من أبى منذ أربعة عشر عاما . ولم أحاول أنا ، ولم يحاول أبى ، أن يبدل أحدنا من هذا النظام ، أو يضيف شيئا جديدا الى الأثاث العتيق ..

كانت غرفتى هى الغرفة الوحيدة التى تضم أثاثا جديدا .. ولم يكن لى فضل فيها .. كل ما هناك أن أبى — بعد أن كبرت — استدعى « بتروMولى » تاجر الأثاث ، وأوصاه بصنع غرفة لى .. وتولى بترومولى اختيار طرازها — وكان « ستيل مودرن » — وتولى تنظيمها .. حتى لون الستائر ، ولون الجدران ، والصور المعلقة .. كلها اختارها بترومولى بنفسه دون أن أتدخل فيها .

كانت غرفة ثمينة .. ولكنها لم تكن جميلة .. أو أن جمالها كان مصنوعا ، لا يعبر عن شخصى ، ولا عن ذوقى الخاص ..

ولم تحاول « طنط صافى » أن تبدل شيئا من غرفتى ، ولكنها قلبت البيت كله رأسا على عقب ، دون أن تضيف اليه شيئا جديدا .. اكتفت بنقل قطع الأثاث ، كل مكان

الأخرى ، ونقل قطع السجاد من غرفة الى أخرى ، وتنسيق أوانى الزهر وقطع الخزف الكثيرة الجميلة .. بحيث أصبح البيت كأنه شيء جديد ، وكأن كل ما فيه اشترى خصيصا لها، بمناسبة زواجها !

لقد كانت « ست بيت » ..

وتركتني طنط صاق على باب غرفتي .. وأغلقت على نفسي الباب .. ثم ارتميت فوق فراشي أبكي !!..

ولم أستطع أن أفسر سبب بكائي .. ولكني لم أبك أبدا بمثل هذه الحرارة ، ولم تنطلق دموعي أبدا بمثل هذه الغزارة .. كأني كنت أعتصر دمي كله دموعا .. وكأني فقدت أبي الى الأبد !!

وحبست نفسي طويلا فى غرفتي .. وبدأت أحس أن هذه الغرفة هي كل ما بقي لي من البيت الكبير !!..

وعندما حان موعد العشاء جاء أبي يدق على بابي .. ومسحت دموعي ، وأصلحت شعري وثوبي قبل أن أفتح له .. وقال فى مرح وقد خيل اليّ انه صغر عن عمره عشرة أعـوام :

— انتي فين يا نادية .. كلنا مستنيينك على العشا ..

قلت وأنا أحاول أن أبتسم :

— أصل سريري كان واحشني .. نمت فيه شوية !!..

ونظر أبي فى عيني يحاول أن يرى ما فى قلبي ، ثم قال كأنه يحاول أن يطرد أوهاما طافت برأسه :

— طيب ياللا قوام .. ده احنا عاملين لك حفلة !!..

وارتديت ثوبا جديدا .. وعقصت شعرى بحيث جمعته فى مؤخرة رأسى ، وكنت أبدو هكذا أكبر سنا مما أبدو عندما أطلقه فى ضفيرتين فوق صدرى .. كنت أريد أن أبدو كبيرة .. كزوجة أبى !!..

وانضممت اليهم فى البهو .. كان أبى جالسا وأمامه كأس الويسكى .. وكانت زوجة أبى تجلس بجانبه وقد ارتدت ثوبا أسود من قماش « الفاى » اللامع .. ثوب محتشم يغطى ذراعيها وعنقها ، ولكنه أنيق رشيق كأنه قطعة من جهاز عروس .. وكانت تشرب كوبا من عصير التوت .. وكان عمى عزيز —وقد قلت انه يقيم فى الدور العلوى من البيت— جالسا قبالتها ، يضحك كعادته ، ويشرب أكثر من عادته ..

واستقبلتنى طنط صافى فرحة بى كأنى ابنتها .. وابتسم أبى كأنه يتباهى بى وبجمالى .. واحتضننى « أونكل عزيز » بين ذراعيه وقبلنى فوق وجنتى .. وقال وهو يضحك :

— خلاص ما دام بابا اتجوز ، لازم انتى كمان تتجوزى..

قلت وأنا أحاول أن أضحك :

— اذا كنت ترضى تتجوزنى . أنا مستعدة أتجوز حالا !!..

قال وهو يقهقه :

— أنا متأكد ان أبوكى ما يرضاش بيّه !

قلت :

— وهوه حيلاقى أحسن منك يا أونكل ..

ثم نظرت الى أبى وقلت وأنا لا أستطيع أن أخلص صوتى من المرارة :

— زمان وأنا صغيرة كنت عايزة أتجوز بابا !! ..

وقالت زوجة أبى فى صوت برىء مرح :

— أنا متهيأ لى انه مافيش راجل فى الدنيا يستاهل نادية !!.

قلت وأنا أتحداها :

— حتى بابا ؟!..

قالت فى لباقة :

— وهو فيه راجل فى الدنيا زى باباكى !!..

وما كدت أجلس فى مقعدى بجانب عمى ، حتى جاء عبده السفرجى يقدم لى كوبا من شراب التوت ..

من الذى علم عبده أن يقدم لى شرابا لم أطلبه منه ؟!..

ان عبده يخدم فى البيت منذ خمس سنوات ، ورغم ذلك لم يفكر أبدا فى تقديم شىء لى لم أطلبه منه .. ولم يتعود أن يقدم للضيوف سوى القهوة ، أو كئوس الويسكى اذا كانوا من أصدقاء أبى الخصوصيين ..

ثم ما قصة شراب التوت هذا ؟..

انى أعلم ان فى «الفريجيدير» دائما زجاجات الكوكاكولا والغازوزة ، ولم يكن فيها أبدا شراب التوت أو أى نوع آخر من الشراب !!..

ماذا حدث !!..

انها هى .. سيدة البيت !!..

هى التى أدخلت فى الفريجيدير شراب التوت ، وهى التى علمت عبده السفرجى كيف يقدمه قبل العشاء ..

انه عالم جديد تبنيه بيديها لأعيش فيه أنا وأبى .. عالم لم أستطع أن أوفر مثله عندما كنت أنا سيدة البيت !!..

وانتقلنا الى مائدة العشاء ..

جلست هى على رأس المائدة ، وأبى عن يمينها ، وعمى على يسارها ، وأنا على الرأس المقابل ..

وطاف السفرجى بأطباق الطعام .. فكان يذهب اليها أولا .. ويجىء الىّ بعدها !!..

وكان هذا هو النظام الطبيعى الذى يجب أن يسود البيت .. هى الأولى وأنا الثانية .. ولكنى صدمت بهـذا النظام الطبيعى .. كنت قد تعودت أن أكون أنا الأولى ، وأنا الوحيدة .. وكنت قد تعودت أن أجلس على رأس المائدة !!..

ودار الحديث بيننا خلال تناول العشاء ..

كنت أنا أقلهم حديثا .. وكنت آخر من يوجه اليها الحديث !؟

كان عمى يوجه حديثه كله اليها ، ولا يصيبنى منـه الا تعليقات عابرة ..

وكان أبى يتحدث أكثر مما تعودت منه .. لم يكن جادا وقورا كما عودنى ، بل أصبح يجارى عمى فى حديثه الكثير

ويبادله النكات المتحفظة ، وينظر الى زوجته بين كل لقمة وأخرى كأنه يشكرها على هذه النعمة ..

وكانت هي لبقة فى ادارة دفة الحديث .. تديره بحيث تحاول أن يشترك فيه الجميع حتى أنا ..

وقالت لى :

— أنا عرفت من بابا انك تحبى المسقعة .. فوصيت الطباخ يعملها مخصوص علشانك !!.

وفعلا كنت أحب المسقعة .. ولكنى فى هذا اليوم لم يكن يهمنى أن آكل « مسقعة » أو غيرها ، بل ربما كنت أفضل ألا آكل اطلاقا ..

وقد عودتنى زوجة أبى بعد ذلك أن تصنع كل ما أحبه.. وكانت تغالى فى ذلك لكى ترضينى .. ولكنها أخطأت .. فهذه المجاملات التى كانت أحيانا تصل الى حد النفاق ، كانت تضايقنى وكانت تشعرنى اننى ضيفة فى هذا البيت ولست صاحبته .. وقد حاولت كثيرا أن أتحرر من هذه المجاملات ، فكنت أخفى عنها ذوقى الخاص فيما أفضله وما لا أفضله ، وكنت أتعمد أحيانا أن أقبل على أشياء لا أحبها ولا تعجبنى ، حتى أحيرها فى معرفة ذوقى .. ولكنها استمرت دائما تحاول أن ترضينى ، وتحاول أن تقنعنى بأنى أهم انسانة فى البيت ..

ترى .. لو انها لم تحاول أن ترضينى الى هذا الحد ، هل كنت أصفح عنها ؟..

لا أظن .. وقد عرفت فيما بعد أن ما كان يضايقني منها ليس هو محاولة ارضائي ، بل كان ما يضايقني هو انها تسد كل الأبواب التي يمكن أن أنفس خلالها عن كراهيتي لها ، وحقدي عليها ، وأطلق منها عوامل الشر التي تعتمل في قلبي..

وانتهينا من العشاء ..

وعدنا ثانية الى البهو ..

وجلس عمي قليلا ريثما شرب القهوة ثم استأذن وانصرف..

وجلست طنط صافي بجانب أبي تطرز قطعة القماش « منياتير » وأخذت أنا أدير بعض أشرطة الريكوردر .

كانا يتحادثان في همس كأنه حديث حب .. وكان همسهما يرتفع أحيانا حتى أسمعه وأنا بجانب الريكوردر ، وأحيانا ينخفض حتى لا أسمع منه الا رفيفا هادئا كأن شفاههما أجنحة ملائكة تسبح في الهواء ..

وبغتة . أحسست أنهما سكتا عن الهمس .. وان سكوتهما قد طال .. فاستدرت اليهما فاذا به ينظر اليها نظرات ولهى كأنه يقبل كل قطعة منها برموش عينيه .. واذا بها تتشاغل عن عينيه بالنظر الى قطعة القماش التي تطرزها ، وقد اصطبغت وجنتاها بلون الورد ، واذا بهما هما الاثنان ينظران الي في صمت ثم يتبادلان النظرات أحدهما مع الآخر .. كأن بين عيونهما حديثا يشوهه وجودي بينهما ..

وغلى الدم في عروقي ..

أحسست انى انسانة متطفلة ثقيلة ، وانى غريبة عن هذا البيت ..

أحسست - لأول مرة - ان ابى لا يريدنى بجانبه .. وأنه يريد أن يتخلص منى ويزيحنى من أمامه ..

وأحسست كأن شيئا فى صدرى يبكى ويمزق نفسه ، وأن قشعريرة باردة تدب فى أعصابى ، وانجلدى «يتكرمش» فوق عظامى ، كنت أريد أن أثور .. أن أحطم شيئا .. أن أهجم على أبى وأهزه من كتفيه لينتبه الى وجودى .. ليذكرنى .. انى كل شىء فى حياته !!..

وضغطت على أعصابى بقوة ، وقررت أن أنسحب .. وقلت وأنا أحس بثقل فى لسانى كأنه قطعة من الطوب :

— بونسوار بأه .. أنا داخلة أنام !

وقال أبى فى استرخاء وبلا حماس كأنه يطردنى :

— ما تنسيش تقفلى باب الفراندة !

وقالت طنط وهى تفتعل الالحاح :

— حتنامى بدرى كده !؟

قلت وأنا لا أستطيع أن أبتسم :

— أصلى تعبانة ياطنط ..

وانحنيت على أبى أقبله كعادتى .. وكأن حبه لى استيقظ عندما لمست شفتاه وجنتى ، فضمنى الى صدره فى حنان كبير ، وزاد على قبلته التى تعودتها ، قبلة أخرى أكثر حنانا وأكثر حبا .

ومددت يدى الى زوجة أبى ، فجذبتنى اليها وضمتنى هى الأخرى الى صدرها ، وقالت وهى تضغط خدها على خــدى :

— تصبحى على خير ياحبيبتى !!..

كان فى صوتها — كما أذكره الآن — رنة اخــلاص وصدق وحب ، ولكن أذنى كانتا قد سدتا عن التقاط أى رنين ، الا رنين قلبى وهو يتأرجح بين ضلوعى ويتخبط بينها كأنه جرس كنيسة فى قرية صغيرة يدق فى قسوة وتحذير ليعلن نبأ هجوم الشياطين !!..

ودخلت غرفتى وأغلقت بابها بالمفتاح .

ولم يكن من عادتى أن أغلق الباب بالمفتاح .. ولكنى فى هذه الليلة أدرت المفتاح فى ثقب الباب بحركة تلقائية ، دون تعمد ، وكأن هاتفا فى نفسى كان يحاول أن يحمينى من مجهول سيدخل الىّ أثناء نومى ، ويشدنى فى فراشى ، ويلقى بى فى النار .. نار الحقد ، ونار الاحساس بالتفاهة ..

وخلعت ثيابى بيدين عصبيتين وكأنى أمزقها عن جسدى .. ثم ارتميت فوق الفراش وعلقت عينى بالسقف ..

لم أبك ..

ولم أنم ..

وظلت عيناى معلقتين بالسقف وصور من حياتى تمر فى خاطرى وتختلط بالضجيج الذى يملأ صدرى ، وتحترق فى النار التى تندلع من أعصابى ..

وكانت غرفتى لاصقة بغرفة أبى ، والغرفتان تفتحان على شرفة واحدة تطل على الحديقة .. وكثيرا ما كنت أذهب اليه عن طريق الشرفة ، وكثيرا ما كان يأتى الى عن طريقها ، وكثيرا ما كنا نقف فيها نحن الاثنين ، هو بالبيجاما وأنا بقميص النوم ، نتحدث حديثا طويلا لا نهاية له ولا بداية ، ولا يربط بعضه ببعض الا حبى وحبه ..

وسمعت أقدام أبى وزوجته وهما متجهان الى غرفتهما..

وسمعت أبى يضحك ضحكة خفيفة .

وسمعت ضحكتها تختلط بضحكته كأنها قطع السكر تذوب فى فنجان الشاى الساخن ..

ثم سمعتهما يغلقان الباب وراءهما .

ولم أعد أسمع شيئا ..

ولكن خيالى انتفض فجأة نشطا متفتحا ، ليصور ما يمكن أن يحدث بينهما .. بين الرجل وزوجته .. فى غرفة النوم !!..

خيال فتاة فى السادسة عشرة من عمرها .. لم تعرف الرجل من قبل .. ولم تسمع عما يدور فى غرفة النوم الا فى كلمات عابرة التقطتها من أفواه صديقاتها وزميلاتها المراهقات ..

وانطلق هذا الخيال يرسم صورا عجيبة ..

وكنت أبتسم أحيانا لبعض هذه الصور كأنى أشاهد فيلما سينمائيا مثيرا مسليا ..

وكنت أشمئز أحيانا لصور أخرى ، عندما أرسم

بخيالى المراهق صورة عنيفة قاسية تنطلق من بين خطوطها صرخات الألم ..

وكنت أثور وتملأنى الغيرة عندما يقفز الى خيالى نوع ثالث من الصور .. صور ناعمة ترسم الحنان والحب .. أثور وأغار لأن أبى الذى وهبنى عمره ، يحب ويحنو على انسانة أخرى ..

واستبد بى هذا الخيال .. ولم يكن خيالا يقطر فى رأسى وفى أعصابى فحسب ، بل كان يقطر سمومه فى جسدى ... كنت أحس كأن قطرات من الماء البارد تنسكب من هـذا الخيال وتقع على جسدى فى نغم رتيب متوال ، كأنها قطرات الندى على ألواح الزجاج ..

وكان هذا هو أول احساس يلم بجسدى منذ ولدت ..

كانت هذه هى المرة الأولى التى اكتشفت فيها أن فىّ شيئا حيا غير رأسى وقلبى ..

وأتعبنى هذا الخيال ..

تعبت حتى بدأت أتعذب ..

وحاولت أن أطرد خيالى من رأسى ومن جسدى.. وأصبت بشبه حالة عصبية فكنت أضرب الوسادة بيدىّ ، وأرفس الغطاء بقدمىّ ، وأتقلب على جنبىّ فى عنف كأنى أتلوى على جمر ..

ثم قمت وأنا حافية القدمين لأغلق باب الشرفة .. وما كدت أقترب حتى توقفت !!..



ولكن خيالى انتفض فجأة نشطاً متحمساً ، ليصور ما يمكن أن يحدث بينهما ...

بين الرجل وزوجته ... فى غرفة النوم ! ...

لقد سمعت همسا من الغرفة المجاورة ، همسا أشبه بالتنهدات .. وألفاظا لا أكاد أتبينها حتى تضيع فى الهواء كفقاعات الصابون .. وجملا متقطعة ممزقة لا تحمل معنى الا ما يضعه فيها خيالى من معان ..

وتأوهات .. وألم .. ونشوة .. وعتاب كأنه رضاء .. وصد كأنه استجداء ..

وتفتحت أذناى .. أصبحت كلى آذانا مرهفة .. وخطوت خطوة أخرى داخل الشرفة ، كأنى لصة ، وكأن خلجاتى كلها تؤلف عصابة من اللصوص تسترق السمع .. تسرق الكنز المحرم الذى تفتحت عليه عيناى فجأة ..

وطال وقوف وعيناى مفتحتان كعينى البومة فى الظلام. وأنفاسى تتهدج وأنا أحاول أن أكتمها حتى لا تطغى على الأصوات المنبعثة من الغرفة المجاورة .

سمعت كل شىء ..

ثم لم أعد أسمع شيئا .. سكت كل شىء ..

وأغلقت باب الشرفة ، وانسحبت الى فراشى ، وأنا أسير بقدمىّ الحافيتين كالمذهولة التى تسير فى نومها ..

ولم أنم ..



- ٤ -

وكان صباحا ككل صباح أتى بعده .

صباح يشرق فيه النور على البيت كله الا على قلبى !!..

كان أبى يصحو من نومه كطلعة الشمس .. مرحا سعيدا يكاد يقبل بابتسامته قطع الأثاث والجدران والخدم ، ثم يدخل الى الحمام فيغنى تحت الدش ويرفع صوته بالغناء حتى أسمعه وأنا فى حجرتى ، وكأنه سكران أفقده السكر صوابه .. ثم لا يكاد يرانى حتى يرفعنى بين ذراعيه كأنه يتباهى بقوة جديدة دبت فى جسده ، وينهال على وجهى بقبلات مسموعة تطرقع فى الهواء كأنها زغاريد تنطلق فى يوم « الصبحية » !!..

وكانت زوجة أبى تصحو كأن شبابها يتجدد كل يوم ، وكأن الوردة التى تعيش فوق خدها مختبئة تحت بشرتها السمراء لن تذبل أبدا .. كانت تملأ البيت كله نشاطا منذ اللحظة الأولى التى تفتح فيها عينيها .. تطوف بين الحجرات لتشرف على الخدم ، ثم تختفى مع والدى حتى يرتدى ثيابه، ثم تجلس معه على مائدة الافطار وتودعه حتى باب الحديقة وهى تحيطه بعينيها كأنها تحرسه من الحسد .. ثم — بعد أن يخرج أبى — تصعد الى الدور العلوى حيث يقيم عمى عزيز ، وتشرف بنفسها على تنظيم حجراته ..

وكنت وحدى التى أصحو كأن ليلى لم ينته ... مقروحة الجفنين ، ذابلة العينين ، شاردة الفكر ، ممزقة الأعصاب .. وكنت أبقى فى فراشى طويلا أحاول أن أجمع أعصابى وأسيطر على ارادتى حتى أعثر على ابتسامة أعلقها فوق شفتى لأقابل بها أبى وزوجة أبى ..

كنت أضيق بهذه السعادة الجديدة التى تلف البيت .. سعادة أبى بزوجته ، وسعادتها به .. سعادة ليس لى منها نصيب ، وليس لى فيها فضل ..

وبدأت أبخرة الشر تملأ صدرى وتتصاعد الى رأسى .. بخار يتصاعد من بوتقة ساحر يمدّ السم الأسود !!

وطافت برأسى عشرات الخطط ، كلها تهدم هذا البيت السعيد .. ولكنى كنت أعلم انى سأهدم أبى اذا هدمت بيته .. كنت أعلم انى اذا نزعت عنه زوجته فلن أستطيع أن أعوضه عنها ..

وقد كنت أحب أبى .. أحبه الى حد أن أقتل نفسى قبل أن أقدم على ايذائه .. وقامت فى نفسى معركة عنيفة بين هذا الحب — حبى لأبى — وبين الحقد على زوجته ..

كان حبى ينتصر دائما على حقدى .. كنت أخنق الخطط السوداء التى تطوف برأسى قبل أن أقدم على تنفيذها .. وكنت أنا وحدى الضحية .. أنا التى يعتصرها الحقد حتى يكاد الدم يجف فى عروقى .. وأنا التى يأكلها الشر حتى يكاد

لا يترك منى الا عظاما .. وأنا التى لا تنام حتى لم تعد جفونى تسقط فوق عينى الا اعياء ..

ورغم ذلك فقد استطعت أن أخفى كل ذلك وراء وجهى البرىء الجميل ، ووراء الابتسامة الملقة فوق شفتى .. ولم يلحظ أحد هزالى الا زوجة أبى — هى وليست أبى — فأشارت باستدعاء طبيب أوصى لى بنوع من الحقن المقوية .. كان ماؤها لا يكاد يسرى فى دمى حتى يمتصها حقدى !!

وقد حاولت زوجة أبى كل شىء لتجعل لى نصيبا فى السعادة التى أغدقتها على البيت ..

صحبتنى الى « ريتا » صانعة الثياب ، والى «بابازيان» صانع الأحذية .. وكانت المرة الأولى التى أفصل فيها ثوبا أو حذاء ، فقد كنت الى أن عرفتها أشترى كل ثيابى وكل أحذيتى جاهزة . وكانت تقضى معى ساعات طويلة وتحن نقلب صفحات مجلات الأزياء .. ثم كانت تقضى معى ساعات داخل المطبخ ، دون أن تشعرنى أنها تعلمنى شيئا ، بل كانت تبدو كأنها تشركنى فى لعبة من ألعاب الأطفال نتسلى بها ونقطع الوقت .. كانت تقول فجأة :

— تيجى يانادية نعمل فصل فى بابا ونطبخ له الغـدا بأيدينا !!

ثم تشدنى من يدى فى مرح وندخل سويا الى المطبخ فتزيح الطاهى من أمام الموقد ، وتبدأ تصنع كل شىء بيديها، وتبدو كأنها جان دارك تقود معركة فى سبيل النصر .. تأمر

« المرمطون » بتقشير البصل .. وتأمر دادا حليمـــة بعصر القوطة .. وتأمر الطباخ بتنظيف الفراخ .. ثم تضمنى لأراقب المسلى على النار ..

وكنت أنهمك أحيانا فى هذه « اللعبة » المسلية ، وأحيانا كنت أنظر اليها وهى منهمكة فى الطهو ، وخصلات من شعرها الأسود تتدلى فوق جبينها ، فأحسدها .. أحسدها على شخصيتها القوية ، وعلى طيبة قلبها ، وعلى المرح الحلو الذى تنشره من حولها ، وعلى الحب الذى يحيط بها .. حب أبى ؛ وحب عمى عزيز ، وحب الخدم كلهم .. وكان الحسد يستبد بى أحيانا حتى ينقلب حقدا وأكاد أفقد أعصابى ، فأدعى انى تعبة ، وأترك المطبخ مهرولة وأختفى فى حجرتى بعد أن أقفل بابها بالمفتاح ، ثم أغسل قلبى الأسود بدموعى!!

ورغم ذلك فقد تعلمت منها الكثير من شئون المطبخ .. تعلمت كيف أحاسب الطباخ ، وكيف أعد ميزانية البيت ، وكيف أطهو المسقعة التىأحبها والأرز بالكارى ، والشركسية وبابا غنوج .. وقد كنت من قبل لا أدرى كيف أعد طبقا من البيض المقلى ، وأحتار اذا ما حاولتاعداد فنجانمنالقهوة !!.

وأكثر من ذلك ..

كانت كل أسبوع تقيم عشاء كبيرا تدعو اليه أفراد الأسرتين ، أسرتها وأسرة أبى .. وبدأت ألاحظ أنها تهتم كثيرا بزينتى وثوبى فى موعد هذه الدعوات .. وانها تتعمد دعوة شباب الأسرتين ، وأحيانا تدعو معهم بعض أصدقائهم..

من الشباب أيضا .. وتيقنت أنها تفعل كل ذلك لتجد لى من بينهم زوجا ..

وكان الطبيعى أن أحمد لها هذا المجهود العف الكريم الذى تبذله من أجلى .. ولكنى لم أحمده لها .. كل ماتصورته أنها تريد أن تزوجنى لتتخلص منى .. ليخلو لها البيت ، ويخلو لها أبى !!..

وبدأت أعاند ..

بدأت أقاوم جهودها لتزويجى ..

كنت أدعى المرض فى اللحظات الأخيرة قبل أن يأتى المدعوون وأعتكف فى غرفتى .. وكنت اذا خرجت اليهم وشاركتهم فى الحفل أتجهم فى وجوههم ، وأنفرهم منى ، ولا أشجع أحدا منهم أو أفتح له بابا من أبواب الأمل .. كنت أجلس بينهم وعيناى معلقتان بأبى كأنه رجلى الوحيد .. لا أريد أن يأخذنى منه أحد ، أو يأخذه منى أحد !!..

وربما كانت طنط صافى تلحظ تجهمى ، وربما عرفت انى أدعى المرض ولست مريضة .. ولكنها لم تحاول أبدا أن تراجعنى فيما أفعل ، ولم تحاول أن تبدى لى استياءها ، أو توجه الى ملاحظة ..

وقد عودتنى على ذلك .. عودتنى على أن تكون لى صديقة ، وليست أما ولا زوجة أب .. صديقة متحفظة لها حدود لا تتعداها .. وليس من حقها أن تحد من حريتى ، أو تأمرنى ، أو تلومنى ..

ولكن ، هل قبلت صداقتها ؟

أبدا ..

لقد كانت السعادة التي دخلت معها الى البيت تكاد تتجسم أمامي ، وكنت أعلم انى أستطيع أن أساهم فى هذه السعادة وأن أسعد بها ، لو أن قلبى كان غير هذا القلب ، ولو أن عقلى كان غير هذا العقل ، ولو أن نفسيتى كانت غير هذه النفسية المعقدة الممزقة .. ولكن قلبى وعقلى ونفسيتى حرمتنى من السعادة ، وحرمتنى من صداقتها ..

كنت أصدها عنى .. كأن شيطانا من خواطرى يقف بينى وبينها ..

وكنت أهرب من حبها وطيبتها ..

وكنت أتمنى لها الشر .. وكنت لا أزال أضع الخطط التى تهدم البيت كله عليها ، وعلى أبى ، وعلى .. ثم أقاوم هذه الخطط بكل ارادتى حتى لا أقدم على تنفيذها ..

الى أن كان يوم ضعفت فيه ارادتى .

كنا جلوسا نحن الثلاثة فى البهو بعد أن انتهينا من تناول طعام العشاء .. ودق جرس التليفون ، وكنت أقرب الثلاثة اليه ، فالتقطت السماعة ، وسمعت صوت احدى صديقات زوجة أبى ..

ولا أدرى أى شيطان ركبنى فى هذه اللحظة وأوحى الى بالشر .. فانى لم أرد على الصديقة التى تتحدث ، بل أخذت أكرر كلمة « آلو .. آلو .. آلو .. » .. كررتها عدة مرات

كأن أحدا لا يرد على ، ثم أعدت السـماعة الى مكانها ، والتفت الى أبى وزوجته وقلت فى سذاجة بدت من فرط المغالاة فيها كأنها تخابث :

— ما حدش بيرد !!..

وكنت أعلم — استنتاجا — أن الصديقة ستعاود الاتصال التليفونى ما دام أحد لم يرد عليها فى المرة الأولى ..

وفعلا .. لم تمر دقيقة واحدة ، حتى دق جرس التليفون مرة ثانية ..

وحملت آلة التليفون وقربتها من زوجة أبى ، وقلت بنفس السذاجة التى تبدو تخابثا :

خدى ردى انتى ياطنط ..

والتقطت طنط ساق السماعة بمنتهى البراءة ، وأخذت تحادث صديقتها ..

ونظرت الى أبى ، فلم أر على وجهه ما ينبىء بأنه فهم شيئا ، أو أن الشك بدأ يساوره ، أو أنه يلقى بالا الى ما يحـدث ..

كان يدخن سيجارته ، ويرشف فنجان القهوة ، كأهدأ وأسعد ما يكون زوج ..

وانتهت طنط من حديثها التليفونى .. ولم يسألها أبى شيئا .. لم يسألها حتى عن اسم صديقتها التى كانت تتحدث.

وعاد الحديث يتصل بيننا حول الأصدقاء والشباب ..

وفجأة قلت وأنا أوجه حديثى لأبى :

— تعرف يا بابا أنا قررت انى ماكلمش صاحبتى «علية» تانى أبدا ..

وقال أبى فى هدوء ..

— ليه .. دى بنت كويسة ودمها خفيف ..

قلت فى براءة :

— ولا كويسة ولا حاجة .. تصور انى كنت عندها النهارده ، وسابتنى وقعدت تكلم واحد صاحبها فىالتليفون.. وتصور انها كانت بتكلمه وماماتها قاعدة معانا ..

وقال أبى كأنه يستنكر :

— ياشيخة حرام عليكى ..

قلت وأنا أرفع صوتى وأضغط على الكلمات :

— كانت بتكلمه على أنه واحدة صاحبتها .. والغرابة إن لسانها ما وقعش ولا مرة ، ما غلطتش ولا غلطة !

وحدقت فى وجهه بعينين مفتوحتين .

أخذت أبحث فى عينيه عن معنى يرضى الشيطان الذى يركب راسى .. كنت أريده أن يفهم أن زوجته تحادث رجلا على انه احدى صديقاتها .. ولكنه لم يفهم شيئا ، وقال وهو ينفث دخان سيجارته :

— احنا مالنا ومال الناس ..

وقالت زوجته وعيناها فوق قطعة القماش التى تطرزها :

— صدق يا أحمد .. البنات اليومين دول يقدروا يعملوا كل حاجة !!..

وكان قولها صدمة لى ..

انها هى الأخرى لم تحس بشىء ، ولم تلمح الشر الذى يحاول أن يتسلل اليها ليخنقها ..

ثم تعمد أبى أن يغير موضوع الحديث .

وعاد كل شىء هادئا .. كأن ليس هناك شروع فى جريمة، وكأن الشيطان ليس هنا .. جالسا معهم .. مختفيا وراء وجه جميل وعينين خضراوين وشعر أصفر !!.

ووجدت نفسى أصمت ..

أحسست كأنى أتلفت حولى لأقيس حوائط هذا البيت السعيد بكل ما فيه من حب وحنان وثقة ..

وتصورت كأن هذا البيت كله قد هدم .. وانى أنا التى هدمته ببذور الشك التى أحاول أن أزرعها فى رأس أبى ، كما يفعل عمال المناجم وهم يحفرون فى الجبل حفرا صغيرة يدسون فيها أصابع الديناميت .. ثم يهدمون الجبل !!.

وتصورت أبى وهو تحت حطام البيت بعد أن أهدمه .. تصورته أشلاء ممزقة .. قدمه فى ناحية ، وذراعه فى ناحية ورأسه فى ناحية .. وتصورت نفسى أحاول أن أجمع هذه الأشلاء والصق احداها بالأخرى لأعيد أبى الى الحياة ، الى السعادة والحب والحنان ، فلا أستطيع .

تصورت كل ذلك فصرخت صرخة مكتومة مزقت صدرى .. وأحسست بكل قطرة من دمى تعوى كالكلاب الضالة وتتدافع وتزمجر وكأنى أعلنت الثورة .

الثورة على شيطان الشر ...
الثورة على نفسى !!..

وربما بدا أثر كل هذه التصورات على وجهى .. ربما كانت وجنتاى قد احتقنتا بالدماء الثائرة ، أو ربما كانت حدقتا عينى قد اتسعتا ، أو ربما كانت يداى قد ارتعشتا .. فقد أفقت من خيالى المريض على صوت طنط صاق تقول فى حنان :

— مالك يانادية ياحبيبتى .. حاسة بحاجة !!..

قلت وأنا أهب من فوق مقعدى :

— لا أبدا .. بس يظهر انى تقلت فى الأكل شوية !!..

قالت وفى عينيها جزع على :

— طيب خدى حبة « بيسين » قبل ما تنامى !!..

قلت وصوتى لا يكاد يسمع :

— حاضر !!..

وأسرعت الى غرفتى وأنا أكاد أقع من فوق خطواتى .. ثم ألقيت بجسدى فوق سريرى قبل أن أخلع ثيابى .. وأنفاسى تهدج وعيناى معلقتان فى السقف .. ومرت فترة طويلة وأنا تائهة فى دوامة من أفكارى السوداء ، الى أن سمعت نفسى أهمس :

— يا رب !!..

وكأن الله قد جاء ومسح بيده فوق عينى .. فبكيت !!.. وبقيت أبكى حتى سمعت خطوات أبى وزوجته متجهين

الى غرفتهما ، وسمعت ضحكته الخافتة ، وسمعت ضحكتها تذوب فى ضحكته كقطع السكر فى فنجان الشاى الساخن !!

ثم سمعت باب الغرفة يغلق وراءهما وقمت من فراشى حافية القدمين .. ودموعى لا تزال فوق خدى ، ووقفت على باب الشرفة لأسمع همسهما .. همس الرجل وزوجته فى غرفة النوم ..

وكانت هذه قد أصبحت عادتى كل مساء ..

كان قد مضى على زواج أبى ستة شهور ، وفى كل مساء من هذه الشهور الستة كنت أتسلل الى باب الشرفة لأسمع هذا الهمس .. أسمع تأوهات .. وألما .. ونشوة .. وعتابا كأنه رضاء .. وصدا كأنه استجداء !.

أصبحت كأنى على موعد معهما كل ليل .. بل أصبحت أضيق وأتململ كلما تأخرا فى دخول غرفتهما وأكاد أهم بأن أستحثهما على خلوتهما .. كنت أقول لهما أحيانا بلا وعى :

— مش حتقوموا تناموا بأه ؟!!.

كنت أقولها فى براءة وصدق لا يبدو من ورائها شىء من الاحساس الشاذ الذى تنبض به أعصابى.. وكانا أحيانا كثيرة يستجيبان لدعوتى .. فيتبادلان نظرات حب فيها رغبة وفيها حياء .. ثم يقومان الى غرفتهما ، وأكون أنا قد سبقتهما الى غرفتى !!..

وأحيانا كنت أقف على باب الشرفة وألصق أذنى الى الغرفة المجاورة لأسترق السمع .. فلا أسمع شيئا .. الا أنفاسا

منتظمة لاثنين غارقين فى نوم هادىء عميق .. فكنت أصاب بخيبة أمل .. كنت أحس كأن حبيبى قد أخلف موعده .. أحس كأنى سأنام جائعة بلا عشاء !!..

هل هذا شذوذ ؟!!..

لقد حدث ما هو أكثر شذوذا .. فإن خيالى الذى يثيره هذا الهمس المنبعث من غرفة نوم أبى وزوجته ، بدأ يتطور حتى أصبح ينهك جسدى العف الطاهر .. وأصبحت أتصور نفسى كل مساء فى أحضان رجل ..

هذا الرجل .. هو أبى !!..

نعم .. كنت أتصور نفسى فى أحضان أبى .. ذراعاه حول جسدى ، وأنفاسه تصهر وجهى ، وأسمع منه نفس الهمسات التى يهمس بها لزوجته .. وأهمس فى أذنه نفس الكلمات التى تهمس بها . الكلمات التى لا تكاد تنطلق حتى تضيع فى الهواء كفقاعات الصابون ..

كنت أتألم .. وأنتشى .. وأعاتب .. وأرضى .. وأصد.. وأستجدى ! .

وكنت أتعذب ..

وكنت أعلم ما فى هذا الخيال من شذوذ ..

ودفعنى العذاب الى أن أبحث لنفسى عن طريق الفرار .. الفرار من خيالى !.

وبدأت أفكر بمنطق جديد عجيب :

انى لا أستطيع أن أعطى لأبى ما تعطيه له زوجته !!..

ولكن ، لابد أن هناك رجلا يستطيع أن يعطينى مايعطيه أبى لزوجته !!

هذا هو المنطق الجديد الذى بدأت أفكر به ، وبدأ يوجه حياتى ..

وأخذت أبحث عن رجل ..

رجل يعطينى ما يعطيه أبى لزوجته ، ويهمس فى أذنى نفس همساته ..

وأصبحت أنظر الى الرجال نظرة جديدة .. أصبحت أنظر اليهم كأنى أنتقى ثوبا .. أو أشترى عبدا .. كنت أقيس بعينى طول كل واحد منهم وعرضه وشكل ابتسامته ونوع حديثه.. ثم أقيسه على الصورة التى انطبعت فى خيالى .. صورة أبى !!..

واستعرضت كثيرا من الرجال .. الى أن وجدته ..

وجدت الرجل .. أول رجل فى حياتى ..

— ٥ —

كنا مدعوين — أبى وزوجته وأنا — الى عشاء ساهر فى فندق ميناهاوس مع بعض أصدقاء الأسرة ..

ورأيته هناك .. جالسا يتناول عشاءه مع أسرة نعرفها ، وكان مقعده حول مائدة العشاء بجانب ابنة هذه الأسرة .. فتاة فى مثل عمرى شقراء مثلى وان كانت تقل عنى جمالا ..

وهو ليس صغيرا .. فهو — كما عرفت — فى السادسة والثلاثين من عمره ، أى أصغر من أبى بثلاث أو أربع سنوات .. وهو — بخلاف أبى — أسمر فى لون قطعة البفتيك المشوية نصف شواء .. وشعره أسود مجعد ، لا يهتم كثيرا بترجيله .. وربما كان أبرز ما فى وجهه .. عينيه وشفتيه .. عينان صغيرتان تشعان ذكاء حادا يكاد لفرط حدته يخفى طيبة قلبه ، ويكاد يوحى لمن لا يعرفه بأنه انسان خطير .. وشفتان عاطفيتان .. لا أستطيع أن أطيل النظر اليهما الا وأفكر فى تقبيلهما !!..

وكنت أعرفه .. أعرف اسمه على الأقل .. فقد سبق أن رأيته على شاطىء سيدى بشر بالاسكندرية .. كان يجلس طول اليوم تحت الشمسية يقرأ كتابا ، ويرفع عينيه بين كل صفحة وأخرى وينظر نظرة سريعة الى أسراب الفتيات ، ثم يعود الى كتابه .. ثم كان يقوم من تحت الشمسية ويطوف

على كبائن أصدقائه .. وكانت كل « كابين » ترحب به .. فهو معروف .. وهو من عائلة كبيرة .. وهو ثرى .. وهو مغر .. وهو أعزب !!

وكنا — نحن الفتيات — نسير فى جماعات تكاد كل جماعة منها تسد الطريق المحاذى لصف الكبائن .. وكنا نعرف مكان كل شاب من الشاطىء .. كنا نعرف ان مكان فلان بعد خطوتين .. ومكان علان بعد ثلاث خطوات .. وكنا نقطع الشاطىء كله حتى نمر على كل الشبان ، وحتى تمر كل فتاة منا أمام الشاب الذى اختارته لنفسها ..

لم تكن نلتفت لأحد .. ولكننا كنا نميز الشبان بوقع خطواتهم وراءنا — أقصد الشبان المهمين — كنا نعرف ان هذه خطوة علي ، وهذه خطوة محمد ، وهذه خطوة سمير .. الخ ، وكنا نحس بالنظرات التى توجه الينا دون أن نستدير اليها .. كان لكل منا حاسة سادسة أو « رادار » نلتقط به الخطوات والنظرات دون أن يبدو علينا اننا التقطناها !!..

ولم تكن واحدة منا — نحن الفتيات الصغيرات — تحاول أن تلتقط خطوة لمصطفى ، أو نظرة له .. كان أملا كبيرا بعيدا بالنسبة لنا .. حتى لم تجرؤ واحدة منا على أن تتمناه لنفسها ..

ورغم ذلك فقد نظر الى مصطفى مرة نظرة واحدة لم يكررها .. وكأنه شبع منى فى هذه النظرة الواحدة ، أو كأنى لا أستحق أكثر من نظرة واحدة .

وظلت هذه النظرة عالقة فى خيالى عدة أيام .. ثم نسيتها..

الى أن رأيته جالسا يتناول عشاءه فى فندق مينا هاوس مع هذه الأسرة وبجانب هذه الفتاة ..

كان يختصها بحديثه طول الوقت حتى خلت أن الحديث بينهما لن ينتهى أبدا ، وكانت تضحك خلال الحديث ضحكات مرحة منطلقة كأنه يدغدغ قلبها ، وكان يضحك معها ضحكات مقطعة متهدجة صافية كأنه طفل صغير لا تقوى رئتاه على تحمل الضحك الكثير ...

ثم قام يراقصها ..

ولاحظت ذراعه تلتف حول ظهرها وترتفع حتى تقع كفه فوق كتفها .. ولاحظت انه ضغطها اليه حتى اختفى صدرها فى صدره ، وحتى اختفى أنفه فى طيات شعرها .. ثم تحرك بها فى خطوات بطيئة قصيرة ناعمة كأنه يسبح بها فى الهواء ..

وفار دمى ..

واغتظت ..

وطلبت من أبى أن يقوم ليراقصنى .. وتعمدت أن أوجه أبى خلال الرقص حتى اقتربنا منهما .. ونظرت اليه .. نظرت اليه بكل عينى .. نظرت اليه كأنى أناديه ..

ورفع رأسه ونظر الىّ من وراء ظهرها نظرة واحدة .. ثم عاد ودس أنفه فى طيات شعرها !!.

نظرة واحدة ..

وكأنه لا يزال يشبع منى فى هذه النظرة الواحدة أو كأنى لازلت لا أساوى أكثر من هذه النظرة ..

واغتظت أكثر ..

وأخذت أحملق فى الفتاة .. ماذا فيها ؟.. اذا كانت جميلة، فأنا أجمل منها .. واذا كنت صغيرة السن بحيث لا أستحق منه أكثر من هذه النظرة ، فهى فى مثل عمرى ، وربما كانت أصغر منى ..

ووجدت نفسى آتخذ قرارا ، وأصمم عليه ..

قررت أن آخذه منها ..

قررت أن آخذه لنفسى ..

وقمنا لننصرف .. ومررنا بجانب مائدته ونحن فى طريقنا الى الخارج .. وتعمدت أن أنظر اليه مرة ثانية .. نظرت اليه بكل عينىّ .. ولكنه لم يلتفت ولم ينظر الى ولم يحس بى ، انما ظل منهمكا فى حديثه معها .. بينما الناس كلهم يودعوننى بنظرات ولهى .. نظرات بعضها فيها تمن ، وبعضها فيها حسرة ..

وازددت تصميما على قرارى ..

سآخذه مهما كان الثمن ..

سأعاقبه على اهماله لى ..

ووجدت نفسى أزم شفتى كأنى أستجمع عزمى ، أو كأنى أبصم بهما على القرار الذى اتخذته ..

وعندما ذهبت الى فراشى لم أنم .. ولكنى لم أحاول أن

أسترق السمع الى همسات أبي وزوجته فيغرفتهما المجاورة..
كانت الليلة الأولى منذ ستة شهور التى لا أخرج فيها الى الشرفة حافية القدمين لأسرق شيئا ليس لي .. انما بقيت فى فراشي مفتحة العينين أبحث بهما فى رأسى عن تفاصيل الخطة التى سأصل بها اليه .. ثم ذهبت مع الخيال حتى رأيت نفسى قد وصلت اليه فعلا .. ورأيته يركع تحت قدمى .. ورآيتنى أشير اليه بأصبعى فيقترب منى ويقبل خدى وشفتى ثم يحيطنى بذراعيه ويهمس فى أذنى .. نفس الهمسات التى يهمسها أبي لزوجته !!.

وفتحت عيني على دفتر التليفون .. وأخذت أقلب الصفحات بيد متلهفة حتى عثرت على اسمه ورقم تليفونه وترددت قليلا قبل أن أدير القرص .

لم آكن أدرى بالضبط ماذا أقول له وكيف أبدأ حديثى معه .. حديثى مع أول رجل فى حياتى !!.

وأغمضت عينيّ وضغطت فوقهما بجفونى كأنى أستجمع شجاعتى ثم التقطت السماعة وأدرت القرص .. وسمعت رنين جرس يرد على .. وقلت وأنا أضع كل رقتى فى صوتى:

— مصطفى بيه موجود ؟!.

ورد الصوت الخشن فى اقتضاب :

— نايم ..

قلت بسرعة :

— مرسى ..

وألقيت السماعة من يدى كأنى ألقى بقطعة من نار ، وكأن أحدا قد جرح كبريائى !!

وتظرت الى الساعة ..

كانت لا تزال الثامنة صباحا ..

وابتسمت ، فان من حقه أن ينام حتى الساعة الثامنة ، خصوصا بعد سهرة الأمس .. وشعرت أن جرح كرامتى قد التأم !.

وقمت أطوف بحجرات البيت وأفعل أى شيء .. ولم ألحظ ما كنت ألحظه كل صباح .. لم ألحظ سعادة أبى ولم أسمع غناءه تحت الدش ، ولم يثرنى نشاط زوجة أبى ، بل لم ألتفت الى وجودها .. كان كل ما يملأ رأسى وأعصابى هو العالم الجديد الذى أحاول أن أطرق بابه .. عالم يجلس مصطفى على عرشه ، وأجلس بجانبه على نفس العرش !.

وكانت الساعة التاسعة عندما أدرت القرص مرة ثانية .. كأنى أدير سنوات عمرى !.

ورد على نفس الصوت الخشن .. وسألت :

— مصطفى بيه صحى ؟.

وأجاب الصوت فى اقتضاب :

— فى الحمام .. نقول له مين ؟ .

وقلت وخيبة الأمل تطل بين كلماتى :

— معلهش .. أنا حاطلبه تانى !

وألقيت سماعة التليفون ..

وفى الساعة العاشرة عدت والتقطتها وأدرت القرص ، ورد على نفس الصوت الخشن فى اقتضاب :

— خرج !!..

وقذفت السماعة فوق آلة التليفون بكل قوتى حتى كدت أحطمها .. وشعرت انى أهنت ، ان كرامتى قد مزقت..

كيف لا ينتظرنى ؟ .. كيف يخرج قبل أن أحادثه ؟..

ولكنه لا يعرفني .. ولا يعرف أني أريد محادثته ..

واستطعت أن أقنع نفسى الى أن هدأت ..

وقضيت يومى فى انتظار ساعة الغداء حتى أحاول أن أتصل به ، اعتقادا منى انى سأجده فى بيته فى تلك الساعة .. ولكنى لم أجده ، وبقيت حائرة لا أستطيع أن أفعل شيئا الا أن أنظر الى آلة التليفون بعينين مفتوحتين كأنى أحاول أن أنطقها بصوته .. لم أستطع أن أتناول غدائى ، ورفضت أن أخرج من البيت ، واعتكفت فى غرفتى وآلة التليفون فوق فراشى ، أدير رقمها بين كل ساعة وأخرى ..

وأخيرا .. فى الساعة السابعة مساء ، سمعت صوته ..

لم يقل « آلو » انما قال بصوت كسول كأن أوتار صوته كلها « تينور » :

— نعم ..

قلت وأنا أسيطر على أعصابى حتى لاتبدو فى صوتى رعشة قلبى :

— حضرتك مصطفى بيه ؟..

— أيوه ..

— أنا واحدة ..

وسكت كأنى أنتظر منه أن يتولى هو باقى الحديث .. ولكنه لم يقل شيئا .. انما صمت طويلا ثم قال فى صوت أكثر كسلا وأكثر تعبا !..

— يعنى مين ؟..

قلت وأنا أرقق من صوتى :

— واحدة .. انت مش تحب تكلم واحدة ؟..

قال فى سرعة :

— مش كل واحدة ..

قلت فى دلال :

— انما أنا متأكدة انك تحب تكلمنى ..

قال وكأنه يلقى العبء كله علىّ :

— ليــه ؟!..

قلت وكأنى أغريه :

— بكره تعرف !..

قال فى برود :

— طيب كلمينى بكره !!..

وثارت أعصابى لبروده ، وقلت فى حدة :

— لأ .. حاكلمك دلوقت .. عاجبك ولا مش عاجبك ؟..

قال وهو لا يزال أبرد من الثلج :

— لأ .. مش عاجبنى !!..

قلت وكأنى صبية صغيرة تضرب الأرض بقدمها وتصمم على ما تريد :

-- انما أنا عايزة أكلمك دلوقت !!..

قال البارد :

— اتفضلى اتكلمى ..

وسكت .. لم أدر ماذا أقول له .. وظل ساكتا معى فترة ، ثم قال وقد بدأ الثلج يسيح :

— اتى فيه حد مسلطك عليه ؟..

وفتح هذا التساؤل بابا من أبواب الحديث ، نقلت فى تخابث :

— زى مين ؟..

— أنا عارف !!..

— طبعا أنت تعرف ستات كتير ، وأى واحدة منهم يمكن تسلطنى عليك !

— مش كتير قوى !!..

— يعنى مثلا امبارح كنت مع مين ؟

قال فى اخلاص وكأنه مسؤول فعلا عن تقديم حساب لى:

— امبارح !!.. ما كنتش مع حد !!

قلت :

— ياكداب .. أمال مين اللى كنت بترقص معاها امبارح فى مينا هاوس ؟

قال فى براءة :



- ياكداب .. أمال مين اللى كنت بترقص معاها امبارح فى ميناهاوس ؟

— قصدك مين ؟..

قلت كأني أكشف سره :

— نجــلا ..

وضحك ضحكته المتقطعة التي يبدو فيها كطفل لم تقو رئتاه بعد على تحمل الضحك .. وقال :

— يا شيخة حرام عليكي .. دى زى بنتى !!..

قلت وقد شعرت انه يعنيني أنا :

— وبنتك تعمــل معــاها ده كله .. وترقص معاها بالشكل ده !.

قال وهو لا يزال يضحك :

وحياتك أنا دايما بارقص كده !

وقلت بصوت خافت :

— احلف بحياتي كمان نوبة !!..

وكأنه تنبه الى أنه أقسم بحيــاتي خطأ ، فقال وكأنه يتراجع :

— حياة كل الناس عزيزة علىّ .. وكل الناس بأحلف بحياتهم .. تسمحى تقوليلى بأه انتى مين ؟

قلت :

— أنا واحدة معجبة بيك ..

قال وكأنه يحاول أن يقنعني :

— يعني حضرتك شفتيني وعارفاني ؟

— أيوه ..

— طيب مش حرام عليكي تكلمي واحد انتي عارفاه وهو مش عارفك .. دي تبقى أنانية ..

— أنانية ليه ؟. ما انت بتكلمني زي ما باكلمك ..

— الفرق انك بتكلمي واحد عارفاه .. واحد تقدري تتصوريه قدامك وانتي ماسكة سماعة التليفون .. انما أنا باكلم صوت في الهوا .. صوت مالوش صورة متجسمة قدامي .. وطول ما أنا باكلمك قاعد أسأل نفسي ياترى مين انتي ، ويا ترى حلوة ولا وحشة ، وياترى مين مسلطك علي .. دي حاجة تجنن !!..

وكدت أقتنع وأكشف له عن شخصيتي ولكني تراجعت وقلت في رجاء :

— علشان خاطري استحملني شوية ..

قال في عصبية :

— خاطر مين .. خاطر الهوا اللي بيكلمني ؟!..

— أنا مش هوا ، أنا واحدة مش حتندم يوم ما حاتعرفها !..

— طيب ما تعرفيني بيها ؟..

— بعدين .. بعد ما أطمئن !!

— تطمئني على ايه ؟!..

— أطمئن انك تستاهلني !!

وارتفع صوته حتى ملأ أذني وقال في حدة :

— يأه ده اسمه كلام ياست الستات .. واحد قاعد في

بيته فى أمن الله تقوم تيجى واحدة .. بيجى صوت فى الهوا يعمل له امتحان علشان يشوفه يستاهل ولا ما يستاهلش .. حد قال لك انى ناقص ستات .. اترجيتك قبل كده علشان تكلمينى فى التليفون ؟.

وقاطعته فى برود :

— أنا عايزه كده ..

وقال فى تهكم :

— حاضر ياأفندم .. سمعا وطاعة .. أنا تحت الأمر .. بس اسمحيلى دلوقت أروح أغير واغسل وشى أحسن لـه جاى من بره ، وأنا متأكد انى بعد ما أتشيك وأتوجـه حاستاهل حضرتك .

قلت وأنا لا زلت أدعى البرود :

— أنا ما أحبش الرجالة الشيك ..

قال فى تهكم وكأنه يضغط على أعصابه حتى لا تنفجر :

— طيب اسمحيلى أروح أبهدل نفسى شوية !!.

وضحكت وقلت فى مرح :

— طيب اورفوار .. تحب أكلمك تانى امتى ؟..

— وقت ماتحبى ..

— يعنى امتى ؟!

— بعد نص ساعة بس !!

— باى ..

— باى !!..

وأعدت السماعة الى مكانها برفق ، وأحسست انى أطير الى العالم الجديد الذى تصورته ، وانى أسير وذراعى فى ذراع مصطفى نحو العرش الذى سنجلس عليه سويا .. ولم أتنبه الى تفاهة الحديث الذى دار بينى وبينه ، والذى بدوت به كطفلة لم تحادث رجلا من قبل ، فقد كان يكفينى الاحساس بالمغامرة التى أقدمت عليها والتى ملأت كيانى كله ، وكان يكفينى انى فتحت الباب اليه ..

وبعد نصف ساعة بالضبط رفعت سماعة التليفون وأدرت القرص ، فرد على الصوت الخشن الذى أكرهه ، وقال فى أدب جاف :

— تقول له مين يا افندم ؟ ..

— قول له واحده ..

— هوه مش موجود يا افندم ..

وألقيت السماعة وقد انهارت كل أحلامى ..

عرفت انه يهرب منى !! .

والتهبت أعصابى .. ان النار اندلعت فى دمى ، ولكنى بدلا من أن أثور لكرامتى واعدل عن خطتى ، انقلبت نارى الى عناد .

كانت المرة الأولى التى أشعر فيها أن هناك رجلا لا يريدنى ، ويهرب منى ..

ولكنى عدت أقنع نفسى : انه لا يعرفنى فكيف يريدنى أو لا يريدنى ؟!! ..

وبدأت أحاول أن أتصل به مرة أخرى .. أدرت نمرة تليفونه عشرات المرات .. فى كل ساعة من ساعات النهار والليل .. كنت أحيانا أتسلل من غرفتى على أطراف أصابعى فى الساعة الثالثة صباحا الى حيث يوجد التليفون ، وأحاول أن أتصل به .. ولكنى فشلت .. كان الخادم يرد على دائما ، ويسألنى عن اسمى وعندما أقول له « واحده » أو « هوه عارفه » يعتذر عن وجوده ..

وبدأت أدعى لنفسى أسماء عجيبة .. قلت انى «مرفت»، وانى « سعاد » وانى « فاطمة » .. و .. و .. فكان الخادم يمهلنى لحظة قائلا :

— دقيقة واحدة لما نشوفه ..

ثم يعود كالجلاد لينفذ الحكم القاسى قائلا :

— والله البيه نزل !!..

وكدت أجن ..

ولم تكن هناك طريقة أخرى للاتصال به الا التليفون .. فجن معى التليفون .. وأصبحت أتصل به فى اليوم الواحد أكثر من خمسين مرة ..

وبعد خمسة أيام وجدته ..

رد بنفسه على التليفون — ربما بطريق الخطأ — وعرفنى من صوتى .. وقال كأنه يستغيث منى :

— انتى تعبتينى خالص ياست الستات .. وتعبتى معايا

« عوض » السفرجي .. وتعبتى البيت كله .. كفاية تليفونات بأه اعملى معروف !!..

قلت متجاهلة ثورته وكأنى أناجيه :

— وانت كمان تعبتنى يامصطفى ، بتعمل فيه كده ليــه !!؟..

قال كأنه يشد شعر رأسه بيده :

— ياعالم .. ياهوه .. ياستى أنا عملت فيكى حاجة .. أنا أعرفك ، انتى لازم مجنونة ..

قلت وأنا محتفظة بهدوئى :

— أنا مش مجنونة يامصطفى .. لو كنت مجنونة كنت قلت لك أنا مين من أول يوم ..

ونطقت اسمه بلا تكليف كأنى أعرفه من زمان بعيد ..

وقال كأنه يلقى على درسا :

— طيب اسمعى ياست العاقلين .. حكاية التليفون دى بطلت من زمان .. الدنيا اتغيرت ، بأه فيه حفلات ونوادى ومجتمعات علشان الناس تعرف بعض . ومش معقول ان البنت اللى بتكشف نص جسمها على البلاج تخبى اسمها فى التليفون ، الناس ما بقاش عندها وقت للنفاق ده كله . الموضوع كله ما بقاش ياخذ أكتر من كلمتين : أنا فلانة .. أهلا وسهلا .. رايح فين النهارده ؟!! الحتة الفلانية .. طيب أشوفك هناك .. وخلصنا !!..

وقلت كأنى أقاوم اقتناعى :

— يعنى كنت عايزنى أهجم عليك فى مينا هاوس ، وأقول لك تعالى حبنى .

وضحك ملء فمه ، وقال كأنه يسخر منى :

— انتى بتحبينى ؟!!..

قلت وكأنى أصحح خطئى :

— مش عارفة .. مش قصدى .. انما ..

وقال يقاطعنى :

— ما دام المسألة وصلت للدرجة دى .. تسمحى تقوليلى انتى مين ؟..

قلت فى عناد :

— لأ مش النهاردة .. لغاية دلوقت مش قادرة أعرف اذا كنت تستاهلنى ولا لأ !!

قال وقد بدا أكثر عنادا منى :

— أنا حاقول واحد اتنين تلاته .. اذا ماقلتيش انتى مين حاقفل السكة .

وسكت قليلا ، ثم قال كأنه يعد الثوانى قبل اطلاق النار:

— واحد ..

— مش حاقول ..

— اتنين ..

— برضه مش حاقول ..

— تلاته ..

وسكت ..

وسكت هو أيضا برهة ، ثم ألقى السماعة مكانها ، كأنه أطلق النار عليّ !!..

وذعرت .. وفى نفس اللحظة أدرت قرص التليفون مرة ثانية بيد مرتعشة كأنها يد غريق تلتمس النجاة ، وسمعت صوته وهو يصرخ كأنه جن :

— نعم ..

قلت فى عجلة كأنى أخاف أن يطلق النار عليّ مرة ثانية :

— أنا نادية لطفى .. وأبويا اسمه أحمد لطفى .. وساكنه فى الدقى .. طويلة وحلوة وبلوند .. وسبق شفتنى وعجبتك.. مبسوط بأه !!..

قال فى هدوء وكأنه تلقى تقريرا رسميا كان متأكدا من وصوله اليه :

— وحاشوفك امتى ؟..

قلت كأنى أرجوه :

— بلاش اليومين دول يامصطفى .. استنى عليّ شوية!..

قال فى ثقة :

— أرجوكى يانادية .. اذا كان لازم نعرف بعض يبقى النهارده أحسن من بكرة ..

وكانت المرة الأولى التى أسمعه فيها ينطق باسمى .. وخيل الىّ أنها المرة الأولى التى أسمع فيها اسمى ينطلق من قلب رجل !!

وقلت فى استسلام :

— بكره .. بكره الساعة أربعة ونص .

قال دون أن تبدو عليه فرحة :

— فين ؟..

وفكرت قليلا .. ثم قلت :

— قدام نادى الفروسية ..

قال :

— خليها الساعة خمسة ..

قلت فى عناد كأنى ثرت على استسلامى :

— لأ .. أربعة ونص !!

قال ، وقد خيل الىّ انى ألمح ابتسامة ساخرة فوق شفتيه :

— حاضر ..

قلت ، وقد تعبت من هزيمتى :

— أورفوار ..

قال دون أن يحاول أن يطيل الحديث :

— أورفوار ..

وتركنى لأفكارى ..

لم تكن أفكارا .. انما كانت سحبا بيضاء كثيفة لا أرى من خلالها شيئا الا صورا مهزوزة ، تجمعنى أنا ومصطفى فى اطار واحد ..

ومرت الساعات وأنا أحاول أن أفسر هذه الصور ..

هل أخطأت ؟..

هل أنا مقدمة على جريمة جديدة ؟.
لست أدرى ..

لم أعد أدرى شيئا من كل ما حولى الا انى حائرة .. تائهة .. تدفعنى يد مجهولة نحو مصير مجهول ، وأحسست انى أريد أحدا بجانبى .. أريد انسانا يرشدنى ويأخذ بيدى ويدلنى على طريق الأمان .. انسانا أروى له حيرتى .. وعذابى .. ولكنى لم أجد أحدا .. لم أكن أستطيع أن أستشير أبى ، ولا زوجته ولا أمى اللاهية عنى ، ولم تكن لى صديقة أأتمنها على سرى ..

وأحسست بالوحدة كما لم أحسها من قبل ..

أحسست انى وحيدة مع مصطفى .. وانى لا أعرف مصطفى ، ولا أعرفه ما يستطيع أن يفعل بى ..

وخفت ..

خفت لأنى شعرت انه أقوى منى ، وأكبر منى ، وأكثر تجارب ، ولأنه أول انسان استطاع أن يحطم خطة وضعتها..

كانت خطتى أن أدعه يلاحقنى .. أن أثيره الى حد أن أشغله عن دنياه ، ثم أقرر بعد ذلك ماذا أفعل به ..

ولكنه قلب الخطة .. وأصبحت أنا التى ألاحقه ، وأنا التى شغلت به عن دنياى ، ثم استطاع أن يملى ارادته ، ويسحبنى الى لقائه بعد المرة الثانية التى أحادثه فيها بالتليفون .. ولا أدرى بعد ذلك ما يريد أن يفعل بى ؟!!..

وقضيت الليل أفكر فى العدول عن لقائه ..

ولكنى لم أعدل ..
كنت كأنى أريد أن أفر من شىء يعذبنى لأنى أعرفه ، الى شىء يعذبنى لأنى لا أعرفه ..

وذهبت اليه فى موعده والضباب الأبيض لا يزال يملأ رأسى وقلبى .. وكل ما تعمدته هو أن جمعت شعرى فوق رأسى ، وضغطت بقلم الأحمر فوق شفتى .. حتى أبدو أكبر من سنى ..
ولم أجده أمام نادى الفروسية ..
كنت قد تعمدت أن أذهب بعد الموعد بخمس دقائق ..
ولكنى لم أجده ..

وثرت على نفسى ، وقررت أن أعود ولكنى تثاقلت فى عودتى ، كأن قدمىّ قد التصقتا بالأرض ..
ثم سمعت صوت سيارة تتبعنى .. والتفت فرأيته فى مقعد القيادة ..

وأوقف سيارته بجانبى .. وابتسم لى ..
وكرهت ابتسامته .. كان يبتسم كأنه انتصر على .. أو ربما كرهت ساعتها نفسى .. فانى أنا التى انهزمت له ..
ولم يتكلم ..
ولم أتكلم ..
ودرت من أمام السيارة .. وفتح لى الباب .. وركبت بجواره !!..
ثم قلت وهو يقود السيارة فوق كوبرى الجلاء :

— من فضلك سوق بسرعة .. أحسن الحتة دي كلها عارفاني !!

ثم حنيت رأسي داخل السيارة حتى لا يراني أحد من شبان اللقى .. وقال وهو ينظر الي ويبتسم :

— خـــدي بالك ان الأوتوبيـــس اللي جنينا أعلى من العربية .. وكل اللي فيه شايفينك وانتي بتخبي نفسك ..

وكان هذا أول ما سمعته منه في أول لقاء ..

ووجدت كلامه معقولا ، فاعتدلت في جلستي دون أن أناقشه رأيه .. وكأنه ألقى الي أمرا لا أستطيع أن أعصيــه .

وقد عودني بعد ذلك أن يكون كلامه دائما معقولا .. كان له منطق سلس صريح لا تملك الا الاقتناع به .. لم يكن يعترف بالناس ، ولا بالتقاليد ، ولا بالنظم .. لم يكن يعترف الا بالمنطق .. وكان يستطيع دائمــا أن يصرعك بمنطقه !..

والتفت الي والسيارة تنطلق بنا في طريق الهرم ، وقال وهو ينظر الي بعينيه اللتين تخفيان طيبة قلبه :

— أنا شفتك قبل كده ، انما ماكنتش فاكر انك صغيرة لدرجة دي !؟..

قلت وكأني أدافع عن نفسي :

— أنا مش صغيرة .. أنا عندي تمنتاشر سنة !!..

وكنت أيامها لم أتم السابعة عشرة من عمري !!..

قال وهو يبتسم :

— تفتكرى أنا عندى كام سنة ؟..

قلت والنفاق يقطر من كلماتى :

— خمسة وعشرين !!..

قال وهو يضحك فى حسرة :

— يا ريت .. أنا عندى ستة وتلاتين سنة .. يعنى أدك مرتين !!..

قلت كأنى أحاول أن أخفف عنه :

— وماله .. مش ربنا قال الراجل ضعف الست !!..

وضحك ضحكته العالية المتقطعة ، وقال :

— ربنا قال ، للرجل مثل حظ الأنثيين ، يعنى لما يكون أنا عندى ستة وتلاتين سنة ، يبقى لازم أخرج مع بنتين كل واحدة عندها تمنتاشر سنة !!..

وضحكت معه ، ثم ضاعت ضحكتى وقلت فى مرارة :

— يعنى كنت تحب أجيب معايا نجلا .. مثلا !!..

قال فى حدة :

— أنا قلتلك ان نجلا زى بنتى .. وأبوها صاحبى .. أرجوكى تصدقينى !

وتظاهرت بتصديقه .. ولكن هناك دائما شيء يفتح فى قلبى مجالا للشك .. كان يبدو من الخطورة بحيث لا يسهل تصديقه !!.

ووصلنا الى مدينة النازلية ..

وكنت طوال الطريق منزوية فى ركن السيارة بعيدا عنه،

قريبة من الباب كأنى أتحفز للقفز من السيارة .. كنت لا أنظر اليه انما كنت أحادثه ، وأنا أتلفت الى مناظر الطريق ، ولا التفت اليه الا بين الحين والحين كأنى أسرق صورته .. كنت خائفة .. لا ، لم أكن خائفة .. انما كنت أرهب المغامرة، وكنت قليلة الثقة فى نفسى . لم أكن أدرى بالضبط ما أفعله.. ورغم ذلك فقد كنت أشعر انى منقادة فى طريق مفروش بالسعادة .. سعادة تنسينى نفسى ، وتنسينى الشر الذى يعتمل فى نفسى .

وأوقف السيارة فى شارع هادىء من شوارع النازلية.. ثم استدار بكل جسمه وأطلق عينيه على ..

ولم أجد فى نظراته ما يجرحنى أو ما يخجلنى .. لم يكن فى عينيه رغبة أو خطيئة .. ولم ينقل عينيه الى صدرى أو الى ساقى .. انما كان ينظر الى وجهى فقط ، وكان ينظر اليه كفنان يختبر لوحة زيتية ، أو يختبر وجه نموذج لينقل صورته على لوحته ..

واسترحت الى عينيه والى نظراته .. بل انى تعمدت أن أحرك رأسى حتى يرى وجهى من مختلف نواحيه ..

وقال دون أن يرفع عينيه عنى :

— ياريتك تسيبى شعرك فى ضفاير !

وابتسمت .. ثم رفعت يدى الى رأسى ونزعت الدبابيس التى تمسك شعرى ، فانطلقت الضفيرتان فوق صدرى ..

ولم أتكلم .. انما شعرت بالدماء تنساب الى وجنتى

وتصهرهما كأنى تماديت فى ارضائه .. أو كأنى جارية تعرض جمالها على السلطان !! .

واتسعت عيناه وقال فى صوت خافت كأنه يتنهد :

— الله ..

ثم مد أصابعه وداعب ضفيرتى .. تماما كما تعود أبى أن يفعل ! .. ونكست رأسى ولم أقل شيئا .. ثم سمعته يقول :

— شايفه الخط اللى بيرسم خدك ده .. أهو كل الرسامين الكبار قضوا حياتهم يدوروا عليه ويحاولوا يرسموه .

وكان هذا نوعا جديدا من ثناء لم أسمعه من قبل .. ربما لم أفهمه ، ولكنى فهمت انه ثناء على جمالى .. وقلت فى حياء :

— مرسى !.

قال ، وهو يبعد عينيه عنى :

— احكيلى عن نفسك ..

والتفت اليه كأنى أحاول بدورى أن أشبع من وجهه.. وخيل الى انه يبدو أصغر كثيرا من عمره .. خيل الى انه فى مثل عمرى أو انى فى مثل عمره .. وقلت :

— احكيلى أنت عن نفسك .. أنا كل اللى سمعته عنك حاجات تخوف !!.

وضحك الضحكة التى أحبها .. وقال :

— شوف ياستى .. أنا ...

ولم يتم حديثه فقد مر بجانبنا جماعة من عمال البناء ، أخذوا يتلكأون حول السيارة ، ويقذفوننا بتعليقات جارحة تتخللها أنواع مختلفة من الضحكات والصفير ..

وقال وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة :

— عاجبك كده ..

قلت كأنى أحاول أن أواسيه :

— همه مالهم ومالنا الباردين دول !

قال كأنه يلقى على درسا :

— همه ما لهومش ذنب .. ناس ماشيين شافوا واحدة حلوة من حقهم يقفوا يتفرجوا عليها ، وشافوا واحد وواحدة قاعدين فى أوتومبيل واقف فى الشارع ، من حقهم برضه يقفوا يشوفوا الواحد والواحدة دول بيعملوا ايه .. الشارع مش بتاعك ولا بتاعى .. الشارع بتاع الناس كلها ، واللى يحصل فيه من حق الناس كلها أن تتفرج عليه ..

وقلت كأنى اقتنعت رغم انى لم أكن قد اقتنعت تماما :

— فعلا ..

واستطرد مصطفى :

— الحق علينا احنا .. لو كنا مش عاوزين حد يشوفنا ، ماكانش لازم نقف فى الشارع ..

ولم أرد ..

ولم يزد فى حديثه .. انما أدار موتور السيارة وقادها

الى خارج مدينة النازلية ، وقال وقد أصبحنا فى شارع الهرم:
— تحبى نروح فين ..
قلت والكذب واضح فى كلامى :
— أظن لازم أرجع البيت .. أنا اتأخرت قوى !!
وصدقنى !!..

واتجه بالسيارة ناحية البيت .. كان يقودها ببطء .. تماما كما يقود أبى سيارته ، وكان يتحدث أيضا ببطء حتى أحسست كأن قلبى يتلهف بعد كل كلمة لسماع الكلمة الأخرى .. ولم يكن حديثنا فى موضوع واحد .. كنا لا نكاد نبدأ فى موضوع حتى نجد أنفسنا فى موضوع آخر .. كنا كأننا نريد أن نجمع حديث العمر كله فى ساعة واحدة ..

وأوقف السيارة فى شارع جانبى من شوارع الدقى قريبا من بيتى ، وقلت وأنا أمد له يدى :
— يا ترى لو كلمتك فى التليفون حترد على ، ولا برضه حيرد السفرجى .

واحتفظ بيده فى يدى دون أن يضغط عليها ، وقال وهو ينظر الى كما نظر أول مرة .. نظرة فنان يختير لوحة رائعـة :
— جربى !!

ثم قلب يدى التى فى يده وانحنى يقبل باطن كفى ..
وأحسست بقبلته تسرى فى أعصابى كلها ، وانها وصلت الى كل قطعة من جسدى ..

كان أول فم غريب يلمس قطعة منى ..

وسحبت يدى من يده ، كأنى أسحبها من فرن ساخن ، وفتحت باب السيارة ونزلت وقد نسيت أن أودعه بكلمة .. ومشيت الى بيتى فى خطوات مرتبكة وأنا لا أجرؤ على الالتفات خلفى .. خيل الى أن عينيه تتبعانى كمصباحى سيارة يسلطان على ظهرى ضوءا ساطعا ..

وهدأت خطواتى قليلا عندما انحرفت فى الشارع الجانبى المؤدى الى البيت ، وبدأ شعور جميل لذيذ يملأ صدرى ، شعرت انى انسانة أخرى .. ان قامتى قد طالت .. وانى أصبحت فتاة مجربة وانه أصبح لى سر كبقية النساء صاحبات الأسرار !!

والتقيت بزوجة أبى فى البهو .. فنظرت اليها كأنى أستخف بها وبعقليتها .. احسست اننا أصبحنا متساويتين.. هى لها رجل ، وأنا لى رجل .. وقلت وأنا أبتسم ابتسامة تعبر عن ثقة بالنفس ، وكأنى رفعت ما بيننا من تكليف :

— ازيك ياطنط ..

وقالت ، وكأنها لمحت ماطرأ على من تغيير :

— بنسوار .. مالك فرحانة كده .. خير ؟..

قلت وقد اتسعت ابتسامتى :

— خير يا طنط ..

ولم أجبها .. واتجهت الى غرفتى ، وفتحت باب حجرة أبى ، وقلت فى مرح كأنى أزغرد :

— بونسوار بابى ..

ونظر الى أبى ، ورد على تحيتى بعينيه وظلّ ابتسامة بين شفتيه ثم عاد الى الكتاب الذى يقرأ فيه ، وانحرفت ابتسامتى على جانب شفتى كأنى أرثى لحاله ، وكأنى أقول لنفسى : « لقد أصبح لى الآن رجل آخر » !!..

وفى نفس المساء حادثت مصطفى فى التليفون .

وحادثته فى الصباح التالى .. ثم فى كل صباح ومساء ..

لم يعد فى رأسى ولا فى قلبى ولا فى وقتى الا هو .. لم أعد يهمنى أبى ولا زوجته .. لم يعد يهمنى ماذا يقول وماذا تقول .. ولا أين ذهبا .. ولا متى أتيا .. كنت أعيش يومى لأحادثه ، أو فى انتظار أن أحادثه .. وكنت قد عرفت موعد وجوده فى بيته ، وكان دائما يرد على . ودائما تتحدث هذا الحديث الذى لا يكاد يبدأ فى موضوع حتى نجد أنفسنا فى موضوع آخر ، ولكنه كان لا يطيل الحديث .. ولم نكن نتحدث الساعات ، كان حديثنا لا يزيد عن عشر دقائق ثم أحس أنه على عجل لانهائه .. وكان كل نصيبى منه عشر دقائق فى النهار ، وعشر دقائق فى المساء ..

ومرت ثلاثة أيام دون أن يطلب منى أن أقابله .. وبدأت أحن اليه .. وبدأ حنينى يجتاز سحبا من الشك .. ربما لم أعجبه .. ربما وجدنى صغيرة السن الى حد لا أستحق أن يقابلنى .. ربما كانت هناك فتاة أخرى !!..

وقلت له فى اليوم الرابع :

— تعرف يامصطفى .. امبارح بابا وطنط خرجوا لوحدهم ، وكنت أقدر أشوفك .. لكن طلبتك بالتليفون مالقيتكش ..

وكنت كاذبة .. فانى أستطيع أن ادبر لقاءه .. سواء خرج أبى وزوجته أو لم يخرجا ..

وقال فى صوته الكسول :

— وبابا وطنط حيخرجوا تانى امتى ؟

قلت فى لهفة :

— بكرة بعد الظهر ..

وقال ولهفته أضعف بكثير من لهفتى :

— طيب تتقابل بكره ..

— فين ؟

— أديكى العنوان ..

قلت فى فزع :

— عنوان ايه ؟..

— عنوان الشقة ..

قلت كأنى أطرد شبحا :

— لا يامصطفى .. مش ممكن .. مش ممكن أبدا ..

قال فى هدوء :

— ليه ؟.. اذا كنتى عايزة تقابلينى فى الشارع يبقى مش ممكن نتقابل الا فى قهوة .. لأن القهوة هيه المكان الوحيد اللى الناس تقدر تقعد فيها فى الشارع ..

قلت :

— لا .. مش ممكن .. تتقابل فى أى حتة .. فى جنينة الأسماك ..

قال وكأنه يبتسم ساخرا من عقليتى :

— أنا كبرت على جنينة الأسماك ياناديه ..

وسكت .. فقد شعرت انه يذكرنى بأنى صغيرة السن ، وكنت أعتبرها اهانة أن يتهمنى أحد بصغر السن ..

واستطرد ضاحكا :

— واذا كنت غاوية سمك .. أنا مستعد أشترى وقتين وأحطهم فى الشقة قدامك ..

ولم أضحك .. انما بقيت ساكتة ، وطال سكوتى .. ثم قلت كأنى ألقى بنفسى فى البحر :

— بس يامصطفى ..

— بس ايه ..

قلت وأنا أكاد أسمع رجفة قلبى :

— بس توعدنى انك ما تعملش حاجة تزعلنى ..

قال فى اختصار :

— أوعدك ..

وكان العنوان الذى أعطاه لى .. غير عنوان البيت الذى يقيم فيه !!..

ولم أنم ، فى انتظار الغد ..

كان فى صدرى انسان آخر يناقشنى ولا يسكت أبدا .. ولا يرحمنى !!..

انسان مجنون شاذ ، يخيفنى مرة ، ويغرينى مرة ، ويجعلنى جبانة حينا ، ومستهترة حينا ، ويصرخ فى أذنى : « كيف تذهبين اليه يامجنونة ! » .. ثم يهز كتفيه بلا مبالاة وكأنه يبتسم ابتسامة ساخرة ويقول فى هدوء : « أنظرى حولك .. ألم تسأمى هذه الغرفة الجامدة الأثاث .. ألم تسأمى البيت كله .. ألم تسأمى زوجة أبيك ، ألم تسأمى أباك ، ألم تسأمى نفسك ، ماذا يمكن أن يحدث اذا لم تذهبى اليه ؟ ستقضين يوما آخر فى هذه الحجرة .. وفى هذا البيت .. ستمر بك نفس الساعات التى مرت بعمرك كله ..

وسيعاودك الحقد على زوجة أبيك .. وتعاودك خطط الشر التى تتجمع فى رأسك .. اذهبى .. اذهبى اليه ، واقطعى هذه السلسلة الرهيبة التى تقيد حياتك » !!..

وأكاد أقتنع .. أكاد أنام وقد قررت أن أذهب اليه .. ولكن الصوت الذى ينبعث من صدرى يهش النوم عن عينىّ ، ويعاود الكلام : « صدّقت يا مجنونة !! وستذهبين اليه !!.. ألم تسألى نفسك ماذا يستطيع أن يفعله بك .. ستكونين أنت

وهو في حجرة وحدكما .. وفي بيت خال الا منكما .. وفي هذه الحجرة يمكن أن يحدث كل شيء .. يمكنه أن يذبح مستقبلك كله ، وحياتك كلها .. لا تعتقدي انك قوية .. أقوى منه .. ولا تثقي في ارادتك .. لا تكوني مغرورة .. انه رجل .. رجل كبير قوى » !!..

وأفتح عيني على سعتهما وأضغط احدى شفتي بالأخرى كأني قررت ألا أذهب اليه في موعده ..

ولكن الصوت لا يلبث أن يعود هادئا منغما كأنه مزمار ساحر :

« نعم انه رجل .. ورجل قوى .. ولكنه رجلك أنت .. لقد أصبح لك رجل ، كما أن لزوجة أبيك رجلا .. وأصبح لك سر تتحلين به ، كما أن لكل فتاة سرا تتحلى به .. فكيف تضحين برجلك وبسرك .. ولماذا تخافين منه ولا تثقين به .. لا .. اذهبي اليه » !.

وظل هذا النقاش بيني وبين نفسي حتى الصباح ..

وقمت من فراشي في اليوم التالي ، كأني شبح تجسد في ثيابي .. عيناي ساهمتان ، وفكري شارد ، وأخطو ببطء كأني أخشى ان تحركت أن يسقط مني قلبي ..

وكان موعده في الخامسة مساء .. ولكني وجدت نفسي في الساعة الحادية عشرة صباحا أخرج من البيت دون أن أبدي لأحد سببا لخروجي ، ثم أضع نفسي في احدى سيارات الأجرة ، وأذهب الى العنوان الذي أعطاه لي ..

كانت عمارة كبيرة فى شارع قصر النيل .. مررت من أمامها ونظرت الى بابها من تحت أهدابى نظرات مترددة خفية ، كأن كل من فى الشارع يراقبنى ، وكأنهم يعلمون انى سأعود الى هنا فى الساعة الخامسة لألقى مصطفى فى شقته..

وعبرت باب العمارة وسرت حتى آخر شارع قصر النيل، ثم عدت مرة ثانية على نفس الرصيف ، ومررت من أمام العمارة مرة ثانية .. كأنى مجرمة تدرس المكان الذى سوف ترتكب فيه جريمتها .

وفى هذه المرة استطعت أن أقرأ بعض اللوحات المعلقة على الباب .. طبيب ، وخياطة ، ومحام ، وشركة .. الخ .

وقلت لنفسى : « لو رآنى أحد وأنا خارجة أو داخلة الى العمارة ، فأستطيع أن أدعى انى كنت عند الخياطة » .. وحفظت اسم الخياطة جيدا ، وكأنى بذلك قد حللت اشكالا كبيرا !..

وأكثر من ذلك ..

لقد ذهبت واشتريت أصبع « روج » أغمق قليلا من اللون الطبيعى الذى كنت أصبغ به شفتىّ ، واشتريت جوربا شفافا جديدا ذا كعب غامق لم أكن أستعمله من قبل لأنه أكبر من سنى ، واشتريت أيضا « بارت » أو مجبا مرصعا لشعرى ...

فعلت كل ذلك وأنا لم أقرر بعد أن أذهب اليه ..

كنت لا زلت مترددة ..

وكان النقاش بينى وبين نفسى لا يزال قائما .. وكنت أحمل هذا النقاش فى رأسى وصدرى وأسير مدفوعة بقوة مجهولة لا أعرفها ..

كنت قد فقدت ارادتى ..

أصبحت انسانة أخرى ، غير الفتاة القوية الذكية التى تملك أعصابها وتملك التحكم فى كل تصرفاتها ..

وعدت الى البيت ..

ولم أستطع أن آكل شيئا ساعة الغداء ، فقد كان كل شيء فىّ يرتجف حتى شعرت كأنى مصابة بمغص ، وكأنى لن أستطيع أن أتحمل لقمة فى جوفى ..

لم أستطع حتى أن أشرب فنجان الشاى الذى تعودته بعد الغداء ..

ووقفت أمام المرآة .. ولم أدر كيف عقصت شعرى ، ولا كيف وضعت الروج ، ولا كيف انتقيت ثوبى ..

كنت لا زلت مدفوعة بالقوة المجهولة التى تسيرنى .. وكان النقاش لا يزال يدور بينى وبين نفسى ، ولكنه أصبح نقاشا خافتا بعيدا ، كأنه نقاش بين غريبين لا أعرفهما ولا أتبين صوتيهما .

ووقفت أمام باب العمارة فى شارع قصر النيل .. وترددت قليلا ثم جذبت من أعماقى نفسا طويلا ، ثم أقدمت ..

ووقفت داخل المصعد ، وأطرافى باردة رطبة .. ونظرت

الى مرآة المصعد بعينين منتبهتين فهالنى لون وجهى الباهت المتقع ، فقرصت وجنتى قرصات عنيفة سريعة بأصابع مرتعشة ، علنى أرد اليهما حمرتهما ..

ووقف المصعد فى الدور السادس .

وتلفت أبحث عن الشقة رقم « ٢٨ » .. واهتزت أرقام الشقق كلها أمام عينى حتى خيل الى انها كلها تحمل رقم «٢٨» ..

ومددت يدى لأضغط جرس الباب .

وعدت وسحبت يدى ، كأنى قررت أن أعود .. ولكنى لم أستطع .. لم أستطع أن أعود ..

ومددت يدى مرة أخرى ، وضغطت الجرس .. وخيل الى انى أسمع رنينه داخل الشقة كأنه زغرودة تطلقها الملائكة فى فرح الجنة ..

وخفت .. خفت من الجنة !!

وفتح الباب فى بطء وبلا صوت .. كأنه فتح بقوة سحرية ..

ورأيته أمامى .. مصطفى !!..

كان مرتديا حلته الكاملة .. وبين شفتيه ابتسامة هادئة بيحة ، كأنه طبيب يستقبل احدى مريضاته ..

ولم يتكلم ..

لم يقل « بونسوار » أو « أهلا » .. أو أى شىء ..

انما أفسح لى الطريق صامتا وظلال من عينيه تلفتنى فى رفق وحنان .. ثم أغلق الباب ورائى فى هدوء .. بلا صوت .. وأمسك بيدى وقلبها فى يده ، ثم انحنى يقبل باطن كفى ..

وابتسمت له ابتسامة مترددة مرتعشة .. وقلبى لا يزال فى أقدامى لم يعد بعد الى مكانه .. كنت لا أزال خائفة .. ورفعت عينىّ وأخذت أطوف بنظراتى فى أنحاء الشقة ، كأنى أنتظر أن أجد خلف كل مقعد عفريتا ، أو خنجرا ، أو زجاجة سم ..

وتتبع نظراتى ، ثم قال فى صوته الكسول :

— تحبى تشوف الشقة ؟!..

ولم أجب انما سرت وراءه فى أنحاء الشقة ..

كانت شقة مكونة من حجرتين .. احداهما تضم أريكة عريضة أمامها مائدة صغيرة ، و « فوتيل » كبير يفتح ذراعيه كأنه يتوسل اليك أن تجلس عليه .. ثم مكتبة تمتد على طول الحائط نصفها للكتب والنصف الآخر للاسطوانات ، ثم راديو وبيك آب من خشب الجوز الغامق .. والأريكة والفوتيل مكسوتان بقماش مخطط بخطوط عريضة من اللونين الأخضر الغامق والأحمر الغامق ، وبينهما خط رفيع أصفر .. وستائر تنسدل على باب الشرفة المطلة على شارع قصر النيل من اللون الأخضر الغامق أيضا ، وتحتها ستارة أخرى من « الماركيزت » فى لون « الاوكر » أو البيج .. ولم يكن على الحائط الا اوحة زيتية لرجل ريفى من رسم

أنجى أفلاطون ، وعلى الراديو تمثــال غريب من صــنع السجينى ..

ولم يكن بين هذه الحجرة والحجرة الأخرى باب .. انما يفصلهما « آرك » تنسدل عليه ستارة حمراء .. وهى حجرة تضم « بار » ، كسيت جدرانه « بالمربريت » الأسود ، ومقاعد البار كسيت بالجلد الأحمر ، وثلاثة مقاعد فوتيل من الحجم الصغير ، مكسوة بالجلد الأحمر أيضا .. ومائدة زجاجية عليها رسوم زيتية عجيبة..وصور هزلية كاريكاتورية كثيرة معلقة فوق الجدران ..

ثم الحمام ، وهو من اللون الأخضر ..

ومطبخ أنيق صغير به فريجيدير ، وموقد بوتوجاز ..

ولم يكن فى الشقة حجرة نوم .. ولا أدرى لماذا استرحت عندما لم أر حجرة نوم .. وقلت وأنا أشد صوتى من نهاية حلقى ، كأن أوتار صوتى قد علاها الصدأ من قلة الكلام :

— تعرف ان ذوقك حلو !!..

قال وابتسامته الهادئة لا تزال بين شفتيه :

— بكره تعرفى ان ذوقى حاجة تانية خالص غير ذوق الشقة دى !!..

وكنا وقوفا فى حجرة المكتبة — هكذا سميتها — فأشار بيده الى الحجرة كلها ، وقال :

— تحبى تقعد هنا ؟..

وجلست على طرف المقعد الكبير ، وكأنى جلست على

أعصابى ، فقد كانت كل حواسى متنبهة الى أية حركة تصدر منه .. كنت أعتقد انه سيهجم على ويقبلنى عنوة .. أو يشدنى اليه بالقوة ويأخذنى بين ذراعيه ، بل انى كنت أضم أطراف ثيابى حولى خوفا من أن ينزعها عنى ..

ولكنه لم يفعل شيئا من كل ذلك ، انما تلفت حوله ثم حمل صندوقا أنيقا مليئا بالحلوى وقدمه لى ..

ومددت يدى لآخذ قطعة من الحلوى .. ثم عدت وسحبتها .. خفت .. خفت أن تكون فى الحلوى مادة مخدرة .. من يدرى ؟!..

الى هذا الحد كنت أخافه ..

والى هذا الحد كنت فاقدة الثقة بنفسى !!..

ولم يلح على ، انما أخذ لنفسه قطعة حلوى ، ثم أعاد الصندوق مكانه .. وجلس على الأريكة العريضة ، وفتح كتابا كبيرا كان ملقى عليها .. كتابا عن أعمال الرسام لوتريك .. وقال وهو يقلب صفحاته :

— أنا كنت قاعد بادور على صورة تشبهك تمام .. مش فاكر مين رسمها وشفتها فين ..

قلت وأنا لا زلت متشبثة بمقعدى ، ولا تزال موجات الخوف تضطرم فى صدرى :

— انت تعرف ترسم ؟!..

قال وقد رفع وجهه عن الكتاب ، واتسعت ابتسامته :

— شوف ياستى .. أنا أحب الرسم وما أعرفش أرسم ،

وأحب المزيكة وما أعرفش أضرب مزيكة ، وأحب الورد وما أعرفش أزرعه .. وأحب القصص وما أعرفش أكتب قصص .. أحب الجمال لكن للأسف ما أعرفش أخلقه !

وسكت قليلا ريثما أشعل سيجارته ، ثم قال كأنه يكلم نفســـه :

— ساعات كنت أحس انى أقدر أعمل تماثيل .. كانت صوابعى تتحرك فى الهوا زى ما تكون الطينة قدامى وباعمل منها تمثال .. وكنت أروح أشترى طينة فعلا وأحاول أعمل منها حاجة .. ما أقدرش .. وساعات كان يتهيأ لى انى أقدر أضرب كمنجة .. كنت أبقى مليان أنغام وألحان .. أروح أشترى كمنجة وآجى أضرب عليهـا ما أعرفش .. أتجنن وأروح كاسر الكمنجة !!..

وسكت ، كأنه يتألم ويتحسر على نفسه ، ثم قال بصوت خافت :

— أنا دلوقت تقدرى تسميني « ناقد » أفهم فى كل الفنون ، انما مش فنان .. مش خالق .. والفنانين كلهم بيجوا ياخدوا رأيى فى الكويس والوحش .. انما أنا لا أقـدر أعمل كويس ولا وحش !

وتأثرت له .. أحسـست أنه يشكو شـيئا فى نفسـه لا أفهمه .. لم أستطع أن أفهم بالضـبط كلامه ، ولكنى أحسـست أن فى هذا الكلام شكوى ، وانه لا يشكو لى

بالذات انما يشكو نفسه لنفسه .. يشكو من قدر مكتوب عليها .. قدر يقيد روحه فلا يطلقها ..

وتعجبت .. تعجبت أن يكون هذا هو مصطفى .. كنت أظنه أقوى من أن يشكو شيئا ، وأقــوى من أن يكون محروما من شيء .. كنت أظنه كأبى .. ولكنى رأيته أرق كثيرا من أبى ، وأحسست انه يعيش فى دنيا غير الدنيــا التى يعيش فيها أبى . دنيا لا يستطيع أن يرسمها لأنها دنيا مضطربة كموج البحر ليس لها حدود ثابتة ..

وبدأت أطمئن اليه ..

وبدأت أسترد هدوئى وثقتى بنفسى !

وقلت كأنى أواسيه :

— المهم ان اللى شايفاه لغاية دلوقت ان ذوقك جميل .

قال كأنه يتناسى شيئا :

— سيبينا من الموضوع ده .. تحبى تسمعى اسطوانات؟.

وقبل أن أرد عليه قام وفتح « البيك آب » وأخذ يسلق به الاسطوانات ..

وسألته وهو مدير ظهره لى .. سؤالا كان يلح على رأسى قبل أن أحضر اليه :

— يا ترى كام واحدة دخلوا الشقة دى قبلى ؟!

قال فى بساطة دون أن يلتفت الى :

— كتير !!.

واغتظت .. كنت أنتظر منه أن يكذب مجاملة لى ، وأن

أناقشه فى كذبه .. كنت أنتظر منه أن يحاول اقناعى بأنى أول من دخلت عشه ، أو على الأقل آخر من سيدخله .. ولكنه لم يكذب .. ولم يجاملنى .. انما كان — كما عرفته دائمـا بعدها — صريحا بسيطا .. يعترف بالحقائق مهما كان فيها من شذوذ ؛ ثم يبررها بمنطق سلس مقنع ..

وقلت :

— وياترى أنا واحدة زى « الكتير » بتوعك دول ؟!.

والتفت الىّ برأسه وهو لا يزال ممسكا بالاسطوانات:

— اسألينى السؤال ده بعد أسبوعين .. آكون قدرت أعرف الفرق بينك وبين أى واحدة .. على كل حال فيه فرق واضح باين من دلوقت !.

قلت فى لهفة :

— ايه ؟!.

قال وقد بدأت الاسطوانات تدور وترتفع أنغامها :

— انك أصغر واحدة فيهم ..

قلت فى حدة وكأنه أهاننى :

— أنا مش صغيرة !!..

— عندك ستاشر سنه بحالهم !!..

— تمتاشر من فضلك !..

— تبقى برضه أصغر واحدة فيهم !!

قلت وأنا أرخى أهـدابى فوق عينىّ ، كأنى أعرض نفسى عليه :

— أنا عمرى ما عجبنى حد من الشبان الصغيرين ..

قال مبتسما :

— وعجبك رجالة كبار كتير ؟! ..

قلت وأنا أرفع عينى اليه فى لفتة سريعة ثم أخفضهما :

— انت أول واحد عجبنى .. وأول واحد أعرفه !!..

ونكس رأسه كأنه يفكر فى مشكلة كبيرة ، أو كأن أحدا ألقى عليه مسؤولية ضخمة ، ثم قال وهو ينقر على المائدة التى أمامه نقرات عصبية :

— أنا خايف عليكى يانادية ؟

قلت فى صوت كأنه الهمس :

— من ايه ؟!..

قال كأنه حزين ، والنغم الذى ينبعث من الاسطوانة حزين ايضا :

— من نفسى .. انتى ما تعرفيش انا ايه .. وأقدر اعمل ايه فى حياتك !

قلت مترددة كأنى أنافقه :

— كفاية انك تخاف على ..

قال كأنه يحاول ان ينفرنى منه :

— وانتى ؟ .. مش خايفة منى ؟ ..

قلت وقد انتهت الأسطوانة ، وسقطت مكانها اسطوانة أخرى لعبد الوهاب :

— دلوقت مش خايفه .. أول ما دخلت كنت خايفه

موت لدرجة انى مارضيتش آخد من الشيكولاته اللى قدمتها لى ، خفت تكون حاطط فيها حاجة .. تصور !! ..

قلتها بانطلاق كأنى نسيت نفسى ..

وضحك ملء فمه ضحكته المتقطعة الحلوة ، وقال :

— قصدك .. أكون حاطط فيها مخدر !! ..

قلت وانا أبتسم فى مرح :

— أيوه ..

قال وقد انحسرت ضحكته عن ابتسامة :

— وبعد ما أخدرك أعتدى على أعز ما تملكين .. تمام زى قصص روايات الجيب والافلام المصرية !! ..

قلت وانا لا زلت مرحة :

— مين عارف ؟ ! ..

وضاقت ابتسامته ، وقال فى صوت جاد :

— مش بس الشيكولاته اللى فيها حشيش ولا أفيون ، هيه اللى بتخدر البنات .. ساعات البنت هيه اللى تخدر نفسها بعقلها .. تفضل تقنع فى نفسها لغاية ما تتخدر .. وبعدين تفوق على الندم !!

قلت وكأنى أسد فى وجهه كل الطرق التى تنفرنى منه :

— أهو يوم ما ابتدى اقنع نفسى ، وقبل ما اتخدر .. تبقى أنت تلحقنى ! .

ثم استطردت وانا انظر اليه بكل عينىّ :

— انا واثقة فيك يا مصطفى !! ..

ورغم ذلك فلم أكن حتى هذا اليوم — ولأيام طويلة أخرى — أثق به .. كنت أحاول أن أعرفه ، وكلما عرفته أكثر ازدادت حيرتي فيه .. كأني في بحر كلما تعمقت في مياهه خفت الغرق !! ..

كان كل مافيه يبدو متناقضا بعضه مع بعض .. عيناه الضيقتان اللتان توحيان بذكاء حاد خطر ، وشفتاه العاطفيتان اللتان توحيان بالطيبة والبساطة .. وسمرته اللافحة وفكاه القويان توحي بالقوة والعنف .. وأصابعه الرفيعة الطويلة توحي بالرقة والضعف .. وكان غنيا ، ورغم ذلك فأصدقاؤه كلهم من الشبان الفقراء .. وآراؤه من التطرف الى حد الشيوعية ، وكان يحمل ثلاث شهادات من كمبردج ورغم ذلك فهو لا يعمل شيئا ولا يبحث عن عمل ، وكان يبدأ سهرته في سميراميس ، وينتهي بها في الفيشاوي . وكان يقرأ كتابا في الفلسفة ثم يلقيه ويمسك بمجلة « البعكوكة » ويقهقه ضاحكا لنكاتها .. حتى مجموعة الاسطوانات التي كان يضمها دفعة واحدة فوق « البيك آب » ، كانت تتناقض احداها مع الأخرى .. اسطوانة لبيتهوفن ، ثم اسطوانة « ياعم يابنا » يغنيها شفيق جلال ، ثم اسطوانة لأم كلثوم ثم اسطوانة « جاز » سريعة عنيفة ، وكان عندما يبدل الاسطوانات يغني لنفسه منولوجا لشكوكو مطلعه :

« عين الحسود فيها عود وكمنجة » .

« أنا الترامواي وانت السنجة »

« بعدك رنجة وقربك منجه » !!

كيف تستطيع أن تحكم على هذه الشخصية ؟

كيف تستطيع أن تثق بها أو لا تثق ؟..

ورغم ذلك فقد تركتنى فى اليوم الأول الذى ذهبت اليه فيه ، وهذه الشخصية تسكن كيانى كله !!

وعدت الى بيتى دون أن يلمسنى ..

عدت وقد تضخم السر الذى أحمله فى صدرى حتى كاد يرتفع بى عن الأرض ويطير بى .. سر الرجل الذى ذهبت اليه .. سر حبى الأول !!

وأحسست أن هذا السر أكبر منى ، وأقوى من صدرى .. أحسست انى فى حاجة الى انسان آخر يحمله معى .. انسان أحدثه عن كل ما حدث .. أشركه فى سعادتى وفى خوفى ، وفى حيرتى ، وفى رأيى .. انسان أزهو أمامه بأنى أصبحت كبيرة ، وبأنى قد أصبح لى رجل ، ولى مغامرة ، ولى سر .

ونظرت الى طنط صاق — زوجة أبى — وتمنيت فى هذه الساعة لو أنها كانت صديقتى لأقول لها كل شىء .. ولكنها كانت تنظر الىّ جامدة صامتة ، وكأنها تبحث فى وجهى عن سرى ..

كنت قد تأخرت فى العودة عن البيت .. كنت قد عدت فى الساعة الثامنة ، وكان يجب أن أبدى عذرا لتأخرى ، ولكنى لم أجد نفسى مضطرة لأن أبدى عذرا ، وخصوصا ان أبى لم يكن قد عاد الى البيت .. كما أن طنط صاق لم

تسألني شيئا ، انما اكتفت بهذه النظرات الصامتة الثاقبة التي توجهها اليّ .. وربما انتظرت منى أن أتكلم .. أن أقول شيئا .. فلما لم أتكلم ، لم تتكلم هى الأخرى .. فهكذا عودتنى ، ألا تسألنى عن شىء ، أو تحاسبنى عن شىء ؛ أو تعطى لنفسها حقا على ..

ولا أدري لماذا أحسست فى هذا اليوم اننا ابتعدنا احدانا عن الأخرى ، أكثر مما كنا عليه من البعد .. وأن الستار الكثيف الذى يفصل بيننا قد ازداد كثافة .. أحسست أن وجودها فى البيت يضايقنى .. انها قيد على حريتى وتصرفاتى .. انها رقيب صامت يرقبنى كلما دخلت ، أو خرجت .. أحسست أنها تفهمنى جيدا ، وتفهم كل شىء دون أن تتكلم !!

ولكنى تناسيت وجودها !!..

وكان من السهل عليّ أن أتناساها كلما ذكرت مصطفى.. وقد كنت أذكر مصطفى طول يومى وليلى .. أذكره بقلبى وعقلى وأعصابى .. قلب حائر وهو يسمع طرقات الحب على بابه ، وعقل تائه لا يدرى أين الخطأ والصواب ، وأعصاب مشدودة كأوتار قيثارة جديدة لم تلن بعد بين أصابع صاحبها .

وذهبت اليه مرة ثانية فى شقته بشارع قصر النيل .. وكان لا يزال يراودنى بعض الخوف .. كنت أعتقد أنه اذا كان قد أعفانى من رجولته فى المرة الأولى .. فانما ليغرينى بأن أذهب اليه فى المرة الثانية !!..

ولكنه في المرة الثانية كان أكثر تحفظا من المرة الأولى ..
لم يحاول أن يلمسني .. سوى هذه القبلة التي يضعها فوق باطن كفي وهو يستقبلني ، ثم وهو يودعني ..

ثم ذهبت اليه كثيرا ..

ولم يعد لي ما أهتم به ، أو ما يثيرني الا أن أذهب اليه.. ولكنه ظل دائما متحفظا باردا !!..

كنت أسعد بحديثه الحلو عن حياته وكتبه وآرائه وتجاربه .. وكنت أسعد بسماع اسطواناته التي لم تكن تكف عن الدوران . وكنت أسعد باللوحات التي يجمعها ويظل يحدثني عنها ساعات ، ويطلعني على أسرار جمالها ، وكنت أسعد أيضا بحديثي اليه .. كنت أحدثه عن نفسي .. عن كل شيء في حياتي .. عن طفولتي وصباي .. وعن أبي وزوجته : وعن أمي وعن عمي عزيز ، وعن دادا حليمة ، وعبده السفرجي ، والأسطى محمد الطباخ .. وكان يعلم أولا بأول أخبار البيت كله .. ماذا اشترينا ، ومن زارنا ، بل كان يعلم ماذا يحوي « الفريجيدير » في مطبخنا ..

كان الرجل الوحيد الذي استطاع أن يدفعني الى الحديث عن نفسي بهذه الطلاقة .. وكان حديثي عن نفسي يريحني ويفتح صدري للحياة ، وقد أخفيت عنه أشياء كثيرة من حياتي .. ولكن ما قلته له لم أقله لانسان آخر .

كنت سعيدة ..

سعيدة بهذه الدنيا الجديدة الواسعة التى فتحها مصطفى أمامى .. دنيا لم أكن أعرفها ولم أكن أحلم بها ..

ولكنى لم أكتف بهذه السعادة .. كان هناك شيء أنتظر أن يحدث ، ولا يحدث أبدا !.

كنت أنتظر أن يقبلنى ..

نعم .. يقبلنى !.

لم لا ؟! .

ان كل قصة حب تبدأ بقبلة .. انى أرى القبلات فى كل صورة وفى كل مجلة ، وفى كل فيلم سينمائى .. وأكاد أسمعها من الغرفة المجاورة .. غرفة أبى وزوجته !

فأين قبلتى ؟!.

متى تبدأ قصة حبى ؟!!

. ربما كان لا يحبنى .. ربما كان لا يزال يعتبرنى كابنته.. كما وصفه مرة صديقتى تجلاء !!.

أو ... ربما كانت هناك امرأة أخرى ... ان رجلا مثله لا يستطيع أن يعيش بلا امرأة !

وعذبتنى هذه الأفكار ، وأصبحت لا أنام ..

كنت لا أكاد أخرج من عنده حتى أتصور أن هناك امرأة أخرى ستدخل بعدى .. وكنت لا أكاد أنام فى فراشى حتى أتخيل امرأة أخرى تنام فى فراشه ..

وأحيانا كنت أكاد أجن .. فكنت أغادر بيتى — كلما سنحت لى الفرصة — وأمر من أمام العمارة ، وأبحث عن

سيارته أمام الباب لأتأكد أنه ليس فى شقته مع امرأة أخرى..
وكنت كلما ذهبت مع والدى وزوجته الى السينما تحايلت فى عودتنا حتى نمر فى شارع قصر النيل ، وأبحث بعينين مجنونتين عن سيارته أمام العمارة ..

ولم يتأكد لى شىء ..

لم أتأكد من انه يعرف امرأة أخرى ولم أتأكد من انه لا يعرف امرأة أخرى !!

وسألته .. قلت له :

— يا ترى بتعرف مين غيرى دلوقت يامصطفى ؟..

ونظر الىّ كأنه يفهم ما أعنيه وقال فى بساطة وصدق :

— اليومين دول .. مافيش !!

قلت وأنا أكاد أحتد :

— مش معقول .. راجل زيك وعازب يقعد كده من غير واحـــدة !!

وقال مبتسما :

— الراجل اللى فى سنى يقدر يقعد طول عمره من غير واحـــدة ..

— ليه ..انت عندك ستة وتلاتين سنة وبابا اتجوز وهو عنده تسعة وتلاتين .

قال فى فتور :

— لازم تقى اللى تستاهل الجواز !!

قلت كأنى أشير له على نفسى :

— وانت ؟. لسه مالقيتش ؟!

ونظر الىّ ثم قال وهو يدير عينيه عنى كأنه يطرد فكرة من رأسه :

— لسه !!..

وأحسست بغصة .. أحسست بريح باردة يطلقها مصطفى على قلبى .. وفضلت أن أسكت ..

وقد دار مثل هذا الحديث بيننا أكثر من مرة .. وفى كل مرة كان ينتهى دون أن ينقذنى من الشك الذى يعذبنى .. الشك فى أن يكون على علاقة بامرأة أخرى .. امرأة كبيرة.. قد تكون زوجة تخون زوجها ، أو مطلقة .. وليست فتاة مثلى لم تتم السابعة عشرة من عمرها ..

ثم بدأت أحرضه ..

بدأت أحرضه على نفسى ..

كنت أتعمد أن ألتصق به كلما جلسنا لنقرأ كتابا .. وكنت أتعمد أن أضع يدى فى يده وأبقيها فيها .. وكنت أتعمد أن أسقط شعرى حتى يهفو على وجهه . ولا شك أنه كان يحس بكل هذا التحريض وكان يبذل ارادته كلها لمقاومته .. كان يحتج بأى حجة ويقفز من جانبى ، أو يسحب يده من يدى .. أو يبعد وجهه عن طيات شعرى ..

وكنت أشعر بمقاومته ..

وكنت كلما قاوم أتمادى فى تحريضه .. وكنت أستعد لهذا التحريض قبل أن أذهب اليه كأنى مقدمة على رحلة

صيد .. فكنت أتعطر بالعطر الذي يحبه ، وكنت أذهب اليه في زينة تبرز مفاتني على قدر ما كنت أفهم الفتنة في مثل عمري ..

وأكثر من ذلك ..

تعودت أن أقف عارية أمام المرآة .. وتعودت أن أنظر الى جسدي ، قطعة قطعة ، كأني أنتقي منه ما يعجب مصطفى، وكأني أنظر الى نفسي بعينيه .. ساقاي ، وجذعي ، ووسطي ، ونهداي ، وكتفاي ، وظهري الذي يشقه ظل خفيف يمتد من أول كتفي حتى جذعي .. عرفت أسرار جمالي كلها ، وعددت « الحسنات » التي تحلى بشرتي البيضاء .. واحدة في أعلى ساقي ، وواحدة في جنبي ..

وكنت أجزع كلما توقفت عيناي عند صدري المنعكس في المرآة .. كان صدري أصغر قليلا مما يجب أن يكون بالنسبة لطول قامتي .. وكنت أعلم هذا طول عمري ، ولكني لم أجزع له ، ولم أهتم به الا عندما خيل اليّ أن أعدّ نفسي لمصطفى .. عندما أصبحت أقف أمام المرآة عارية ومصطفى واقف معي في خيالي .

وأصبح همي أن أطوف بمحال الأزياء باحثة عن«ستيان» يلائم صدري ، ويبرزه من تحت ثوبي في حجم ملائم .. واشتريت عشرات من « الستيانات » من جميع الماركات وجميع الابتكارات الأمريكية والباريسية .. ولم أكن أعتقد أن هذا النقص الطفيف في جسدي يمكن أن يتعبني الى هذا

الحد .. ويمكن أن يشتد احساسي به حتى يصبح عقدة نفسية تدفعني الى أن أرقب صدور جميع السيدات اللاتي التقي بهن لأقارن بينهما وبين صدري .. وتدفعني الى الاحساس بأن كل ما يمكن أن يحدث لي ليس له سبب الا صغر صدري .. بل اني أصبحت أتعمد كلما ذهبت الى مصطفى أن أرقب عينيه وأنا خائفة أن تسقطا فوق صدري ..

ولكن مصطفى لم ينظر أبدا الى صدري أو الى جسدي.. كان كما عودني منذ أن التقيت به أول مرة لا ينظر الا الى وجهي .

الى أن كان يوم ..

وكان مصطفى واقفا بجانب « البيك آب » يعلق بعض الاسطوانات ، ويدمدم باحدى مونولوجات شكوكو ..

وجئت ووقفت بجانبه ، ووضعت يدي على كتفه—وكان قد خلع سترته — وانحنيت برأسي داخل البيك آب متظاهرة بأني أقرأ عنوان الاسطوانة ، ثم أدرت رأسي اليه حتى كادت شفتاي تلتصقان بشفتيه ، وقلت وأنا أتحداه بعيني :

— الاسطوانة دي تعجبني قوي !!

ولم يرد علي .. انما نظر الي طويلا .. ورأيت في عينيه شيئا جديدا مثيرا .. رأيته كأنه قد قرر أمرا طال أمد تفكيره فيه . وأحسست بأنفاسه أسرع مما تعودتها .. ولمحت حمرة خفيفة تصبغ وجهه الأسمر .. وقال في صوت لم أسمعه من قبل ، وكأنه يتكلم من أعماقه :



تعودت أن أقف عارية أمام المرآة .. وتعودت أن أنظر إلى جسدى

انتى خلاص أعفتينى من وعدى ؟!

قلت وشفتاى لا تزالان قريبتين من شفتيه ، وصوتى يكاد يصبح همسا :

— وعد ايه ؟..

— مش فاكرة انى وعدتك قبل ما تيجى الشقة أول مرة: انى ...

وقاطعته :

— لا .. مش فاكره !!

وطافت بشفتيه ابتسامة ، اختفت سريعا .. ثم شعرت بوجهه يقترب من وجهى ، ثم بخده ينام على خدى .. ثم بشفتيه تزحفان فى رقة دافئة وتضمان شفتى ..

لقد قبلنى .. أخيرا !!

ولم أحس الا بفرحتى بالقبلة الأولى .. القبلة التى انتظرتها كل هذه الأسابيع ..

ثم ألقى الاسطوانات التى كانت لا تزال بيده وضمنى الى صدره .. ثم ارتفعت يده ودست أصابعها فى طيات شعرى ، بينما ذراعه الأخرى لا تزال تضمنى فى قوة تمنيت أن تكون أقسى .. ثم انحنى يقبل عنقى .. عشرات القبل !!

ورفع رأسه ونظر الى وأنا لازلت بين ذراعيه ، وقال فى صوت مرتعش مبهور :

— أنا قاومت كتير يانادية .. أنا ..

ولم يتم حديثه انما نظر الى قميصه فرأى عليه آثار

أحمر شفتي .. فابتسم ابتسامة كبيرة .. ثم حل أزرار القميص وشده من تحت سرواله ، ثم خلعه وألقاه على الأرض..

ورأيت صدره عاريا .. صدرا أسمر فى لون البفتيك المشوى نصفه شواء !!..

وكنت قد رأيت صدورا عارية لرجال كثيرين على شاطىء البحر .. وكنت قد رأيت صدر مصطفى نفسه عاريا .. ولم أشعر أبدا أن الصدر العارى يمكن أن يثير فى كل هذه الأحاسيس التى ثارت فى نفسى ذلك اليوم .. أحسست كأن صهدا لافحا ينبعث من صدره .. أحسست كأن قوة كبيرة تنبعث من هذا الصدر العارى وتشدنى اليه .

وارتبكت .. وكأنى ضعفت .. وكأن كل شىء يتخلى عنى .. وكأنى لم أعد أستطيع الوقوف على قدمى .. وكأن نارا تندلع فى أعصابى وتصهرنى ثم تذيبنى ..

ولم أعد أستطيع أن أنظر اليه أو الى صدره العارى ..

وقال فى صوت متقطع خشن وكأنه يعتذر :

— أنا آسف.. كان لازم أقلع القميص علشان ما اضطرش أغسله قبل ما أنزل ..

ولم أرد عليه ..

وسكت طويلا ، وأنا أشعر بعينيه تطوفان فوق وجهى..

ثم مد ذراعيه وضمنى اليه ، وضغط رأسى فوق صدره العارى .. وأحسست بشفتى تحتضنان قطعة من صدره .. قطعة من لحمه !!..

هل أخطأت ؟..

اننى لم أشعر — وأنا معه — بمعنى الخطيئة ولا بطعمها..

كان كل ما يجرى بينى وبين مصطفى ، يجرى سهلا بسيطا كجريان الحياة نفسها .. لم أشعر أبدا بأنى أرتكب اثما ، ولم أشعر أبدا بمعنى من هذه المعانى الضخمة المخيفة التى تصورها القصص والأساطير .. لم أكن أشعر انى أخافه ، ولم أشعر بالمستقبل .. كان كل ما أشعر به هو أنى أعيش .. وأنى أعيش أسعد لحظات حياتى !!.

وقد جرى بينى وبين مصطفى الكثير .. بعد أن اختفى فارق السن بيننا كأن كلينا ولد فى يوم واحد .. يوم قبلنى لأول مرة .. وبعد أن أصبحت له — على مر الأيام — وأصبح لى ..

أعطيته كل ما أراد .. وأخذت كل ما أعطانى .. ولم أحس وأنا أعطى انى أفقد شيئا ، ولم أحس وهو يأخذ انه يغتصب شيئا .. كانت الطبيعة نفسها — طبيعة الكون — هى التى تأخذ منى وتعطيه ، وتأخذ منه وتعطينى .. طبيعة منظمة مقدرة ، كل بادرة منها لها موعد ولها دافع .. كانت قبلته تأتى دائما فى موعدها ، وكانت لمسته تقع دائما فى مكانها ، وكانت أنفاسه تهب دائما فى موسمها ..

لم يكن بيننا شيء مفتعل .. لم أشعر انه يعدّ شيئا مقدما .. ولم آكن أذهب اليه وأنا أعرف ما سيجرى بيننا .. أبدا .. انما كنت أذهب اليه وكل ما أعرفه انى سألقاه وسأدخل دنياه .. ثم نترك الطبيعة تتحكم فينا .. قد تهب الريح ، وقد لا تهب .. وقد تمطر وقد تصحو .. وقد يلحقنا الليل وقد يطول بنا النهار ..

وأكثر ما التقينا ، لم نلتق الا على حديث نتبادله ..

وكان دائما يجد ما يقوله لى ..

وكنت دائما أحب كل ما يقوله ، وأقتنع به .. كانت آراؤه كلها جديدة علىّ ، لم أسمعها من قبل ، ولم أر صورة لها فى الحياة التى تحيط بى .. كان يهدم كل التقاليد التى عشت فيها فتقع من حولى دون أن أسمع صوتا لسقوطها ، وكأنها لم تكن قائمة أبدا .. ثم كان يبنى فى عقلى عالما جديدا .. عالما ذا قباب مذهبة لامعة تخطف البصر حتى لا تعود ترى شيئا تخافه أو تخشاه ..

وكان هذا العالم ذو القباب المذهبة الذى يبنيه مصطفى بآرائه ، عالما كله حب .. سماؤه حب ، وأرضه حب .. لم يكن فيه شر ولا أشرار ، ولا جريمة ولا مجرمون .. كان الناس كما يراهم مصطفى كلهم ناس .. مجرد ناس .. يستوى منهم المجرم والصالح .. فالصالح دفعته ظروفه الى الصلاح ، والمجرم دفعته ظروفه الى الاجرام ، ويوم تتوحد الظروف لن يكون هناك صالحون ولا مجرمون ، بل سيتغير أيضا

معنى الصلاح ومعنى الاجرام ، ويصبح هناك معنى واحد تقوم عليه تقاليد واحدة يتبعها الناس جميعهم دون أن يشذ عنهم فرد ، لأن الظروف الواحدة التى يعيش فيها الأفراد كلهم لن تدفع فردا منهم الى الشذوذ .. لن يسمى الرجل الذى يعطى بعض ماله لرجل آخر ، محسنا كبيرا .. لأن العطاء بين رجلين يعيشان فى ظروف متساوية لا يسمى احسانا .. ولن تعتبر الفتاة التى تهرب مع فتى ، انها هاربة .. ولكنها مجرد فتاة ذهبت مع فتى ، فالظروف الموحدة بينهما لا يمكن أن تجعل لذهابها معنى الهرب ..

كان هذا هو العالم الذى يبنيه مصطفى بآرائه ..

ولم أكن أفهم آراء مصطفى تماما ، لم أفهمها الا بعد أن كبرت ، ولكنى كنت أقتنع بها لأنه يقولها ، ولأنى معه !!..

كان كل ما أفهمه أنه يجد دائما عذرا لكل شيء .. عذرا يصفح به عن كل جريمة !!..

رويت له مرة قصة زوجة أعرفها ، وأعرف انها تخون زوجها .. رويتها وأنا ثائرة على الزوجة ، وعلى خيانتها .. فقال بكل بساطة :

— لازم مابتحبوش !!..

قلت وأنا لازلت فى ثورتى :

— وعلشان ما بتحبوش تقوم تخونه !؟

قال :

— الحق عليه هوه .. قاعد معاها ليه اذا كانت ما بتحبوش ؟!

قلت :

— وهيه قاعدة معاه ليه ؟..

قال :

— مضطرة .. المجتمع اللى حواليها يضطرها أنها تفضل معاه ، لأن الطلاق عند الناس معناه فضيحة .. وخراب بيوت !!..

قلت :

— طيب بتكذب عليه ليه .. وتفهمه انها زوجة مخلصة ؟!!..

قال كأنه يلقى محاضرة :

— بتدافع عن نفسها .. عن مركزها فى المجتمع .. المجتمع هوه اللى غلطان مش هيه .. المجتمع هو اللى بيحتم عليها انها تكذب ، وتخدع ، وتنافق وتخون .. علشان تفضل عايشة فيه وتفضل محتفظة باحترامها .. زى الفلاح ما يكذب ويخدع ويسرق صاحب الأرض .. مضطر .. لأن ما فيش فى ايده سلاح تانى يدافع بيه عن حقوقه .

قلت ، وأنا أقاومه :

— يعنى كل واحدة ما بتحبش جوزها تخونه ؟..

قال :

— اذا ما كانتش بتخونه مع غيره .. تبقى بتخونه مع

نفسه .. بتديله عواطف كدابة وجسم ميت .. بتفكر في ماهيته أكتر ما بتفكر فيه .. بتفكر امتى حيموت أكتر ما بتفكر أد ايه حايعيش ، بتفكر امتى حيخرج من البيت أكتر ما بتفكر امتى حيرجع ..

قلت في حيرة :

— انت مجنون يامصطفى .. يا اما أنا غبية ؟..

قال وهو يبتسم :

— انتى مش غبية .. وأنا مش مجنون .. بس أنا شايف وانتى مش شايفة ، وبكره الدنيا حتتصلح .. المجتمع حيترقى .. مش حتلاقي اتنين متجوزين وما بيحبوش بعض .. ومش حتلاقي واحدة بتخون جوزها ، ولا واحد بيخون مراته . الانسان نفسه حيترقى والحب حيبقى له معنى أرقى من معناه دلوقت ..

قلت متهكمة :

— بكره امتى .. باذن الله ؟!

قال كأنه يقرر حقيقة :

— قولي كمان ألف سنة .. بعد الناس ما تتمرمط وتشبع مرمطة .. وتضطر تصلح نفسها ..

قلت :

— ومن هنا لألف سنة نعمل ايه ؟.

قال :

— حنفضل حيرانين .. كل اللي تقدري تعمليه انك

تشفقي على الناس وتعذريهم .. الست اللى خانت جوزها دي .. لو كنت انتى مكانها كنت خنتيه برضه .. فارحميها من لسانك .. واشفقى عليها .. واشفقى على جوزها .. وعلى اللى بتخونه معاه كمان .. كلهم ضحايا .. ضحايا مجتمع مسكين حيران !!..

قلت وأنا أفكر :

— لك حق ..

هكذا كنا نتحدث — مصطفى وأنا — حديثا يتجدد دائما .. وينتهى دائما باقتناعى .. وربما كانت هذه الآراء هى التى كانت تخفى عنى خطيئتى .. وتخفى عنى الله ..

ولكن هذا الاقتناع لم يكن يبلغ مداه الا وأنا معه .. فاذا تركته وعدت الى بيتى عاودتنى حيرتى !!..

وكان أكثر ما يحيرنى هو مصطفى نفسه .. كنت لا أكاد أبتعد عنه حتى تهتز صورته أمام عينىّ ، وتجتاحنى موجة من الشك تطغى على عقلى ، وعلى قلبى ، وتتلف أعصابى .. كنت أشك فى اقتناعى بآرائه ، وأشك فى اخلاصه وأشك فى حبه ..

هل يحبنى ؟..

هل يحبنى ؟..

هل يحبنى ؟..

سؤال كان يتردد فى صدرى كدقات ساعة ضخمة مزعجة تعد الثوانى بمطرقة فوق رأسى .. ولم تكن هذه الدقات

تمسكت الا عندما أكون معه .. ساعتها أنسى السؤال ، وأنسى الشك وأنسى حيرتى .. واتجمع كلى فى احساس واحد : انى معه !!..

ثم أتركه لأعود الى حيرتى ..

كنت لا أستطيع فى وحدتى أن أصدق انه يحبنى .. يحبنى كما أحبه .. كانت شخصيته أضخم فى نظرى من أن تكتفى بى ، وكان تماديه فى البساطة والصراحة يجعله يبدو أمامى معقدا غامضا .. انه ليس ككل الناس .. لا يعيش مثلهم ولا يتكلم مثلهم ، فلا بد انه أذكى من كل الناس وأخطر من كل الناس .. ثم ان آراءه التى يحدثنى بها لا يمكن أن تدعو الى الاطمئنان ، انه رجل لا يؤمن أن هناك شيئا اسمه فضيلة وخطيئة ، وحرام وحلال .. لا يؤمن بتقاليد .. انما يؤمن بأن الظروف هى التى تسيّر الانسان .. فكيف أثق بالظروف التى تحيط به والتى تحكم تصرفاته .. من أدرانى أن هذه الظروف لن تلقى فى طريقه امرأة أخرى ..

واقلبت حيرتى الى غيرة ..

أصبحت أغار عليه الى حد العذاب .

وتماديت فى المرور أمام باب العمارة — فى الساعات التى لا ألقاه فيها — حتى أرقب سيارته وأتأكد انه ليس فى شقته .. ثم بدأت أشك فى انه قد يأتى الى العمارة بلا سيارته، فبدأت أسخو على بواب العمارة بالمال ، وأسأله كلما مررت به :

— مصطفى بيه موجود فوق ؟ ..

وكان الجواب غالبا :

— والله ماجاش النهارده ياست هانم ..

وأعود أسأله :

— وياترى امبارح كان سهران هنا ؟

ويرد البواب فى تخابث :

— امبارح ؟!.. لا ياست هانم !

وعرفه البواب ما أرمى اليه ، فعين من نفسه جاسوسا على مصطفى يبلغنى كل أخباره ، ويبتز نظيرها نقودى .. وربما كرهت نفسى أيامها .. كرهت نفسى لأنى نزلت بها الى هذا المستوى الذى أسلم فيه سرى الى بواب ، ولكن كل هذا كان أرحم من الغيرة التى تمذبنى !!..

ولم ينقذنى التجسس على مصطفى من حيرتى ، ولم تبرد غيرتى ، فان مصطفى نفسه كان أصرح من أن يخفى عنى شيئا ..

قال لى البواب مرة أن مصطفى قضى سهرته فى الشقة مع بعض الأصدقاء والصديقات ، ولم آكد أقابل مصطفى حتى بدأ يروى تفاصيل السهرة ، قبل أن أسأله شيئا أو أحاسبه عليها . وأبحث فى عينيه وهو يتكلم عما يؤيد شكوكى .. فلا أجد الا صفاء الدنيا ، دنياى معه !..

كان الحل الوحيد أن أكون معه فى دنياه .. لأرتاح ..

وتماديت فى ذهابى اليه .. كنت ألقاه كل يوم تقريبا ؛

ولكننى كنت مضطرة أن أتركه دائما قبل الساعة السادسة.. قبل أن يعود أبى .. ثم لم أعد أكتفى ، كنت أريد أن أقضى الليل معه .. الليل الذى تعذبنى فيه غيرتى عليه !!

وبدأت أضع الخطط لأقضى الليل معه .

وبدأت الخطة بالتودد الى أمى .. أصبحت أحادثها كل يوم فى التليفون .. واكتشفت أن حديثى معها ، ثم اعادة رواية هذا الحديث لأبى يضايق زوجته ، فأمتلىء بشعور الشماتة .. الشماتة فيها . وأصبحت أكثر من الحديث عن أمى أمام أبى وزوجته .. جعلت من أمى شبحا يعيش معنا .. كنت أقول لهما أين ذهبت أمى اليوم ، وماذا اشترت ، ومن زارها ، وبماذا أوصت طباخها ليعد طعاما .. كان كل ما أسمعه من أمى أقوله لهما .. وأشمت فى زوجة أبى ..

ولم يعلق أبى على توددى لأمى .. ربما نسب ذلك الى وحدتى فى البيت بعد أن انقطعت عن المدرسة .. وربما نسبه الى اننى كبرت وأصبحت فى حاجة الى صداقة أمى ..

وبعد أن اطمأننت الى أن صداقتى لأمى أصبحت أمرا معترفا به فى البيت .. تعمدت فى احدى المرات وأنا أحادثها فى التليفون ، أن اضغط بأصبعى — ومن طرف خفى — على مكان السماعة .. فانقطعت المحادثة .. ولكنى استمررت فى الحديث ، وقلت كأن المكالمة لا تزال مستمرة بينى وبينها :

— بس لازم أستأذن بابا ؟

ثم التفت الى أبى قائلة :

— ماما عازمانى على السينما سواريه .. أقدر أروح ؟

وهز أبى رأسه علامة الموافقة . وعدت أقول فى سماعة التليفون :

— بابا موافق !!..

ثم سكت قليلا ، وعدت أقول :

— لأ .. بلاش تفوتوا على .. أنا أفوت عليكى الساعة تمانية .. تتعشى ونروح السيما !!

ثم أعدت السماعة مكانها ..

ولم أنس بعد قليل أن أتصل بأمى مرة ثانية ، وأقول لها فى سذاجة :

— ايه اللى قطع السكة ؟!!..

وفى الساعة الثامنة كانت سيارتنا تحملنى الى العمارة التى تقيم بها أمى فى حى الزمالك ، ووضعت نفسى فى المصعد وصعدت به الى آخر طابق .. ثم نزلت به ثانية ، وكانت سيارتنا قد انصرفت ، فركبت سيارة أجرة وذهبت الى مصطفى ..

وقلت له كل ذلك ..

سردت له تفاصيل الخطة التى اتبعتها لألقاه ولأبقى معه حتى منتصف الليل .. فنظر الى دهشا .. وربما كان فى دهشته معنى الاعجاب بذكائى ، وربما كان فيها معنى الجزع من اندفاعى ، ولكنه لم يلمنى .. أو يحذرنى ..

كان هو الآخر فى حاجة الى لقائى .. وكان يسعد بلقائى

معه حتى منتصف الليل .. فكان يكتفي بابتسامة تحتار فوقها المعاني ، وكأنه يلوم الظروف التي تضطرني الى أن أخدع وأن أكذب وأن أنافق لألقاه ، ويلوم نفس الظروف التي تدفعه الى أن يقرني على خداعي وكذبي ونفاقي .. ثم يدير لي ظهره ويعلق الاسطوانات في « البيك آب » وكأنه يفتح باب دنياه بالأنغام . . . .

. . . .

وفي الثانية عشرة كان مصطفى يعود بي الى بيتي .. وكأني سندريلا ، أخشى ان تأخرت عن موعدي أن تتخلى عني الساحرة !!..

وتكرر ذهابي الى مصطفى وبقائي معه حتى منتصف الليل ، وكنت في كل مرة أجد خطة جديدة .. خطة محبكة الأطراف لا تنفضح ولا تثير شبهة أحد .. لا تثير الا هذه النظرات الصامتة الجامدة التي تقابلني بها زوجة أبي ، كأنها تقرأ سري على وجهي ..

ورغم ذلك لم أكن سعيدة ..

كنت لا أكاد أعود الى بيتي حتى أحس بانقباض في قلبي .. كنت أحس بالخجل من نفسي .. خجل حاد كسكين يشق صدري ..

كنت أسمع الصوت المجهول يصرخ بين ضلوعي ويسألني : لماذا ؟..

لماذا أفعل كل ذلك ؟

لماذا أندفع كل هذا الاندفاع فى الحب ؟
لماذا لا أقاوم نفسى ؟

وكانت هذه الأسئلة تنطلق حولى فى رنين أجوف ضخم .. كأنها آتية من عالم بعيد .. عالم كل ما فيه قديم ، وكل ما فيه فراغ ، وسكانه ذو عمائم ضخمة ، وذقون طويلة، ووجوه نحيلة وعيون واسعة .. واسعة جدا ، وكنت أحس كأن هذه العمائم تسقط ثقيلة على صدرى حتى تكاد تحطم ضلوعى ، وهذه الذقون تلتف حول عنقى وتكاد تخنقنى ، وهذه العيون تلتهمنى حتى أختفى فيها وأصبح فى ظلام مخيف ..

كنت كأنى أصاب بكابوس .. فأخفى رأسى فى وسادتى.. وأهمس كأنى أصرخ : « مصطفى .. مصطفى » .. كأنى أستنجد به .. أستنجد بحبيبى !!..

وكنت فى هذه النوبات أشفق على أبى .. أشفق عليه وأنا أهدر ثقته بى .. وأشفق عليه وأنا أمزق الصورة البريئة الطاهرة التى رسمها لى فى خياله .. وأشفق عليه وأنا أهدم المستقبل الذى يتمناه لى .. أشفق عليه الى حد أن يبكينى ضميرى !!

وكنت أحاول أن أخدع هذا الضمير ، وأحاول أن أناقشه .. كنت أقول له — لضميرى — : « ان أبى رجعى .. انه لا يعيش فى الدنيا التى نعيش فيها .. ولا يفهم العقلية التى نفكر بها .. ولا يقدر الحاجة التى يدفعنا اليها المجتمع

الحديث » .. ثم أحاول أن أؤيد قولي فأستعرض في مخيلتي حكايات البنات اللاتي أعرفهن واللاتي سمعت عنهن .. انهن كلهن مثلي .. كل واحدة لها رجل تذهب اليه وتعطيه نفسها .. كلهن مثلي .. وان كنت قد تماديت فلأن ظروف حياتي قد سمحت لي بالتمادي ..

ولكن ضميري كان يرفض أن يقتنع .

وكان يعذبني ..

كنت أحس كأن يدا تخرج من صدري وتقبض على عنقي وتحاول أن تخنقني .

وكنت أحلف بالله — عندما يشتد بي العذاب — أن أقاوم .. أن أسلط ارادتي على نفسي حتى أمنعها من مصطفى ..

ولكن محال ..

كان الوقت قد فات ..

كنت قد أدمنت مصطفى .. أدمنت رقته ، وأدمنت بساطته وصراحته ، وأدمنت لقاءه ، وأدمنت الشقة التي أقابله فيها ، وأدمنت العالم ذا القباب المذهبة الذي يفتحه لي ، وأدمنت قبلاته ولمساته ، وأدمنت حيرتي فيه ، وغيرتي عليه ..

كنت كالمدمن .. كلما تمادى ازداد تماديا ..

وكلما فكر في مصيبته أمعن فيها .

وكلما قاوم ادمانه ، اندفع اليه ..

كان مصطفى هو المخدر الذى ينسينى ضميرى ، وينسينى شرورى ، وينسينى كل ما مر بى فى حياتى ..

ولم يعد يكفينى ما أتعاطاه منه .. لم يعد يكفينى أن ألقاه كل يوم ، وأن ألقاه أحيانا حتى منتصف الليل ..

طمعت فى أن أزيد « الوجبة » التى أتناولها من المخدر ..

طمعت أن أقضى ليلة كاملة معه حتى الصباح .. أن أبيت معه ، فقد سئمت دور « سندريللا » التى تعود الى حياتها الفقيرة عندما تدق الساعة معلنة انتصاف الليل ..

أريد أن أكون أكثر من سندريللا ..

وبدأت كالمجانين — مجانين المخدرات — أضع خطتى..

وكانت خطة أبسط مما تصورت .. مهدت لها بضعة أيام ثم أقنعت أبى بأن أمى تقيم حفلة بمناسبة عيد ميلاد ابنها ، وانى وعدتها بأن أبيت عندها ليلتها ..

وعارض أبى قليلا ثم وافق ..

وكنت واثقة انه لن يحاول أن يسأل أمى عن الحفلة الموهومة التى تقيمها ، ولن يحاول أن يطمئن على وأنا فى بيتها .. فهما — أبى وأمى — لايتبادلان الحديث منذ وقع بينهما الطلاق ..

ورغم ذلك فقد كنت حذرة .. أردت أن أواجه جميع الاحتمالات فاتصلت بمصطفى قبل أن أغادر البيت وقلت له هامسة :

— اسمع .. أنا حقفل السكة دلوقت ، واطلبنى تانى حالا ..

ووضعت السماعة ..

واتصل بى مصطفى فى الحال ، وعدت أهمس :

— أنا حاقفل السكة تانى دلوقت .. انما انت ما تقفلهاش .. خلى سماعتك مرفوعة على طول .. حطها جنب التليفون واسبقنى على هناك ..

وقال مصطفى فى عبط :

— هناك فين ؟..

— على الشقة ..

وقال دهشا :

— دلوقت ؟!..

— دلوقت حالا .

ووضعت سماعة التليفون ..

ولم يضع مصطفى سماعته ..

وبذلك ضمنت أن أبى لن يستطيع أن يسأل عنى بالتليفون فى بيت أمى ، فقد كنت أعلم انه اذا اتصل شخص من الخارج بأى نمرة تليفون ، وعلق سماعة تليفونه فى الهواء ولم يضعها فى مكانها ، تعطلت النمرة التى اتصل بها الى أن يعيد سماعته ..

كنت أعلم كل شىء عن التليفون !!

ثم ذهبت اليه ..

لم أذهب اليه ككل مرة .. فقد قضيت نهارى كله أفكر فى الليلة التى سأقضيها معه .. كنت أفكر كأنى عروس تستعد لليلة زفافها .. وأعددت نفسى كعروس ..

أعددت كل التفاصيل التى تعدها كل عروس ..

وكنت وأنا أعد نفسى أرتعش كلى .. رعشة المغامرة .. رعشة لذيذة فيها خوف ، وفيها تردد ، وفيها لهفة .. لذة المقامر وهو يقامر بكل ماله ، وينظر الى عجلة الحظ وهى تدور أمام عينيه ، فى انتظار الربح .. أو الخسارة !!.. أو لذة المدمن وهو يمد يده ليتناول المخدر فى انتظار أن ينتشى.. أو يموت !!..

وأعددت لنفسى ثوبا أبيض .. كثوب العروس .. يضيق على جسدى حتى يكاد يلتصق به ، وينفتح عند الصدر فيكشف عن كتفى وعن الخط الأول من دائرة نهدى .. وأعددت معه قفازا طويلا ينسحب فوق ذراعى حتى يغطى مرفقى ..

ولم أكن أستطيع أن أخرج من أمام أبى وزوجته بهذا الثوب ، فانه ثوب أكثر تجملا مما تستحقه حفلة عيد ميلاد طفل صغير .. وكنت أحرص على أن أبعد عنى كل الشبهات.. أبعد عنى حتى مجرد التساؤل .. فارتديت هذا الثوب الأبيض ، وارتديت فوقه « جيب » طويل واسع ، « وبلوز » مقفولة الصدر ، وأمسكت بحقيبة يد كبيرة من حقائب الصباح ، وضعت فيها قميص نوم من الحرير الأبيض ،

ووضعت فيها قفازى الطويل ، وخاتمى الماسى .. ثم مررت من أمام والدى وزوجته فى طريقى الى باب الخروج ..

لم يكن فى ما يثير الشبهة أو التساؤل ..

وكنت واثقة من ذلك ..

ورغم ذلك فقد أحسست وأنا واقفة أمام أبى ، كأن وجهى قد احتقن ، وكأن أطرافى تتخلى عنى ، أو كأن الأرض تميد بى ؛ أحسست بالصوت المجهول يكاد يرتفع فى صدرى من جديد ... ولكنى أخمدته .. بذلت مجهودا كبيرا لأخمده .. وقلت لنفسى : « ان أبى سعيد مع زوجته ... ولن يبخل علىّ بالسعادة مع حبيبى » !!

ثم انحنيت أقبله قبلة سريعة باردة .. ولكنى ما كدت أرفع شفتى عن خده ، حتى عدت وألصقتهما به مرة ثانية .. وكانت القبلة الثانية حارة كأنى أبكى بشفتى فوق خده .. ثم أسرعت بالخروج ، وأنا أحيى زوجة أبى بصوت مرتفع .. أكثر ارتفاعا مما يجب .. وكأنى أصرخ :

— بونسوار طنط !!

ووصلت الى العمارة التى ينتظرنى فيها مصطفى ، وشعور المغامرة لا يزال يستبد بى ، حتى لا أستطيع من فرط استبداده أن أفسره ..

وصعدت بالمصعد ، ثم أوقفته بين طابقين .. وبدأت أخلع « الجيب » و « البلوز » ووضعتهما فى الحقيبة ، وأخرجت القفاز ووضعته فى ذراعى ، ووضعت فى أصبعى — فوق

القفاز — خاتمي الماسي الكبير .. ثم التفت الى المرآة أصلح من نفسي .. أخرجت قلم الحواجب وضغطت به على حواجبي .. وقلم « الروج » وضغطت به على شفتي ..

ثم عدت أصعد بالمصعد ..

وفتح باب الجنة . .

ووقف مصطفى ينظر الى مشدوها .. لم أره أبدا ينظر الى كما نظر الىّ هذه المرة ..

وقال فى صوت تحشرجه الدهشة :

— ايه ده كله ؟!!..

وابتسمت ابتسامة غرور .. كنت أعلم انى فى هذه الساعة أجمل منى فى أى ساعة أخرى .. كنت فعلا عروسة .. لاينقصها سوى الطرحة !!..

ودخلت صامتة ..

ونظر مصطفى الى الحقيبة الكبيرة فى يدى ، وقد اشتدت دهشته حتى بدا كالعبيط :

— ايه الحكاية ؟!!..

قلت وأنا أحاول أن أبدو طبيعية :

— ولا حاجة .. حانام هنا الليلة !!.

واختفت ابتسامة مصطفى .. ونظر الىّ بوجه جاد ، وعينين حائرتين .. كأنهما صادفتا مشكلة خطيرة .. ولم يتكلم !!...

وقلت كأنني اكتشفت جرمي .. قلت متسائلة .. وكأني لا أسأله انما أسأل نفسي :

— أنا غلطت يامصطفى ؟!!..

وبقى صامتا كأنه لا يزال يفكر .. ثم لانت نظرات عينيه.. وعادت الى شفتيه ابتسامة حانية حلوة .. ومد ذراعيه واحتواني في صدره في حنان ، وسمعت صوته يهمس بجانب أذني .. كأنه يغريني :

— انتى ماغلطتيش ياناديه .. الدنيـا هي اللي غلطت معاكي .. ومعايا !!..

وأبعدني عن صدره ، وجذبني الى حجرة البار ، وجلسنا فوق مقعدين من المقاعد المرتفعة ، ثم قال ضاحكا وهو يفرغ لي كأسا من الويسكي ويفرغ لنفسه كأسا :

— احكيلي .. ايه اللي حصل بالضبط ؟ !! ..

وبدأت أحكي له كل ما جرى في يومي ، وكان يبتسم ، وخيل الي ان في ابتسامته مرارة .. ولكنه ضحك .. ضحك كثيرا وأنا أروي له كيف لبست « الجيب » و « البلوز » فوق ثوبي الأبيض ، وكيف خلعتهما في المصعد .

واتهيت من كأسي ..

ولم تكن المرة الأولى التي أشرب فيها كأسا .. كنت قد شربت عدة كئوس في عدة مناسبات ، وكنت قد شربت كئوسا أخرى مع مصطفى .. ولم يكن مصطفى يقدم لي الكأس ليسكرني ، لم يلح علي ابدا في ان أشرب أكثر مما

اريد ، وفعلا لم أسكر ابدا فى حياتى .. لم يكن الويسكى يؤثر فىّ ، ولكننى احسست لهذه الكأس بنشوة لم احسها من قبل ! ..

وجذبني مصطفى من يدى مرة ثانية .. ودخلنا الى الحجرة الأخرى ، التى كنت اسميها حجرة المكتبة .. وكان ضوؤها أصفر خافتا ينبعث من « أباجور » كبير منزو فى ركن بعيد ..

وبدأ مصطفى يعلق بعض الاسطوانات فى «البيك آب» .. ثم التفت الى ، ولفنى بنظرات عينيه .. نظرات مبهورة ساخنة ..

وقال على أنغام أول اسطوانة :

— تعرف أنا نفسى فى ايه دلوقت ؟.. نفسى أخرج بيكى فى الشارع وأمشى قدام الناس وأقول لهم : دى بتاعتى .. كل الجمال ده بتاعى .. عينيكى بتوعى .. وشفايفك بتوعى .. وشعرك بتاعى .. كل حتة فيكى بتاعتى أنا .. تعرف أحلى حاجة فيكى ايه ؟..

قلت وأنا أزهو بنفسى وبجمالى :

— ايه ؟..

قال كأنه يغيظنى :

— أنا .. حبى !!..

قلت كأنى أصد غروره بنفسه :

— أبدا كل الناس بتقول ان أحلى حاجة فيه .. لون عينيه !! .

قال وهو يضحك :

— لو ما كنتيش بتحبينى ما كان لون عينيكى بأه حلو كده .. كانت بقت عينيكى دبلانه .. وخدودك نايمة على شفايفك .. وشفايفك نايمة على دقنك .. قولى يانادية .. قولى ان أحلى حاجة فيكى هيّه حبى !!..

ولم أقل شيئا .. انما ارتميت فوق صدره .. وتركته يسمع حبى من دقات قلبى ..

كنت أصدقه وأصدق نفسى .. كنت أصدق كل شىء وأنا معه !!..

ورقصنا على أنغام الاسطوانة الثانية .. ثم بدأت خطواتنا تتثاقل حتى توقفنا عن الرقص ، وشفتاى بين شفتيه وأنفاسه تلسع وجهى ، وذراعاه تضغطانى اليه .. تضغطانى بقسوة !!.

ولم أحس وأنا هائمة فى قبلته بأصابع مصطفى وهى تبحث عن « سستة » ثوبى وتشدها لتخلع الثوب عنى !!..

ولم تكن المرة الأولى التى أخلع فيها ثوبى أمام مصطفى.. كانت الطبيعة خلال الشهور الطويلة التى عرفته فيها قد أعطته منى ما أراد ، وأعطتنى منه ما أردت .. ولكنى فى هذه

المرة أمسكت بأصابعه التى تخلع ثوبى .. وقلت فى حزم مبتسم :

— لا ..

ونظر الىّ مصطفى دهشا كأنى أزعجته فى أحــلامه ، واستطردت قائلة :

— دور وشك ..

ولم يفهم مصطفى .. وظل ينظر الى دهشا . وقلت وأنا أدير ظهره لى بيدى :

— دور وشك .. وماتبصش الا لما أقول لك ..

وابتسم مصطفى .. وخطا عدة خطوات الى آخر الغرفة بجانب « الأباجور » وأدار وجهه ، وانتظر ..

وخطوت أنا الى ركن الغرفة المقابل .. وفتحت حقيبتى ، وأخرجت منها قميص النوم الحريرى الأبيض .. وخلعت ثوبى بيدى .. وأنا أقول له بين الحين والآخر :

— أوعى تبص !!..

ثم لبست قميص النوم ..

وقلت بصوت هامس خجــل .. كأنى أقابل مصطفى لأول مرة :

— بص بأه !!.

والتفت الى ونظر كأنه لا يصدق عينيه !!.

وأبعدت عينيّ عن عينيه .. كأني لا أستطيع أن أواجهه، أو لا أستطيع أن أواجه النشوة التي تضطرم بين أضلعي !.

ومد ذراعه وأطفأ « الأباجور » .. لم يبق سوى ضوء خافت ينبعث من الحجرة المجاورة ، يتسلل الينا مترددا على استحياء ..

وأحسست به .. بجانبي ..

وأحسست به يجذبني الى الأريكة العريضة ، ثم نقع فوقها كأننا ورقتان خفيفتان يسقطهما الهواء من فوق شجرة الى الأرض .

وأحسست بنفسي بين ذراعيه !!.

وتمنيت ساعتها أن يكون في الشقة غرفة النوم .. ليتم بها حلم العروس ..

وانقضى الليل ونحن الاثنين لا ننام !!.

* * *

وعدت الى بيتي في صباح اليوم التالي .. عدت عذراء .. وليس لي فضل .. فقد كان مصطفى منذ عرفته يحرص على أن يبقيني عذراء ، ربما لأنه أراد أن يترك شيئا مني يعترف به المجتمع .

ولم ألتق بوالدى .. كان قد خرج . ولم أرفع عينى إلى زوجة أبى .. كنت لا أستطيع !.

وخلعت ثيابى ، ورقدت فى فراشى مفتحة العينين أنظر بهما الى سقف الغرفة .. كأنى أبحث فيه عن مصيرى .

وأحسست برغبة ملحة فى البكاء .. ولكنى قاومت دموعى .. فلم أكن أعرف سببا للبكاء .. ثم أمسكت سماعة التليفون ، واتصلت بمصطفى كأنى أستعين به على دموعى، وقلت وأنا أحاول أن أضحك :

— وحشتنى !!.

وقال فى برود .. وكأنه يتثاءب :

— وانتى كمان !!.

ووضعت السماعة .. ثم بكيت ..

لماذا البكاء ؟!.



لا أدري متى بدأ الحديث بيني وبين مصطفى يدور حول زوجة أبي ..

ربما ذكرها كان يرد في كل حديث ، ولكنها لم تكن أبدا موضوعا لحديث .. كنت لا أكاد أذكرها حتى أطردها من فوق لساني ، وكأني أضن عليها بأن تشاركني في متعتي بحديث مصطفى .

وفي كل مرة كنت أذكرها . كنت أحاول أن أثير مصطفى عليها .. كنت أحاول أن أجعله يكرهها كما أكرهها ، ويحقد عليها كما أحقد عليها .. كنت لا أذكر له عنها الا ما أتصوره عيبا فيها ، وكنت أجعل من كل فضائلها نقائص .. ولكن مصطفى لم يكن يثار ، ولم يكن يكرهها ، بل خيل الي انه يحاول الدفاع عنها . لا لشيء الا لأنه يشعر بمدى حقدي عليهـا ..

قلت له مرة :

— تعرف ان طنط صافي صحبانه على قوى !

قال بلا مبالاة :

— ليـه ؟

قلت كأني أشفق عليها :

— لأن بابا ما بيحبهاش !!

قال بلا مبالاة أيضا :

— ايه عرفك ؟!

قلت :

— أنا عارفة .. متأكدة ..

قال وهو ينظر الى كأنه يؤنبني :

— وكان اتجوزها ليه ؟

قلت وأنا أتجاهل نظرته :

— علشان خاطري .. كان عايز يجيب واحدة في البيت علشان تعيش معايا وتاخد بالها مني !

قال وهو لا يزال ينظر كأنه يحقق معي :

— واشمعنى اختار الست دي بالذات علشان تعيش معاكي .. ما اختارش واحدة يحبها ليه ؟..

قلت كأني أحاول أن أقنعه :

— لأنها غلبانة !!.. ولأنها ست بيت .. عارف ستات البيوت اللي من المطبخ للسرير ، ومن السرير للمطبخ .. اهي زيهم ؟

قال وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

— ولازم على كده تكون وحشة وتخينة ومابتعرفش تقرا وتكتب !

قلت وأنا متفائلة من ابتسامته :

— نص نص .. مش تخينه قوي ، ولا وحشة قوي . ولا تقرا وتكتب قوي !

وسحب ابتسامته الساخرة ، وأمسك بيدى بين يديه ، وقال فى جد ووقار كأنه يلقى على درسا :

— على كل حال ياناديه اذا كان بابا ما بيحبهاش لازم تخليه يحبها .. و ..

وقاطعته كأنى لا أريده أن يستمر :

— أخليه يحبها ازاى .. هو الحب بالعافية !!

قال فى هدوء :

— اذا كان اتجوزها علشان خاطرك ، تقدرى تخليه يحبها علشان خاطرك برضه .. المهم انها تكون سعيدة فى حياتها علشان أبوكى يبقى سعيد وانت كمان تبقى سعيدة.. مش ممكن حاتعيشى سعيدة فى بيت مافيهش سعادة ومع ناس متنكدين ..

وضغط على يدى ونظر فى عينى وابتسم فى حنان كأنى ابنته .. واستطرد :

— .. ومش ممكن حاصدق انك بتحبينى الا لما تحبى كل الناس ، ومن ضمنهم طنطك صافى .. اللى بتحب قلبها بيكبر لدرجة انه يساع كل الناس ويصفح عن كل الناس ..

وكنت أعرف ان هذه هى فلسفة مصطفى فى الحياة وفى الحب .. وكنت أعلم انى مهما ناقشته فلن أستطيع أن أحوله عن فلسفته أو أجعله يكره أحدا .. فغيرت موضوع الحديث، وقلت بسرعة :

— أبدا والله .. ده أنا باحب طنط صافى قوى !!



ودس أصابعه بين طيات شعرى ، وشدنى إليه . . .

ثم رفعت اليه عيني ، وقلت كأني أهمس بهما :
— انت لسه مصدق اني باحبك يامصطفى ! .
وسحب يده من يدي ووضعها فوق خدي ، كأنه يحتضن وجهي بكفه .. ثم ارتفع بيده ودس أصابعه بين طيات شعري ، وشدني اليه والتقط شفتي بشفتيه ..
وقال وأنا لازلت مبهورة بقبلته :
— أنا مش مصدق انك فاهمة معنى الحب !!
قلت كأني أتحدث بأنفاسي :
— فهمتني !!
وابتسم ابتسامة القوي الواثق من نفسه ، وكأنه يعرف ما أريد ، ثم بدأ ينزع بأصابعه المشابك التي تمسك بشعري فوق رأسي ، ليطلقه وراء ظهري ، كعادته عندما يريدني

. . . .

. . . .

ومن يومها لم أتحدث اليه عن زوجة أبي ..
بل اني من يومها حاولت أن أحبها ، وأن أتخذها صديقة ، وفكرت أن أطلعها على سري .. وكان ما فيها يدعوني الى حبها والى صداقتها ، ولكني لم أستطع .. كل ما استطعته هو اني تجاهلتها .
كان الشر والحقد يرسبان في أعماقي ، فلم أستطع أن أنتزعهما ، ولكني استطعت أن أخفيهما .. أخفيهما حتى عن نفسي ..

لم أعد أرقب لهفة أبي عليها وتدليله لها ، ولم أعد أتتبع كلفة عمي عزيز بها ، ولم أعد أثور وأنا أرى شخصيتها تطغى على البيت كله ، وتبرز في كل حفلة ..

وكان حبي لمصطفى يعينني على كل ذلك .. كنت أقول لنفسي دائما : « لقد أصبح لي رجل يغنيني عن أبي وعمي ، وأصبح لي بيت غير هذا البيت .. رجل هو مصطفى .. وبيت هو البيت الذي ألتقي فيه بمصطفى .. »

كان حبي لمصطفى هو دوائي من شري وحقدي .. وكنت أفكر فيه وأتخيل رقته وابتسامته ، وقبلاته ولمساته ، كلما حاول هذا الحقد وهذا الشر أن يطلقا شرارتهما ، أو يطفوا على سطح نفسيتي.. وكنت أحاول أن أطبع شقته التي نلتقي فيها بطابعي الخاص حتى ازداد اقتناعا بأن هذه الشقة هي بيتي .. كنت أصرف كل ما يصل الى يدي من نقود في شراء أشياء أضعها هناك .. اشتريت كثيرا من التحف الصغيرة نثرتها في كل مكان ، واشتريت «طاقم» من كوبات الكريستال ووضعتها في « البار » ، واشتريت عشرات الاسطوانات وعشرات الكتب .. كتب لم يكن مصطفى ولا أنا نقرأها ، ولكني كنت أسعد بها وأنا أراها فوق أرفف المكتبة .. وتعلمت أشغال « الكانافا » وطرزت مفرشين صغيرين وضعتهما هناك .. وكنت أحيانا أنقل صورة مكان صورة أو مقعدا مكان مقعد .. كنت أفعل كل ذلك باحساس « ست

البيت » .. كنت أريد أن أقنع نفسي بأن هذا هو بيتي الذى لا يشاركنى فيه أحد .. ولا تشاركني فيه طنط صفية !!

شيء واحد كان ينقصنى ، وهـو أن يعطينى مصطفى مفتاح الشقة .. كنت أريد أن أدخل بيتى دون أن أضغط على الجرس ، ودون أن يفتح لى الباب أحد .. كنت أريد أن أكون أنا فى اسـتقبال مصطفى وفى انتظـاره ، بدل أن يستقبلنى هو وينتظرنى ..

ولكن مصطفى لم يعطنى مفتاح الشقة ولم يعرضه على.. ربما لأنه لم يخطر على باله انى أريده .. وربما ..

لقد عذبنى هذا المفتاح ، عذبنى كثيرا . كان يخيل الى دائما انه يحرمنى منه حتى يحتفظ بحريته فى دعوة من يشاء من النساء ..

وكانت الغيرة تصور لى أحيانا باب الشقة وهو يفتح ، وتدخل منه امرأة أخرى ، ويستقبلها مصطفى كما يستقبلنى، ثم يسحبها من يدها ويرقد معها فوق الأريكة الكبيرة .. وكنت أجن من هذه الأوهام .. جنون الزوجة عندما تتصور عشيقة زوجها فى فراشها .. وكان يخيل الى وسط هـذه الأوهام انى أرفع بيدى فأسا وأحطم بها الباب الذى يفصلها عنى .. ثم أخاطب نفسى : « آه ، لو كان معى المفتاح » !

ورغم ذلك لم أجرؤ على أن أطلب المفتاح من مصطفى..

ربما حياء ، وربما لأني كنت أكتفي وأنا معه بأني معه ، وكنت أنسى كل أوهامي وكل العذاب الذي يدهمني في وحدتي .



وهكذا مر عام ..

عام تجاهلت فيه زوجة أبي ، وتجاهلت البيت الذي أعيش فيه وأعطيته كله لمصطفى .. أسعد به ، وأتعذب به ، وأستعين بحبه على شروري وحقدي ..

ثم كان يوم ..

ودعينا — أبي وزوجته وأنا — الى حفلة راقصة يقيمها صديق لأبي بمناسبة ذكرى زواجه ..

ولم أكن أريد أن ألبي الدعوة مع أبي وزوجته .. كنت قد تعودت خلال هذا العام أن أرفض كثيرا من الدعوات التي ندعى اليها ، وكنت أفضل عليها أن أبقى وحيدة في البيت ، أفكر في مصطفى أو أحادثه في التليفون ، أو أتسلل لألقاه في شقته ، وأعود قبل أن يعود أبي ..

ولكن أبي ألحّ على كثيرا في هذا اليوم .. وكنت أعلم ان الحاحه بايعاز من زوجته ، فقد كانت تعترض دائما على انزوائي ووحدتي .. كانت تريدني أن أظهر دائما فى المجتمعات ليتسع أمامي مجال اختيار زوج لي ..

ولم أقرر أن ألبي الدعوة ارضاء لأبي الا في المساء .. واتصلت بمصطفى بالتليفون لأنبئه بذهابي ، فلم أجده في بيته ..

وذهبنا ..

وكنت ليلتها هادئة النفس والأعصاب وفى قلبى سكينة واطمئنان ، فوقفت طويلا أمـام المرآة .. تزينت كأحـلى مايمكننى أن أتزين ، وانتقيت ثوبا «كوكتيل» من «الداتيل جيبير » رمادى اللون تحليه « فيونكة » عريضة من اللون الوردى الفـاتح الخفيف ، ويكشف عن ظهرى وكتفى .. ووضعت فوقه فراء من « الرينار بلو » .. أما زوجة أبى فقد ارتدت ثوبا للسهرة « سواريه » من « الساتان دوشيس » أسود اللون تنتشر فوقه حبات من الترتر الأسود كأنها نجوم تختفى وراء ستر الليل حياء من القمر .. كان ثوبها «حشمة» لايكشف عن ظهرها ولا عن كتفيها ، وكانت تضع فوقه « ايتول » من فراء « الفيزون » ..

كنت شقراء جميلة .. وكانت سمراء جميلة .. وكان أبى يسير بيننا والدنيا لا تسعه من فرط سعادته ، وكأنه يضم باحدى يديه الشمس ، وبالأخرى القمر ..

ووصلنا الى الحفل ..

وسارت معنا صاحبة البيت حتى أجلست أبى وزوجته الى مائدة صغيرة .. ووقفت أنا على قيد خطوات منهما . وقد التفت حولى شلة من البنات والشبان .. وكنت كعادتى أسمع أكثر مما أتكلم ، وأتحدث الى نفسى أكثر مما أتحدث الى غيرى ، وأرقب من طرف خفى نظرات الفتيان تلتهمنى ، فأتجاهلها ، وألتقط محاولات التودد الى ، فأصدها فى برود

واهمال .. كنت كعادتى — وكما يقال عنى — باردة .. صامتة .. جميلة .. لا يعبر وجهى عن شىء مما فى نفسى ..

ولم يكن فى نفسى شىء الا مصطفى .. لم أستطع أن أنساه وسط هذا الزحام والضجيج الذى يحيط بى .. كنت أنظر الى كل شاب وأسخر منه بينى وبين نفسى لأنه ليس كمصطفى .. وكنت أسمع كل حديث فأجده حديثا تافها ليس فيه متعة كحديث مصطفى ..

وفجأة رأيته ..

مصطفى نفسه ..

واتسعت عيناى .. وانبهرت أنفاسى .. واهتزت رموشى فوق عينى فى ذبذبات سريعة كأنى أطرد بهـا شبحا جميلا صوره خيالى ..

ولكنه لم يكن شبحا .. كان مصطفى نفسـه .. وكان يرتدى حلة « سموكنج » سوداء يبدو فيها كأنه اله الليل .. ساحرا ، غامضا ، مثيرا ، جذابا .. وكان يسير بين المدعوين وابتسامته الحلوة بين شفتيه كأنه نبى الحب يبارك أتباعه .. وكانت العيون تلتف حوله كأنها تتهامس وتردد آراءه فى الحياة والحب ..

ولم أدر ماذا أفعل ، ولا كيف أسيطر على ارادتى .. خيل الى انى سأهرع اليه وألقى بنفسى بين ذراعيه وأصيح فى الناس: « هذا حبيبى » .. ثم أتركه يقبلنى وينزع المشابك التى تمسك بشعرى فوق رأسى !! ..

وسارت به صاحبة البيت ، حتى وقفا بجانبنا ، وسمعتها تقول : طبعا انت عارف كل اللى هنا ..»

ورفع عينيه ورآني .. ولم أر فى عينيه اهتزازا ولا معنى المفاجأة ، بل استقرت عيناه على وجهى لحظة فى نظرة ثابتة كأنه لا يعرفني ، ثم قال لصاحبة البيت :

— مش كلهم ..

والتفتت صاحبة البيت الى أبي ، وقالت لمصطفى :

— ما تعرفش لطفى بيه ؟

ثم بدأت تقدمنا اليه : « أحمد بيه لطفى .. مدام لطفى » ثم استدارت الى واستطردت : « ودى عروستنا الحلوة .. مدموازيل لطفى » ..

ثم قالت لنا :

— طبعا كلكم عارفين مصطفى بيه ،أو على الأقل سمعتم عنـه .

وقام أبي يصافح مصطفى فى حرارة .. وكان يكفى أن يعرف أبي عن أى انسان انه من عائلة كبيرة وأنه غنى ، حتى يصافحه فى حرارة ..

وانحنى مصطفى يقبل يد زوجة أبي .. وخيل الى انه أطال النظر الى وجهها وهـو يقبل يدها ، كأنه يريد أن يتحقق من صدق وصفى لها عندما كنا نتحدث عنها .

وكنت فى وقفتي بعيدة عنه ، بحيث لا يستطيع أن يمد يده الى ، فاكتفى بأن أحنى رأسه لى من بعيد ، وبين شفتيه

إبتسامة مرسومة فى دقة حتى لا تعبر عن معنى غـير معنى التحية الرسمية ..

ولم أدر كيف رددت له التحية .. هل أحنيت رأسى أنا الأخرى .. أم هل ابتسمت له .. أم هل وقفت جامدة ؟ لست أدرى .. ولكنى احتجت الى مجهود كبير حتى لا أترنح فى وقفتى !

ودعاه أبى الى الجلوس .. وانسحبت من بيننا صاحبة البيت ..

ولم يكن هناك مكان ليجلس عليه الا بجوار زوجة أبى، وجلس بحيث أصبح ظهره لى .. ولم أكن أستطيع أن أنظر اليه .. خيل الى انى لو نظرت اليه فسيعرف كل الناس مابينى وبينه .. فوقفت ملتفتة بوجهى الى الصديقات والأصدقاء الذين يحيطون بى ، وملتفتة بأذنى اليه ..

كنت أريد أن أسمع كل كلمة يقولها .

ولكنى لم أسمع شيئا ..

كانت ضجة الحفل تحول بينى وبين سـماع شىء ، الا أصداء حديث لا أستطيع أن أفسره ..

وبدأت أقلق ..

وبدأ القلق يسرى تحت جلدى حتى أحسست بمسامى كلها تنتفض كأن زفرة من الهواء البارد تلفحنى .. ثم أحسست كأن يد مصطفى تمسح على ذراعى العارية ، وتطوف بنهدى ، وتضغط على ظهرى ، وتزحف فوق جزعى .. هذه اللمسات

التي عودني عليها مصطفى .. أحسست بها كأنها تدفئني وتحميني من الهواء البارد .. كنت ألصق كتفي بكتفه .. وأضع وجهي قريبا من أنفاسه ..

ثم بدأ القلق يستبد بيّ ويثير في رأسي أفكارا سوداء!!..

ماذا يقول مصطفى الآن ؟..

ماذا يقول لها ؟..

وفجأة .. سمعت زوجة أبي تضحك ضحكة مرحة منطلقة كأنها تزغرد .. ضحكة أعلى وأكثر مرحا مما تعودت أن أسمعه منها ..

والتفت اليها كأن كل أعصابي حبال تشدني الى الالتفات اليها . فرأيت وجهها كله غارقا في الضحك كأنها سكرى .. عيناها تضحكان ، ووجنتاها تضحكان ، وخصلات شعرها الأسود تتأرجح في الهواء كأنها تقهقه ..

وبهت .. والتفت الى أبي كأني أسأله عن سبب الضحك ، فاذا به يبتسم ابتسامته الوقورة التي يبدو بها أكبر من سنه.. والتفت الى مصطفى كأني أعاتبه ، فاذا بين شفتيه ضحكة هادئة .. ضحكة مغرورة كأنه يهنيء بها نفسه !

وأحسست بالنار تندلع في دمي ..

أحسست كأني أريد أن أهجم عليها — على زوجة أبي — وأشدها من شعرها وألقي بها على الأرض ، ثم أجلس مكانها وأضحك مثلها ..

وتركت الشلة التي تحيط بي ، وذهبت اليهم ..

ووقف مصطفى نصف وقفة تحية لى .. وأفسح أبى لى مكانا بجانبه ، وجلست وقد وضع ذراعه فوق كتفى وضمنى اليه برفق كعادتى عندما أجلس بجانبه ..

وسمعت زوجة أبى تقول :

— لا .. انت جرىء فى آرائك قوى يامصطفى بيه ..

وقال مصطفى :

— أنا مش جرىء ولا حاجة .. انما أنا مش مقتنع باللى الناس بتعمله .. الناس كلها ماشية غلط ، ولما الواحد يمشى صح يقولوا عليه جرىء .. يا مجنون .. يا مجرم !

وتنقلت عينى بينهما فى تساؤل لا يخلو من اتهام !!..

ترى أى رأى من آراء مصطفى كان يقوله لزوجة أبى ؟

بماذا كان يحاول أن يقنعها ؟

انى أعرف آراء مصطفى كلها .. وأعرف انها كلها آراء تسرى كالمخدر فى الأعصاب .. فهل كان يحاول أن يخدرها ؟

وانتبهت من تساؤلى ، لأجد الحديث مستطردا بينهما .. كانا يتحادثان عن ذكريات أوروبا ، وعن الأطعمة ، وعن الكتب ، وعن السينما ، وعن الأزياء ، وعن كل شىء .. كان لا يسكت الا لتتكلم ، ولا تسكت الا ليتكلم ، وكان الحديث مقصورا عليهما يروح ويجىء بينهما ، كأنهما يتقاذفان بالزهور ..

لم يستطع شىء أن يوقف هذا الفيض من الحديث ، ولم يحل تردد بقية المدعوين على مائدتنا دون استمرارهما فيه ..

وكان أبي يجلس مستمعا .. يضحك أو يبتسم أو يعلق بكلمة عابرة ..

وحاولت أن أفسح لنفسي مجالا بينهما .. أن اشاركهما فى الحديث .. أن أتكلم ..

ولم أستطع ..

كانت الكلمات تفر من فوق لسانى، والموضوعات تذوب فى رأسى .. كنت أقول لنفسى عندما أسمعهما يتحادثان عن اوربا : « سأروى لهما قصة صديقتى التى ذهبت لتناول الطعام فى مطعم البرج الفضى بباريس » .. ثم ابتدىء فى ترتيب الكلمات التى أتحدث بها ، ثم لا أكاد أهم بالنطق بها بعد تردد والحاح على لسانى ، حتى أجد أن مناسبة الحديث قد فاتت ، وانهما بدآ يتحادثان عن السينما ..

وهكذا فى كل مرة أحاول فيها أن أتكلم ..

وقد حاول مصطفى مرارا أن يشركنى فى الحديث ، كان يلتفت الىّ قائلا :

— وانت ايه رأيك يا مدموازيل ؟!

وأرتبك ، ولا أجد رأيا أقوله كأنى كنت بعيدة عنهما فى عالم آخر ، أو كأن خاطرى قد تجمد حتى لم يعد يستطيع أن يسعفنى برأى .. فأقول اية كلمة عابرة تخطر على لسانى.. يضطر بعدها مصطفى أن يستطرد فى حديثه مع زوجة أبى ..

ثم كان يسألنى كأنه يلح على أن أتحدث :

— والمدموازيل .. تفضل كريستيان ديور والا كارفن.. مين اللى ذوقه أحسن ؟

وأرتبك مرة ثانية .. ولا يمن الله عليّ الا بكلمة واحدة :

— كارفن !!..

ثم أسكت ..

وينظر اليّ مصطفى كأنه ينتظر منى أن أتم حديثى ، أو أنتهز الفرصة لأفتح بابا آخر لحديث .. ولكنى أدير عينى عنه وأظل صامتة ..

وأحسست فى هذه الساعة بضعف شخصيتى ، كما لم أحس به من قبل .. أحسست انى قضيت حياتى كلها لا أستطيع أن أواجه الناس الا بهذا الوجه الجميل البرىء ، وهذا القوام الفارع المثير ، ولا شيء آخر .. قضيت حياتى كلها لا أتحدث الا مع نفسى ولا أفكر الا بينى وبين نفسى .. لم أشرك أحدا فى حديثى أو تفكيرى الا مصطفى عندما نكون وحدنا .. ربما لأن مصطفى كان نفسى وكان روحى .. ولكننا الآن لسنا وحدنا .. وأنا لا أستطيع أن أواجه أحدا غيره ، بل لا أستطيع أن أواجهه بين الناس ، الا بهذا الوجه الجميل البرىء . وهذا البرود .. وهذا الصمت ..

وكرهت ساعتها جمالى .. تمنيت لو كنت أقل جمالا وأقوى شخصية ، حتى أستطيع أن أجذب الناس اليّ ، وأجذب مصطفى من زوجة أبى ..

لقد اكتسحتنى شخصية زوجة أبى حتى أبعدتنى عن

حبيبي . الشخصية القوية النشطة التي تضج فيها الحياة ، وتسيطر على كل من حولها ..

وأحسست كأني أريد أن أبكي على نفسي .. ثم انقلب احساسي الى ثورة تصورت نفسي فيها أخمش وجه زوجة أبي وأمزقه بأصابعي العشر . وتصورت نفسي خلالها أنزع ثيابي عن جسدي وأقف عارية بين الناس حتى يلتفوا جميعا حولي ويتركوا خلف ظهورهم زوجة أبي ، ثم أروى لهم بأعلى صوتي كل قصتي ليعرفوا اني لست بريئة كما يبدو على وجهي .. واني ذكية أستطيع أن أضع الخطط وأنفذها.. واني تسببت في مصائب كثيرة .. وأني عرفت كل أسرار الرجال والنساء .. عرفت أكثر مما عرفت أية فتاة في مثل سني ..

وأفقت من خيالي المجنون على صوت عمي عزيز ..

كان قد جاء الى الحفل متأخرا كعادته كلما دعي الى حفل ..

وانحنى عمي يقبلني فوق رأسي ، وانحنى يقبل يد زوجة أبي ثم تولى أبي تقديمه الى مصطفى ، وتقديم مصطفى اليه ..

وفي لحظات كان الرجال الثلاثة ملتفين حول زوجة أبي بعيونهم وآذانهم .. وأصبحت أنا منسية من الثلاثة .. ليس لي من أبي نصيب الا ذراعه التي يحيطني بها . .وليس لي من عمي الا كلمة تدليل يوجهها اليّ بين الحين والحين .. نفس الكلمة التي يوجهها اليّ مذ كنت في الرابعة من عمري ..

وليس لي من مصطفى الا نظرات يرفعها الي ويشـفعها بابتسامة .. كأنه يعتذر عن اهماله لي ..

وكنت أتوه أحيانا في نوبة من نوبات خيالي .. وأحيانا انتبه وأتتبع حديثهم .. وفي فترة انتباهي لاحظت تفورا بين عمي ومصطفى .. واحتكاكا بين الشخصيتين .. كان كل منهما يحاول أن يتحدث أكثر من الآخر ، وكل منهما يحاول أن يسيطر بحديثه ، وكل منهما يسفه آراء الآخر .. وكانت زوجة أبي تحاول بشخصيتها وكياستها أن توفق بينهما ، وأن ترضي كليهما ..

وعزوت هذا التنافر الى تشابه الشخصيتين .. فكلاهما اعزب ، وكلاهما خاض تجارب كثيرة في المجتمع ، وكلاهما عرف بالمغامرات الغرامية .. وان كان لكل منهما فلسفة خاصة في الحياة .

ولكن هل هذا وحده يكفي سببا للتنافر ؟!..

وفي هذه اللحظة تمنيت أن ينتصر عمي على مصطفى في احتكاكهما .. كنت أفضل أن أراه مهزوما ولي وحدي ، على أن أراه منتصرا بامرأة أخرى ..

وسمعت مصطفى يدعو زوجة أبي للرقص :

— تحبي ترقصي ياصفية هانم ؟

ورن في أذني لفظ « صفية هانم » .. من أين عرف اسمها ؟ واذا كان قد عرف اسمها خلال الحديث فكيف جرؤ على أن

يرفع الكلفة بينها وبينه حتى يناديها باسمها ؟.. ولماذا يرفع الكلفة حتى اذا كان من حقه أن يرفعها ؟

ومدت له « صفية هانم » يدها ،وقامت مستعينة بيده ؛ واتجها الى حلبة الرقص ..

وتبعتهما وقد أحسست أن نارا تنطلق من عينى ..

ولف ذراعه حول خصرها .. وتراقصا فى خطوات بطيئة..

والتصق جسمها بجسمه .. ثم بعد عدة خطوات التصق خده بخدها .. وتثاقلت خطواتهما حتى كأنهما لا يتحركان .. ثم كانت تبعد خدها عن خده وتضحك كأنه همس فى أذنها شيئا .. ثم يعود الخد الى الخد ..

تماما كما رأيته يرقص أول مرة منذ عام مع صديقتى لجلاء ..

وانقبض قلبى حتى أحسست كأن الدماء تختنق فى عروقى ، وضاق صدرى حتى خيل الى أن ضلوعى ستبرز من لحمى ..

والتفت كأنى أستغيث بأبى .. ولكن أبى كان هادئا ، يشرب كأسه وينقل بصره بين الناس ..

ونظرت الى عمى ، فاذا به مثلى يتبعها بعينيه وقد قلب شفتيه امتعاضا وأخذ ينقر على المائدة بأصابعه نقرات منتظمة كدقات طبول الحرب ..

وقلت له كأنى أستغيث :

— مش تقوم ترقص معايا ياعمى .. انت عمرك ما رقصت معـــايا !!

وكأنى فتحت له الطريق .. فقد قام فورا وصـــحبنى ، أو — على الأصح — شدنى الى حلبة الرقص .. ثم رقص بى حتى أصبحنا بجوارهما ..

وتبادلنا نحن الأربعة ابتسامات مزيفة ..

وعندما أصبح وجهى فى مواجهة وجه مصطفى من وراء ظهر زوجة أبى ، ضم شفتيه وأشار بهما الى كأنه يرسل لى قبلة فى الهواء ..

وكرهت هذه القبلة ..

ووددت لو رددتها اليه صفعة ..

ثم بعد عدة خطوات ، رأيتهما ينســحبان من حلبـة الرقص .. ولم يتوجها الى مائدتنا حيث ينتظرنا أبى .. بل خرجا الى الشرفة ..

ورآهما عمى أيضا ..

وسحبنى من يدى فى حركة عنيفة وتبعهما الى الشرفة .. ولم تكن الشرفة خالية من الناس ، كان فيها كثير من المدعوين، ورغم ذلك فقد شعرت وأنا أقفه بينهما انى أريد أن أطلق الرصاص عليهما .. على مصطفى ، وعلى زوجة أبى !!..

وقال عمى فى غيظ مكبوت :

— مش الدنيا برد هنا ياجماعة ..

وردت طنط صفية فى لهجة طبيعية :

— أصل الدخان جوه يكتم النفس .. على كل حال الساعة بقت اتنين ، وأظن نروح بأه !!

ولم يعترض أحد ..

وجاء معنا مصطفى حتى مائدتنا .. وصافح أبى فى حرارة، وصافح عمى فى برود ، وانحنى يقبل يد زوجة أبى . ثم صافحنى وضغط على يدى وهو ينظر الى ويحاول أن يلفنى بعينيه ..

وصددت نظرته بعينين غاضبتين ، وسحبت يدى من يده فى قسوة ، وأدرت له ظهرى ..

وابتعد قائلا :

— باذن الله نشوف بعض تانى ..

ولم يرد سوى أبى :

— باذن الله .. قريب خالص ..

ووضع عمى « الايتول الفيزون » فوق كتفى طنط صفية ووضع أبى « الريناربلو » فوق كتفى .

وودعنا صاحبى الحفل .. وخرجنا . ومصطفى لا يزال بين المدعوين .

وقال عمى ونحن فى السيارة :

— الجدع ده باين عليه مغرور قوى !

وقالت زوجة أبى :

— أهو كل العزاب اللى زيه مغرورين كده !!

وقال عمى غاضبا :

— يعنى أنا مغرور كده ؟!

وقالت زوجة أبي ضاحكة :

— أهو اذا كنت مش عايز الناس تقول عليك مغرور ... اتجوز !!..

وعاد عمي يقول وهو لا يزال غاضبا :

— ياسلام عليكى ياصفية .. الواحد مايعرفش ياخد منك رأى أبدا !

وقال أبي :

— ده بيقولوا عليه مزارع شاطر قوى .. الفدان عنده رمى السنة اللى فاتت سبعة قناطير قطن ، والأرض اللى جنبه بتاعة عيلة عبد اللطيف مارمتش الا تلاته !!

وبقيت أنا صامتة أغلي فى نفسي .. ووصلنا الى البيت ..

وصعد عمي الى الدور العلوى حيث يقيم .. ودخلنا نحن الثلاثة ، ولا أذكر انى حييت أبي أو زوجته انما أسرعت الى غرفتى ، وأغلقت بابها ورائى بالمفتاح ، ونزعت ثيابى دون أن أغسل وجهى كعادتى كل مساء .. ولم أنم ..

وبدأ الشر يرتفع من قلبى ويزحف الى رأسى لينسج خيوط جريمة ..



كانت الجريمة التي تنسج خيوطها في رأسي جريمة بشعة، خفت منها أنا نفسي ..

كانت قد تملكتني رغبة طاغية في الهدم .. هدم كل شيء.. هدم زوجة أبي ، وهدم أبي ، وهدم مصطفى ، وهدم نفسي .. كنت أفكر كالمجنونة ، أحاول أن أحطم بيدي كل من حولي بلا سبب معقول الا التفريج عن احساسي بالنقص واحساسي بشخصيتي الضعيفة التي عجزت عن اجتذاب مصطفى من زوجة أبي خلال الحفل ..

وحاولت كثيرا أن أطرد من رأسي هذه الأفكار السوداء .

حاولت أن أمنع الجريمة قبل وقوعها .

كنت أتحايل على نفسي لأقنعها بأن ليس هناك ما يدفعني الى مثل هذا التفكير .. كنت أقول لنفسي : « ان مصطفى لم يخطيء ولم يهملني ، انه فقط وجد سيدة تجيد الحديث فتحادث معها .. تعمد ألا يتحدث الي حتى لا يبدو شيء مما بيننا .. نعم .. انه فقط تعمد أن يتجاهلني حتى لا تفضحه عيناه ولا يفضحه قلبه .. لو كنت أية فتاة أخرى لأقبل على كما أقبل على زوجة أبي ، ولكنني لست أية فتاة .. انني الفتاة التي يحبها .. التي يختصها بعواطفه وحياته » .

وكنت أحاول أن أبرر أيضا موقف زوجة أبي ، كنت

أقول لنفسى : « انها لم تقبل عليه الا كما تقبــل على أى صديق جديد . وهى لم تتحدث اليه أكثر مما تعودت أن تتحدث الى أى انسان .. انها طبيعتها الحية ، وشخصيتها القوية .. واذا كان قد جذبها الى مصطفى شىء ، فلم يجذبها منه الا مايجذب كل الناس .. آراؤه الجريئــة ، وفلسفته الغريبة فى الحياة .. انها لا تريد منه شــيئا .. ولا تســعى وراءه .. ليس هناك دليل واحــد يمكن أن يثير غـيرتى أو يدفعنى الى الحقد عليها » !!

كنت أقول لنفسى هذا الكلام ويخيل الى اننى اقتنعت بالعدول عن جريمتى ، ولكنى لا ألبث أن أتصور نظرته اليها كأنها كانت المرأة الوحيدة فى الحفل ، وأتصور نظرتها اليه كأنها لم تر رجلا من قبل .. ثم أستعيد حديثهما الطويل الذى لم ينقطع كأنهما كانا يتقاذفان بالزهور .. ثم تشب النار فى أعصابى كلها — نار الغيرة والحقــد — وأنا أســتعيد صورتهما وهما يتراقصان .. ذراعه ملتفة حول ظهرها حتى تصل كفه فوق كتفها .. وصدرها فى صدره .. وخده على خدها .. وأنفه مدسوس فى شعرها .. ثم تبعد خدها عن خده وتضحك كأنه همس فى أذنها .. ثم يعود الخد الى الخد .

لا . لايمكن أن يكون هذا مجرد رقص .. واذا كانت هذههى طبيعة مصطفى عندما يرقص ، فكيف سمحت له بأن يراقصها بهذا الأسلوب .. لابد أن هناك شيئا بينهما ، أو شيئا يمكن أن يكون بينهما .. وربما اتفقا على أن يحادثها

فى التليفون ، أو ربما تواعدا على لقاء فى شقته .. نفس الشقة التى ألقاه فيها .. لتستمع الى نفس الاسطوانات التى أستمع اليها ، وتستلقى على نفس الأريكة العريضة التى أستلقى عليهـا ..

وتصورتها عارية مستلقية بين ذراعيه وهو يطـل عليها بوجهه كأنه هبط فوقها من السماء .. تماما كما كنت أتصورها بين ذراعى أبى فى الشهور الأولى من زواجها به ..

وأحسست كأنى أختنق ، وكأن عينى قد خرجتـا من محجريهما وسمعت الشيطان يسكب فى صدرى سما ، ويردد: « احذرى . احذريها .. انها تستطيع أن تأخذ منك مصطفى كما أخذت منك أباك .. انها امرأة قادرة .. فيها كل ما يغرى الرجال.. ثم انها امرأة .. امرأة .. أما أنت يامسكينة فعذراء.. مجرد عذراء » !! !

وخيل الى انى صرخت .. صرخـة لم يسمعها أحـد سواى .. وغطيت عينىّ بيدى حتى لاأرى ما يصوره لى خيالى .. وحتى لا أرى نفسى وأنا أشعل النار فى كل ماحولى، وأقف وسط النار أضحك ضحكات مجنونة ، وقد تملكتنى شهوة الهدم .. فهدمت .. وهدمت .. الى أن هدمت نفسى وجعلت من نفسى امرأة .. امرأة وليست عـذراء .. حتى لا تتفوق على زوجة أبى فى شىء !!

ورفعت يدىّ عن عينى وبدأت أشد بهما شعرى كأنى أحاول أن أقتلعه من فوق رأسى ..

ثم انكفأت على وجهى وأخذت أعض الوسادة بأسنانى ، وأضرب الفراش بقدمى .. كأنى فى عراك مع الشـياطين .. شياطين الشر والحقد ..

ثم .. أخيرا .. بكيت ..

بكيت كثيرا وبحرقة ..

وكأن دموعى قد غسلت رأسى مما فيه من شرور ، وغسلت قلبى مما فيه من حقد .. فهدأت .. كأنى استيقظت من كابوس ، وأخشى أن أنام فيعاودنى الكابوس ..

وبدأت أستعيد حياتى كلها فى هدوء ..

وعلى ضوء الفجر سمعت بأذنى خيالى صوت مصطفى وهو يقول لى : « .. اللى بتحب قلبها بيكبر لدرجة انه يساع كل الناس ويصفح عن كل الناس » .

انى أحب ..

أحب مصطفى ..

وقلبى لابد أن يكون كبيرا حتى يحب كل هذا الحب. فلماذا لا أحاول أن أدخل فيه زوجة أبى .. لماذا لا أحاول مرة أخرى أن أحبها .. محاولة أخيرة !؟

وقررت أن أحاول ..

وقررت أن أسعى الى صداقتها .. وأن أكشف لها عن سرى .. أن أفتح لها قلبى وأقول لها انى أحب .. وأحب مصطفى بالذات .. الرجل الذى كانت تراقصه ليلة أمس .. وانى أحبه منذ عام مضى وقد أصبحت له وأصبح لى !!..

سأقول لها كل هذا ..

وسأضمن بعد هذا انها لن تأخذه منى .. لن تأخذ الرجل الذى تحبه فتاة فى مثابة ابنتها ..

وستصبح بعد هذا صديقتين ..

وسأرتاح من شرورى ومن حقدى ومن خيالى الذى يرسم جرائمى ..

وفى الصباح التالى خرجت من غرفتى فى الساعة العاشرة، بعد أن اغتسلت وارتديت ثوبا زاهى اللون من ثياب الصباح، وكنت متعبة منهكة اثر ما لاقيته طول الليل .. ولكنى تعمدت أن أبدو مرحة ، وتعمدت أن أضع طبقة من « الكريم » فوق وجهى لأخفى بها ذبوله ، ولأخفى الظلال السوداء التى تحيط بعينى ..

وكان أبى وزوجته جالسين الى مائدة الطعام يوشكان أن ينتهيا من طعام الافطار .. فقبلت أبى فوق رأسه وأنا أصيح مهللة فى لهجة أكثر مرحا مما تعوده البيت منى :

— بونجور بابى ..

ثم درت حول المائدة وتعمدت أن أقبل زوجة أبى فوق وجنتها ثم أضغط خدى بخدها وأنا أحييها :

— بونجور طنط صافى ..

ولم تكن من عادتى أن أقبلها كل صباح ، وربما غاليت قليلا — أو كثيرا — عندما ضغطت خدى بخدها ، فقد نظرت الى فى دهشة ، وقالت وبين شفتيها ابتسامة :

— بونجور ياحبيبتى .. انتى باين عليكى نمتى كويس امبارح .

قلت وأنا أضحك :

— زى القسيخة ..

وقال أبى وهو يردد ضحكتى :

— على كل حال أنا مش خايف على نادية من قلة النوم.. لأنها نامت وهى صغيرة اللى يكفيها العمر كله .. كانت أول ما تدخل البيت تقفل باب أودتها وهات يانوم !!..

وعدت أضحك .. وكان فى ضحكتى مرارة لم أستطع أن أخفيها .. ان أحدا لايعلم ما يحدث لى عندما أدخل حجرتى وأقفل بابها !! .

وقالت زوجة أبى وكأنها تتم حديثا لم أحضر أوله :

— انما تعرف يا أحمد برضه الحفلة كانت زحمة أكتر من اللازم .. الجماعة دول ما يعملوش الا حفلة أو اتنين فى السنة ويعزموا كل الناس من غير ترتيب .

وعرفت انهما يتحادثان عن حفلة الأمس ..

وقال والدى بطيبته الحلوة :

— أهو برضه الواحد يقابل ناس كويسين .. تعرف أنا عجبنى مصطفى بيه .. كنت فاكره متقنزح وطالع فيها ، انما لقيته لطيف ويعرف يتكلم ..

وقالت زوجة أبى بسرعة :

— ده مايسكتش كلام ..

وأحسست بقلبي يغوص في صدري .

وعاد أبي يقول :

— والله حقنا نعزمه نوبه عندنا ..

واشتدت ضربات قلبي ، وخيل الى أن وجهي قد امتقع حتى لم يعد « الكريم » يكفي ليخفي امتقاعه ، وسمعت زوجة أبي تقول :

— بس مش لوحده .. الصنف ده ما يتعزمش الا في الحفلات الكبيرة .. عزومة الراجل العازب بتحير الواحدة ، ياترى تقعده على يمينها والا على شمالها .. تمشي جنبه والا تمشي جنب جوزها .. و ..

وضحك أبي وقاطعها :

— أهو يبقى يقعد جنب أخويا عزيز !

وأحسست انى يجب أن أغير موضوع الحديث قبل أن ينتهي الى تحديد موعد لدعوة مصطفى الى البيت ، فقلت لزوجة أبي وبين شفتيّ ابتسامة كبيرة مرسومة :

— تعرفي انك كنت أشيك واحدة امبارح ياطنط .. ماكنش فيه فستان أجمل من فستانك .. وكانوا كل الستات حياكلوكي بعنيهم ..

وقالت زوجة أبي وهي تنظر الى أبي :

— البركة في باباكي .. هوه اللي اختار الفستان بنفسه ..

ثم التفتت الى واستطردت :

— وانتي كمان كنت أجمل واحدة فى الحفلة كلها .. لو كنتى عملتى بصباعك كده .. كان كل الشبان اللى هناك جم خطبوكى ..

قلت وأنا أقلدها :

— البركة فى بابا برضه !!..

وضحكت .. وضحك أبى وزوجته .. ولم يكن لأبى فضل فى اختيار ثوب زوجته أكثر من فضله فى زينتى ، ولكن هكذا كانت زوجته تتقرب اليه وتحاول أن تقنعه دائما بأنه صاحب الفضل فى كل شيء .. وهكذا كنت أقلدها فى التقرب اليـــه !!..

وكان أبى قد انتهى من تناول افطاره وتدخين سيجارته، فقام وجاء الىّ يقبلنى ، ثم خرج الى النادى كعادته كل صباح ، وقامت معه زوجة أبى تودعه حتى الباب الخارجى ، كعادتها كل صباح أيضا ..

وانتهيت من افطارى بسرعـــة ، ثم قمت وذهبت الى غرفتى ، وعدت أحمل مفرش « الكانافا » الذى أطرزه ، وجلسـت فى البهو فى انتظار زوجة أبى ..

وكانت قد عادت من توديع أبى ، ثم دخلت تطـوف بحجرات البيت ، وسمعتها تلقى ببعض الأوامر للخدم ، ثم جاءت وجلسـت بجانبى ، وهى تقول :

— ما فيش فايدة ، الخدامين دول مهما علمتيهم ، لازم تفضلى واقفة على ايديهم .

ثم نظرت الى المفرش الذى أطرزه ، وقالت :
— ورينى اشتغلتى أد ايه يانادية ..

وناولتها المفرش ، فأخذت تقلبه بين يديها ، وأنا أنظر الى وجهها كأنى أستجمع شجاعتى ، ثم قلت فى صوت ضعيف مهتز :

— أنا عايزه أقول لك حاجة ياطنط .

قالت وهى لا تزال تنظر الى « غرز الكانافا » كأنها تبحث فيها عن أصابعى :

— خير ياحبيبتى ..

وترددت .. وطال ترددى كأنى لم أعد أستطيع أن أحرك لسانى .. فأبعدت عينيها عن المفرش ورفعتهما الى .. وربما رأت علامات الجد على وجهى ، وربما تذكرت ساعتها ان قبلتى لها فى الصباح لم تكن مجرد قبلة لله ... فقد دققت النظر فى عينى ، ثم مدت يدها والتقطت يدى وضغطت عليها فى حنان ، وقالت بصوت هادىء مريح كأنها تشجعنى :

— قولى يانادية ..

وأرخيت أهدابى فوق عينى حتى لا أواجــه نظراتها ، وقلت كأنى تلميذة ساذجة لا تقوى على الكلام :

— أنا .. أنا باحب !!..

وقالت فى دهشة كأنها لا تفهم :

— بـ ..!؟ ايه ..

قلت وأهدابى لا تزال تغطى عينى :

— باحب .. باحب واحد !!

وقالت وقد ارتفع صوتها فى فرحة كأنها فهمت أخيرا :

— آه .. قصدك فيه واحد جاى يخطبك .. طيب ومالك مكسوفة كده ، ودى حاجة تكسف .. اعتمدى على يانادية.. أنا حاكلم بابا وحاعمل كل حاجة .. مادام بتحبيه وهو كويس، يبقى خلاص .. تقدروا تعتبروا نفسكم متجوزين من النهارده .. ألف مبروك ..

ورفعت اليها عينى وهى تتكلم ، وكأنى أصبت بخيبة أمل ، وأخذت أنظر اليها كأنى أحاول أن أكشف حقيقتها .. هل هى ساذجة الى هذا الحد ، أم هى تتخابث لتحرجنى .. ثم قلت فى صوت لا يخلو من حدة وكأنى أقاطعها :

— ما حدش حيجى يخطبنى ..

وبهتت فرحتها ، وقالت متسائلة فى خيبة :

— انتى مش بتقولى فيه واحد بيحبك ؟..

قلت وصوتى لا يزال حادا :

— هوه بيحبنى وأنا باحبه .. انما مش حايخطبنى ..

قالت وعلى وجهها أمارات الجد :

— ولما بيحبك مايخطبكيش ليه ؟!

قلت فى تردد وقد أحسست بضعف مركزى ، وعدت ألقى أهدابى فوق عينى لأختفى من نظراتها :

— أصله مش بتاع جواز !!..

قالت فى هلع خافت :

— ايه ؟!!..

قلت مرتبكة :

— قصدى .. قصدى اننا لسه ماتكلمناش فى الجوازة!!..

وسكتت قليلا .. ثم أدارت رأسها ، وصاحت تنادى على السفرجى :

— عبده .. عبده ..

ثم التفتت الىّ قائلة ، وكأنه لم يكن بيننا حديث :

— الخدامين دول مصيبة .. الساعة بقت حداشر ولسه الدور الفوقانى ماتعملش .. عن اذنك يانادية ياحبيبتى أما أشوفهم بيعملوا ايه !!..

وقامت وتركتنى وهى تسير فى خطوات مترنحة كأنها تبذل مجهودا لتسيطر على أعصابها ..

وأحسست أنها صفعتنى ..

أحسست أنها عندما قالت « الخدامين دول مصيبة » كانت تعنى : « البنات دول مصيبة » !!..

أحسست انى أهنت ..

وأحسست بكل ما فى ينتفض .. وقمت أجرى الى غرفتى كأنى أخشى أن تقع دموعى منى على الأرض ..

وأغلقت الباب ورائى بالمفتاح ..

وألقيت بنفسى على الفراش ، وثبت عينى فى السقف ..

انى أتساءل اليوم عما كان يمكن أن تكون عليه حياتى لو أن صفية استمعت الى حديثى كله .. لو انها شاركتنى

فى سرى وعرفت بحبى لمصطفى ؟! ربما كانت استطاعت أن تنقذنى وتنقذ أبى ، وتنقذ نفسها ؟ .

ربما كانت حياتنا كلها قد تغيرت ؟

ولكنها لم تستمع .. أبت أن تشاركنى فى سرى .. ترفعت عن عواطفى .. وفضلت أن تتزمت وأن يظل الستار الكثيف يفصل بينى وبينها حتى تحتفظ بشخصيتها فى البيت كاملة ، فلا تعرضها لما يمكن أن ينقص من قدرها ..

هكذا أراد الله .. أو أراد الشيطان .. أراد أحدهما أن يضيف وقودا جديدا الى النار التى تشتعل فى صدرى .. نار الشر والغيرة والحقد .. نار تندلع فى خيالى فينسج على ضوئها جرائم سوداء ..

وبدأت أفكر تفكيرا هادئا خبيثا .. كأن حية رقطاء قد انطلقت من رأسى وبدأت تزحف على بطنها وسمها فى أنيابها .. وتملكنى نفس الشعور الذى تعودته كلما أقدمت على ارتكاب شر .. شعور تختلط فيه لذة الخوف ، ولذة الحقد ، ولذة التردد ولذة الذكاء .. شعور المقامر الذى وضع كل ما يملك فوق المائدة وانبهرت أنفاسه فى انتظار أن تقف عجلة الحظ ..

كنت ساعتها أبحث عن الخطة ..

الخطة التى ساهدم بها زوجة أبى .

سأقضى عليها .. ساجعلها تدفع ثمن اهانتى من حياتها ..

وساضمن مصطفى لى وحدى !!

ولكن كان هنــاك جانب من خواطرى يفكر فى شىء آخر .. جانب رسبت فيه كلمة زوجة أبى عندما قالت : « ولما بيحبك ما يخطبكيش ليه ؟ » .

وساءلت نفسى : هل يمكن أن يتزوجنى مصطفى ؟

وابتسمت ساخرة ..

ساخرة من نفسى ومن نصيبى فى الرجل الذى أحبته ..

لقد مرت فترات من عمــرى تمنيت فيهــا أن أتزوج مصطفى ، ولكنها كانت دائما أمنية بعيدة .. بعيدة جدا .. أراها من وراء سحب أفكارى كوهم جميل لايمكن تحقيقه، ولا يحق لى أن أتمادى فى تمنيه .. كأنى أتمنى أن أكون ملكة انجلترا ، أو أودرى هيبورن .

كانت حيــاة مصطفى وشخصيته وفلســفته لاتوحى بالزواج .. بل انى كنت أخاف أن يعتقد أنى أسعى لزواجه.. فبقيت دائما جبانة كلما خطر لى هذا الخاطر ، فلا أستطيع أن أتحدث فيه أو ألمح اليه ..

كانت شخصيته أقوى من أن تقف أمام مأذون .. هكذا كان يخيل الى !!

وكان يعتقد — طبقا لفلسفته فى الحياة — أن الحب لا يرتبط بالزواج .. ان الحب — فى نظره — فضيلة مجردة، كالصدق والأمانة والشهامة .. فهو ليس فى حاجة الى اثبات رسمى ، ولا الى اجــراءات ، ولا الى تدخـــل الحكومة والمجتمع .. وكما أن الصادق لا يذهب الى موثق العقــود

ليكتب له عقدا يبيح له الصدق ، فكذلك الحب ليس فى حاجة الى مأذون الشرع ليبيح له الحب .

هكذا كان يقول ..

وهكذا كنت أحاول أن أقنع نفسى !

وأذكر أنه قال لى مرة :

— .. يعنى انتى عندك سبعتاشر سنة ، وأنا سبعة وتلاتين .. يعنى بينى وبينك عشرين سنة .. يعنى لما انتى يبقى عندك سبعة وعشرين يبقى أنا عندى سبعة وأربعين .. تبقى انتى فى عزك وأنا فى آخرتى .. انتى فى القمة وأنا فى النهاية !!

كان يتكلم فى مرارة ..

وخيل الى انه يتكلم وهو يفكر فى زواجه بى .. وقلت متضاحكة كأنى أحاول أن أخفف عنه مرارته :

— ده أنت تبقى جنان وأنت عندك سبعة وأربعين سنة..

قال والمرارة لا تزال تقطر من ابتسامته :

— أبقى عجوز ومهتم وايدى بترتعش وأمشى متمكز على عصايا ..

قلت وأنا ألف ذراعى حول عنقه :

— بعد الشر .. بعد الشر .. بعد الشر .. حاتفضل زى ما أنت كده ، بس شعرك حيبيض ، ويومها ما حدش حيرضى بيك الا أنا ..

وكانت المقارنة بين عمره وعمرى ترد كثيرا فى حديثه ،

وفي كل مرة ألمح المرارة في عينيه وأسمعها في لسانه ، وفي كل مرة كنت أحاول أن أنسيه مرارته بقبلاتي ، وأظل أثيره بقبلاتي حتى ينسى عمره .. وأنسى عمري !!

واختلطت كل هذه الذكريات في رأسي بتفكيري الأسود في ارتكاب جريمة .. ثم جمعت خواطري مرة أخرى بينهما .. وبين زوجة أبي وحبيبي مصطفى !!

انها أكبر مني .. ان سنها قريبة من سنه ، فلا يفصل بينهما الا تسع سنوات ، وهو لن يشعر معها بالمرارة التي يحس بها معي .. وربما كانت عقليتها أقرب الى عقليته من عقليتي .. ربما استطاعت أن تفهمه أكثر مما فهمته .. وربما استطاعت أن تعطيه أكثر مما أعطيه ، وتأخذ منه أكثر مما أخذت ..

وتصورت مصطفى يدخل بيتنا بناء على دعوة أبي .. وتصورته جالسا معنا في البهو ، وهو يتبادل مع طنط صفية الحديث .. حديثا مقصورا عليهما .. وتصورت عينيه تلتقيان بعينيها في نظرات ذات معنى رقيق .. وتصورتها وقد أرخت أهدابها أمام نظراته ، واصطبغت وجنتاها بدمائها كأنها خجلة مما في نفسها ، ومما في نفسه ..

وتصورت أبي جالسا بينهما وهو لا يدري شيئا .. وتصورت نفسي جالسة ودمائي تغلي ، لا أستطيع أن أشاركهما في حديث ، ولا أستطيع أن أحول بين نظراتهما المتبادلة .. وتصورت .. وتصورت ..

وأحسست اني فى دوامة سوداء تلفنى بعنف .. وطافت أمام عينى أسئلة تنتصب كأنها الأشباح المخيفة :

هل ستكون له ؟

وهل ترضى أن تكون له بلا زواج ؟

وهل تستطيع أن تتزوجه ؟

وهل هى قوية الى هذا الحد .. الى حد أن تتغلب على فلسفة مصطفى فى الحياة وفى الحب وفى الزواج ؟

وخيل الى انى أرى زوجة أبى عملاقة ضخمة ، طويلة جدا وجميلة جدا ، تضحك فى اغراء مثير فيركع أمامها كل الرجال ويرفعون أذرعتهم اليها مبتهلين . ثم تتقدم وتدوسنى بقدميها وتلتقى بمصطفى فوق جثتى !.

كان كابوسا آخر .. كابوسا أراه فى يقظتى ..

وأحسست كأنى أصرخ طالبة النجدة .. وقمت من فراشى مذعورة من خيالى ، وهرعت الى التليفون وطلبت مصطفى..

وسمعت صوته كسولا هادئا كأنه آت من عالم بعيد .. عالم ليس فيه كل هذا العذاب الذى أعانيه ..

وقلت له انى أريد أن أراه حالا !!..

وقال كأنه يغفو :

— حاضر !!

ووقفت أمام المرآة لحظات ، ثم انطلقت خارجة ..

والتقيت بزوجة أبى فى البهو ، وقلت لها وأنا فى طريقى:

— أنا رايحة أزور منيرة ..

ولم ترد زوجة أبى ..

ولا أدرى لماذا قلت لها انى ذاهبة لزيارة صديقتى .. فلم تكن من عادتى أن أقدم لها حسابا .. ولم يكن من عادتها أن تسألنى شيئا .. ربما كان احساسى بالجريمة التى تنسج خيوطها فى صدرى هو الذى دفعنى الى أن أموه عليها ..

وذهبت الى هناك .. الى شقة مصطفى ..

وضغطت الجرس ، وانتظرت قليلا فلم ينفتح الباب ..

وضغطت الجرس مرة ثانية .. فلم ينفتح الباب أيضا ..

ان مصطفى لم يأت بعد ..

انها المرة الأولى — منذ عرفته — التى يتأخر فيها عن موعده ، ولا يصل الى الشقة قبلى ليكون فى انتظارى !!..

هل هذا من تأثير ليلة الأمس .. هل ملنى وبدأ يفتح بابه لواحدة أخرى .. لزوجة أبى ؟!! ..

وركبنى عناد عجيب ..

سأنتظره مهما طال انتظارى ..

وأحسست أن قدمى قد سمرتا أمام الباب .. وخيل الى أن كل دقيقة تمر كأنها شهر ، وكان بعض الناس يمرون بى وأنا فى وقفتى .. فأتظاهر بأنى فى انتظار المصعد ، وكان المصعد يقف أمامى أحيانا حاملا أحد سكان الشقق المجاورة .. فأضطر أن أدخل فيه ، وأنزل به دورا أو دورين ، ثم أعود به ثانية ، وأخرج منه لأقف أمام باب الشقة .. كالكلبة المسكينة الضالة !

وأخيرا جاء مصطفى ..

جاء متأخرا عشر دقائق ، وبدأ فمــه يتدفق بكلمات الاعتذار ، وهو يفتح باب الشقة .. وكان عذره انه صحا من نومه متأخرا ، وانى حادثتــه فى التليفون وهو لا يزال فى فراشه ، فلم يسعفه الوقت للاغتسال وارتداء ملابسه .. عذر قبلته فى صمت .. فقد كانت ثورتى أقوى من أن أعبر عنها بالكلام ..

ودخلنا ، وأغلق الباب ..

وأمسك يدى الباردتين وقبلنى فى باطن كفى ، ولم أحس لقبلته بطعم ، لم تسر فى أعصابى ، ولم ترتفع الى قلبى !

وجلسنا فى حجرة المكتبة صامتين ..

وطال بيننا الصمت ..

ثم قال فى صوته الكسول .. كأنه يريد أن يقول أى شىء :

— انبسطتِ فى الحفلة امبارح ؟..

قلت ، وأنا أضم أعصابى حتى لا تفلت منى :

— يظهر انك انت كنت أكتر واحد انبسط امبارح ..

قال بلا مبالاة :

— أنا طول عمرى أنبسط فى أى حتة أكون فيها !!

قلت ، وأنا أنظر اليه كأنى أتهمه :

— انما يظهر ان كان فيه أسباب تخليك تنبسط أكتر من عادتك .

قال وكأنه يفتعل :

— كان فيه اتى .. كنتى جميلة موت !
قلت :
— أتاريك قعدت طول الليل تكلمنى وترقص معايا !!..
قال وقد أحس بالزوبعة التى تهب عليه :
— قصدك ايه ؟..
قلت فى اقتضاب :
— قصدى طنط صفية ..
قال وكأنه تذكر :
— آه .. ده اتى كنتى مــديانى عنها فكرة وحشــة خالص .. اتما طلع أنها جميلة ولطيفة ولازم بابا بيحبها ؟..
قلت :
— بابا بس ؟!!..
قال فى دهشة :
— فيه حد تانى ؟!!..
قلت كأنى أحاول أن أسكب فوقه جردل ماء بارد :
— حضرتك ..
قال ضاحكا :
— ياشيخه حرام عليكى ..
قلت فى حدة :
— ومش حرام عليك انك ترقص معاها بالشكل ده ..
قال :

— انتى عارفه انى طول عمرى بارقص كده .. مش حاجة جديدة على !! ..

قلت :

— انما هى مش متعودة ترقص بالشكل ده ..

قال :

— كانت بترقص فى منتهى الاحترام دى ست محترمة ، وكل اللى يعرفها لازم يحترمها ..

ومد ذراعه ليضمها على كتفى .. فابتعدت عنه كأن كل ما فى يكرهه ، ويتقزز منه ، وأخذت أنظر اليه بعينين ثائرتين أحاول أن أبحث فى وجهه عن الحقيقة ، وقد احتبس فى حلقى الكلام وتزاحمت الأسئلة .. حتى لم أعد أستطيع أن أتكلم ولم أعد أدرى بماذا أسأله .

وقام يعلق بعض الاسطوانات فى « البيك آب » وهو يقول :

— ما تبقيش مجنونة .. ما ترفزيش نفسك !!..

ولم أرد عليه ...

وأخذت أنظر اليه وقد أدار لى ظهره..وخيل الى أنه بعيد عنى جدا .. بعيد .. بعيد .. بعيد عن احساسى ، وبعيد عن شعورى ، وبعيد عن قلبى .. انه لا يشاركنى فى هذه العواطف النفسية التى أعانيها ، ولا يحاول أن يشاركنى فيها أو يفهمها .. انه بعيد عن شكوكى .. وبعيد عن الأفكار

السوداء التي تطوف برأسي .. فلا يستطيع أن يناقشها ولا أن ينقذني منها .

انه انسان آخر ، وليس قطعة مني .. ليس روحي !!..

انه هادىء ، بارد ، بسيط ، صريح لا يحمل هما ، ولا يفكر في هم .. لا يفكر في شيء الا في متاعه .. في أسطواناته ، وفي كتبه ، وفي شقته ، وفي السهرات التي يتردد عليها ، وفي نزواته التي يحاول أن يبدو بها شاذا .

هل هذه الدنيا التي يعيش فيها مصطفى تستطيع أن تسع غيره ؟ دنيا بلا مسئولية !!..

نعم .. انه انسان بلا مسئوليات ، حتى مسئولية رزقه قد أعفاه منها القدر ، ولم أستطع أنا أن أكون شيئا يحمل مسئوليته في حياته . انه ليس مسئولا عني .. اني لم أكلفه شيئا .. مجرد فتاة جميلة ألقت نفسها عليه فأخذها ليمتع نفسه بها .. ويقضي معها أوقاتا سعيدة بين اسطواناته وكتبه، بل خيل الى في تلك اللحظة انه أبقاني عذراء ، لا لأنه يخاف على مستقبلي ، ولا لأنه يحترم سمعتي ، ولا لأنه فاضل يؤمن بالفضيلة ، ولكن فقط حتى لا يتحمل مسئولية يستطيع أن يستغني عنها .. مسئولية التطور بي الى امرأة.. مسئولية قد أحاسبه عليها ، وقد يحاسبه عليها ضميره ، وقد يحاسبه عليها الناس والمجتمع .. انه جبان يهرب من المسئوليات ، هذا هو حبيبي مصطفى !

وارتفعت أنغام الاسطوانة الأولى ..

وكنت أستطيع ان أتحمل أى شيء فى هذه اللحظة الا أن أستمع الى نغم موسيقى .. كنت أريد أن أحطم .. أن أهدم.. أحطم كل الاسطوانات ، وكل قطع الأثاث ، وكل شيء .. بل كنت أتمنى لو أن مصطفى حاول فى هـذه اللحظة أن يحطمنى بدل أن يحيطنى بهذه الرقة الملساء ، وهذه الأنغام الناعمة .. كنت أتمنى لو انه ضربنى ، وشد شعرى ، وألقانى على الأرض ورفسنى بقدمه ، حتى أجد فى قسوته ما يلهينى عن عواصفى النفسية وأفكارى السوداء ..

مرت كل هذه الخواطر برأسى فى لحظة واحدة ، ثم سمعت صوته يقول وهو يستدير الى :

— وتعرفى ان باباكى لطيف قوى .. ده باين عليه أب مثـالى !

قلت وكأن صوتى يخرج محشرجا من خلال ثورة نفسى:

— ده مبسوط منك هو كمان .. وناوى يعزمك عندنا !!

وكأنى رأيت فرحة على وجهه وقال كأنه يهلل كالأطفال :

— صحيح ؟!!..

ووقفت على قدمى واقتربت منه وقلت فى صوت جـاد وأنا أثبت عينى على وجهه :

— لو بابا عزمك ، مش عايزاك تقبل العزومة !!..

وباتت على وجهه نظرة بلهاء ، وقال فى غباء :

— ليـه ؟

قلت فى اقتضاب :

— كده .. علشان خاطرى يامصطفى !!

قال :

— بس مش ..

وقاطعته :

— علشان خاطرى .. اوعدنى .. وبعدين حتعرف ايه السبب !!

وقال بلا مبالاة :

— حاضر ياستى .. علشان خاطرك !!

قلت :

— مرسى .. أنا نازله بأه .. أحسن بابا مستنينى ف النـــادى !!

قال وقد عادت اليه بلاهته :

— مش معقول .. أمال كنتى عايزه تشوفينى ليه ؟

قلت ف برودة :

— علشان كنت واحشنى . أورفوار !!

واتجهت الى الباب ف خطوات سريعة كأنى أجرى .. وتركت مصطفى ونظرته البلهاء !!

انه لم يستطع أن ينقـــذنى من نفسى .. ولا من شرى وحقدى وجرائمى .

والقيت بنفسى ف ســيارة أجرة وأنفاسى تتمزق كأنى ألهث عقب « مشوار » بعيد قطعته عدوا ..

وارتفع مع صوت موتور السيارة صوت مصطفى وهو يقول « دى ست محترمة واللى يعرفها لازم يحترمها » !!.

وأنا !!

ألست محترمة ؟!

ولماذا تكون هى محترمة ؟!!

انها ليست محترمة ، ولا يجب أن تكون محترمة !!..

ووصلت الى البيت ، وقابلتنى «دادا» حليمة ، وسألتها:

— ست صفية فين يادادا ؟!

وأجابت « دادا » حليمة :

— فوق ..

وابتسمت فى خبث مسموم ..

ان الجريمة تبدأ من الدور العلوى !!



كان من عادة زوجة أبى أن تصعد كل صباح — بعد خروج أبى — الى الدور العلوى حيث يقيم عمى عزيز لتشرف على أعمال الخدم ..

ولم يكن من عادة عمى أن يخرج فى الصباح .. كان يستيقظ من نومه متأخرا ، ويبقى فى فراشه فترة طويلة يتناول خلالها الشاى ويقرأ الصحف ، ثم يقوم متكاسلا يطوف بحجرات البيت يغنى ويصفر بفمه ويشيع المرح بيننا بمداعباته وضحكاته العالية ، ثم يرتدى ثيابه وينزل الى الحديقة ويشغل نفسه بمناقشة الجناينى أو بقراءة كتاب ، الى أن يحين موعد الغداء فيتناوله معنا ثم يخرج الى عالم عريض لا يعود منه الا فى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى ..

كانت هذه هى حياته معنا ..

وكان أبى يعتبر نفسه مسئولا عنه ، فكان يدير له أرضه ، ويرتب حساباته ويحاول دائما أن ينظم حياته ..

وكنت أنا — قبل أن يتزوج أبى — أعتبر نفسى مسئولة عن عمى كما أنا مسئولة عن أبى ، وكنت أصعد كل صباح الى الدور العلوى لأشرف على أعمال الخدم ، كما بدأت تفعل طنط صافى بعد زواجها ..

ولم يحدث أبدا خلال العمر الطويل الذى عاشـه أبى وعمى أن وقع بينهما شجار أو خلاف ، رغم التفاوت الكبير بين الشخصيتين .. شخصية الرجل المرح البوهيمى الذى لا يحمل هما ولا يقبل أن يحمل هما ، وشخصية الرجـل الجاد الرزين المنظم الذى يحمل مسئولية نفسه ومسئولية غـيره ..

ولم يجد جديد فى حياة البيت يمكن أن ينذر بخـلاف بينهما ، أو بكارثة ..

لم يجد الا الخطة السوداء التى ارتسمت فى رأسى .. المصيبة التى أعددتها ، ثم بدأت أرفعها بكلتا يدى ، وأهم أن ألقيها على البيت كله .. وعلى أعدائى يارب ؟..

كنت قد قضيت الليل أبحث عن منفذ الى زوجة أبى لأطعنها منه .. عن شىء أستطيع أن أتهمها به ، وأحط به من كرامتها ، وأهدم به كبرياءها ، وأمزق به ستر « الاحترام » التى تحيط به نفسها ..

كنت أقول لنفسى : « لابد أن فى حياتها شيئا .. سرا .. ان كل امرأة لها سر .. فما هو سرها ؟ » ..

ثم بدأت أقول لنفسى : « لابد أن فى حياتها رجلا .. رجلا آخر غير أبى .. انى أعرف نساء كثيرات لكل منهن عشيق بجانب الزوج .. لماذا لا تكون كبقية النساء .. ولكن من هو عشيقها ؟ » .

وبدأت أقلب فى مخيلتى كل الرجال الذين يترددون على

البيت ، أو الذين نعرفهم ، وأحاول أن أجد من بينهم عشيقا لهـا ..

ولم أجـد ..

كانت تعامل كل الرجال فى مستوى واحـد .. كلهم تجذبهم بشخصيتها القوية الحلوة ، وكلهم يلتفون حولهـا أينما ذهبت ..

وعندما لم أجد عشيقا ، تخيلت واحدا ...

وكان الرجل الذى تخيلته كعشيق لزوجة أبى ، هو عمى ..

عمى عزيز ؟!!..

لم لا ؟!..

انه أقرب الرجـال اليها ، ثم ان شخصيته تكمل نقصا كبيرا فى شخصية أبى ، فلماذا لاتجمع بينهما حتى يكتمل لها من كليهما كل ما تحبه المرأة فى الرجال .. الجد والمرح ، والنظام « والهرجلة » ، والاستقرار والقلق .. الى آخـر الصفات المتناقضة !..

كان هذا ما تخيلته ..

وكان يجب أن أقنع نفسى بهذا الخيال حتى أنسج منه حقيقة تزودنى بالجرأة على ارتكاب جريمتى ..

وعندما بدأت أقنع نفسى بخيالى ، لاحظت أشياء كثيرة لم أكن الاحظها من قبل ، ولم تكن تثير فى نفسى شكا ، ولم أكن أفسرها تفسيرا يحمل معنى الريبة ..

لاحظت أن عمى بدأ منذ تزوج أبى ، يتناول طعام العشاء معنا ، ولم يكن يتناوله معنا من قبل أبدا ..

ولاحظت أنه يتعمد أن يقبل كل دعوة ندعى اليها ، حتى ولو ذهب اليها متأخرا . وكان من قبل يرفض جميع الدعوات ، ويحتقر مجتمعنا ، سواء المجتمع الذى يضم أقاربنا أو مجتمع أصدقائنا ..

ولاحظت انى لم أره يرقص أبدا الا عندما بدأ يرقص مع طنط صفيه ، وكان يراقصها دائما فى كل حفلة ، خصوصا أن أبى كان دائما كسولا عن الرقص ..

ولاحظت أنه يعطى لنفسه حقوقا عليها ، لايمكن أن تكون حقوق أخ على زوجة أخيه .. كان هو الذى يبدى رأيه فى ثيابها ، وكان هو الذى يعارض فى دعوة هذا الصديق أو ذاك ، وكان هو الذى يلفت نظرها اذا تأخرت عن موعد عودتها ، وهو الذى يسألها أين كانت !!

لاحظت ظواهر كثيرة ..

وبدأت أقتنع !!

وعندما عدت من لقاء مصطفى ، وقالت لى «دادا حليمة» أن طنط صافى فى الدور الأعلى .. بدأ اقتناعى الجديد يصور لى صورا لم تكن تخطر لى من قبل .. بدأت أقول لنفسى : « ان الساعة الآن قد بلغت الواحدة .. فما الذى أبقاها فى شقة عمى حتى الآن ؟ .. هل لا تزال تشرف على الخدم ؟..

أم انها انتهزت فرصة خروجي وأطالت بقاءها معه ؟ .. ومن يدري ماذا يفعلان الآن » ؟!!..

وصعدت الى الدور العلوى على أطراف أصابعى ...

كأنى متأكدة انى سأراها فى الوضع الذى يصوره خيالى !!

كان البهو الخارجى خاليا ..

ولم يكن هناك صوت للخدم ..

وسرت فى الممر الذى يؤدى الى حجرة نوم عمى .. سرت على أطراف أصابعى ..

وكان باب حجرة النوم مفتوحا ..

وتقدمت .. على أطراف أصابعى أيضا ..

ورأيتهما ..

كان عمى جالسا فى فراشه وهو لا يزال بالبيجاما ، وقد انتشرت من حوله الصحف والمجلات ، وبجانبه مائدة عليها أدوات الشاى .. وكانت طنط صافى جالسة على حافة الفراش فى الركن البعيد ، وسمعتها تقول له :

— انت حاتقوم والا أقومك بالعافية ؟!!

وفجأة التفتت ورأتنى ..

وارتبكت .. خيل الى أنها اكتشفت انى أتجسس عليها ، ولكنها قالت لى ببساطة وهى لاتزال محتفظة بابتسامتها:

— تعالى يانادية .. تعالى ساعدينى علشان نشد الراجل الكسلان ده من السرير !!

والتفت عمى الى قائلا :

— بسم الله الرحمن الرحيم .. اتى طلعتى منين ! ..

وقلت وأنا أحاول أن أبتسم :

— من تحت !!

وقامت طنط صافى وأمسكت بقدم عمى وهى تصيح ضاحكة :

— تعالى يانادية امسكى الرجل التانية !!

وتقدمت وأنا أفتعل المرح ، وأمسكت بقدم عمى الثانية، وتعاونا نحن الاثنتين وأخذنا نجذبه من فوق الفراش حتى أوقعناه على الأرض ، وهو يقول ضاحكا :

— يا أخواتا أنا ذنبى ايه . أخويا اتجوز ، يبقى أنا ذنبى ايه .. ما أتجوز أنا أحسن اذا كان كل يوم حتنزلونى من السرير فى الفجر ..

وقالت طنط :

— الفجر بتاعك يبقى الساعة واحدة بعد الضهر .. ياللا بلاش كسل .. الساعة اتنين تمام الغدا حيتحط !!

وحاولت أن أتركهما وأنا لازلت أضحك ضحكتى المفتعلة .. ولكن عمى صاح بى :

— نادية .. الحقينى ياحبيبتى !

قلت ضاحكة :

— ألحقك بايه .. ماحدش يقدر يلحقك من طنط صافى !..

قال :

ــ الحقى بوسينى علشان أقدر أقوم من على الأرض!..

ثم جذبني من يدي ، وأوقعني في أحضانه ، وقبلني فوق وجنتي وضمني الى صدره في حنان ..

ولم يستطع هذا الحنان أن يلهيني عن جريمتي ..

ونزعت نفسي منه ، وابتسامتي المفتعلة لاتزال فوق شفتي ، ثم تظاهرت بأني أجذبه من يده ليقوم من على الأرض ، ثم خرجت من الغرفة ، وأنا أقول :

ــ أما أنزل أشوف بابا جه والا لسه !

ونزلت ..

وسمعت أقدام طنط صافي تنزل خلفي ..

ولا أدري ، لماذا ازددت يومها اقتناعا بأن بينهما شيئا.. بينهما علاقة آثمة .. ربما لأني كنت أريد أن أزداد اقتناعا ، فلم يكن هناك شيء يثير الريبة ، كان كل ما رأيته يمكن أن يمر بسلام ويمكن أن يكون مظهرا عاديا من مظاهر حياتنا العائلية ، لولا أنني لم أكن أريد سلاما ولم أكن أريد حياتنا العائلية .. هذه الحياة التي تتربع زوجة أبي على عرشها !!..

وكان علي بعد ذلك أن أقنع أبي بما أقنعت به نفسي ..

كان علي أن أقنعه بأن زوجته تخونه مع أخيه !!

كانت هذه هي خطتي ..

هذه هي جريمتي البشعة !!..

ولم أكن أتصور لهذه الجريمة من نتائج .. الا نتيجة

واحدة ، هى أن تخرج طنط صفية من البيت .. أن يطلقها أبى .. أن يعزلها عن العرش ، وأعود أنا أتربع عليه .. على عرش البيت وعــرش مصطفى وعــرش قلوب كل أقاربنا وأصدقائنا ..

ولكن كيف أقنع أبى ؟..

لم يكن الأمر سهلا .. كانت طيبته الحلوة أقوى من أن تدع الشك يثور فى نفسه ، وكانت أخلاقه القوية تحول دون أن يسىء الظن بأحد .. وكان حبه المكين لزوجته أقوى من أن يتهمها لمجرد ريبة أو لمجرد نزوة ..

كان باردا هادئا دائما ..

وكان لايغار أبدا ، ولا يسىء الظن أبدا ..

كيف تقنع مثل هذا الرجل بأن زوجته تخونه ؟

كيف أقنعه ؟

ووضعت خطة طويلة الأجل ..

بدأت أبدو أمامه دائما مهمومة حزينة كأن شيئا خطيرا يشغلنى ..

وكان يسألنى عن سبب همى .. فأجيب :

— ولا حاجة !

وكانت زوجته تلاحظ هذه المظاهر التى أفتعلهــا فلا تتكلم ولا تعلق بشىء ، فقد كانت تعتقد — كما استنتجت — أنى مهمومة بسبب الحب الذى صرحت لها به ورفضت أن تسمع تفاصيله ، وربما كان أبى قد حادثها بشأنى فى هــذه

الأيام ، ولكنى واثقة من أنها لم تبلغه شيئا مما صرحت لها به عن حبى ، فقد كانت سياستها ألا تقحم نفسها فى حياتى الخاصة ، ولا أن تجعل منى موضوعا بينها وبين أبى حتى لاتفتح على نفسها أبوابا قد لاتستطيع أن تسدها ..

وجلسنا نتناول الافطار يوما ، ثم قام أبى منصرفا الى النادى كعادته ، وقلت فجأة كأنى أصرخ :

— ما تخليك النهارده يابابا .. بلاش تخرج علشان خاطرى !.

ونظر أبى فى دهشة ، فقد كانت المرة الأولى التى أحاول أن أغير فيها نظام حياته .. النظام الذى يسير فى دقة كدقائق الساعة ..

وقال ودهشته تطل من عينيه :

— ليه .. فيه حاجة ؟.. تعبانة ؟

قلت فى انكسار :

— لا .. أبدا .. بس كنت عايزه أقعد معاك !!

وقال مبتسما ابتسامته الحانية :

— على كل حال مش حاتأخر النهارده .. الساعة واحدة حاكون هنا !

وأحنيت رأسى صامتة ..

وعدت بعد يومين أقول له وهو خارج :

— أنا عارفه بتروح النادى تعمل ايه .. مش احنا أولى بيك ؟

وقال أبي ، وقد عادت الدهشة الى عينيه :

— بس انتي عارفه انى باعمل كل شغلى فى النادى ..

قلت فى حدة :

— أيوه عارفه .. بس احنا كمان محتاجين لك ؟!!..

قال كأنه تلقى اتهاما :

— أنا قصرت فى حاجة ياناديه .. فيه حاجة تقصاكى ؟!!

قلت .. وأنا أنكس رأسى :

— لا .. قصدى انك بتوحشنى .. ما باقعدش معاك كفاية !!

وضمنى الى صدره فى حنان .. وقال :

— أنا حاغيب ساعة واحدة .. وحارجع حالا ؟!..

وعاد فعلا بعد ساعة .. ليجدنى مهمومة كما عودته أن يرانى ، وليسألنى ويلح على فى السؤال .. فأجيبه وأكرر نفس الجواب :

— ولا حاجة .. أبدا والله يابابى ، ولا حاجة ..

ثم ألقى برأسى فوق صدره ، وأتنهد كأنى أشد أنفاسى من آخر الدنيا ..

وفى احدى الأمسيات .. جلست فى غرفتى منطرحة فوق فراشى ، وتركت بابى مفتوحا ..

وجان موعد العشاء ، وجاء الخدم يدعوتنى اليه ، فتلكأت الى أن جاء أبى نفسه ، وعندما سمعت صوت أقدامه

فى الممر الذى يؤدى الى حجرتى .. تظاهرت بالنشيج كأنى أبكى ، وتركته يسمع صوت نشيجى ..

وما كاد يدخل الغرفة ، وقد ارتسمت اللهفة على وجهه.. حتى اعتدلت من رقدتى ، وكنت قد عصرت عينى حتى بدا فيهما آثار دموع .. فأخذت أجففهما ..

وجلس أبى بجانبى .. وقال جادا حزينا مهموما ، وكان قلبه يتفتت بين شفتيه :

— اسمعى يانادية .. انتى مش عاجبــانى أبدا اليومين دول .. لازم تقوليلى على كل حاجة .. ايه اللى مضايقك .. ايه اللى مزعلك .. انتى عمرك ماخبيتى على حاجة يانادية ؟..

قلت وأنا أهز رأسى كالطفلة البريئة :

— مافيش حاجة .. وحياتك مافيش حاجة يابابا !!..

قال مهموما :

— لأول مرة أحس انك بتحلفى بحياتى كدب يا نادية.. بتكدبى على ليه .. قوليلى على الحقيقة يانادية .. أنا بابا .. انتى مالكيش غيرى وأنا ما لياش غيرك !!..

قلت .. كأنى أبكى :

— صدقنى مافيش حاجة .. بس مضايقة .. طهقانه مش عارفه من ايه !!

ووضــع يده تحت ذقنى ورفع وجهى البرىء ، وقال وهو يدقق النظر الى :

— يمكن عايزه تغيرى هوا .. يمكن أعصابك تعبانه .. بكره نروح سوا للدكتور براده !!..

قلت :

— لأ .. بلاش دكتور .. أنا متأكدة انى كويسة .. بس اليومين دول أعصابي بتبقى تعبانه !!..

وابتسم أبي .. كأنه فهم معنى كلمة «اليومين دول» !!.. ثم أخذ بيدى ، وذهبنا الى مائدة العشاء ..

وكررت هذه التمثيليات الصغيرة خلال عدة أسابيع .. حتى وثقت من أن أبي قد تأكد من أن هناك شيئا خطيرا يشغل حياتي ويمزق قلبي ، ويملأ صدري بالهم ..

الى أن كان يوم . . . .

وتعمدت أن أبدو ونحن نتناول العشاء كأني مهمومة أكثر من كل يوم ، وان الأسى قد فاض بي ، حتى لم أعد أحتمله .. ثم قمت بعد العشاء مباشرة ، ودخلت حجرة مكتب أبي ، وجلست الى المكتب ، وأخذت أكتب خطابا الى أمي التي كانت قد سافرت مع زوجها وأولادها الى الاسكندرية ..

كتبت لها :

« حبيبتي ماما ..

« أقبلك ألف قبلة ، ولو انى أخشى أن أبلل وجهك »
« بدموعي .. انى أبكي ياماما ، أبكي طول النهار ، وطول »
« الليل حتى احمرت عيناى من البكاء ولم أعد أستطيع »

« أن أنام .. ومما يزيد في بكائي اني لا أعلم اذا كان من »
« حقي أن أكتب لك هذا الخطاب أم لا ؟ هل من حقي »
« أن أقول لك عن كل شيء حتى لو كان شيئا خاصا »
« بأبي وزوجته وعمي ؛ وبحياتنا في البيت ، أم ليس هذا »
« من حقي ؟ . . . . »

« ولكني مضطرة أن أقول لك . فاني لا أستطيع »
« أن أسكت أكثر من هذا والا جننت .. تصوري ياماما »
« اني أعيش في بيت كله خيانة .. وأني أشهد الخيانة »
« بعيني ؛ ولا أستطيع أن أتكلم .. وتصوري ان الخائنة »
« هي طنط صفية ، وأنها تخون بابا .. وتخونه مع من ؟ »
« مع عمي .. نعم يا ماما انها تخون بابا مع أونكل عزيز .. »
« وهي خيانة مستمرة منذ شهور ، وقد رأيتهما مرة مع »
« بعض في شقة عمي ، وكان يقبلها ، وكانت .. لا .. »
« لا أستطيع أن أصف لك المنظر الذي رأيتهما فيه .. »
« ومن يومها وهي تصعد الى شقته كل يوم بعد خروج »
« بابا ، وتبقى معه الى أن يحين موعد عودته . . »

« ومن يومها وأنا أبكي .. أبكي لأني لا أستطيع أن »
« أفعل شيئا .. لا أستطيع أن أقول لبابا ، ولا أن أرجو »
« عمي ليترك زوجة بابا في حالها ، ولا أن أرجوها أن »
« تصون شرف حبيبي بابا .. بابا الطيب ، الذي يثق بها »
« ولا يدري عنها شيئا ، و . . . . »



... وجلست إلى المكتب ، وأخذت أكتب خطاباً إلى ...

هذا هو الخطاب المسموم الذى كتبته بأسلوب ساذج برىء ، وأنا لم أتعد بعد الثامنة عشرة من عمرى ..

ولم أتم كتابة الخطاب ، انما تركت الورقة موضوعة على المكتب فى مكان ظاهر وضوء « الأباجورة » مسلط عليها ، وتركت بجانبها القلم ، ثم خرجت من الغرفة ، وتركتها مضاءة كأنى لا ألبث أن أعود اليها ..

وكان من عادة أبى أن يدخل حجرة المكتب بعد العشاء لينتقى لنفسه كتابا يقرأه فى البهو أو فى حجرة نومه ..

وكنت أريده أن يدخل الحجرة ليرى الخطاب ، ويقرأه وليحدث بعد ذلك ما يحدث !..

ولكن ، هل يقرأه ؟

قد لا يدخل حجرة المكتب ..

قد يغير عادته هذا المساء ، ولا يجد نفسه فى حاجة الى قراءة كتاب ..

وقد يدخل حجرة المكتب ولا يرى الخطاب !!

وقد يرى الخطاب ولا يقرأه ، احتراما منه لأسرارى ، فهو لم يتعود أن يقرأ خطابا أرسله أو خطابا يصلنى ..

واشتد وجيب قلبى .. أحسست كأن شيطانا مجنونا يخبط على صدرى بكلتا يديه خبطات منتظمة عنيفة كدق طبول الزنوج المتوحشين ..

حملت قلبى المضطرب وتسللت كالمجرمة المبتدئة ، الى شرفة حجرة المكتب عن طريق الحجرة المجاورة .. وكان باب

الشرفة مقفولا ، ولكنى كنت أستطيع أن أرى ما يجرى فى داخل الغرفة من خلال الزجاج ، فوقفت هناك مستندة الى الحائط حتى لا يرانى أحد وعيناى تكادان تصهران زجاج باب الشرفة ، وأنا أطل من خلاله .

وطال انتظارى والشيطان المجنون لا يزال يضرب فوق صدرى بكلتا يديه ..

وتعبت من الانتظار .. خيل الى انى انتظرت دهرا ..

وتعبت من ضربات قلبى الواجف المتنفض ، حتى خيل الى انه سيغمى على ، أو أنى سأموت بالسكتة القلبية ..

وبدأت أفكر فى أن أعدل عن كل هذا وأستريح ..

أن أعود الى غرفة المكتب وأمزق الورقة التى كتبتها ، ثم ألقى بنفسى فوق فراشى لعل قلبى يهدأ ، ولعل الشيطان المجنون يكف عن ضرباته فوق صدرى ، ولعل أنفاسى تنتظم ، ولعلنى بعد ذلك .. أنام !!

ولكن — وقبل أن أيأس بلحظة واحدة — فتح باب غرفة المكتب ورأيت أبى من خلال زجاج الباب ..

وتلفت أبى فى الغرفة دهشا عندما وجدها مضاءة .. ثم ازدادت الدهشة فى عينيه عندما وجد «الأباجورة» الموضوعة فوق المكتب مضاءة أيضا ..

واقترب من المكتب ومد يده ليطفىء الأباجورة وقد أصبح واقفا وظهره لى .

ورأيت رأسه ينحني فى اتجاه الورقة الموضوعة فوق المكتب ، ولكنه عاد وأشاح به فى الحال قبل أن تمر فترة كافية ليقرأ شيئا ..

ومد يده مرة ثانية ليطفىء « الأباجورة » ..

وأطفأها فعلا ..

وتنهدت ووضعت يدى على صدرى كأنى أحمد الله لأن الجريمة قد خابت .

ولكن أبى عاد فى نفس اللحظة وأضاء الأباجورة من جديد . ورأيت رأسه ينحنى مرة ثانية فى اتجـاه الورقة الموضوعة على المكتب .. وثبت رأسه فى هذا الاتجاه كأنه بدأ يقرأ !!

ثم جذب مقعد المكتب وجلس عليه .. وظهره لا يزال متجها الى الشرفة التى أقف فيها ..

ورأيته يرفع الورقة بيديه ويقرأ فيها ..

ثم ألقى الورقة فى عصبية كأنها اشتعلت بين يديه نارا ..

ثم استند بمرفقيه على حافة المكتب ، وأسقط رأسـه بين كفيه .

ثم رأيت أصابعه ترتفع الى قمة رأسه وتشد فى شـعره بقسوة كأنه يريد أن ينتزع من رأسه شيئا ..

ثم اعتدل فى جلسته ، وأمسك الورقة وبدأ يقرأها مرة ثانية . ثم ألقاها فوق المكتب كأنه يقذف بها بكل قـوة

ذراعه .. وقام من فوق المقعد واستدار فى الغرفة ، ورأيت وجهـه ..

وكدت أصرخ ..

بل انى صرخت فعلا ، صرخة مكتومة ووضعت كلتـا يدى فوق شفتى حتى أكتمها ..

ماذا فعلت به ؟

ماذا فعلت بأبى ؟!!..

كان وجهه الذى رأيته فى تلك اللحظة غريبا مخيفا . شفتاه مزمومتان فى عنف كأنهما اختفتا من وجهه ، وطاقتا أنفه مفتوحتان كأنهما ينفثان لهبا ، وعيناه جاحظتان حائرتان، تدوران فى بله كأنهما تائهتان ، وحاجباه معقودان مشمشان كأن أحدهما يمسك بخناق الآخر ، ووجنتاه ترتعشان كأن لحم وجهه يتهدل فوق عظامه ، وشعره مبعثر فوق رأسه كأن كل شعرة تريد أن تنطلق وحدها .

كان كأنه قد كبر فى لحظة واحدة مائة عام ..

وأحسست كأن سكينا قد انغرزت فى جنبى ..

أحسست أن سياطا حادة تنهال على وتمزق وجهى وجسدى .

أحسست انى أريد أن أهرع اليه ، وألقى بنفسى تحت أقدامه وأغسل حذاءه بدموعى ، وأعترف له .. وأتوسل اليه الا يصدقنى ، والا يصدق الخطاب الذى قرأه ، وأن يعود

كما كان ... أن يطلق شفتيه المزمومتين ، وأن يريح عينيه التائهتين وحاجبيه المعقودين .. أن يعود هادئا طيبا جميلا ..

ولكن كانت كل هذه الأحاسيس تطوف بي وأنا في وقفتي ملتصقة بالحائط . وعيناي تطــلان من خلف الزجــاج ، ولا أتحرك ..

لم تستطع كل هــذه الأحاسيس التي كنت أحس بها فعلا ، أن تنقذني من جريمتي ، أو تدفعني الى انقاذ أبي وزوجة أبي ، وانقاذ البيت كله ..

كنت كأني أحمل في ذاتي شخصين .. شــخصا يحس ويتعذب تحت سياط الضمير .. وشخصا آخر لايحس .. ولا يتعذب ، انما هو مجرم عاق يقف باردا .. جامدا .. ودماء الجريمة تسيل من بين أصابعه . وكان الشخص المجرم هو الذي ينتصر علي ، وهو الذي يتحكم في ذاتي ..

ورأيت أبي يروح ويجيء في الغــرفة كأنه وحش غبي وجد نفسه محصــورا ، ولا يدري أين المفر ..

.. ثم استدار متجها نحو باب الغرفة .. فأسرعت أنا وخرجت من الشرفة عن طريق الحجرة المجاورة ، ودخلت الحمام وأغلقت بابه علي ، وفتحت الصنبور على آخره .. حتى اذا ما حاول أبي أن يبحث عني وجدني في الحمام وتأكد أني تركت الخطاب قبل أن يتم ريثما أعود اليه ..

ولكن أبي لم يبحث عني ..

وانتظرت فترة قصيرة تأكدت بعدها ان أبى خرج من
فة المكتب ثم خرجت من الحمام ..

والتقيت به فى الممر الذى يفصل بين الحجرات ..

التقيت بأبى ..

وحاولت أن أتفاداه .. ولكنه ناداني بصوت محشرج :

— نادية .. نادية !!

ورفعت اليه وجهى البرىء الجميل كوجه طفلة لم تتلوث بعد بزحام الحياة ، وقلت فى صوت خافت وأنا لا أستطيع أن ألقى عينى على وجهه المكفهر :

— نعم يابابى !

وصمت أبى .. وخيل الى أنه صمت طويلا .. ثم اقترب منى فى خطوات بطيئة ، ثم احتوانى بين ذراعيه وضمنى الى صدره فى عنف لم أتعوده ، وكأنه يستنجد بى من شىء فى نفسه ، أو كأنه يعتذر لى عن الهم الذى تصور انى أحمله ، ثم قال كأنه يبكى :

— ولا حاجة ياناديه .. تصبحى على خير !!

وقبلته فوق وجنته المرتعشة قبلة خجلة سريعة كأنى أخاف أن ألوث وجهه الشريف بقبلتى ، ثم تمتمت بكلمات كأنى أقول :

— وأنت من أهل الخير ..

وتركنى ..

وخرج الى البهو ..

وأسرعت أنا الى غرفة المكتب والتقطت الورقة السوداء، وأطفأت الأنوار التي كان أبي قد تعمد أن يتركها مضاءة كما هي ، ثم عدت الى غرفتي ، وأخذت أمزق الورقة في حدة وعنف ؛ مزقتها ألف قطعة ، كأني أمزق نفسي ..



ولم أنم ..

كنت أفكر فى أبى ، وكنت أراه فى صورته المخيفة الغريبة التى رأيته بها بعد أن قرأ الخطاب ، وكنت أتخيل مدى العذاب الذى يحتمله وهو يعتقد أن زوجته تخونه مع شقيقه .. عذاب الرجل المطعون فى شرفه .. المطعون فى كبريائه .. المطعون فى أعز عواطفه !!..

وأحسست انى أختنق .. أحسست ان أمعائى تزحف صاعدة فى داخل جسمى حتى تلتف حول حلقى وتضغط عليه ..

كنت أتقزز من نفسى ..

وكنت أتعذب ..

تعذبت كثيرا ..

وأحسست انى فى حاجة الى انسان يضربنى.. يصفعنى.. يؤلمنى .. يعاقبنى على جريمتى ..

لماذا لايضربنى أبى ؟

ولكنى بدل أن أتخيل أبى يضربنى تخيلت مصطفى .. تخيلته يرفع يده ويهوى بها على صدغى ، وتخيلته يشدنى من شعرى ويوقعنى على الأرض ثم يسحب سوطا وينهال به فوق جسدى حتى يمزق عنى الثوب ..

واسترحت لهذا الخيال .. وجدت فيه ما يلهيني عن جريمتي . ورفعت يدى — بحركة تلقائية — وغطيت بهما وجهي كأنى أتقى بهما صفعات مصطفى .. وتقلب جسدى فوق الفراش كأنه يتألم فعلا تحت ضربات السوط ..

ولكن هذا الخيال لم يدم طويلا ..

اكتشفت سريعا أنه مجرد خيال .. فمصطفى — كأبى — لا يمكن أن يضربني .. انه دائما بسيط رقيق صريح مهذب ..

وعاد الىّ عذابى ..

عذاب ضميرى ..

وهو عذاب لايمكن أن ينتهى الى شيء .. لايمكن أن يدفعنى الى العدول عن جريمتى أو التكفير عنها ..

كنت أعلم انه يجب علىّ أن أستمر فى الجريمة .. وكنت أعلم ان هذا الخطاب الذى كتبته وقرأه أبى ليس سوى البداية ، وعلىّ بعد ذلك أن أثبت صحته لأبى .. أن أثبت له أن زوجته تخونه فعلا مع شقيقه ، والا اكتشف كذبى وحاسبنى عليه وخسرته الى الأبد .. وكان يهون على أى شيء الا أن يكتشف أبى أنى كاذبة أو أن أخسره ..

وطلع الصباح ..

وكنت لا أزال فى فراشى عندما جاء أبى الى غرفتى وهو لا يزال مرتديا البيجاما .. ودهشت .. فان أبى منذ تزوج لم يدخل غرفتى فى الصباح الباكر .. كان يقوم من نومه ويخرج

من غرفته الى الحمام ، ثم يعود ليرتدى ملابسه ، ولا أراه الا على مائدة الافطار ..

وانحنى أبى يقبلنى وجلس على حافة الفراش وهو يقول وبين شفتيه ابتسامة متكسرة :

— صباح الخير يابنتى .. نمتى كويس امبارح ؟

قلت وأنا أحاول أن أمسح بابتسامتى آثار الأرق عن وجهى :

— يسعد صباحك يابابا ..

ثم قمت على ركبتى وألقيت نفسى فوق صدره ، واحتضنته بذراعى .. وأسندت خدى على خده ، وقلت فى سذاجة الأطفال :

— أنا باحبك قوى يابابا ..

قلتها كأنى أعتذر له عن جريمتى ..

ورفع أبى ذراعيه وأحاطنى بهما وضغطنى الى صدره ، ثم أبعدنى عنه برفق ونظر الى وابتسامته الحزينة تطل من تحت عينين مجهدتين ، وقال :

— تعرفى ياناديه أنا حاسس اننا بعدنا عن بعض .. فاكره زمان لما كنا عايشين لوحدنا .. كنا دايما فاهمين بعض، ودايما بنتكلم مع بعض .. و ..

ونكس رأسه كأنه لن يرفعه أبدا ، واستطرد فى صوت حزين :

— كانت أيام حلوة ياتادية .. ماكنش لى الا انتى ، وما لك الا أنا ..

وأحسست بفرحة خبيثة ..

أحسست أن أبى عاد الى .. عاد الى وحدى .. ولكنه عاد حزينا محطما ..

وقلت وأنا أدارى فرحتى الخبيثة :

— أنا طول عمرى حافضل ماليش الا آنت يابابا ..

وقال وهو يرفع رأسه الى :

— وأنا كمان ياتادية .. تأكدى ان ماليش الا أنتى .. ومهما حصل حنفضل لبعض على طول .. حافضل لك علشان أسعدك وأهنيكى .. وحاضحى بكل حاجة علشان سعادتك وهنـاك ..

قلت وأنا أقبله مرة ثانية :

— أنا ماليش الا سعادتك يابابا ..

وربت أبى على كتفى ، قائلا :

— طيب قومى اغسلى وشك وتعالى نفطـر .. لازم تاكلى كويس أحسن انتى اليومين دول خاسة ومش عاجبانى..

قلت ضاحكة :

— أما تغسل وشك انت قبله !

وتحسس أبى وجهه بيده وقال مبتسما :

— صحيح .. ده أنا لسه مادخلتش الحمـام .. يظهر اتعديت منك وبقيت كسلان ..

وقام أبى ليدخل الحمام ..
وقمت وغسلت وجهى وارتديت ثياب الصباح ..
والتقينا جميعا على مائدة الافطار ..
كانت زوجة أبى على غير عادتها صامتة حزينة ويبدو أنها لم تهتم بزينتها نفس الاهتمام ..
وكان أبى وهو جالس بجانب زوجته صامتا هو الآخر ، معقد الوجه كأنه يكتم بركانا يكاد ينفجر .. وكان على — غير عادته — يولينى من الاهتمام أكثر مما يولى زوجته..
وجلست بينهما صامتة أنا الأخرى أنقل عينى بينهما كأنى أحاول أن أتنبأ من أين ستهب العاصفة ..
وانتهينا من الافطار الصامت ، كأننا شيعنا فقيدا ..
وقام أبى منصرفا الى النادى ..
وقامت طنط صفية وراءه فى تكاسل كأنها تؤدى واجبا ثقيلا بتوديعه حتى الباب ..
وقمت أنا ، وجلست فى البهو .. وانتظرت طنط صفية حتى عادت ، وسألتها فى براءة وأنا أحاول أن أعرف ما دار بينها وبين أبى ليلة أمس :
— بابا مش عاجبنى النهارده .. ماله ؟
وقالت طنط صفيه وهى تسوى مفرشا موضوعا فوق احدى الموائد :
— والله ما أنا عارفه يانادية .. امبارح بصيت لقيته مرة واحدة اتغير .. كان قاعد معايا فى أمان الله ، وبعدين قام

دخل جوه ما أعرفش يعمل ايه ورجع مكشر وبوزه طوله شبرين ..وفضل قاعد لوحده فى الصالة لنص الليل .. وبعدين دخل الأوده ومانامش ؛ فضل يتقلب .. ويتنهد .. ويزفر .. وكل ما أقول له مالك ما يردش .. أنا خايفه يكون عيان بحاجة ومش راضي يقول لى ..

قلت فى براءة وأنا أدعى الجزع :

— طيب ما نندهه للدكتور المفتى ..

قالت :

— قلتله ما رضيش .. وانتى عارفه باباكى لما يحب يسكت ما حدش فى الدنيا يقدر يخليه يتكلم ..

وتنهدت كأنها تسلم أمرها لله .. ثم دخلت الى المطبخ لتحاسب الطباخ ..

وأخذت أنا التليفون ودخلت الى حجرتى وحادثت مصطفى .

كان حديثا سخيفا لاطعم له .. كنت أحاول أن أفتح معه بابا لحديث يلهينى عن أفكارى ، ولكنى لم أستطع .. كنت أضع أذنا على السماعة وأذنى الأخرى تسمع خطوات زوجة أبى .. وكنت أحدثه بشفتى وعقلى كله يرسم ويتخيل مايمكن أن يحدث فى الأيام القليلة القادمة ..

وكان مصطفى يحاول أن يجذبنى الى موضوع أتحمس له فلا يستطيع .. كان ينكت فلا ألتقط نكتته ، وكان يسألنى فيجدنى بعيدة عن السؤال .. الى أن سألنى :

— مالك النهارده .. سرحانه فى ايه ؟..

قلت فى همس :

— ولا حاجة .. أصل طنط صاق واقفه جنب باب وده !

قال وهو يضحك :

— طيب سلميلى عليها وفكريها بالعزومة .. والا لسه أمر الحظر بأنى ما أدخلش بيتكم ؟..

ولم أرد عليه ، انما كتمت غيظى منه وقلت هامسة :

— أنا حاقفل السكة دلوقت .. وبعدين حاطلبك ..

قال :

— لا .. أنا نازل دلوقت ..

قلت :

— طيب حاكلمك بعد الضهر .. أوريفوار !

ووضعت السماعة ، ثم التقطت مفرش « الكانافاه » الذى أطرزه ، وذهبت به الى البهو ..

وكانت طنط صاق تشرف على الخدم ..

وبعد حوالى ساعة مرت من أمامى فى البهو ، وصعدت الى الدور العلوى كعادتها كل صباح ..

وجلست وحيدة مع أفكارى ..

ولم تمر فترة طويلة واذا بالباب يفتح ويدخل أبى كالزوبعة ..

ولم أكد أراه حتى عرفت ..

عرفت انه بدأ يراقب زوجته .. فلم تكن من عادته أن يعود أبدا الى البيت فى مثل هذه الساعة ..

ونسى أبى فى ثورته أن يحيينى .. وسار فى خطى سريعة عصبية الى داخل البيت ، ثم عاد الى وقال كأنه يصيح :

— فين صفية ؟!

وفتحت عينى فى خوف ، وقلت ولسانى يتعثر ويتهته ، كأنى أخفى سرا كبيرا :

— مش عارفه والله . هيه .. هيه .. هيه مش فى أودتها؟!

قال فى عنف :

— لأ مش فى أودتها . قوليلى راحت فين ؟

وتقدم منى وأمسك بذراعى بقسوة ، واستطرد :

— هيه فين .. قوليلى على كل حاجة ؟

قلت وأنا لا أزال أدعى التهتهة فى كلامى :

— لازم .. لازم خرجت !

قال وهو يهزنى :

— خرجت راحت فين ؟!

قلت وأنا لازلت أمثل دورى :

— ما أعرفش يابابا ، أصلى كنت فى أودتى .. اسأل دادا حليمة .. والا يمكن تكون طنط ساقى .. ف .. ف .. فوق !

وترك أبى ذراعى ولم يسأل « حليمة » شيئا .. واندفعت الزوبعة الى الدور العلوى ..

واندفعت وراءه كأنى جزعة عليه ..

وكان الدور العلوى ساكنا مظلما .. ودخل أبى وأنا وراءه .. فاذا بطنط صفية واقفة فى البهو ترتب الثياب التى عادت من عند الكواء ، وعبده السفرجي فى الحجرة المقابلة يكنسها ..

ووقف أبى ينظر اليها كأنه يحاول أن يسيطر على أعصابه ، وقال فى صوت أقل عنفا :

— فين أخويا عزيز ؟..

ونظرت اليه طنط صفية نظرة جامدة وقالت فى صوت يقطر رطوبة :

— لسه نايم ؟

وعاد أبى يقول وهو لا يزال يقاوم ليسيطر على أعصابه:

— وانتى هنا بتعملى ايه ؟

ونظرت اليه كأنها تتعجب ، وقالت فى برود :

— زى ما أنت شايف !!

وقال وقد بدأ صوته يرتفع :

— ولما انتى ترتبى المكوى .. أمال الخدامين بيعملوا ايه؟

قالت وهى تنقل عينيها بينى وبينه :

— من امتى الخدامين بيعدوا المكوى .. انت عارف ان عمرى ما أعتمد على الخدامين ، وطول عمرى باشكى منهم..

ثم سكتت قليلا واستطردت :

— انت مالك يا أحمد .. جرى ايه .. ايه اللى تاعبك ؟

ورأيت أبى يضغط كفيه كأنه يحاول أن يخنق أعصابه ، وقال فى هدوء مفتعل :

— ولا حاجة .. ولا حاجة ...

واستدار لينزل ، وقالت له زوجته :

— استنى .. أنا نازلة معاك !.

ونزلنا نحن الثلاثة !

وجلسنا فى البهو دون أن يتكلم أحدنا .. وفجأة قفز أبى من فوق مقعده ، وقال فى صوت محشرج :

— أنا راجع النادى ..

وقالت طنط صفية وفى عينيها لوعة :

— ماتخليك معانا .. الساعة بقت اتناشر ومعاد الغدا قرب ..

وقال أبى وهو يتجه الى الباب :

— ورايا شغل .. أنا كنت جاى علشان أكلم عزيز فى مسألة .. انما حضرته لسه نايم .. أنا عارف رجالة ايه دول !!

وخرج ..

ولم تقم طنط صفية لتودعه ، انما جلست مكانها وأسندت رأسها على كفها كأنها تفكر .. ثم قامت الى حجرتها فى خطوات عصبية وأغلقت بابها وراءها .. ربما لتبكى ..

وتصورت دموعها .. الدموع التى لم أرها أبدا .. وأشفقت عليها ساعتها ، ولكن جريمتى كانت أكبر من أن تهدمها الشفقة ..

كانت الانسانة المجرمة التي تعيش في صدري تسيطر على أعصابي وعلى ذهني .. وتجعلني متنبهة يقظة أرقب كل ما يدور حولي صامتة جامدة دون أن أتأثر أو أنهار ..

وعاد أبي بعد ساعات .. عاد متأخرا عن موعده .. وعندما قبلته شممت رائحة « البيرة » في فمه ، ولكنه كان متمالكا أعصابه ، وكان يبدو كأنه اتخذ قرارا حاسما ، ووضع خطا مرسوما يسير عليه ..

واجتمعنا على مائدة الغداء . ومعنا عمي عزيز .. وربما لم يلحظ أحد مدى النفور الذي استقبله به أبي ، قدر مالاحظته أنا .

وقال عمي وهو يتخذ مجلسه الى المائدة :

— خير يا أحمد .. صفية قالتلي انك كنت عايزني ..

والتفت أبي الى زوجته لفتة حادة ، كأنه يتهمها بأنها أفشت سره لأخيه ، وقال في تهكم :

— لحقت تقول لك !!

ونظرت اليه زوجته في تعجب .

وقال عمي عزيز وهو يضحك :

— هيه وراها ايه غير أنها تلحق تصحيني .. وتلحق تقول لي .. وتلحق تغديني .. خلاص صفية عملت البيت قشلاق ، كل حاجة بالثانية والدقيقة .

نظر أبي الى أخيه كأنه يحاول أن يكتشف سره ، ثم

نقل عينيه الى زوجته ثم عاد وتشاغل بالطعام ، وقال دون أن يرد على كلام أخيه أو على ضحكته :

— على كل حال .. مش عايزك فى حاجة .. كنت ناوى أكلمك عن العزبة انما افتكرت ان الحاجات دي ماتهمكش.

وقال عمى :

البركة فيك يا أحمد ..

وقال أبى فى مرارة :

— طبعا البركة فيه .. ما أنا بقيت زى حمار السباخ .. كل حاجة على دماغى .. أنا اللى أشوف لك العزبة : وأنا اللى أمسكلك حساباتك .. وأنا اللى أتجوزلك علشان تلاقى واحدة تصحيك من النوم .. و ..

وألقت طنط صفية الشوكة والسكينة فوق الطبق فى صوت مسموع ، وقالت فى حدة :

— انت اتجوزتنى يا أحمد علشان أصحى عزيز من النوم ؟

وجذب أبى أنفاسه بعنف كأنه يستعيذ بالله ويستغيث به ، وقال وهو يحاول أن يخفى صوته :

— مش قصدى و ..

وقاطعته زوجته فى حدة :

— ثم انى ما أسمحش لك تقول عنى « واحدة » ، وتتكلم عنى باللهجة دى .

وقال أبي وهو يضغط أعصابه :

— أنا آسف .. معلهش ياصفية استحمليني كمانيومين، وكل حاجة حاتروح لحالها !!

ثم قال هامسا كأنه يحادث نفسه :

— باذن الله ..

وسكتت طنط صفية ..

وقال عمى فى هدوء :

— جرى ايه يا أحمد .. فيه ايه .. مالك ؟!

وقال أبى وهو لا ينظر اليه :

— ولا حاجة ..

وعاد عمى يقول :

— ما تقول يا أحمد .. يمكن فيه حاجة أقدر أعملها ..

ورفع أبى عينيه اليه وقال :

— انت عمرك ما تعرف تعمل حاجة .. غير الحاجات اللى بتعملها دلوقت !

وقال عمى وهو يتمالك أعصابه :

— فعلا .. انما انت اللى عايز كده .. انت اللى كنت دايما عايز تمسك كل حاجة بنفسك .. واذا كنت أنا ما باعملش حاجة فلأنى عايز أريحك !!

وعاد أبى يتشاغل بطعامه وهو يقول :

— على كل حال سيبنا من الموضوع ده دلوقت .

ومرت فترة صمت طويلة ..

كانت المرة الأولى التى يدور فيها مثل هذا النقاش بين أبى وعمى . والمرة الأولى التى تتجمع فيها مثل هذه السحب السوداء فوق مائدة الطعام .. وأحسست أن البيت كله يهتز .. وانى أهتز معه .. أحسست أن أعمدته ستسقط ، وأنها ستسقط فوق رأسى . ولكن ماذا أستطيع أن أفعل .. ماذا أستطيع ؟!

وسمعت زوجة أبى تقول وقد كدنا ننتهى من الطعام :

— احنا معزومين النهارده على العشا فى بيت خالى ، تحب نروح والا نعتذر لهم ؟

ونظرت اليها ، كانت تبتسم ابتسامة ضعيفة كأنها تحاول أن تدافع بها عن سعادتها ، وكانت فى عينيها حيرة وتردد كأنها لاتدرى ماذا تفعل أو ماذا تقول .. لقد بدأت الشخصية القوية الجذابة تنهار .. وتنهار أمامى ، وأمام جريمتى !!

وقال أبى :

— نروح .. ما نروحش ليه .. حصل ايه علشان ما نروحش ؟!

وقالت طنط صفية فى ضعف :

— ولا حاجة ، بس باسأل ..

وعاد أبى بعد قليل يقول وهو يقطع تفاحة كأنه يذبحها :

— وانت يا عزيز .. مش حاتيجى معانا ؟!!

وقال عمى وهو يحاول أن يستعيد مرحه :

— انت بتعزمنى ، والا بتطردنى ؟

وقال أبي وهو لا يزال يذبح التفاحة :

— لا أبدا .. بس أصلك زمان ما كنتش بتحب العزايم دى ، انما شايفك اليومين دول بتحبها ..

وقال عمى فى براءة وهو ينظر الى زوجة أبي فى تقدير :

— البركة فى صفية .. هيه اللى خلتنى أحب كل حاجة حتى العزايم السخيفة ..

ورفع أبي عينيه اليه بغتة ، كأنه يعجب لجرأته . ثم عاد يذبح فى التفاحة !!



وذهبوا فى المساء الى بيت خال طنط صفية ..

واعتذرت عن الذهاب معهم بحجة ان ليس هناك فتيات فى مثل عمرى .. والواقع انى كنت أريد أن أستريح من نفسى .. أستريح من هذه الانسانة المجرمة التى تسيطر على وتجعلنى دائما يقظة متنبهة لكل كلمة وكل لفتة تدور حولى.

ولكنى عندما أصبحت وحيدة لم أسترح .. عاد الى عذابى .. وأخذت أدور بين الحجرات كأنى أفر من صور مفزعة ترتسم أمامى فوق الجدران ..

أن أقدم على مغامرة طائشة تنسينى نفسى ..

ولم يكن أمامى الا مصطفى لألجأ اليه .. الى المخدر الذى تعودته .. ولكنى فى هذا المساء لم تكن تكفينى الجرعة التى تعودتها ، لم يكن يكفينى أن أذهب اليه وأستمع الى اسطواناته ، وآرائه الشاذة ، وأهب جسدى للمساته .. لم

يكن يكفيني حتى أن أبيت عنده — كما فعلت مرة — كنت أريد جرعة أكبر .. مغامرة أشدعنفا وأكثر اثارة .

وكنت وحدى فى البيت ..

ورفعت سماعة التليفون واتصلت بمصطفى فلم أجده فى بيته ، فأخذت أتصل به فى كل الأمكنة التى تعود أن يتردد عليها حتى وجدته فى « بار » سميراميس .. وقلت له كأنى آمره :

— أنا عايزه أشوفك دلوقت ..

قال كأنه يعتذر :

— بس أنا معايا ناس ..

قلت فى اصرار :

— ما ليش دعوة .. سيبهم وتعال ..

قال وهو لا يزال يحاول أن يعتذر :

— بس ده أنا اللى عازم ..

قلت فى حدة وكأنى أعنى ما أقول :

— اسمع يامصطفى .. اذا ما كنتش حاشوفك دلوقت مش حاشوفك أبدا .

قال فى حيرة :

— ليه بس .. ايه اللى حصل ؟

قلت فى عصبية :

— مالكش دعوة .. لازم أشوفك ؟

قال فى استسلام :

— بس مش حاتأخر .. نصف ساعة وأرجع تانى ..

قلت وأنا أكذب عليه :

— حاضر ..

قال :

— بعد خمس دقايق حاكون هناك .. فى الشقة !

قلت وكأنى أفاجئه :

— لأ .. تيجى هنا !!

قال وهو لايفهم :

— هنا فين ؟

قلت فى ثبات :

— عندى فى البيت ..

قال كأنه يصرخ :

— انتى مجنونة .. أجيلك البيت ازاى ؟!!

قلت :

— ما فيش حد .. أنا لوحدى ..

قال :

— ولو .. افرضى حد جه ؟!!

قلت :

— ما فيش حد حاييجى .. كلهم معزومين بره ومش حاييجوا قبل الساعة اتناشر ..

قال وكأنه لا يصدق أذنيه :

— افرضى ان بابا والا طنطك والا عمك .. واحد منهم جاله مغص ورجع البيت بدرى نعمل ايه احنا ؟!!

قلت فى منتهى الهدوء :

— ما أفرضش .. كلهم صحتهم كويسة .. انت حتيجى والا لأ ؟!!

قال وهو يحاول أن يقنعنى :

— واتى ماتجيش ليه بس .. ما دام لوحدك ، البسى هدومك وخدى تاكسى ، وحتلاقينى مستنيكى فى الشقة !

قلت فى عناد :

— لأ .. ما أقدرش !!

قال :

— يا ست الستات .. يانادية .. ياحلوة .. ياروح قلبى.. خليكى عاقلة .. أنا بقالى عشرين سنة من يوم ما كنت تلميذ فى السعيدية وأنا مانطتش أسوار .. ومش مستعد النهارده أنط أى سور .. خلاص أنا كبرت على الحاجات دى ..

قلت كأنى أثير عواطفه :

— انت مش كنت بتقول عايز تشوف أودتى علشان تصورنى فى كل حته آكون فيها . أهو أنا حاوريك أودتى !!

قال وكأنه يبتسم :

— بلاش النهارده وحياتى عندك .. ابقى أوصفيلى الأوده حته حته ، والا هاتى مصوراتى يصور كل ركن فيها، وهاتى الصور معاكى ..

قلت وأنا أكاد أيأس :

— طيب خلاص .. على كيفك .. بس تانى مرة ماتطلبش انك تشوفنى !

وسكت مصطفى قليلا كأن عدوى المغامرة قد انتقلت منى اليه ، وبدأ يتصورها ويتلذذ بها .. ثم قال وكأنه يتحدث بصوت خياله :

— واذا جيت حاخش ازاى ؟!

قلت بسرعة وأنا فرحة :

— حتلاقى باب الجنينة مفتوح .. وحتلاقينى واقفة فى الفراندة ؟

قال فى تردد :

— طيب بعد عشر دقائق حاكون عندك ..

قلت وأنا أتعجله :

— بعد عشر دقائق بالضبط .. بس اسمع ... ماتركنش العربية قدام الباب ، اركنها فى الشارع اللى جنب البيت .

قال وكأنه يتنهد :

— حاضر ..

كانت الساعة قد بلغت التاسعة .. وكان جميع الخدم قد انصرفوا .. لم يكن فى البيت الا « دادا حليمة » وقد دخلت الى غرفتها ونامت ، وعم ادريس البواب وهو راجل عجوز مضى عليه فى خدمتنا أكثر من خمسة عشر عاما .

وبدأت أرتب كل شىء ..

أردت أولا أن أتأكد من أن عم ادريس قد نام ، فخرجت الى الشرفة وناديته عدة مرات .. فاذا به يقظان يرد على ندائي .. وفكرت بسرعة ، وقلت له :

— اسمع ياعم ادريس .. أوصل لغاية المكوجي وقول له يجيب الفستان الأبيض بتاعي حالا ..

وكان الكواء في ميدان الجلاء ، ولم يكن عم ادريس بخطاه البطيئة يستطيع أن يذهب اليه ويعود في أقل من ساعة . وقال عم ادريس في دهشة يخالطها رجاء :

— زمانه قفل دلوقت ياست هانم .

قلت في لهجة آمرة لا ترحم :

— لأ .. احنا فوتنا عليه مرة الساعة حداشر كان فاتح.. معلهش ياعم ادريس . أصل عيده روح ، وأنا عايزه الفستان ضروري دلوقت !

وتمتم عم ادريس ببعض كلمات لم أسمعها ، ثم ألقى كوفيته حول عنقه كأنه يصفعني بها ..

ووقفت أراقبه حتى خرج من البيت وسار في طريقه الى الكواء ..

ودخلت الى حجرتي ، وخلعت ثوبي وارتديت قميص نوم من الحرير الأبيض وارتديت فوقه « روب ديشامبر » من اللون الوردي الفاتح ، ثم حللت شعري من فوق رأسي وأطلقته حرا خلف ظهري كشلال من الذهب ، وتعطرت

بقطرات من عطر « فام » الذى يحبه مصطفى ، ثم هرعت الى غرفة « دادا حليمة » وأدرت المفتاح فى القفل حتى أضمن انها لن تخرج منها الا اذا فتحت لها ..

ثم خرجت الى الحديقة وفتحت بابها وهو باب يفتح فى صوت مزعج ..

ثم عدت ووقفت فى أعلى السلم الذى يؤدى الى داخل البيت ..

وبعد دقائق لمحت سيارة مصطفى تمر أمام البيت .. ونظر الى مصطفى .. ثم قاد سيارته الى الشارع الجانبى ..

وعاد بعد لحظات يسير فى تردد وهو يتلفت حوله كأنه لص ، ثم دخل من باب الحديقة ..

واشتد وجيب قلبى . أحسست كأنى طائرة فى الهواء فى طريقى الى هاوية سحيقة ..

وأشرت اليه بيد مرتعشة ، فأخذ يصعد السلم على أطراف أصابعه .. ثم وضع يده فى يدى وبين شفتيه ابتسامة خائفة ، ووضعت أصبعى فوق شفتى أحذره من الكلام ، ودخلنا البيت .

وأغلقت الباب وراءنا فى حذر ..

كان كل شىء فى مصطفى ثائرا ، أصابعه باردة ، ووجهه محتقنا ، وعيناه لاتستقران ، وضربات قلبه تكاد تسمعها من على بعد ، وصوته يهمس كأنه حشر فى حلقه الى الأبد .. ورغم ذلك فقد كان يحاول أن يبدو ثابتا جريئا .. كأنه ضابط

قديم أحيل على المعاش ، ثم وجد نفسه فجأة فى ميـــدان القتال !!

وأخذ ينقل عينيه فى أرجاء البهو ، وبين قطع الأثاث كأنه لا يبالى ، وكأنه تعود مثل هذه المغامرات ..

ثم التفت الى ، وقال هامســا كأن شجاعته بدأت تتخلى عنه وكأنه يشكو الى :

— تعرف انى اضطريت أشرب اتنين ويسكى علشان أقدر آجى ..

قلت وأنا أنظر اليه مشجعة وأحــاول أن أقرب منــه أنفاسى :

— وأنا كمان .. قلبى فى رجليه !!

قال كأنه يريد أن ينتهى :

— فين أودتك اللى عايزه توريها لى ؟

قلت وأنا أحاول أن أثير غضبه :

— لا .. مش حاوريها لك ..

وهمس :

— ليــه ؟

— كده ..

— ايه اللى كده ده .. مش عايزه توريها لى ليه .. قوليلى؟

لقد غضب مصطفى .. ثار .. وكانت المرة الأولى التى أراه فيها غاضبا ثائرا ، ولم تكن حجرتى هى السبب ، بل كانت المغامرة هى التى أتلفت أعصابه ..

وأردت أن أرى مدى غضبه ، فقلت فى دلال :

— لا .. مش حاقول لك ..

وقبض على ذراعى فى قسوة حتى تألمت ، وقال وقد ارتفع همسه :

— لازم أعرف ليه مش عايزانى أدخل أودتك .. لازم مخبية فيها حاجة مش عايزانى أشوفها ..

وخفت أن يرتفع صوته ، وأن يشتد ضغطه على ذراعى حتى أصرخ ، فقلت فى استسلام :

— أصلها مش متوضبة ، كل حاجة فيها منكشه .. ومش عايزاك تشوفها وهيه بالشكل ده !!

وابتسم مصطفى ، وأرخى قبضته عن ذراعى ، وعاد يهمس :

— أمال جبتينى هنا ليه ؟

قلت وأنا ألتصق به :

— أصلك كنت واحشنى . وما كنتش أقدر انزل !

ونظر الى مصطفى كأنه ينظر الى من السماء ، وضمنى اليه فى عنف وسقط فوق شفتى ..

وكانت قبلته من نوع آخر لم أتعوده منه .. كانت شفتاه ترتعشان بين شفتى كأنهما محمومتان .. وكانت وجنتاه ملتهبتين ، وأنفاسه متلاحقة ، وكانت أصابعه تضغط على جنبى فى جنون حتى تكاد تحفر فى لحمى ثقوبا .

وهمت فى هذا العنف ..

ثم أفقت مرة واحدة على صوت طرقات على باب ..

وأفاق مصطفى أيضا وقال فى وجل هامس :

— ايه ده !؟

قلت وأنا أحاول أن أطمئنه :

— دى دادا حليمة ..

قال وعيناه لا تستقران :

— مالها .. عايزه ايه .. هيه فين !؟

قلت فى هدوء :

— ماتخافش .. دى فى أودتها .. ولازم عايزه تروح الحمام ، أصلى قافله الباب عليها ..

قال وهو يحاول أن يتمالك نفسه :

— وأنا أعمل ايه ؟

قلت كأنى أقود معركة ، أو عصابة :

— تعال .. أقعد هنا ..

وأدخلته حجرة الطعام .. وانتظرت الى أن تكرر الطرق على الباب ، ثم ذهبت وفتحت لدادا حليمة وأنا أقول لها وبين شفتى ضحكة كبيرة :

— ايه اللى قفل الباب عليكى ؟

قالت وهى تنفخ فى عب ثوبها :

— بسم الله الرحمن الرحيم .. بسم الله الرحمن الرحيم..

أنا عارفه ياست نادية .. اتهيأ لى ان العفاريت حبسوني جوه .. والا أنا مت ومش عارفه أخرج من تربتى ..
وضحكت قائلة :
— ولا عفاريت ولا حاجة .. لازم حد قفل الباب غلط ! وتركتها تدخل الحمام ..
ثم عدت لأطمئن على مصطفى وهو واقف فى ظلام حجرة الطعام وأشرت اليه من بعيد بأن يصمت ويصبر ..
وخرجت ووقفت فى البهو بحيث تراني « دادا حليمة » بعد خروجها من الحمام .. وعندما خرجت قالت لى وهي فى آخر الممر :
— مش تنامى بأه ياست نادية !
قلت وأنا واقفه فى البهو :
— كمان شوية يادادا .. بعد ما أخلص المجلة اللى فى ايدى !
ودخلت حجرتها وأوصدت بابها ..
ولم أحاول أن أقفله بالمفتاح مرة ثانية انما أقفلت الباب الذى يفصل بين حجرات النوم وبين البهو والصالون وحجرة الطعام ، ثم عدت لمصطفى ، وهمس بمجرد أن أصبحت بجانبه :
— كويس كده .. افرضى كانت شافتنى ..
قلت بلا مبالاة :
— ولا حاجة .. ما تقدرش تقول حاجة ..

قال وكأنه ينتفض :

— وافرضي حد جه دلوقت ؟

قلت مبتسمة كأنى أهنىء نفسى بذكائى :

— أنزلك من باب المطبخ !!

ولم ينتظر مصطفى كلمة أخرى . وجذبنى اليه فى قسوة ولهفة كأنه يريد أن ينتهى .. أن يخلص نفسه من هذا الموقف ويخرج الى عالم الأمان ..

وعادت شفتاه المرتعشتان الى شفتى .. ومد أصابعه يريد أن يفك أزرار « الروب ديشامبر » فقاومته .. كنت أريد أن أراه مرة ثانية غاضبا ثائرا ..

ولم يحتمل مقاومتى .. ورفع شفتيه عن شفتى ، وبرقت فى عينيه نظرة مخيفة ، ومد كلتا يديه ومزق عنى « الروب ديشامبر » .. كأنه المجنون !!!

ثم قبض على شعرى بكفه وجذبنى بعنف وقسوة وأوقعنى على الأرض . . . .

. . . .

وخرج مصطفى .. واختفى بسرعة من أمام البيت كأنه يهرب من شيطان يلاحقه ..

وخرجت خلفه لأغلق باب الحديقة ذا الصوت المزعج..

ثم عدت الى غرفتى وخلعت ثوبى الممزق ، وأخفيته فى دولابى بين ثيابى كأنى أخفى آثار جريمتى ..



... ثم قبض على شعري .. وجذبني بعنف وقسوة وأوقعني على الأرض ...

ثم جلست فوق سريري أستعيد كل ما حدث ، وأبتسم ابتسامة مسكينة ، كأني أتعجب من نفسي .. من هذه الانسانة التي هي أنا ..

وسمعت جرس الباب الخارجي ..

وقمت أفتح .. وقال لي عم ادريس البواب وهو يلهث :

— المكوجي مش فاتح ياست هانم ، أنا قلتلك كده من الأول . ماصدقتيش .

قلت وكأني أبكي :

— معلهش يا عم ادريس .. حقك عليّ .. متشكرة !

وأغلقت الباب ..



لم أدر ماذا حدث عندما ذهب ابى وزوجته وعمى الى بيت خال طنط صافى ..

ربما اكتشف أبى هناك دليلا جديدا على ان زوجته تخونه مع أخيه .. ربما ازداد اقتناعا بما قرأه فى الخطاب الذى ادعيت انى كتبته لأمى .. ولكنى لم أعرف شيئا ..

واستقبلنى ابى فى الصباح التالى بوجه صامت .. ليس عابسا ولا سعيدا .. انما وجه صامت عن كل تعبير ، كأن روحه قد تعبت منه .. فانزوت فى ركن بعيد من جسده ، وتركت بقية الجسد فراغا .. بلا روح !

ثم فوجئت به يعلن انه مسافر الى العزبة .. ثم دهشت حتى كادت الدهشة تخلع قلبى عندما سمعته يطلب من زوجته أن تستعد للسفر معه ! !

كانت المرة الأولى التى يطلب فيها من زوجته ان تسافر معه الى العزبة ، بل انى أنا نفسى لم أسافر الى العزبة طول حياتى الا مرتين أو ثلاثا ، رغم انها عزبة قريبة من مصر لاتبعد عن محطة الجيزة كثيرا ..

كان أبى دائما حريصا على ألا يتردد أحد منا على العزبة ، وكانت حجته ان البيت هناك ليس مستعدا ، وليس

فى حالة لائقة لاستقبال السيدات أو الضيوف .. فلماذا يريد من زوجته ان تصحبه اليوم ؟

لماذا ؟

هل يريد ان يناقشها هناك فى أمر خيانتها له ؟

وهل تستطيع ان تقنعه ببراءتها ، فيكتشف كذبى فى الخطاب الذى كتبته ؟

أم هل ينوى ان يبقى زوجته فى العزبة لتعيش هناك بعيدا عن أخيه ، وعن شبهة خيانتها ؟

طافت برأسي عشرات الأسئلة ، وتخيلت عشرات الصور.. ثم أحسست احساسا قويا بأنى فى حاجة للدفاع عن نفسى .. الدفاع عن الجريمة الكبرى التى دبرتها .. الدفاع عنها قبل أن يكتشفها أبى ويكتشف معها ان ابنته البريئة الطاهرة ليست سوى مجرمة ..

وانتظرت منه أن يدعونى للسفر الى العزبة ، ولكنه لم يفعل ، انما نظر الى نظرة فارغة ليس فيها شىء ، وقال فى صوت كسول كأنه لا يريد الكلام :

— احنا مش حنغيب يانادية .. يومين بالكتير !

ولم أرد عليه ، انما فتحت فمى كأنى أقول شيئا أو كأنى أبتسم ثم عدت وأغلقته ..

وتناول أبى افطارا سريعا وهو واقف على قدميه ..

وشغلت طنط صفية نفسها باعداد حقائبها فى استسلام..

وكأنها قررت أن تترك أمرها لله يفعل به ما يشاء .. ثم تبعت أبى دون أن تتناول افطارها ، وخرجا معا يحوطهما صمت كثيف ثقيل كقطع الضباب الأسود .. خرجا وأنا ذاهلة حتى انى لم أحس بأبى وهو يقبلنى قبلة باردة سريعة ، ولا بزوجة أبى وهى تنظر الى فى يأس كأنها تستجير بى .. ثم تقول :

— أنا وصيت الطباخ يعمل كل حاجة ..

كنت ذاهلة أفكر فيما يجب أن أفعله !!..

ماذا أفعل حتى أضمن أن هذا السفر المفاجىء لن يفسد خطتى ؟

وبدأ ذهنى ينشط .. بدأت أشعر أن فى رأسى شيئا أسود يتحرك ويزحف كالحية السامة عندما تشعر بالدفء !

واكتشفت أن الوسيلة الوحيدة أمامى هى أن ألاحق أبى بالشك فى زوجته ، أن أنقل الوساوس المرة الى العزبة.. ليعيش فيها هناك ، كما كان يعيش فيها هنا ..

وارتديت ثوبا للخروج وصعدت الى الدور العلوى حيث يقيم عمى ، وأيقظته من النوم .. ألححت عليه كثيرا حتى فتح عينيه ونظر الى ، فألقيت نفسى بين أحضانه ، وأخذت أقبله وأنا أقول له :

— أنا مش طنط صافى أنا نادية .. واذا كانت طنط صافى ما تقدرش عليك أنا أقدر !

وقال عمى وهو يفرك عينيه بأصابعه :

— ايه .. جرى ايه .. هيه فين صنية !

قلت وبين شفتي ابتسامة كبيرة :

— سافرت .. سافرت هيّه وبابا العزبة ..

قال وهو يتثاءب :

— هيّه الساعة كام ؟

قلت :

— عشرة ونص !!

ومرة واحدة أغمض عمى عينيه وانقلب على جنبه وجذب الملاءة فوق وجهه وهو يصيح :

— بتصحيني الساعة عشرة ونص .. انتي عايزاني أموت ! !

قلت وأنا أجذب الملاءة عن وجهه كأني أنبهه لأمر خطير :

— باقول لك طنط صافي سافرت !!

واعتدل جالسا فوق الفراش ، وقال كأنه تنبه فعلا لأمر خطير :

— آه صحيح .. هيه سافرت ليه .. ايه اللي يوديها العزبة ؟ !!

قلت في سذاجة :

— أنا عارفة يا أونكل ؟

وسكت قليلا كأنه يفكر ، ثم قال :

— ده أبو كي عمره ما خد حد معاه العزبة .. كان عاملها

زى المعبد المقدس .. ما حدش يدخلها الا الكاهن الأعظم اللى هو حضرته !! ..

وكان يتكلم بمرارة .. مرارة لم أتعودها منه وهو يتحدث عن أبى الا منذ الأمس ، وقلت وأنا أهز كتفى كأنى لا أبالى :

— أهو النهارده خد معاه طنط صاق .. حتى ما قليش تعالى معانا ..

قال وكأنه حائر :

— فيه حاجة فى دماغ أبوكى اليومين دول مش عارف هيه ايه .. ربنا يستر .. أصل أبوكى ورث كل جنان الاتراك اللى كان عند أمى الله يرحمها .. يفضل ساكت .. ساكت .. ومرة واحدة تطلع فى دماغه حاجة تودى فى داهية !

قلت ضاحكة :

— ما أحسن من بابا الا أونكل !!

وضحك عمى ضحكة ليس لها معنى وعدت أقول له :

— والنبى يا أونكل أنا عايزاك تضرب تليفون فى العزبة وتقول لطنط صاق توصى أم عطية تعمللى فطير مشلتت .. أحسن تمسى فيه موت .. ونسيت أقول لها قبل ماتسافر ..

قال وهو ساهم كأنه يبحث فى مشكلة :

— ومصحيانى علشان كده .. ماتضربى لها انت !؟

قلت وأنا أقبله مرة ثانية :

— أصل زمانهم لسه ما وصلوش العزبة .. وأنا مضطرة

أنزل دلوقت علشان عندى ميعاد مع الخيـاطة .. والنبى تضربلها أنت ياأونكل !

قال وهو لا يزال ساهما :

— حاضر ..

قلت وأنا أبتسم له :

— ماتنساش !!

وعاد يقول فى استسلام :

— حاضر ..

وقبلته قبلة أخرى ، وخرجت .. وذهبت الى شارع قصر النيل وقضيت ساعة أتجول بين الحـوانيت ، وأنا لا أرى شيئا فى نوافذها الا صورا من خيالى المريض .. ثم قضيت ساعة أخرى عند « ربير » الحلاق ، ووضعت رأسى تحت « السشوار » وخيل الى انى سأطلب منه — من الحلاق — أن يرفع درجة حرارة مدفأة تجفيف الشعر حتى ينصهر رأسى ويذوب ما فيه ويحترق معه خيالى ..

وعدت الى البيت ..

وانتظرت عمى حتى نزل ، وجلسنا على مائدة الغداء ، وقلت له وأنا أنظر اليه :

— كلمت طنط صافى !؟

قال فى مرارة :

— أيوه ياستى كلمتها ..

وسكت قليلا ، ثم استطرد ، وقد ارتفع صوته :

— أنا متأكد ان أبوكى جرى له حاجة .. لازم اتجنن..
أقول له اديني صفية أكلمها .. يقوللى : عايزها ليه ؟ أقول له:
نادية كانت عايزاها علشان تقول لها تجيب معاها فطير
مشلتت .. يقول لى : بايخة ياسى عزيز .. انت فاكر انك انت
لوحدك اللى نبيه ..

وسكت عمى كأنه يتعجب ، ثم استطرد وهو يضرب
المائدة بيده :

— بأه ده مش مجنون .. ده مجنون ونص ..

قلت فى هدوء :

— وكلمتها ؟

قال وهو يهز رأسه :

— لا ياستى .. أبوكى مارضيش يخلينى أكلمها .. قال
لى انها مشغولة فى الجنينة .. بأه صفيه تفهم حاجة فى
الجناين .. والا لحقت تشوف الجنينة .. باقول لك مجنون..
مجنون جدا ..

قلت كأنى ألومه :

— حرام عليك يا أونكل .. ما تقولش على بابا كده ..
مين عارف ايه اللى شاغله ؟

قال فى حدة :

— وهو مش حرام عليه يعمل فينا كده ..؟

وسكت فترة متشاغلة بتناول طعامى ثم عدت أقول :

— أنا خايفة على بابا قوى اليومين دول يا أونكل ..

قال وهو يتنهد :

— ربنا يستر !

وسكت فترة أخرى ثم عدت أقول :

— ايه رأيك لو قمنا رحنا العزبة دلوقت ؟..

وصاح عمى :

— ايه .. انت مجنونة .. عايزه يضربنا بالرصاص ..

قلت في حماس :

— مهما كان .. لازم نكون جنبه ..

قال :

— اتفضلى روحى انتى لوحدك ..

قلت وكأنى استعطفه :

— انت أخوه يا أونكل .. ده مالوش حد غيرك .. لا أنا ولا طنط صافى نعرف نفهمه ولا نكلمه .. انت اللى تعرف ..

وهدأ عمى وقال بعد تردد :

— صحيح انه أخـويا .. انما أنا عمرى ما شـفته بالشكل ده !

قلت :

— علشان كده لازم تكون جنبه .. مين عارف عنده ايه ولا بيفكر في ايه ، والا ناوى يعمل ايه ..

وسكت عمى ، واستطردت أقول مستعطفة :

— والنبى يا عمى .. علشان خاطرى أنا مش حايجيلى نوم ولا حيهدأ لى بال طول ما أنا مشغوله على بابا بالشكل

ده .. علشان خاطرى يا عمى .. وحياتى عندك ورحمة ستى.. قوم نروح العزبه ..

ولم يرد عمى ، انما أطلت من عينيه نظرات مترددة .. وارتعشت شفتاه كأنه يقاوم عاطفته نحو أخيه ..

وعدت أقول قبل أن ينتهى الى قرار :

— يعنى تسمح لى آخد تاكسى وأسافر لوحدى العزبة ؟ !

وألقى عمى الفوطة من يده فى عنف كأنه يضرب بها المائدة ، ثم هب من على مقعده وهو يقول :

— قومى يا ستى نروح العزبة .. أما نشوف الراجل ده جرى له ايه !!

وقمت فورا وأعددت حقيبة صغيرة وضعت فيها ملابس النوم ولوازم التواليت ، وصعد عمى الى الدور العلوى وعاد يحمل حقيبة أخرى صغيرة .. ثم ركبنا السيارة ، واتجهنا الى العزبة ..

ولم يتحدث أحدنا طوال الطريق ..

كان كل منا مشغولا عن الآخر بأفكاره ..

كنت ساعتها أعانى صراعا عنيفا بين الشخصيتين اللتين تعيشان بين جنبى .. شخصية الانسانة التى تحس الجريمة وتتعذب لها حتى يكاد العذاب يمزقها .. وشخصية الانسانة الأخرى التى ترتكب الجريمة فى هدوء وبرود ، وأعصاب

ثابتة دون أن ترحم ودون أن تتأثر أو يهتز لها رمش .. هذا الصراع الذى عانيته .. وكنت ضحيته طول حياتى ..

وكان عمى يقود السيارة ووجهه مكفهر وعيناه حائرتان تائهتان وكأنه لا ينظر بهما الى الطريق ، انما ينظر الى ظلام يزحف عليه ولا يتبين من خلاله شيئا وكأنه يسائل نفسه : لماذا يزحف الظلام والشمس مشرقة !

ووصلنا الى العزبة ..

والتفت أبناء الفلاحين حول السيارة حتى اضطر عمى أن يضغط على « الكلاكس » عدة مرات ليفسح الطريق ..

ودخلنا بالسيارة الى الحديقة ، ووقفنا أمام البيت الكبير القديم الذى سقط الطلاء عن معظم جدرانه ، فأصبحت واجهته كوجه الغربال الضخم الذى يغربل الأحداث .. أحداث عائلتنا !

ولمحت أبى يخرج مهرولا على صوت الكلاكس ، الى الشرفة الكبيرة التى تتقدم البيت ، ثم لا يكاد يرى السيارة ومن فيها حتى تتسع عيناه كأنه يشهق ثم يقف مشدود القامة ويداه فى خاصرتيه ..

وخرجنا من السيارة ..

وتقدمنا أنا وعمى فصعدنا السلم ، وبين شفتى كل منا ابتسامة مزورة ، وواجهنا أبى بنظرات غاضبة ثابتة يكاد ينطلق منها شرار النار .. وظل مسلطا علينا هذه النظرات حتى وقفنا فى مواجهته ..

ولم يقبلني كعادته ، انما حول نظراته الغاضبة كلها الى عمي وخصه بها .. ولم يمد يده لمصافحته ، بل ظل واقفا مشدود القامة ويداه في خاصرتيه ، وقال بصوت أجش كأنه ينبعث من فوهة بركان :

— جيت ليه .. ايه اللي جابك ؟!

ونظر عمي الي ، وبين شفتيه ابتسامة ساخرة كأنه يقول لي : « مش قلت لك » ثم عاد والتفت الى أبي وقال وهو يحاول أن يكون هادئا :

— جيت أطمن عليك !!

وقال أبي وهو لا يزال واقفا كالصخرة :

— متأكد انك جاي تطمن على أنا !!

ولم يلتقط عمي ما في كلام أبي من معنى يشير اليه ، وقال في اخلاص :

— أنا عايز أتكلم معاك يا أخويا .. انت بالشكل ده تاعبنا كلنا .. على الأقل عايز أعرف ايه اللي مضايقك ..

وقال أبي وهو يبتسم في مرارة صفراء :

— أنا آسف .. آسف جدا اللي تعبتكم .. ماليش حق .. أتعبكم ازاي .. ودي تيجي .. واحد حمار زيي مش من حقه يتعب حد .. من حق الناس كلها تركبه من غير ما يتكلم ولا حتى ينهق !

وقال عمي وهو ينظر الى أبي كأنه يفحص مجنونا :

— ايه الكلام اللي بتقوله ده يا أحمد ؟!

وارتفع صوت أبي قائلا :

— أنا عايز أعرف انت جاي ليه هنا دلوقت .. اشمعنى النهارده بس اللي فكرت تيجي العزبة .. بقالك عشرين سنة ماخطتهاش ..

وأحسست أن أبي وهو يتكلم يكاد يمد يديه ويخنق أخاه ، ورأيت وجهه كما رأيته عندما قرأ خطابي المزور .. وجها غريبا مخيفا .. شفتاه مزمومتان كأنهما اختفتا من وجهه ، وطاقتا أنفه منتوحتان كأنهما تنفثان لهبا ، وعيناه جاحظتان كأن يد الحقد والغل تضغط على عنقه ، وحاجباه معقودان مشعثان كأن لحم وجهه يكاد يسقط من فوق عظامه .. كان في هذه اللحظة مجنونا خطيرا يستطيع أن يفعل أي شيء ..

ووجدت نفسي أتول كأني أستغيث :

— احنا جينا يابابا علشان كنا خايفين عليك .. ضبط صافي قالت انك عيان ..

وصرخ أبي في وجهي ،ربما لأول مرة في حياته :

— اسكتي انتي .. مالكيش دعوة بالموضوع ده !

ثم استطرد بعد فترة صمت :

— صفية قالت اني عيان .. طبعا لازم أكون عيان .. المغفل لما يفتح عينيه يبقى لازم يكون عيان ..

وقال عمي وهو في حيرة :

— أنا مش فاهم حاجة يا أحمـــد .. ايه الكلام اللى بتقوله ده ؟

قال أبي وهو لا يزال يسخر سخرية صفراء :

— بكره تفهم .. بكره تفهم ان أخوك مش مغفل !!

وفى هذه اللحظة جاءت الى الشرفة أم عطية .. الفلاحة العجوز التى تركها جدى ضمن ارثه ، جاءت تهرول ووقفت تنظر الى فى دهشة ، ثم قالت فى فرحة ساذجة :

— ست نادية .. يا ألف نهار أبيض .. نورت العزبة وحواليها .

ثم وضعت يدها فوق أعلى فمهـــا .. وأطلقت زغرودة ضعيفة على قدر ما تساعدها أنفاسها ، وعادت تقول :

— ده فرحنا وعيدنا ياست نادية .. يا ألف نهار أبيض ..

وحاولت أن تحتضنى فابتعدت عنها خطـــوة ، وألقيت بيدى فى يدها الجافة المحرشفة ، ثم حاولت أن أسحبها منها بسرعة ، ولكنها قبضت عليها وانحنت تقبلها ..

وصرخ فيها أبى :

— ياللا ياوليه من هنا .. مش ناقص الا دوشتك !

— ماتسيبنا يا أحمد بيه نفرح بعروستنا ، ماشاء الله .. دى صورة من الست الكبيرة الله يرحمها .. فين أيامك ياست « جلسن » ..

وقلت فى برود :

— ازيك يا أم عطية .. وحشتيني ..

وقالت وهي تقبلني بعينيها في اعجاب وتقديس :

— ما يوحشكيش غالي ياست الهوانم .. والنبي لأنا فاتحة قزازة شربات أحمر !

وعاد أبي يقاطعها :

— كفايه بأه ياوليه .. انجرى من هنا ..

قالت كأنها تلومه :

— يوه .. انت مالك متنير كده ياسيدى أحمد بيه .. ما تصلى على النبي وتروق نفسك ..

واستدارت تقبل يد عمي عزيز ثم همت لتنصرف ، ولاحقها أبي قائلا :

— الهانم فين ؟

قالت وهي في طريقها :

— باينها في أودة المرحومة !

وأمرها والدى :

— انده لها ..

وسار والدى الى داخل البيت وسرنا وراءه صامتين كأننا في موكب حزين .. وما كدنا نتوسط البهو الكبير الذى تصطف على جوانبه الأرائك « الاستامبولي » المغطاة بأغطية بيضاء قديمة كأنها أكفان تضم رفات أجدادى ، حتى خرجت الينا طنط صفية ..

وخيل الى انها فقدت نصف وزنها فى هـذه الساعات القليلة التى مضت منذ تركت البيت فى الصباح وجاءت الى العزبة ، خيل الى أنها باهتة اللون ، منكسرة النفس ، ذاهلة العينين .. وخيل الى انها تقاوم .. تقاوم فى عنف .. حتى لاتنهار ، وحتى لاتفقد أعصابها ..

ووقفت قبالتنا ، ونظرت الى عمى عزيز وكأنها تنهدت تنهيدة ارتياح ، ثم تمتمت بتحية خاطفة لم أتبينها ، وصحبت تحيتها بهزة من رأسها ، ولمحت والدى ينقل عينيه بينها وبين عمى عزيز ، وكأنه يحاول أن يلتقط كل لفتة وكل لمحة تصل بينهما ..

واقتربت طنط صفية منى وأمسكت بكلتا يدى فى يديها ، وأخذت تنظر الى برهة نظرات مسكينة ذليلة كأنها تشكرنى لأنى جئت اليها ، ثم جذبتنى اليها واحتضنتنى فى صدرها ..

وانخلع قلبى ..

أحسست أنى سأبكى ..

بل كدت أبكى فعلا ، وشعرت كأن الدموع تجمعت فى مآقى ، ثم احتبست وتجمدت حتى أصبحت كحبات الرمل تلهب عينى ..

وفى هذه البرهة الخاطفة التى استرحت فيها بين أحضانها ، خيل الى انى لم أعد أحتمل .. خيل الى أن الخير فى نفسى

سينتصر على الشر .. خيل الى أن الملاك سينتصر على الشيطان ..

ولكن البرهة الخاطفة مرت دون أن أنهار .. دون أن أصرخ معترفة بجريمتى وأغسل أقدامهم جميعا بدموعى ..

ولم أكن أريد لهذه البرهة أن تنتهى .. كنت أتمنى أن أبقى طول عمرى فوق صدرها .. أن أشعر بحنانها .. أن أشعر بأهميتى فى حياتها وفى قلبها ، أن أشعر بأنى انسانة ..

ولكن هذه البرهة مضت ..

وأحسست بها تقبلنى فوق وجنتى ، ثم أبعدتنى عن صدرها فى رفق ، وهى تقول ملتفتة الى عمى وظل ابتسامة ضعيفة يطوف بشفتيها :

— ايه اللى جابكم ياجماعة .. دى مفاجأة جميلة !

ولم يرد عمى ..

وقال أبى وهو لا يزال متمسكا بسخريته :

— حضرته جاى يطمن على .. أصلى لما آجى العزبة يبقى معناها انى اتجننت والا عيان ، ولازم أخويا يطمن على .. مش كده ياعزيز ؟

وخبط عمى كفا بكف فى صوت مسموع ، وألقى بنفسه على احدى الأرائك وهو يقول :

— لا حول و لاقوة الا بالله .. الحق على أنا اللى جيت..

وقال أبى ساخرا :

— ازاى بأه .. وكنت تسيبنى لوحدى ازاى .. وتسيب صفيه لوحدها ازاى !!.

وسكتنا جميعا ..

وعاد أبى يقول وهو لاينظر الى أحد منا وكأنه يخاطب نفسه :

— النبى قال اتقوا غضب الحليم .. انما الحليم لسه ماغضبش .. لسه .. لسه شويه كمان !

واعتدل عمى فى جلسته وقال كأنه يحاول أن يكون منطقيا :

— اسمع يا أخويا .. انت عارف انى عمرى ما ادخلت فى شئونك .. وعارف ان طول عمرى وأنا معجب بيك وواثق فيك ومطمئن عليك .. اذا كنت النهارده باحاول أقول لك مالك فلانك اتغيرت .. واذا ما كنتش مصدقنى اسأل صفية واسأل بنتك نادية ...

ولم تتكلم طنط صفيه ..

وقلت أنا فى صوت خافت :

— صحيح يابابا .. انت اتغيرت .. كان لازم تروح للدكتور !

والتفت الى أبى لفتة سريعة كأنه يقدر موقفى فى التستر على ما أعرفه ثم عاد ينظر الى عمى قائلا فى حنق :

— اذا كنت متأكد للدرجة دى انى تغيرت ، تبقى لازم عارف السبب اللى يمكن يغيرنى .

وقال عمى فى اخلاص :

— ما هو ده اللى محيرنى .. والله ورحمة أمى وأبويا ما أنا عارف حاجة ولا فاهم حاجة .. لو كنت عارف كان زمانى ساعدتك والا سبتك تندعق وتحط راسك مطرح ماتحط رجليك .. انت حاتجننى معاك يا أخى !

وابتسم أبى ابتسامة مسمومة .. وقال :

— بكره حاتعرف ..

وسار أبى ودخل الى الغرفة المخصصة له والتى يقع بابها على الجانب الأيسر من البهو الكبير .. وبقوة مجهولة وجدت نفسى أتبعه الى داخل الغرفة ..

وجلس أبى على مقعد كبير ، ثم رفع رأسه ورآنى داخلة وراءه ، فابتسم ابتسامة متعبة ، ثم قال فى صوت حنون وكأنه يستجير بى من أحزانه :

— تعالى يانادية ..

وأغلقت الباب ورائى وتقدمت اليه ، فجذبنى من يدى وأجلسنى على ركبتيه ، ثم أحاطنى بذراعه وأخذ ينظر الى بعينين مترددتين وكأنه يفكر فى أن يبوح لى بأسراره ، ثم كأنه عدل عن البوح لى فنكس رأسه ، وقال بصوت خفيض:

— أنا تعبان يانادية !!..

وأحسست كأن شيئا يتمزق فى صدرى ، وقلت وأنا اسند رأسى على كتفه :

— انت اللى ما بترضاش تريح نفسك يابابا .. شايل هم

العزبة وهم كل حاجة .. ومن يوم ما خدوا منا الستين فدان فى الاصلاح الزراعى وأنت عصبى وتعبان ..

وكانت هذه كذبة كبرى ..

وقال أبى فى يأس :

— ياريتهم على الفدادين .. ياخدوهم كلهم ياستى .. بس .. بس ..

ولم يتم ، وعدت أقول :

— أنا كمان تعبانة لتعبك يابابا ..

وقال أبى كأنه يشير الى شىء نعرفه نحن الاثنين :

— أنا عارف ياناديه .. عارف كل حاجة .. انما كل حاجة حتتصفى وتروح لحالها .. وربنا يقدرنى على الباقى ..

ثم حاول أن يبتسم ابتسامة كبيرة ، وقال وهو يمسح بيده على ظهرى ويضمنى اليه :

— مادام انتى فاضلة لى .. كل حاجة بعدك تهون .. تروح فى ستين داهية !!

قلت وكأنى أعنى الفدادين :

— فداك يابابا ..

ثم قمت من على ركبته وأنا أقول :

— أما أروح أغسل وشى مطرح السفر ..

وفتحت الباب ، ونظرت من خلاله ثم عدت وأغلقته بسرعة .

كنت قد رأيت من خلال الباب طنط صفيه وعمى عزيز جالسين متقاربين على الأريكة وقد أمسك عمى بيدها وأخذ يحدثها كأنه يواسيها ..

كان شيئا طبيعيا أن يمسك عمى بيد زوجة أبى فى مثل هذا الظرف وأن يواسيها فيه ، ولكنى لا أدرى ما الذى دفعنى الى أن أغلق الباب بهذه السرعة التى تثير الريبة ، وكأنى رأيت منظرا جارحا أردت أن أتستر عليه ..

كانت الروح الشريرة مسيطرة على وتتحكم فى كل تصرفاتى . الروح التى تسكن جسدى ، وتعذبنى وتعذب كل من يقترب منى أو يلمسنى ..

وتنبه أبى الى الحركة التى أتيتها . وقال فى تحفز :

— ايه .. فى أيه !؟

وتلعثمت .. وكان تلعثما حقيقيا ، لأنى فعلا لم أكن أدرى ماذا أقول .. لم يسعفنى عقلى الآثم بشىء .. ثم قلت فى كلمات مترددة :

— أصلى .. أصلى .. نسيت أسألك حنركب خيل امتى !؟

ولم يرد أبى ، واتجه نحو الباب فى عنف ، وأنا أقول له كأنى أصرخ لأمنعه من ارتكاب جريمة :

— مش الحصان بتاعى لسه موجود !؟

ولم يرد أبى أيضا ، وفتح الباب كأنه يحطمه وخرج الى الصالة ..

كان عمي قد ترك يد طنط صفيه ، ولكنهما كانا لا يزالان جالسين متقاربين ..

ووقف أبي قبالتهما ينظر اليه ثم اليها .. ثم قال :

— اظن نقوم نرجع مصر أحسن !!

وبانت الدهشة فى وجوهنا جميعا ، واستطرد أبي يقول وهو ينظر الى أخيه :

— أصل البيت هنا صغير للدرجة انه مايسعناش كلنا مع بعض !

وضحك ضحكة مرتفعة كأنه المجنون .

وقال عمي فى وقار وهدوء :

— مش نستنى للصبح أحسن .. الدنيا بقت ليل .. والسواقة بالليل خطر !

وقال أبي وهو ينظر اليه كأنه يحتقره :

— واڤه أنا نازل مصر دلوقت .. ولو سمحت حضرتك.. بعد اذنك يعني .. حاخد معايا مراتي وبنتي ..

ثم التفت الى طنط صفية قائلا :

— والا ايه رأيك ياصفية !؟

وقامت طنط صفية دون أن تتكلم ودخلت الى حجرتها لتعد حقيبتها . وعاد أبي يقول :

— ما تخليك انت ياعزيز .. والا ما تقدرش تقعد لوحدك لاهنا ولا فى مصر !؟

وقال عمى وهو لا يزال محتفظا بهدوئه ووقاره :

— المهم انى أقعد فى حته أقدر أكلمك فيها ..

وقال أبى فى حدة :

— لا .. مش ضرورى كلام .. ما تتعبش نفسك !!

ثم دخل هو الآخر الى الحجرة وعاد مرتديا سترته ، وتبعته زوجته بعد قليل مرتدية ثيابها وفى يدها حقيبتها الصغيرة .. واقتربت من أبى وقالت كأنها قررت ألا تستسلم وأن تتحداه :

— خد شيل الشنطة من فضلك !

ونظر أبى اليها برهة ثم أخذ من يدها الحقيبة ..

وقبل أن تنصرف جاءت أم عطية تحمل صينية عليها أكواب من شراب الورد الرخيص ، وتقدمت الى أبى قائلة من خلال ابتسامة حلوة طيبة :

— خد ياسيدى أحمد بيه .. روق دمك .. حلاوة زيارة ست نادية ..

وصرخ أبى فى وجهها وهو يشيح بذراعه :

— ياشيخة غورى .. احنا فى ايه والا فى ايه ..

واصطدمت ذراعه بالصينية فوقعت من بين يدى أم عطية .. وقعت الكوبات محطمة على الأرض والشراب الأحمر يسيل منها .. كأنها أشلاء ودم !!



وزلنا الى الحديقة دون أن ندرى هل سيعود معنا عمى أم لا .. فلم نتصافح ولم نتكلم .. وركبت أنا وطنط صفية فى سيارة أبى .. جلست زوجته بجانبه وبين عينيها نظرة قوية غاضبة كأنها نفضت عنها ضعفها واستسلامها .. وركبت أنا فى المقعد الخلفى أنظر فى مؤخرة رأسيهما كأنى أرى شريطا سينمائيا واضحا .. كأنى أعلم كل ما يدور فى رأسها وفى رأسه ..

وتحركت بنا السيارة ..

ولم نتعد باب الحديقة ، حتى سمعنا صوت سيارة عمى تتحرك وراءنا ..

وعدنا جميعا الى بيتنا فى الدقى ..



وامتلأ البيت كله بالشك الأسود ، والغيرة الصفراء ، والحقد والكراهية ، والتوتر والأرق .. أصبحنا جميعا نعيش على أعصابنا ، أعصاب تالفة منهكة .. كنا كالمجانين.. كجماعة تاهت فى صحراء مظلمة وأخـذ بعضها يتخبط فى البعض بحثا عن النور .. عن الخلاص !

كانت زوجة أبى قد قررت أن تتحدى أبى .. لم تعـد تستسلم ، ولم تعد تسكت ، ولم تعد تحمل همه .. كانت اذا لم يعجبها كلامه تصرخ فى وجهه ، واذا سكت تجاهلته ، واذا أصدر أمرا لم تطعه .. فاض بها الحال .. امتـلأت بالأبخرة التى كتمتها طويلا فلم تملك الا الانفجار ، ثارت على هذا العذاب الذى يصبه عليها أبى دون أن تدرى له سببا ، ودون أن يفصح لها عن السبب ..

وكان عمى قد خبت روحه المرحة .. كان صامتا يائسا كأنه فقد كل شىء ، ولم يعد يحاول أن يعرف ماذا حل بأبى.. بل لم يعد يتحدث اليه ، فاذا التقيا لم يتبادلا سوى تحية خافتة ليس لها معنى ولا يكاد أحدهما يسمعها من الآخر .. وكان فى أحيان كثيرة يعتذر عن تناول غدائه معنا كما كانت عادته منذ تزوج أبى .. وأحيانا كثيرة لا نراه قبل أن يخرج.. وكان يبدو أنه لايبقيه معنا فى بيت واحد الا عطفـه على

طنط صفيه ، وحبه لى ، وبقية من احساس بالمسئولية نحو أخيه ..

وكان أبى أتعسنا جميعا .. ذبل وجف حتى أصبح كعود الحطب .. كان يبدو دائما كأنه يريد أن يبكى .. كان أحيانا يسيطر على أعصابه فيبدو باردا جامدا كأنه مصنوع من حجر ، وأحيانا ينوء به حمله فيصخب ويقول كلاما لاذعا كالسياط ، ولكنه كان دائما يسير على خطة وضعها فى رأسه .. خطة ساذجة كخطط الأطفال ، تنحصر فى مراقبة زوجته ومفاجأتها بين حين وآخر كأنه سيراها بين ذراعى أخيه .. كان يعود فى غير مواعيده ويدخل البيت على أطراف أصابعه باحثا عن طنط صفية .. وكان يتحدث فى التليفون ولا يقول شيئا .. وكانت عندما تخرج فى زيارة أو لتشترى لوازمها يتبعها من بعيد .

خطة ساذجة .. لايتبعها الا زوج ساذج عبيط ..

وكنت أنا كما أنا .. غير أن الجريمة بدأت تسرع الخطى فى نفسى كحصان السباق فى نهاية الشوط . كنت أتعجل النهاية . وكانت النهاية كلما قربت اشتد عذابى .. عذاب ضميرى .. كنت أسمع أزيز العاصفة ، وكنت فى انتظار أن تقتلع البيت ..

وارتكبت عشرات الجرائم الصغيرة ، لأبقى نار الشك مشتعلة فى صدر أبى .. كنت فى كل يوم ألقى بقطعة من الحطب فى هذه النار .. لم أرحمه يوما .. لم تستطع عيناه

الذابلتان ولا عوده الذي يذبل ويجف ، ولا وجهه الذي امتقع ونحل .. لم يستطع شيء منه أن يوقف جرائمي ، أو ينقذني من عذابي ..

وكنت أعلم أن أبي في مراقبته لزوجته يبحث عن دليل ملموس يدينها به .. شيء يراه بعينيه أو يلمسه بيده .. وكان كل همي أن أدبر له هذا الشيء ..

الى أن كان يوم ..

وانتهينا من تناول غداء صامت ، كأنه الغداء الأخير قبل أن نودع الحياة .. وقامت طنط صفية ودخلت غرفتها ، وعادت بعد قليل مرتدية ثوب الخروج وفي يدها حقيبتها الصغيرة ، وقالت لأبي كأنها تلقي اليه ببلاغ رسمي :

— أنا رايحة للخياطة ..

ولم يرد عليها أبي ، ولم تنتظر منه ردا ..

وخرجت ..

وبعد دقائق قام أبي وخرج وراءها ليتبعها .. ليراقبها .. ليتأكد أنها ذاهبة الى « الخياطة » !

وقمت وراءه أودعه حتى الباب الخارجي كما كانت عادة طنط صفية ، وقال وهو يضع قبلة باردة على خدي :

— أنا رايح أشرب القهوة في النادي !

قالها كأنه ينفي عن نفسه تهمة لم يتهمه بها أحد ، وابتسمت كأني أقول لنفسي : « يا له من رجل ساذج » !!

وبعد أن خـرج وقفت فى الحديقة أتلفت بين زهورها كأنى أبحث بينها عن زهرة سامة .. وفجأة رأيت عمى عزيز نازلا ولم يكن قد تناول غداءه معنا — وفجأة أيضا .. طرأت على رأسى فكرة جديدة .. فكرة لو نجحت لتحققت النهاية.. فكرة صغيرة ولكنها كالقشة التى تقصم ظهر الجمل .. كما تقول الأمثال .. الجمل الذى ناء بحمله .. أبى !

وابتسمت ابتسامة كبيرة لعمى ، وجريت اليه فى خفـة وتعلقت برقبته وأخذت أقبله فى وجهه عشرات القبل ..

واحتضننى عمى وبادلنى القبل ..

كان فى الأيام الأخيرة يتمادى فى تدليله لى وعطفه على ، كأنه يواسينى فيما ألم بأبى ..

وقال وهو لا يزال يحتضننى :

— أمال فين بابا ؟!

قلت :

— خرج .. راح النادى .. وطنط صافى نزلت البلد .. مافضلش فى البيت الا أنا ..

قال وهو يضحك ضحكة يحاول أن يخفى ألمه :

— أحسن ؟!

قلت :

— والله كنت عايزه أنزل البلد أنا كمان ، انما فيه واحدة صاحبتى جايه تزورنى .. كنت عايزه أنزل البلد ضرورى .. ضرورى جدا !

وقال عمى فى حنان :

— عايزه ايه من البلد وأنا أجيبه معايه ، والا أبعته لك؟

قلت :

— يا رت يا أونكل .. ده انت تعمل فيه معـروف كبير .. ربنا يخليك لى يا أونكل !

قال باسما :

— ايه بس .. عايزه ايه ؟

قلت :

— عايزاك تفوت على الخياطة تقولها تبعتلى الفستان اللى بيتصلح ..

قال مقاطعا وهو يمدنى عنه برفق :

— لأ .. كله الا الخياطة دى .. أنا عمـرى ما رحت للخياطات !!

قلت :

— والنبى ياعمى .. وحياة نادية عندك .. أصلى معزومة النهارده وكل الفساتين اللى عنـدى لبستهم ميت مرة .. علشان خاطرى ..

قال :

— طيب ماتضربيلها تليفون !

قلت :

— تليفونها خـران .. من الصـبح بأضربلها مافيش فايده .. كلمت المصلحة وبرضه مافيش فايده !

قال :

— والسواق راح فين ؟

قلت :

— راح يوصل طنط صافى ..

قال :

— بس مش معقول انى أخش عند خياطة ..

قلت بسرعة :

— انت لاحاتخش ولا حاجة .. يدوبك تقول لها من على الباب ، وهى لما تشوف انك جيت بنفسك حتهتم زيادة وزيادة ..

قال فى تململ :

— انتى دايما يانادية طلباتك كتير وكلها بايخه .. فين هى الخياطة دى ياستى ؟

قلت :

— تعرف عمارة دوس اللى فوق الأمريكين .. أهى فى العمارة دى !

قال وهو يهم بالخروج من باب الحديقة :

— طيب ما قلتيش ليه لصفية ولا لأبوكى يعملولك الشغلانة دى وهم نازلين ؟!

قلت وأنا أقبله مودعة :

— كنت لسه فاكره انى حاقدر أتصل بيها بالتليفون !

قال وهو يخرج ويهز رأسه فى استسلام :

— طيب ياستى ..

ولاحقته عند الباب وأنا أقول :

— الدور السادس .. واسمها مدام برونا ..

وهز رأسه مرة ثانية ليقول انه قد سمع ، ثم ركب سيارته وقادها .. وأخذت أتبعه بعينين مفتوحتين وقلب مضطرب ، حتى اختفت السيارة من أمامى ..

كانت « الخياطة » فى عمارة كبيرة كالعمارة التى تضم الشقة التى ألتقى فيها بمصطفى .. عمارة يسكنها أطباء ومحامون وخياطات ولابد أن فيها أيضا « شققا » كشقة مصطفى !!

وكنت أعلم أن أبى فى هذه اللحظة واقف أمام العمارة يراقب زوجته وهى داخلة ، وينتظرها مختبئا الى أن تخرج..

وكنت أريده أن يرى عمى أيضا يدخل الى نفس العمارة، ليعتقد أنه يلاحق زوجته ..

هل هناك دليل أقوى من هذا أستطيع أن أقدمه لأبى ؟!

وهل هناك جريمة أبسط من هذه ؟!

ولكن هل يراه أبى وهو داخل الى العمارة ؟

ربما دخل عمى من ناحية أخرى غير الناحية التى ينتظر فيها أبى ، فالعمارة لها ناحيتان تؤديان اليها ..

وربما اكتفى أبى بأن يتأكد أن زوجته دخلت العمارة التى تقيم فيها « الخياطة » ثم انصرف ، دون أن ينتظر خروجها ؟!

وربما لا يذهب عنى اطلاقا الى « الخياطة » ويعدل عن وعده لى !

وبدأ شعور المقامرة ينتابنى ، الشعور الذى تعودته كلما أقدمت على تنفيذ جريمة .. الشعور الخبيث الذى تندلع فيه لذة الخوف ، ولذة الترقب ، ولذة اختبار الذكاء ..

ومضت فترة طويلة .. طويلة جدا ، وأنا فى غمار هذا الشعور الخبيث اللذيذ ..

فترة مضت وأنا مبحلقة العينين فى الفضاء ، كأنى أنظر الى عجلة الحظ تدور فى السماء .. عجلة الحظ الأسود ..

وتنبهت على صوت سيارة تقف أمام الباب .

ورأيت أبى يدخل فى خطى واسعة عصبية حتى يكاد ينكفىء على وجهه ..

ولم ينتبه الى وأنا جالسة فى البهو ، بل اتجه مباشرة الى غرفته .

وتبعتــه ..

ورأيته كالمجنون ، يفتح دولاب ملابس زوجته ، ثم يشد ثيابها منه الواحد بعد الآخر ، ويلقيها على الأرض ..

وعرفت أن خطتى نجحت ..

ولم أفرح ..

نعم .. لم أفرح !!

انما زايلنى شعور المقامر ، وحل محله شعور بالهلع ..

أحسست بخوف رهيب يكاد يقتلع قلبي ، وصرخت ، وأنا أمد ذراعي في الهواء كأني أتحسس طريقي في ظلام نفسي :

— بتعمل ايه يابابا ؟!!

وأدار رأسه لي ونظر الى بعينين زائغتين كأنه لا يراني ، أو كأنه لا يعرفني وقال في صوت محشرج :

— مالكيش دعوة .. روحي انتي من هنا !

قلت كأني أتوسل اليه وأنا أحاول أن أقترب منه :

— بس قوللي يابابا .. حصل ايه .. بتعمل كده ليه ؟!!

ودفعني بذراعه دفعة قوية حتى كدت أقع على الأرض وصرخ صرخة مدوية :

— يا أقولك امشي من هنا .. أخرجي من الأوده دي !!

وخرجت أتعثر في خطاي مستندة على الجـدران .. وأحسست أن كل شيء في يصرخ .. ويبكي .. ويلطم خديه.. ووجدت نفسي أفكر بصدق واخلاص في منع الجريمة قبل أن تتم ..

ماذا أفعل ؟

ياربي .. ماذا أفعل ؟!

ارحمني .. ارحمني يارب .. ارحمني من نفسي .. ارحم أبي مني ..

ماذا أفعل يارب ؟

وأخذت أنقل عيني بين الجدران في هلع كأني أخاف أن

تنطبق على .. وأمد ذراعي فى الهواء كأنى أتقى نارا تهب على .. وتلسعنى .. وتعذبنى ..

وأخذت أفكر بسرعة .. بسرعة المجنون فى تفكيره .. وصوت فى صدرى يكرر فى صوت متال كصوت عجلات القطـار : « ماذا أفعل .. ماذا أفعل .. ماذا أفعل » ؟!

ولم أفعل شيئا .

أصبت بالغباء فجأة ، كأن شيطان الشر عندما انطلق من صدرى بعيدا عنى أخذ معه عقلى ..

ووقفت سيارة أخرى أمام الباب ..

ورأيت زوجة أبى تدخل هادئة ، ثابتة لا تدرى شيئا مما ينتظرها ، وسمعتها تقول :

— بونسوار ..

ولم أرد التحيـة ، انما نظرت اليها فى شـفقة وعيناى مغرورقتان بالدموع .. كأنها فرخة تذبح أمامى .. وأردت ساعتها أن أركع تحت قدميها .. أن أقبل هاتين القدمين وأن أستغفرها وأبتهل اليها أن تغفر لى ..

وسمعتها تقول فى لهفة :

— مالك .. مالك ياناديه ؟!

وقبل أن أرد عليها ظهر والدى منتصبا أمامنا نحن الاثنتين كالمارد الغاضب الذى قرر أن يحطم الدنيـا كلها ، وقال وكأن صوته صدى يأتى من عالم مجهول كئيب :

— انفضلي لي هدومك .. وارجعي مطرح ماجيتي ..
وذهلت طنط صفية وقالت في تعجب وكأنها تخاطب مجنونا :

— بتقول ايه ؟!

وجذب والدي نفسا عميقا من صدره كأنه يستعين به على ضبط أعصابه ، وقال بصوت مرتعش يحاول أن يجعله هادئا :

— اسمعي ياصفية .. أنا مش عايز أعمل « سكاندال »..
مش عايز فضايح ، كفاية اللي حصل . واتفضلي اخرجي من البيت .. البيت ده مابقاش بتاعك .. البيت عاش من أيام جدي بيت نضيف وما يعيش فيه الا ناس نضاف ؟!!

وقالت طنط صفية في حدة :

— انت بتقول ايه..بتقول ايه ياأحمد .. انت اتجننت؟!!

ولم يعد أبي يحتمل وصرخ بكل ما فيه من صراخ :

— باقول انك طالقة .. طالقة .. طالقة .. باقول انك خاينة ومجرمة ...!!

وتراجعت صفية الى الوراء كأنها أصيبت بطعنة في القلب ، واستندت بذراعها على المائدة الصغيرة ، وقالت كأنها تهمس وفي عينيها نظرة هالعة :

— انت مجنون .. انت مجنون .. انت مجنون ..

وعاد أبي يصرخ :

— أنا كنت مجنون يوم ما تجوزتك ، اتغريت فيك

وفى عيلتك .. عيله أصلها طين .. انمـا دلوقت بس اللى عرفتك .. دلوقت بس اللى عرفت انى سلمت شرف واسمى لواحده ما تستاهلش .. انت طالقة .. طالقة بالتلاتة ياست هانم .. المأذون جاى دلوقت .. بعت أجيبه علشان يطلقك ، وتروحى فى ستين داهيه انتى والكلب السافل اللى خان دمه وخان خيرى وخير أبويا وأمى ..

وشدت طنط صفية عودها ، ورفعت رأسها ، ونظرت الى أبى فى احتقار ، وقالت كأنها تستجمع عمرها كله فى لحظة تصون بها كرامتها :

— أنا مش حارد عليك .. أنا خارجه .. ومش حـلم هدومى حسيبها لك ، وتأكد ان أول ما رجلى حتخطى الباب ده مش حادخل منه تانى .. كل اللى أحب أقوله لك انكلازم تعرض نفسك على دكتور ..

وجذبت حقيبتها الصغيرة بعنف ، وخطت نحو الباب ..

ووجدت نفسى بلا وعى ، أنحدف عليها ، وأتعلق بها وأنا أصرخ :

— لا .. لا .. مستحيل .. مش ممكن .. لا ياطنط .. ما تخرجيش ..

ونظرت الى أبى والدموع فى عينى ، وقلت وكلى أرتعش:

— طنط صفية مش خاينة يابابا .. طنط صفية بريئة .. أنا ..

وقاطعنى أبى صارخا :

— اخرسي ..

قلت :

— بريئة يابابا .. طنط صفيه بريئة .. و ..

وقاطعني وهو لا يزال يصرخ :

— أنا عارف انتي بتدافعي عنها ليه .. لحست عقل البيت كله .. لحست عقل أخويا ، وعقل بنتي .. دي مجرمة واتني عارفه انها بتخونني .. بتخونى مع أقرب الناس ليه .. انتي عارفه وأنا عارف انك عارفه .. النهارده شفتها بعنيه .. شفتهم هم الاتنين ..

وتركت طنط صفيه وألقيت نفسي على أبي ، وقلت بين نشيجي وأنا أبلل صدره بدموعي :

— ما تصدقنيش يابابا .. أنا كدابة .. أنا اللي مجرمة .. بنتك هي المجرمة .. أنا ..

وعاد أبي يقاطعني وهو يصرخ حتى ضاع صوتي في صراخه :

— انتي ست ستها . انتي ضفرك برقبتها .. هيه المجرمة .. هيه الخاينه .. وآدي مصير المجرمين الخاينين .. بصي .. بصي لها وشوف على وشها غضب ربنا .. حتتعذب.. طول عمرها حتتعذب .. ربنا ما بيسيبش حد ..

ثم التفت الى طنط صفيه وصرخ صرخته الكبرى والأخيرة :

— امشي اطلعي بره .. اطلعي بره بيتي ..



... فوجدت نفسي ممددة في فراشي ، ورطنط صفية جالسة بجانبي ...

وأشاحت طنط صفيه برأسها فى احتقار ، وخطت نحو الباب صامتة وهى لا تزال محتفظة بكبريائها .. وما كادت تفتح الباب حتى أطل من ورائه المأذون ..

ونظرت اليه .. الى ذقنه السوداء ووجهه الأصفر وعباءته الكالحة ، وكأنى أرى جريمتى حية تسعى على قدمين ..

وأحسست بظلام داكن يحيط بى ويقترب منى شيئا فشيئا ، حتى لم أعد أرى شيئا ..

وأحسست انى سقطت على الأرض .

* * *

ولا أدرى كم مضى على فى اغمائى .. ولكنى فتحت عينى فوجدت نفسى ممددة فى فراشى ، وطنط صفية جالسة بجانبى على حافة الفراش وفى يدها زجاجة كولونيا ..

وما كادت عيناى تلتقيان بعينيها ، حتى أحسست انى أهم بالابتسام .. أحسست كأنى أفقت من كابوس مخيف ثقيل.. واعتدلت جالسة ، وأحطت عنقها بذراعى وحاولت أن أتكلم، ولكنها وضعت أصبعها فوق شفتى ، ثم رفعت ذراعى من حول عنقها ، وقالت وعلى شفتيها ابتسامة حزينة :

— الحمد لله على سلامتك ..

وأرقدتنى ثانية فى الفراش ، وانحنت على تقبلنى ، وكأن قبلاتها مبللة بالدموع ثم قامت وخرجت من الغرفة قائلة :

— ابقى طمنينى عليكى يانادية ..

وصرخت :

— طنط .. طنط .. ماتسيبينيش ياطنط ..

ولم ترد على ..

وحاولت أن ألحق بها .. ولكن الظلام أحاط بى مرة ثانية ورأيت جدران الغرفة تدور بى كأن دوامة قد ابتلعتنى.. وسقطت مرة ثانية مغشيا على ..

* * *

ومرت الحوادث بعـد ذلك سريعة .. أسرع من أن أستطيع ملاحقتها أو الوقوف فى طريقها ، وكأن الشياطين كلهم قد اجتمعوا فى بيتنا لينقلوه الى عالم آخـر .. الى الجحيم ..

وكان اغمائى حقيقيا ، لم يكن فيه افتعال ولا تمثيل .. كانت جريمتى قد تجسمت بشاعتها فى نفسى ، حتى لم أعد أطيق نفسى .. فتهاويت .. وكان شعورى بالجرم قد أصبح أكبر مما تحتمله أعصابى الى حد انى فقدت الشعور ..

ولكن اغمائى لم يحل دون أن يسير أبى فى اجراءات الطلاق دون وعى ، ودون مزيد من التساؤل والشك .. فعندما سقطت على الأرض فى المرة الأولى — كما قالت لى « دادا » حليمة بعد ذلك — لم يهتم أبى .. ولم يحاول أن يسعفنى .. بل نظر الى فى شرود كأن الذى سقط كوب ماء، أو آنية من أوانى الزهر .. أو قطعة أثاث .. ثم تركنى ملقاة على الأرض ، وقاد المأذون الى حجرة المكتب ليوقع الوثيقة الكريهة ..

والتي حملتني هي طنط صفيه .. حملتني بين ذراعيها في لوعة وحنان رغم كل ما كان يجري لها .. ووضعتني في فراشي .. وجلست بجانبي حتى أفقت .. ثم قبلتني وخرجت.. خرجت من البيت كله !

وانتهى أبي في ذلك الوقت من اجراءات الطلاق ، وأرسل « الورقة » الى طنط صفية في بيت أهلها مع السائق ..

ثم جاء الى غرفتي .. ووقف ذاهلا يحلق من خلال النافذة ، بينما كانت «دادا» حليمة تدلكني بماء الكولونيا.. الى أن فتحت عيني ، ولابد أن وجهي كان ممتقعا مريعا ، فقد نظر الى أبي في هلع واشفاق وجاء يجلس بجانبي وأخذ يدي بين يديه وقال كأنه يبكي :

— حرام عليكي يانادية .. ما تعمليش في نفسك كده .. مافيش حاجة في الدنيا تستاهل زعلك للدرجة دي .. حرام عليكي أنا ما فضليش الا أنت ، كله يهون الا أنت !!

ونظرت اليه ..

كان كأنه شاخ .. وكأنه يريد أن يلقي برأسه على صدري ويبكي ..

وحاولت أن أقوم من رقدتي ولكني لم أستطع .. شعرت بضعف لم أشعر به من قبل ، فقلت بصوت خافت ضعيف وأنا أعود وألقي برأسي فوق الوسادة :

— انت غلطت يابابا .. غلطة كبيرة..صفية ماخانتكش..

وقاطعني وكأنه يطرد شبحا من أمامه :

— خلاص يانادية .. الموضوع ده انتهى .. وتأكدى انى ما غلطتش .. أنا ماكنتش مصدق فى الأول ، ولكن فضلت شهور طويلة أراقبهـا لغـاية ما تأكدت .. أنا عارف انك بتحبيها .. أنا كمان كنت باحبها .. وكان لازم أضحى بحبى علشان أحفظ شرفى !!

وحاولت أن أتكلم ، ولكنـه قام من جانبى ، وأحكم الغطاء حولى ، وقبلنى وهو يقول فى حنان :

— استريحى ياحبيبتى .. حاولى تنامى شوية ..

وخرج .. ولا أدرى أين ذهب .

ولم أنم ..

بقيت فى فراشى .. متهافتة .. ضعيفة .. غاية فى الضعف.. وكأنى فقدت السيطرة على جسدى ، أو كأن دمائى تتخلى عنى وتنزف من مسامى .. وانهمرت دموعى صامتة حزينة كأنها تفسح فوق وجنتى طريقا لموكب العذاب ..

ثم بدأ هذا الضعف يصحبه نوع من الألم ..

كان ألما خفيفا .. ثم بدأ يشتد شيئا فشيئا .. ألم يبدأ فى جنبى ثم يطوف بجسدى الى أن ينطلق من بين أصابعى..

ورحبت بالألم ..

وجدت فيه السلوى ..

وبقيت مستسلمة للضعف والألم ، حتى سمعت أبى يعود فى المساء .. وربما كان سكران ، فقد كان يتنقل بين الحجرات فى ضجة ، دون أن يفكر فى أن يدخل حجرتى ليطمئن على ..

ثم سمعت جرس الباب ..

وخيل الى انه عمى ..

وقد كان عمى فعلا .. فقد سمعت صوته يحادث أبى فى البهو الخارجى ، واحتد بينهما الحديث حتى أصبح صراخا .. ولكن لم أستطع أن أتبين سوى كلمات متفرقة .. كلها كلمات عنيفة مقذعة ..

ثم سمعت صوت الباب وهو يصفق بعنف ..

وعرفت أن عمى قد خرج ..

وبعدها سمعت خطوات أبى متجهة الى غرفتى .. خطوات بطيئة متعبة كأنه يجر قدميه .. ثم سمعت صوت نهنهة ضعيفة مكبوتة تنبعث فى الغرفة ..

كان أبى يبكى ..

وأحسست بدمائى تتجمد ، وتتحرك ثقيلة فى عروقى كأنها حبات الرمل .. أحسست بأطراف كلها تتثلج وكأنها شلت .. ورغم ذلك حاولت أن أقوم من الفراش .. أن أذهب الى أبى ..

أبى الذى يبكى ..

ولكنى فجأة صرخت صرخة حادة .. وانكفأت على وجهى وقد تقلصت كل عضلة فى ، وتقلصت أصابعى فوق الوسادة ..

وصرخت صرخة أخرى ..

ثم عضضت الوسادة بأسنانى حتى لا أصرخ ..

كنت قد شعرت كأن سيخا محمي فى النار قد انغرز فى جنبى .

ألم .. لم أستطع أن أستسلم له .. لم أستطع أن أطيقه.. فصرخت !

وجاء أبى على صوت صرختى ، ودموعه لا تزال فى عينيه ، وقال فى لهفة :

— مالك .. مالك يانادية ؟!

قلت من بين أسنانى المطبقة على الوسادة ، وأنا أتقلب فى الفراش كأنى أنتفض فوق نار :

— ولا حاجة .. ولا حاجة .. ده ذنب طنط صفيه !

ورأى أبى تقلصات وجهى ، ومدى الألم الذى أعانيه فاستدعى الطبيب .

وأعلن الطبيب انى أصبت بحالة « مغص كلوى » حاد .. ثم حقننى بالمورفين !

* * *

وقمت فى الصباح ، ورأسى ثقيل ، متعب من أثر المورفين ..

وكان لا يزال لدى أمل فى أن أجد وسيلة أكفر بها عن جريمتى ، وأعيد زوجة أبى الى البيت .. ولكن عمى عزيز قضى — دون أن يتعمد — على هذا الأمل فقد أعلن فى

اليوم التالى أنه سيتزوج طنط صفيه ، وذهب اليها فعلا فى بيت أهلها ليخطبها لنفسه ..

وربما فعل ذلك لسخطه على تصرفات أبى ، واقتناعه بأن صفيه بريئة مظلومة .. وربما فعل ذلك كمظهر من مظاهر الشهامة بعد أن اتهمه أبى بأنه على علاقة آثمة معها ..

ولكن أبى اتخذ من هذا التصرف دليلا آخر على خيانة زوجته له .. أعتقد أن عمى ذهب ليخطب صفية ليصلح غلطته ، أو لأنه كان يتمنى دائما أن يتزوجها ..

وطبعا رفضت طنط صاف أن تمده بالزواج بعد انتهاء العدة ..

رفضت رفضا باتا حاسما ..

وترك عمى البيت .. لم يعد يقيم معنا .. وذهب وأقام فى أحد الفنادق .. وانقطعت صلته بأبى ، وبدأ فى تصفية حسابات العزبة ليستقل كل منهما بادارة نصيبه ..

وانتشرت القصة فى المجتمع كله ..

قصة خيانة زوجة أبى مع عمى عزيز ..

وبدأت وفود الأهالى والأصدقاء والمعارف تجىء الينا بحجة الاطمئنان على فى مرضى .. وكل منهم يخفى وراء شفتيه الشماتة والرغبة فى الاستماع الى مزيد من التفاصيل..

وجيت أنا مريضة .. يزيد فى عذابى اعتقاد الجميع بأنى مرضت حبا فى طنط صفية ، وحسرة على طلاقها من أبى .. كان الجميع ينظرون الى كأنى ملاك ساذج برىء لم يتحمل رؤية الخطيئة .. فوقع مريضا .. كنت أسمعهم بأذنى يقولون:

— دى حتموت نفسها عليها ..

أو :

— دى زى ما تكون صفيه سحرتها .. البنت مش قادرة تقوم من السرير من يوم الطلاق ..

وكنت أهم أن أصرخ فيهم لأقول لهم انهم جميعا مغفلون. انهم لا يعلمون .. لا يعلمون انى مجرمة .. وانى أنا القاتلة!!



الجزء الثاني

لا أنام

انى أتساءل مرة ثانية :

ما الذى يدفع الطفل الى تحطيم الدمية ، ثم ما الذى يدفعه الى البكاء بعد أن يحطمها !

ما الذى يدفع الصبى الى تسلق الشجرة لينبش عش العصفور ويعذب سكانه ، ثم ما الذى يدفعه الى البكاء والحسرة عندما يموت العصفور ؟

ما هو سر هذه القوة المجهولة التى تسيطر على تصرفات الانسان منذ يولد ؟

وما هو الانسان ؟

وأنا .. ما أنا ؟

لماذا ولدت لهذا الأب .. ولماذا وجدت فى هذا البيت .. ولماذا حطمت الدمية الجميلة .. ولماذا أبكى بعد أن حطمتها؟!

ليقل علماء النفس كل ما عندهم .. ليبحثوا فى النفس البشرية ويكتبوا عشرات الكتب .. ولكن أنا .. ماذنبى أنا ؟

ماذنبى فى هذه النفس المعقدة التى وجدت بين جنبى ؟

واذا كنت قد ولدت مجرمة .. فلماذا يعذبنى جرمى ؟

واذا كنت أتعذب بجرمى فلماذا أجرم ؟

يارب ..

خذنى اليك ..

خذنى لأسألك : لماذا ؟

خذنى لأسألك عن حكمتك الكبرى فى تعذيبى ؟

خذنى .. أو كف عنى العذاب .. لأستريح !

ولكنى أخافك .. أخشاك .. أرهبك .. أخاف قدرتك .. وأخاف حكمتك .. وأخاف انتقامك !

نعم .. لا بد أن ينتقم منى الله .. فهذه عادته .. هـذه حكمته ..

حكمته أن يسلط القاتل على القتيل ، ثم ينتقم من القاتل .. أن يسلط بعض خلقه على بعض ثم يحاسب الجانى والمجنى عليه .. وكلاهما من عبيده .. من خلقه ومن صنع يديه !!

لقد كفرت !!

لا .. لا ياربى .. لم أكفر بك .. أنت ايمانى المكين ، ولكن عقلى يضيق عن فهمك .. ويضعف عن سر حكمتك .

أستغفرك يا ربى ..

أستغفر الله العظيم .. أستغفر الله العظيم .. أستغفر الله العظيم .. أستغفرك وأسألك اللطف بى .. أسألك أن ترأف بى فى انتقامك ..

وتسلط على احساس قوى بأن الله سينتقم منى ..

أصبحت كلما أصبت بأزمة حادة أثناء مرضى اعتقدت أنها من انتقام الله .. فأجز على أسنانى كأننى أمضغ الألم ، وأردد بينى وبين نفسى « ده ذنب طنط صفيه » .. وحتى

الحوادث الصغيرة التي تحدث حولي ، كنت أعتقد انها من انتقام الله ر « ذنب طنط صفيه » .. عندما تنسكب زجاجة عطر .. أو ينكسر كوب .. أو يضيع مني شيء .: أو يهبط ثمن القطن .. كل هذه الحوادث كانت في نظري انتقاما من الله لما فعلته في طنط صفية ..

وقضيت في فراشي شهرين الى أن استعدت قواي وخف عني مرض كليتي .

شهران قضيتهما وأنا في نظر الناس الذين يعرفونني ، ملاك بريء طاهر ضعيف ، لم يتحمل الصدمة ، ولم يتحمل أن يعيش مع الخطيئة في بيت واحد ، فسقط مريضا !!

وكانت طنط صفية تتصل بدادا حليمة في التليفون بين يوم وآخر وتسألها عن صحتي .. وتطيل في السؤال .. تسأل عن رأي الطبيب ، وعن طعامي ، وعن مواعيد تناولي الدواء .. تسأل عني بحرارة وتدقيق وكأنها لاتزال تقيم معنا ولا تزال مسئولة عني ..

واتصلت بالتليفون مرة وكنت قد تماثلت للشفاء .. وسمعت دادا حليمة تحادثها .. وخيل الى اني أسمع صوتها هي أيضا .. أسمعه رائقا صافيا كرجع الصدى في اناء من البلور . وأحسست برغبة ملحة في أن أحادثها .. أن أحتضن صوتها الصافي بأذني .. ولكني ترددت .. أحسست كأن ليس من حق أذني أن تحتضن صوتها .. وكنت حتى هذه الساعة لا أرد على التليفون لشدة ما كنت فيه من اعياء أثناء

مرضي .. كنت أسمع صوتها بخيالي فقط ، وألتقط حديثها من على لسان دادا حليمة ..

والحت على الرغبة فى سماع صوتها ..

كنت كالمجرمة التى تريد أن تسمع صوت ضحيتها .. لتطمئن الى أنها لم تقتل !!

وضغطت على الجرس الموضوع بجانب فراشي ، وأنا أنادي فى نفس الوقت بصوتي الضعيف :

— دادا . دادا .. هاتي التليفون ..

وسمعت دادا حليمة تقول فى التليفون :

— استنى ياستى .. أهى ست نادية حتكلمك !

ثم سمعت دادا حليمة بعد قليل تقول :

— حاضر ياستى .. الله يسلمك ويخليكى ويكتب لك فى كل خطوة السلامة !

ثم أقفلت السكة ..

وجاءت تقول لي وعلى شفتيها ابتسامة كأنها بكاء :

— ست صفية هانم بتسلم عليكى وبتقول لك الحمد لله على السلامة .. أصلها كانت مستعجلة ما قدرتش تكلمك .. حتضرب لحضرتك بعدين !

وعرفت أنها لاتريد أن تحادثني ..

لاتريد أن تضع صوتها فى أذنى ، ولا أن تضع صوتى فى أذنها ..

ولم أغضب .. ولم أثر .. ولم أحس أن كرامتى قد أهينت .. بل لم أفكر فى الدافع الذى يدفعها الى عدم محادثتى .. وربما أرادت ألا تستمر بينى وبينها علاقة بعد أن تم الطلاق .. ربما خافت أن أحمل حديثها على محمل التودد لأبى ومحاولة عودتها الى البيت .. ربما أى شىء .. ولكننى لم أستطرد فى البحث عن هذه الدوافع انما أحسست باحساس عميق بأن من حقها أن تهيننى .. وأن أستسلم راضية صامتة لهذه الاهانة ..!!

ولم تتحدث طنط صفية بعد ذلك فى التليفون .. كأنها اكتفت بأن اطمأنت على صحتى ، ثم اختفت بعيدا .. بعيدا جدا .. الى حيث لايمكننى أن أجدها أو تقع عليها عيناى ..

ومرت أسابيع قبل أن أجد فى نفسى الجرأة لأحادثها فى التليفون .. قبل أن أقنع نفسى بأنى يجب أن أشكرها على اهتمامها بى ..

وسمعت صوتها الحنون فى التليفون .. الصوت الذى فقدته الى الأبد .. وأحسست انى أضعف من هذا الصوت.. أضعف من أن أواجهه أو التقطه او أرد عليه .. أحسست كأن الصوت الحنون يبتلعنى ويذيبنى فى طياته حتى لم أعد أجد نفسى .. وبذلت جهدا كبيرا لأقول فى صوت مبهور :

— طنط .. ازيك ياطنط !

وقالت فى فرحة :

— ازيك يانادية . .ازى صحتك دلوقت ؟!

قلت وكأني طفلة خجلة :

— الله يسلمك .. وحشتيني ياطنط ..

وخيل الى ان الفرحة زايلتها ، أو أنها تبذل مجهـودا لاخفائها . وسمعت صوتها وقد انقلب جامدا كأنه يصـل الى خلال أسلاك من الجليد :

— خدى بالك من نفسك يانادية .. خليكى ماشية على كلام الدكتور ، أحسن « الكلا » دي متعبة قوى وعايزه عنـاية ..

قلت وكأني أعتذر لها عن شيء تجهله :

— أنا مايهمنيش صحتى .. يهمنى انك ترجعي البيت .. البيت من غيرك مايسـواش حاجة .. فاضي .. مافيهش حس .. اعملى معروف ياطنط ..

وقالت تقاطعنى وقد ازداد صـوتها برودا وجمـودا .. قالت فى كبرياء تشـوبها حدة :

— مرسى ياحبيبتى .. اورفوار بأه ، أحسـن أنا لابسـة وخارجـة .

وخيل الى انها تكذب .. وقلت فى مسـكنة :

— أورفوار ..

ولم أحاول أن أحادثها فى التليفون بعد هذه المرة .. تأكدت انه لا أمل فى أن أكفر عن جريمتي بأن أعيدها الى البيت .. والى أبى !

وضاعت طنط صفية ..

ضاعت الزوجة المثالية التى أضاءت النور فى حياة أبى ، الى أن أطفأته بيدى ..

ضاعت ..

وأنا التى ضيعتها ..

أنا التى حطمت الدمية ، وجلست أبكى حسرة عليها ..

* * *

وفى خلال فترة مرضى كان عمي عزيز أيضا يطمئن على فى التليفون .. كان اذا رد عليه أبى أعاد السماعة مكانها دون أن يتكلم ، واذا ردت عليه دادا حليمة سألها عنى وأطال السؤال . وعندما تماثلت للشفاء بدأت أحادثه ..وكان يهرب فى حديثه دائما من ذكر ما حدث .. وكنت ألاحقه .. كنت أريده يحدثنى عن التفاصيل .. عن كل ما دار بينــه وبين أبى .. وعن كل ما دار بينه وبين طنط صفية .. كنت أريده أن يؤكد لى أنه سيتزوج طنط صفية بعد أن طلقها أبى . كأني كنت أريد أن أقنع نفسى بأن ما فعلته ليس جرما ، وان صفية ستعوض أبى بعمى ..

كنت سأفرح لو أن عمى تزوج طنط صفية كما حاول ، كان ضميرى سيرتاح ..

ولكن عمى كان يهرب من كل هذا الحديث .. وكان يصر على الهرب .. وكان هربه يزيد فى عذابى . كان يسد فى وجهى كل الأبواب التى أستطيع أن أتنفس خلالهــا عن

حملى الثقيل ... الحمل الذى يضغط على صدرى ويشق جنبى ..

ورجوته أن يأتى الى البيت لأراه .. توسلت اليـه .. ألححت .. عصرت دموعى فى سماعة التليفون .. ولكنـه رفض وأصر على الرفض . وكان يقول لى وهو يحاول أن يبدو ضاحكا مرحا كعادته :

— بكره لما تشفى وتنزلى من السرير .. أبقى آخـد منك « راندفوه » وأقابلك بره .. زى الحبايب !

وكنت أضحك ضحكة مرة يائسة ..

* * *

وكانت أمى تجىء لزيارتى ..

كانت تجىء بصحبة زوجها كأنها فى زيارة رسمية أو فى زيارة مجاملة .. وكانت تنبئنا بموعد حضورها ، فيخرج أبى من البيت حتى لايلتقى بها .. وكانت تجلس بجانبى فأحس أنها بعيدة عنى .. تبتسم فلا تنعكس ابتسامتها فى قلبى .. وتتحدث فأشعر أنها تتحدث الى انسان غيرى .. لم تكن تفهمنى .. ولم تحاول أن تعلـم حقيقتى لتفهمنى .. كنت بالنسبة لها صديقة عزيزة مريضة ، من واجبها أن تعودها وأن تطمئن على صحتها .. كانت تأتى لتسلينى .. لتروى أنباء المجتمع ، وآخر قصص الأفلام السينمائية ..

هذه هى أمى دائما ..

هذه هى طبيعتها البسيطة التى لاتأخذ شيئا على محمل

الجـد .. طبيعة الانسان السعيد الحالم المدلل الذى ينظر الى كل الدنيا نظرة سطحية بلا مبالاة !

وأنا أحبها ..

ولكن ، هل كنت أستطيع أن أعترف لها ؟

هل كنت أستطيع أن أروى لها جريمتى ، ثم ألقى بنفسى فى أحضانها وأبكى .. أبكى الى أن أفرغ دموعى كلها فوق صدرها الحنون ، ثم أسألها أن تدلنى على طريق الغفران ؟!

انها لن تفهمنى ..

لن تصدقنى ..

وانى أستطيع أن أتخيل النظرة المترددة الحائرة التى ستطل من عينيها عندما تسمع قصتى .. وأكاد أتخيل صوتها وهى تقول لى :

— مش معقـول الكلام ده .. مش ممكن .. انتى ماعملتيش كده .. ما تصدقيش .. انتى طول عمرك خيالية .. زى الفيلم بتاع انجريد برجمان اللى اسمه « جازلايت » .. كانت فاكرة نفسها طول الفيلم انها حرامية .. وهيه لا حرامية ولا حاجة .. كان خيالها مأثر عليها ..

كان هذا ما يمكن أن تقوله أمى لو اعترفت لها ..

ولكنى لم أعترف ..

بل ان ذكر حادث الطلاق لم يأت بيننا فى حديث .. لم تحاول أمى أن تسأل عن تفاصيل الحادث كما كانت تلح بقية الزائرات .. انما تجاهلت الموضوع كله كأنه عار أن تلوكه

ألسنة السيدات الفضليات خصوصا أمام فتاة عذراء بريئة طاهرة .. مثلى !!

كانت أمى تجىء لزيارتى ..

ولكن ..

لاشىء ..

وكان مصطفى يحاول أن يتصل بى أيضا فى التليفون .. كان يرد عليه أبى فيقفل السكة .. وكانت ترد عليه دادا حليمة أو السفرجى فيقفل السكة أيضا .. ثم كان يعطى اشارة متفقا عليها بيننا عندما أكون بعيدة عن التليفون .. وهى أن يترك جرس تليفونى يدق دفعتين ، ثم يقفل السكة قبل أن يرفع أحد السماعة ، فافهم أنه منتظرنى فى البيت لأحادثه !

ولكنى لم أحادثه ..

حتى بعد أن مضت أيام على تماثلى للشفاء واستطاعتى أن أتحدث فى التليفون لم أحادثه ..

كنت أفكر فيه .. أفكر فيه كثيرا .. كان قطعة من حياتى لا أستطيع أن أتناساها ما دام قلبى ينبض ورأسى يفكر .. ولكن تفكيرى فيه اتخذ طابعا جديدا .. أصبح تفكيرا هادئا منطقيا كأنه تفكير باحث علامة يبحث مشكلة قانونية معقدة .. لم أعد أنصرف اليه بعواطفى ونزواتى .. لم يعد مصطفى مخدرا أدمنته وتماديت فى ادمانه .. بل أصبح رجلا يشغل حياتى .. رجلا لا يستطيع أن يحرك

عواطفى دون أن يحرك عقلى .. وقد تبينت انى كنت أحب مصطفى بلا عقل .. بلا وعى . وأحسست أنى أفقت ، وكأن الصدمة التى ألمت بى عقب ارتكاب جريمتى كالصدمة الكهربائية التى يسلطونها على المجانين ليفيقوا من جنونهم.. أفقت .!

وأخذت أسائل نفسى : « هل صحيح أنى انتقمت من طنط صفية بدافع الغيرة على مصطفى » ؟!

ولم أجد جوابا ..

وخيل الى أنى أكذب على نفسى لو حاولت أن أقنعها بأنى فعلت كل ذلك من أجل مصطفى ..

لماذا لا يكون أبى ؟!

نعم .. لماذا لا يكون الدافع الحقيقى هو حبى لأبى وغيرتى عليه ، أبى الذى كان كله لى ، ثم استولت عليه امرأة أخرى ؟!

انى أحب أبى ..

ولكن ، هل أحبه الى حد الجريمة ؟

وهل الحب يدفع للجريمة ؟!

ولم أجد جوابا أيضا ..

وعدت أسائل نفسى : « لماذا لا يكون الدافع هو مجرد روح شريرة تسيطر على .. مجرد الأنانية .. مجرد الحقد .. مجرد احساسى بأنى أضعف شخصية من طنط صفية .. ولو

لم تكن امرأة كاملة .. لو لم تكتسحنى بشخصيتها لما انتقمت منها » ؟!

وكانت هذه الخواطر تدور بى وأنا أفكر فى مصطفى.. وكنت أخرج منها بإيمان مستتر بأن حبى لمصطفى لم يكن الدافع للجريمة ، انما كان مجرد حجة استعنت بها على اقناع نفسى بالجريمة .

ولكن مصطفى كان له شأن آخر ..

كان الرجل الوحيد الذى سمحت له بأن يستولى على جسدى .

لماذا سمحت له ؟..

لماذا أعطيته جسدى ؟!

لأنى أحبه ..

لماذا لم أقاوم هذا الحب ، وأضع له حدودا تصون جسدى .. لماذا لم أسلط ارادتى على تصرفاتى حتى لا أعطى شيئا قبل أوانه .. حتى لا أقطف الزهر قبل أن يتفتح .. قبل أن أتزوج ؟!

واستعرضت فى مخيلتى الأيام العنيفة المثيرة التى قضيتها مع مصطفى .. الأيام التى كنت أنصهر فيها بين ذراعيه ، وأنسى خلالها نفسى فى مغامرات مجنونة .. ثم ساءلت نفسى :

هل هذا هو الحب ؟

هل كل الفتيات فعلن ما فعلته ؟

لا .. لا يمكن !!

شيء آخر غير الحب ..

ربما كان « شقاوة » ، أو ربما كان مجرد الرغبة فى مباشرة انوثتى ، أو ربما كان تقليدا وتحديا لزوجة أبى ، و ربما كان هروبا من شيء فى نفسى ..

نعم .. كنت أهرب من نفسى !!

كنت أهرب من جريمة الى جريمة ..

وأحسست بالخجل وأنا أستعرض هذه الأيام .. الخجل من نفسى .. أحسست بالذل وبالضعة .. أحسست كأنى أنفر من نفسى ولا أطيقها .. وأحسست أيضا انى سأظل خاضعة لمصطفى الى الأبد ..

لقد أعطيته كل أسلحتى فكيف أقاومه ؟!

لقد كشفه عن سرى .. عن جسدى .. فكيف أتحداه؟!

لقد أصبح هذا الجسد له .. من حقه .. فكيف أسحبه منه !!

واعتقدت — فى هذه الأيام فقط — أن جسدى هو كرامتى وهو كبريائى ، فاذا كنت قد أعطيت كرامتى وكبريائى لمصطفى فيجب أن أبقى معهما .. أن أبقى مع كرامتى وكبريائى ملكا لمصطفى ..

وأخيرا .. قررت أن أحادثه فى التليفون . وسمعت صوته الذى غاب عنى شهرين .. سمعته كما تعودته .. كسولا بطيئا كأن كلماته تنهدات رجل .. ثم انطلق عندما سمع صوتى :

— نادية .. انتى فين .. كنتى فين المدة دى كلها !!

قلت وعلى شفتي ابتسامة ضعيفة ، كأني أستعيد ذكريات مضت ، ذكريات بعيدة .. بعيدة .. لن تعود :

— كنت عيانه يامصطفى ..

قال وكأنه غاضب :

— عارف انك كنت عيانه .. سمعت من بره .. انما برضه كنتي تقدري تكلميني في التليفون ..

قلت كأني أدافع عن نفسي :

— لا وحياتك يامصطفى .. كنت عيانة قوى..والدكتور كان محرج على ما أتكلمش في التليفون .. ما كانش بابا بيسمح ان التليفون يخش أودتي ..

قال وكأنه يريد أن ينتهي من هذا الموضوع .. موضوع المرض :

— وازيك دلوقت ؟!

قلت :

— الحمد لله .. أحسن !

قال وهو لا يزال غاضبا :

— وحاشوفك امتى ؟

قلت كأني أستعطفه أن يرحمني :

— مش دلوقت يا مصطفى .. الدكتور لسه ماسمحليش أنزل من السرير !!

وسكت قليلا ، ثم قال في تردد :

— وايه الحكاية اللى حصلت دي ؟!

وكرهت سؤاله .. أحسست كأنه قفز من فوق جسدى الملقى على الفراش .. كأنه تخطانى ليصل الى شيء آخر .. الى امرأة أخرى .. كنت أريده أن يحدثنى عن شوقه الى ، عن لهفته على ، عن أرقه وحيرته خلال فترة مرضى .. كنت أريد أن أستمين بحنانه وحبه على عذابي .. عذاب جسدى المريض ، وعذاب نفسى المريضة .. ولكنه قدم لى الكأس فارغة .. جافة .. ليس فيها حنان ولا حب ..

وتجاهلت سؤاله وقلت :

— وانت ازيك يامصطفى .. وحشتنى !

قال كأنه يؤدى واجبا :

— انشا الله ماتشوف وحش .. شغلتينى عليكى .. وعلى العيلة كلها .. الحقيقة ما كنتش حد مصدق ان كل ده يحصل..

قلت وأنا أقاوم نفسى حتى لا أحتد :

— ايه اللى حصل ؟

قال وأنا أكاد أرى فى عينيه رغبة ملحة ليسمع كل التفاصيل :

— قصدى حكاية الطلاق .. وباباكي وعمك وصفية هانم .. الحكاية اللى بتقولها الناس كلها ..

قلت فى حدة وقد فقدت أعصابى :

— ما تصدقش الناس .. الناس كلهم كدابين .. مافيش حد يطلق الا ويعملوله ألف حكاية وألف اشاعة ..

قال كأنه يحاول أن يفهم :

— بس الطلاق لازم يكون له سبب !

قلت وأنا لازلت محتدة :

— ما فيش سبب .. ماحصلش وفق .. ما قدروش يعيشوا مع بعض .. آدى كل اللى حصل !!

قال كأنه يغيظنى :

— يعنى حكاية عمك دى مش صحيحة ؟

قلت وكأنى أصرخ :

— لا .. لا مش صحيحة .. كدب .. كدب .. كدب !!

قال فى الحاح :

— طيب احلفى ..

قلت وكأنى أحطم التليفون بصوتى :

— واقه العظيم كدب !

قال فى برود وغرور ، كأنى طفلة يعلم مدى تعلقها به :

— لا .. احلفى بحياتى !

قلت بلا وعى :

— وحياتك يامصطفى كدب !

قال وكأنه يحقق معى :

— انتى عمرك ما حلفتى بحياتى كدب !

قلت وأنا مستطردة فى صراخى :

— عمرى !

وسكت قليلا كأنه يتنهد ، ثم قال :

— أنا كمان كنت باقول كده !

وتنبهت .. وقلت فى دهشة :

— كنت بتقول ايه ؟

قال :

— كنت باقول ان صفية مش ممكن تعمل كده .. ماكانتش باين عليها انها بتاعة حاجات من دى !

وازدادت دهشتى .. وأخذت أستعرض بسرعة حديث مصطفى فى ذهنى .. انه يلح فى اقناع نفسه ببراءة صفية .. يلح فى التأكد من أنها لم تكن على علاقة بعمى .. لماذا ؟ لماذا يهتم بها الى هذا الحد ؟ وما هى قيمتها عنده ؟ وماذا يهمه ان كانت على علاقة بعمى أو لم تكن ؟!

وانقلبت دهشتى .. الى دهشة من نفسى !

اننى لا أشعر بالغيرة ..

لا أغار على مصطفى ..

ان اهتمامه بصفية لايثيرنى ، ولا يحرك قوى الشر فى نفسى . ان نبضى لم يرتفع ، ودقات قلبى لم تشتد .. ودمائى لم تسرع فى عروقى ، وصدرى لم يضق ..

ماذا حدث لى ؟

ماذا جرى لى ؟

وتنبهت على صوت مصطفى وهو يقول فى اهمال وفى صوت تنقصه الحرارة ، كأنه تذكر شيئا صغيرا تافها كان قد نسيه :

— والدكتور قال لك ايه ؟

قلت بلا حماس :

— خلاص .. الأزمة راحت الحمد لله .. كان عندي انقباضات عصبية في الكلى .. انما دلوقت أحسن .. بس لازم أفضل في السرير كمان يومين تلاته !

قال وهو يحاول أن يتودد لي كأنه يكفر عن خاطر في نفسه :

— انما تقدري تضربيلي تليفون .. مش كده ؟

قلت :

— أيوه ..

قال :

— كل يوم ؟!

قلت :

— كل يوم يامصطفى ..

قال وهو يضحك ضحكة صغيرة :

— وكل ساعة ؟!

قلت وأنا أحاول أن أضحك أيضا :

— لأ .. مش ممكن كل ساعة .. انما ممكن كل ساعتين !!

وفرقت بيننا برهة صمت ، كأن يدا مجهولة تحاول أن تبعدنا عن بعض .. وكأننا خشينا هــذا الفراق المبتور .. خشينا أن يطول بيننا الصمت الى الأبد .. فأسرعت أقول قبل أن تتسع مسافة البعد بيننا :

— أورفوار بأه .. أحسن لازم آخد الدوا دلوقت ..

وفى نفس الوقت كان مصطفى يقول :

— أورفوار ..

وكأنى استرحت من تأدية واجب ..

وألقيت برأسى فوق الوسادة ، وعدت أغوص فى نفسى أحاول أن أبحث فيها عن الحقيقة .. حقيقتى !

* * *

وهكذا انقضت فترة مرضى دون أن أجد أحدا يعيننى على تبرير جريمتى ، أبى وأمى وعمى ومصطفى وطنط صفية كلهم غرباء عنى .. كلهم لايفهموننى .. كلهم يروننى الفتاة البريئة الطاهرة الضعيفة .. يرون وجهى البرىء ولا يرون نفسى المعقدة المظلمة المريضة .. النفس التى يختلط فيها عواء الوحوش بتغريد العصافير ، والتى تهب فيها العواصف قبل أن يمر بها النسيم .. لقد وجدت طبيبا يعالج كليتى المريضة ولكنى لم أجد طبيبا يعالج نفسى .. لم أجد أحدا ..

أحسست انى وحدى التى ستحمل سر جريمتها الى الأبد .. السر الفظيع .. السر الذى يأكلنى ، ويمتص دمى ، ويمزق أعصابى ، ويذيب شبابى ..

سر لن يعيننى عليه أحد الا الله ..

لو غفر لى الله ..

وقمت بعد أيام من فراشى ..

قمت لأجد البيت لى وحدى .. أنا سيدته .. أنا المتربعة

على عرشه .. ولأجد أبى قد أصبح لى وحدى .. أنا وحدى التى تحمل اسمه .. وأنا وحدى التى يعود اليها ..

ولم أكد أدير عينى فيما حولى حتى رأيت الحقيقة التى كنت أحاول أن أتجاهلها ..

رأيت البيت وقد استمدته محطما ..

ورأيت أبى وقد عاد الى محطما ..

ورأيت أنى عندما حطمت طنط صفية حطمت معها كل شيء .. حتى نفسى !

نعم .. لقد أصبحت محطمة ..

كنت على وشك أن أبلغ التاسعة عشرة من عمرى ، ولكنى أصبحت أشعر كأنى فى الأربعين .. مثقلة النفس بالهم .. تعيسة دائما .. حانقة دائما .. أتحرك فى خطى بطيئة كأنى أخاف فى كل خطوة أن تنشق الأرض تحت أقدامى وتبتلعنى .. وأخاف أن أهتز فيتحرك عقلى ويرتكب خطيئة أخرى .. وكنت أنظر الى المرآة فلا أرى « نادية » التى عرفتها .. ليست هذه هى « نادية » .. ليس هذا الوجه وجهها ، العينان الغائرتان يحوطهما سواد كالح كأن يد الشيطان قد مسحت فوقهما .. والوجنتان الذابلتان كأن دمائى تعجز دون الوصول اليهما .. والشفتان المزمومتان كأنهما تكتمان الألم .. والحاجبان المقعدان .. والنظرات الحادة .. لا .. ليس هذا وجهى ..

وكنت أسرع الى أصباغى أحاول أن أصبغ شفتى ووجنتى وأخفى السواد تحت عينى بطبقات « الكريم » ثم لا ألبث أن ألقى بكل هذه الأصباغ على الأرض كأنى أحاول أن أحطمها كما حطمت نفسى ..

ليس العيب فى وجهى .. انه فى نفسى ..

وقد هرمت نفسى ..

هرمت وأنا لم أصل بعد الى التاسعة عشرة من عمرى ..



كان أبى قد أصبح انسانا آخر ..

لم يعد وقورا ، ولا هادئا ، ولا مسئولا ، ولا حنونا .. أصبح انسانا تعسا .. سكيرا لا يفيق .. عربيدا لايشبع من عربدته ..

ولم يحدث هذا التطور بالتدريج ، انما حدث مرة واحدة .. وكأن زوجته عندما تركت البيت أخذت معها عقل أبى ، وضميره ، وارادته ، وتركته جسدا خاويا كالصندوق الفارغ .. ليس فيه شيء ، ولا يمكن أن تعتمد على شيء منه ..

ففى اليوم التالى للطلاق خرج أبى فى الصباح ، بعد أن اطمأن على فى مرضى .. وعاد متأخرا جدا عن موعد الغداء .. عاد مخمورا تتعثر أقدامه فى خطواته ، ويتعثر لسانه بين شفتيه ، وتتعثر نظراته بين جفنيه .. وجاء الى غرفتى ، ووقف على بابها ، وقال بلسان ملتو :

— ازيك دلوقت ؟..

ونظرت اليه فى دهشة ولوم ، ولم أرد عليه ..

وكأنه خجل من نظرتى ومن دهشتى فلم يتكلم ، واستدار ودخل غرفته ..

وتذكرت ساعتها أنى أصبحت سيدة البيت .. فضغطت

على الجرس الموضوع بجانب فراشي أنادي دادا حليمة .. وقلت لها في لهجة غابت عنها طويلا .. لهجة حاولت — رغم ضعفي — أن تكون أمرا :

— روحي قولي لعبده يقدم الغدا لبابا ..

وعادت دادا حليمة بعد قليل قائلة :

— سيدي البيه بيقول انه تغدا بره !

ومن يومها — وطوال فترة مرضي — وأبي يحرص على أن يراني في الصباح ويحرص على أن ينتظر الطبيب في موعد عيادته . وفي غير هذا لم يكن يحرص على شيء .. لم أعد أراه الا في مواعيد متفاوتة .. ولدقائق معدودة .. وأراه دائما سكران ، يبذل مجهودا كبيرا ليخفي التواء لسانه واهتزاز خطواته ، مجهودا يستغرق كل تفكيره وكل ارادته حتى لا يصبح فيه شيء يعطيه لي .. شيء من حنانه !

لم يعد يرعاني كما رعاني في صغري ..

ولم يعد ملهوفا على راحتي كما عودني ..

ولم يعد يجلس الي ليحدثني عن مشاكله ومشاكلي ..

أصبح انسانا غريبا .. غريبا عني وعن البيت ..

وعندما قمت من مرضي وجدت نفسي وحيدة .. حتى أبي فقدته .. كان احساسه بعربدته يجعله يخجل من مواجهتي فيبتعد عني ويتوارى مني .. وكان لا يعود الى البيت الا بدافع من بقية شعور بأنه أب مسئول عن ابنته ، وربما كان لايعود الا بحكم العادة ..

واحترت ماذا أفعل لأعيده الى ، لأعيده الى حنانه ولهفته؟

كنت أدخل الى حجرته فى الصباح فأجد ثيابه مبعثرة على الأرض ، وأجده نائما منتفخا وأنفاسه معبأة برائحة الخمر .. فأجمع الثياب وأرتبها مكانها وأفتح النوافذ ، ثم أقبل عليه أحاول أن أوقظه بقبلاتى . وتنقضى فترة طويلة مملة يغالبنى فيها حتى يفتح عينيه .. ولا يكاد يرى وجهى حتى يبتسم ابتسامة كبيرة .. ويهم بتقبيلى قبلة حنونة .. ثم كأنه يتذكر حاله ومصيبته .. فيسحب ابتسامته وتقع قبلته على خدى باردة سريعة ، ثم يدير عينيه عنى .. وهو يقول كأنه يعتذر لى :

— يظهر انى سهرت كتير امبارح !!

وفى كل صباح كان يكرر نفس الكلمة دون أن يبدلها أو يغيرها ، حتى أصبحت كلمة معادة ليس لها معنى ، لا فى لسانه ولا فى أذنى ..

وكنت أنتظره حتى ينتهى من حمام الصباح .. حمام صامت ليس فيه غناء كما اعتاد أن يغنى عندما كانت ممنا زوجته ..

ثم كنت أساعده فى ارتداء ثيابه ، وأجلس معه على مائدة الافطار الذى كان يتناوله دائما وحده ، فقد كنت أسبقه فى تناوله قبل أن يصحو من نومه قبيل الظهر .. ولم نكن خلال ذلك نتبادل حديثا .. انما مجرد كلمات مبتورة .. أسئلة قصيرة وأجوبة أقصر .. ثم كان ينتهى من افطاره سريعا

ويخرج مهرولا كأنه يفر من شيء .. كأنه يفر مني .. وأخرج وراءه لأودعه حتى الباب الخارجي فلا يلتفت الي ، كأنه يخشى أن يلتفت وراءه فيجد زوجتــه تتبعــه ، كما كانت عادتها ..

وفي وحدتي كنت أتعذب ..

عذاب يمزقني ، ويمزق أعصابي .. كنت أحس اني أعيش في حداد .. كأن ثوبي أسود ، وصدري أسود ، ورأسي أسود .. حدادا على نفسي .

وكنت أستسلم الى هذا العذاب . والى هذا الحداد .. كنت أرتاح اليه كأني أكفر به عن جريمتي .. كأني راهبة في معبد النار تحرق نفسها لتتطهر من خطاياها ..

ولكني أحيانا كنت أحاول أن أخفي عذابي ..

واحترت أين أخفيه ؟

كنت أحاول أن أخفيه في الاشراف على أعمال الخدم.. واذا بي أتنبه الى اني — دون أن أشعر — أقلد طنط صفية .. أقلدها في ابتساماتها ، وفي حيويتها ، وفي معالم شخصيتها ، بل اني كنت أكرر نفس كلماتها التي تعودت أن تلقيها الى الطباخ والسفرجي .

كنت أتنبه الى اني أقلدها ، وأتنبه الى أن الخدم يلبون أوامري بلا حماس ، ويخيل الي أن على شفاههم ابتسامات ساخرة كأن كلا منهم يقول لي : « أين أنت منها » ؟..

كنت أتنبه الى كل ذلك فيزداد عذابي ويزداد شعورى بالحداد ..

وأهرع الى غرفتى وأستلقى على فراشى..وأدعو دموعى فلا تلبى دعوتى .. كانت دموعى قد فرغت..بكيت مايكفينى العمر كله ..

وكنت أحيانا أحاول أن أخفى عذابي فى طيات حديث تليفونى مع بعض بنات العائلة ، أو بدعوتهن الى زيارتى .. ولكن الحديث لا يلبث أن يفتر ، وزيارتهن لا تلبث أنتصبح مملة تافهة . فأحس انى أسمع حديثهن من بعيد حتى لا أكاد أتبين كلماته ، وأحس كأنى أرى وجوههن من بعيد حتى لا أكاد أعرفهن . ويشتد فى صدرى حديث عذابي وصور جرائمى حتى لا أعود أرى ولا أسمع شيئا آخر .

وكنت أحادث مصطفى فى التليفون كأنى أستعين به على عذابي .. كأنى أستجير به .. ولكن مصطفى كان أيضا بعيدا عنى .. كان حديثه يطوف بى دون أن يدخل الى قلبى والى رأسى .. لم يكن يعلم ما بى .. فكيف يواسينى فيه ؟!!

وكنت أرفض أن ألقاه .. لا أدرى لماذا ؟.. ولكنى كنت أصر وأقاوم كثيرا حتى أرفض دعواته المتكررة الى لقائه .. ربما لأنى كنت أكفر عن ذنبى بحرمان نفسى منه .. وربما لأنى أردت أن أثبت لنفسى انى أستطيع أن أكون سيدة بيت مسئولة .. مسئولة عن البيت وعن ثقة أبيها بها .. وربما لأن عذابي كان أقوى من حبى ومن نزواتى .. فاضطررت الى أن

أستسلم للعذاب .. وربما لأن الدوافع التي كانت تدفعني الى لقائه قد زالت ..

ما هي هذه الدوافع ؟

لا أدري ..

ولكني لم أعد أشعر بحاجتي الى لقائه .. هذه الحاجة الملحة المجنونة التي كانت تدفعني اليه ..

وكنت في هذه الوحدة التي يتركني فيها أبي .. لا أنام.. انما يمر الليل بي وأنا أطوف بين غرف البيت كالشبح الباكي الحزين أو كعقرب الساعة يطوف بين الدقائق والساعات .. أطوف بين الغرف كأني أهرب من غرفة الى غرفة ، وأحس في هربي بطنط صفية تلاحقني .. أكاد أرى صورتها على الجدران ، وأكاد أحس بأنفاسها خلف أذني ، وأكاد أسمع خطواتها تتبع خطواتي .. انها في كل مكان من البيت .. كانت تجلس هنا .. وكانت تأكل هنا .. وهنا كانت تقف لمراقبة الخدم .. وهنا كانت تشتغل التريكو .. وهنا .. وهنا .. وهنا .. وأحس بالخوف .. خوف يستبد بي الى حد الرعب.. فأجري الى غرفة دادا حليمة وأخبط على بابها بكلتا يدى ، وأنا أصرخ : « دادا .. دادا .. دادا حليمة » !

وتهب المسكينة مفزوعة من نومها ، وتراني أمامها خائفة مرتجفة ، وأقول لها كأني أستعطفها :

— تعالي أقعدي معايا والنبي يادادا .. أحسن مش جايلي نوم !!

وتذهب ورائى الى غرفتى ..

وأستلقى على فراشى مبحلقــة العينين كأنى اخاف أن أغمضهما فتهجم على جيوش الشياطين . وتجلس دادا حليمة على الأرض بجانب الفراش تتحدث عن أى شىء .. ثم ينتهى حديثها دائما الى طنط صفية ، فتأخذ فى التحسر عليها ، كأنها «معددة» تعدد مناقب عزيز ذهب .. وأحس بهذا «التعديد» كأنه سياط تلهب صــدرى وظهرى ، وتســتدر الدموع والصراخ من قلبى ..

ثم تتعب دادا حليمة من الحديث ومن « التعــديد » فتسقط جفونها فوق عينيها ويسقط رأســها على الأرض وتنام تحت أقدامى كالكلب الأمين .. وأظل أنا مبحلقة العينين أخاف أن أغمضهما حتى لاتهجم على الشياطين ..

هكذا كنت أعيش بعد أن شفيت من مرضى ..

هكذا كان حالى ..

وحاولت أن أقاوم هذا الحال .. أن أبدله .. أن أنتقل الى حال آخر .. أى حال غير هذا الذى أعيش فيه ..

واعتقدت اننا لو انتقلنا من هذا البيت لتبدل حالى .. لاستطعت أن أبدأ حياة جديدة ليس فيها هذا العــذاب ولا هذه الشــياطين التى تلاحقنى .. لاستطعت أن أنسى جريمتى .. واستطاع أبى أن ينسى زوجته ..

وبدأت أقنع أبى بالانتقال الى بيت آخر .. واعتقدت انه لن يقتنع أبدا .. فقد كان هذا البيت الكبير عزيزا عليه

دائما .. لقد ولد فيه .. وولدت أنا فيه .: وشهد عز العائلة كلها منذ كان جدى على قيد الحياة ..

ولكن أبى اقتنع بسهولة .. كأنه لم يعد يهمه أين يعيش .. ولا كيف يعيش ..

لم يقتنع بالحجج الكثيرة التى قدمتها اليه عن ضرورة التوفير فى نفقات الخدم وفى مصروف البيت مما يكلفه لنا الانتقال الى شقة صغيرة باحدى العمارات ، انما وافق على الانتقال دون أن يناقش هذه الحجج ، وربما دون أن يلقى بالا اليها ..

وبدأت أبحث عن شقة فى احدى العمارات الجديدة .. تصحبنى دائما احدى سيدات العائلة .. ووجدت فى هذا البحث ما يلهينى عن عذابى ، على الأقل خلال فترة النهار ..

ووجدنا أخيرا شقة فى عمارة بشارع مظهر بالزمالك..

شقة من خمس غرف .. قسمتها فى مخيلتى الى غرفة للصالون وأخرى للطعام ، وثالثة للمكتب ، ورابعة لأبى والأخيرة لى ..

وحاولت أن أطبع هذه الشقة بطابعى الخاص ..

ولكنى فشلت .. فشلت فى أن يكون لى ذوق خاص ، فقد كان يخيل لى دائما فى كل شىء أنتقيه أو أصممه ، انى أستعير ذوق طنط صفية .. وأحيانا كان يخيل الى أنى أتحداها .. ولكنى فى تحديها أجد نفسى أنزل كثيرا عن مستواها !!

وأخذت من أثاث البيت القديم ، أثاث غرفة المكتب .. وأثاث غرفتى ، وبعض المقاعد من الصالون .. وصممت على أن يكون لغرفة نوم أبى أثاث جديد .. كل مافيه جديد .. كنت أريد أن أعينه على أن ينسى ، وأن أبعد عنـه كل ما يذكره بزوجته . الفراش الذى جمعهما .. والدولاب الذى ضم حلته الى ثوبها .. والمرآة التى انطبعت فوقها صورتها .. لعله بعد ذلك ينسى ..

وانقضت ثلاثة شهور قبل أن أنتهى من اعداد الشقة الجديدة وتنتقل اليها .

ووقفت أنظر الى البيت الكبير لآخر مرة قبل أن أتركه الى الأبد ، وأترك فيه كل ذكرياتى .. ذكريات طفولتى وصباى وشبابى .. ذكريات حفرت فوق جدرانه وخطت على أرضه .. ذكريات رسمتها دموع فتاة معذبة لاتدرى لعذابها من سبب الا أن خلقت فى هذه الدنيا .. ووجدت فى هذا البيت ..

خيل الى انى أرى يد البلى تمتد الى البيت وأنا لا أزال واقفة أمامه .. خيل الى ان آلافا من العناكب قد قفزت فوقه وأخذت تنسج خيوطها حوله بمجرد أن خطوت بعيدا عنه .. وخيل الى أن عنكبوتا منها قد تسرب الى قلبى وأخذ يلف خيوطه حوله ..

وأصبحت أحس أنى أحمـل فى صدرى قلبـا ملفوفا بخيوط العنكبوت ..

قلبا مهدما ..



هل سعدنا فى الشقة الجديدة ؟!

لا شك أنى تخففت من كثير من العذاب .. أحسست أنى أكثر نشاطا ، وأكثر اقبالا على مواجهة الواقع الذى يحيط بى .. وربما أحسست أيضا أنى بدأت أنفض بعض الذبول الذى دب فى شبابى وان دمائى بدأت ترتفع فى مشقة الى وجنتى ..

ولكن أبى ساء حاله عما كان عليه ..

تمادى فى عربدته ..

وأصبحت عندما أدخل غرفته فى الصباح ، وأجمع ثيابه المبعثرة على الأرض ، أجد على قميصه آثار أحمر شفاه .. من نوع رخيص !!

وحدث بعد ذلك أن كنت عائدة من عند الطبيب فى سيارة أجرة ، عندما رأيت سيارته واقفة أمام احدى العمارات قريبا من ميدان الأزهار .. ورأيت السيارة مرة ثانية أمام نفس الباب .. وتعمدت أن أمر أمام العمارة مرة ثالثة فوجدت السيارة أمام نفس الباب أيضا ..

وتأكدت أن أبى أصبح له شقة خاصة ..

شقة كالتى يملكها مصطفى ..

وسكت .. لم أتكلم .. ولم أحاول أن أفكر فى شىء .. لم أحاول أن أحاسب والدى أو أراقبه .. خيل الى أن من

حقه أن يكون له شقة خاصة ، وأن يلتقى فيها بمن يشاء من النساء .

ولكن هذا لم يكن أبى ..

ليس هو أبى الذى عرفته قبل أن يتزوج والذى كان يعيش لى ، ويهبنى شبابه ليرعانى وينشئنى .. كان أبى دائما شخصا آخر من الرجال غير مصطفى ..

وأحسست انى بدأت أكره مصطفى لأن أبى أصبح مثله ..

الى أن كان يوم ..

ودق جرس الباب وكانت الساعة حوالى الواحدة بعد الظهر . وجاء عبده السفرجي يقول لى ان بالباب سيدة تريد مقابلة أبى ، وانه عندما أخبرها بأن أبى ليس فى البيت ، طلبت أن تنتظره حتى يعود ..

وخرجت اليها ..

ووقفت مشدوهة أمامها كالعبيطة ..

لم أدر كيف أخاطبها ، وكيف انتقى أول كلمة يمكن أن أوجهها لها ، ولم أستطع أن أتصور ماذا يمكن أن تريده مثل هذه المرأة من أبى .. ثم انقلبت دهشتى الى نوع من التعالى عليها ، والازدراء بها .. فشددت قامتى ، وقلبت شفتى ، وأخذت أفحصها بعينى كأنى أقيس طولها وعرضها..

كانت امرأة رخيصة .. أقرب الى المحترفات .. اختلطت الأصباغ الفاقعة فوق وجهها .. أحمر فاقع ، وأبيض فاقع ،

واسود فاقع .. وانحدر شعرها المصبوغ فوق كتفيها كأنه يكاد يسقط على الأرض تأففا من رأسها ، وارتدت ثوبا أصفر يكشف عن نصف دائرة نهديها رغم أننا في وضح النهار ، ومن فوقه معطف أحمر واسع مضى على طرازه عامان ..

هل وصل أبي الى هذا المستوى من النساء ؟!

هل فقد كل شيء حتى ذوقه .. وكرامته ؟!

هل هذا هو النوع الذي يتردد على شقته الخاصة ؟!

ولا أدري لماذا تذكرت في هذه اللحظة شقة مصطفى .. ولا أدري لماذا بدأت أقيس نفسي بهذه المرأة .. ان كلينا يتردد على الشقة الخاصة .. أنا أذهب الى مصطفى .. وهي تذهب الى أبي .. فهل أنا مثلها .. مثل هذه المرأة ؟!

وأحسست كأن أمعائي تكاد تخرج من بين شفتي ، وأنا أقارن نفسي بهذه المرأة ، وسمعت نفسي أصرخ في صدري: « لا .. لست أنا مثلها .. لست مثلها ، لقد كنت أحب .. كنت معذبة .. كانت قوى مجهولة تدفعني الى شقة مصطفى » !

ومرت بي كل هذه الخواطر خلال برهة من الزمن ، ثم سمعت نفسي أقول للمرأة وأنا لا أزال أشد قامتي تعاليا ، وأقلب شفتي ازدراء :

— حضرتك عايزه مين ؟

قالت وهى تنثنى فى وقفتها وتنظر الى كأنها تعرينى من ثيـابى :

— عايزه أحمد بيه لطفى .. هوه مش ساكن هنا ؟!

قلت فى برود :

— أيوه .. بس هوه مش موجود .. خرج !

قالت وهى تتقدم خطوة أخرى داخل البيت :

— ممكن أستناه لما يرجع ؟

قلت كأنى أصفعها :

— ليه .. فيه حاجة ؟

قالت وهى تبتسم ساخرة دون أن تأبه بالبرود الذى أخاطبها به :

— فيه حاجات كتير .. تسمحى ؟!

ودخلت الى الشقة وجلست على المقعد الموضوع فى « الأنتريه » وهى تقول :

— على الله أحمد بيه ما يتأخرش !

وقفت أنظر اليها من بعيد وأتعجب لجرأتها ووقاحتها ، ثم ضبطت أعصابى حتى لا أثور ، وقلت فى صوت خفيض كأنى أدارى فضيحة :

— أنا بنته .. أقدر أعرف عايزه ايه .. يمكن أقـدر أساعدك ؟

قالت وهى ترفع حاجبا وتخفض حاجبا آخر :

— ما كنتش أعرف ..

قلت وأنا لا أفهمها :

— ما كنتيش تعرف ايه ؟!

قالت :

— ماكنتش أعرف ان له بنت كبيرة وعروسة كده .. تعرف انك شبهه تمام .. أول ماشفتك افتكرتك أخته ..

قلت وأنا أضغط على كل أعصابي :

— آدي انتي عرفتي .. تسمحي تقوليلي بأه انتي عايزاه ليه ؟

قالت وهي تجول بعينيها في الصور المعلقة على الجدران:

— بلاش أحسن .. بلاش تعرف !!

قلت وكأني أتحداها :

— أنا أعرف كل حاجة عن بابا ..

قالت في برود :

— ما أظنش !!

وانفجرت صارخة :

— وما أظنش ان حضرتك تقدري تستني هنا كتير .. بابا مش جاي على الغدا .. وأنا نازلة دلوقت .. وما أقدرش أنزل وسيبك في البيت !

ونظرت الي في برود كأنها تنظر الى طفلة ، ثم قالت في صوت هادىء وهي تتجاهل صراخي :

— معاكي خمسميت جنيه ؟!!

وتراجعت وقلت في دهشة :

— خمسميت جنيه بتوع ايه ؟

قالت وهي تحول عينيها عني وتسوى أكمام معطفها :

— كمبيالة .. كتبها لى أبوكى !

قلت كأنى أخاطب نفسي :

— كمبيالة .. بتاعة ايه .. خد منك ايه علشان يكتب لك كمبيالة ؟

وضحكت ضحكة فاقعة ، وقالت وحاجباها يتحركان فوق عينيها :

— خد منى الغالى ياحبيبتى !!

ولم أجادلها .. وعدت أقول كأنى أخاطب نفسي :

— لازم كتب الكمبيالة دي وهو سكران !!

وكأنها سمعتنى ، فردت بلا مبالاة :

— يبقى يقول كده فى المحكمة !!

ووقعت على مقعد آخر ، وأحسست كأن رأسي يدور ، وتخيلت أبي فى المحكمة ، واقفا بجانب هـذه المرأة أمام القاضي . وتخيلت أن قاعة المحكمة مزدحمة بالألسنة .. ألسنة الناس .. ألسنة فوق المقاعد .. وألسنة تطل من السقف .. وألسنة مزروعة فى الأرض . وكلها ألسنة طويلة .. طويلة جدا .. تتلوى كالأفاعى وتطرقع كالكرابيج ، ثم تلتف حول أبي ، وترفعه وتخفضه وتتقاذفه فيما بينها وسط ضحكات مجنونة كالصراخ .. وأنا واقفة على الباب أرى كل ذلك .. أرى عرض أبي ينتهك وسمعته تلوكها الألسن .. فتنفتح

عيناى بالرعب ، وأصرخ : « بابا .. بابا .. ياحبيبى يابابا » فترد على ألسنة الناس بالضحكات المجنونة كأنها الصراخ ..

مر بى هذا الخيال فى لحظة خاطفة ، ثم قلت بصوت ذليـــل :

— أقدر أشوف الكمبيالة ؟

وقالت ساخرة :

— لما أشوف الخمسميت جنيه قبله !!

قلت كأنى أفكر :

— واستحقاقها امتى الكمبيالة دى ؟!

قالت وكأنها بدأت تأخذنى مأخذ الجد :

— فات عليها يومين ..وبادور على أحمد بيه فى كل حته مش لاقياه .. اضطريت آجى له البيت .. ده حقى .. وما ضاع حق من مطالب !!

قلت فى ذل :

— أقدر أطلب منك معروف ؟

قالت وهى تنظر الى فى تعجب :

— خير .. معروف ايه ؟

قلت وأنا أنظر اليها فى رجاء :

— تأجلى الكمبيالة أسبوع واحد .. واذا ما أخدتيش الفلوس ابقى اعملى اللى انتى عايزاه ..

ونظرت الى كأنها تفحصنى ، وسكتت فترة كأنها تفكر، ثم قالت فى تردد :

— وحاتجيبي الفلوس منين .. من أبوكي ؟!!
قلت وكأني أنفض الذل عن صدري :
— حاجبهم وخلاص . المهم ما تدوريش على بابا ، ماتطلبيش منه حاجة .. أنا حاجبلك الفلوس لغاية عندك .. اديني نمرة تليفونك ولا عنوانك ، وأنا أوصلك الفلوس بنفسي !!
قالت وهي لا تزال مترددة :
— واذا ما جبتهمش ؟!
قلت في سرعة
— مش حتخسري حاجة .. الكمبيالة في ايدك وتقدري تطالبي بيها في أي وقت !
قالت وهي تقوم واقفة :
— طيب .. علشان خاطرك بس .. وربنا يصبرني .. أصل لو جيتي للحق أنا لا أحب المحاكم ولا الفضايح ..
قلت في انكسار :
— مرسي ..
وخرجت بعد أن أعطتني نمرة تليفونها ، دون أن أمد يدي لمصافحتها ..
وصفقت الباب وراءها كأني أكنسها من البيت .. كأني أتخلص من شيء كريه يسمم الهواء من حولي ..
وجلست أفكر .. أفكر بعقل مخنوق لايستطيع أن

يتنفس بالأفكار .. وخيل الى بعد مدة طويلة أنى وجدت الطريق الذى أحصل منه على الخمسماية جنيه ..

كنت قد قررت أن أخفى عن أبى خبر هــذه الزيارة الغريبة .. كنت أعلم انى سأقتله لو علم أن هذه المرأة قد جاءت الى البيت ، وانى قابلتها ، وانى علمت منها خبر هذه الكمبيالة المدنسة التى كتبها ..

قررت ألا ألجأ الى أبى ، وأن أدبر الخمــسماية جنيه بنفسى ..

واتصلت بالتليفون بجرجس أفندى شنودة ناظر العزبة، وطلبت منه أن يحضر الى مصر ويقابلنى فى نفس اليوم .. وراعيت أن يكون وصوله فى موعد يكون فيه أبى خارج البيت ...

وجاء جرجس أفندى دهشا .. فقد كانت المرة الأولى التى أخاطبه فى التليفون وأدعوه لمقابلتى .. جاء وعلى وجهه المعروق رغبة عنيفة فى استطلاع الخبر .. رغبة تكاد تبدو على وجهه ، كأنها لذة تعتمل فى نفســه ..

وقلت له وهو جالس قبالتى :

— أنا عايزاك ياجرجس أفندى تدبر لى خمسميت جنيه بكره يابعده ..

ورفع جرجس أفندى شفتيه من فوق فنجان القهوة كأن لسانه قد لسعته النار ، وقال فى دهشة وتلعثم :

— والله ياست هانم .. والله ..

قلت كأني أطمئنه :

— أنا حاكتبلك وصل بيهم .. وآخر السنة لما تقـدم الحساب حتلقى البيه عنده خبر ..

قال وهو يخرج منديله المخطط ويمسح به شفتيه الرفيعتين .. ثم يرفعه الى أنفه ويتمخط ، ثم يرفع نظارته الفضية من فوق عينيه ويمسحها به :

— مش قصدى ياست هانم .. بس .. بس ..

قلت فى حدة كأن دماء الأتراك كلهم منذ عهد السلطان سليمان قد تجمعت فى عروقى :

— بس ايه ؟.

قال وهو يعيد نظارته فوق عينيه :

— أصل مافيش فى العزبة ولا مليم .. الخزانة فاضية .. والفلاحين دفعوا اللى عليهم من بدرى .. وبعضهم دفع مقدما .. واللى ما دفعش ما معهش .. أصل البيه السنة دى مستعجل على الفلوس قوى .. عمره ما كان كده .. ما بقناش نشوفه الا من الحين للحين . بييجى يقعد نصف ساعة يلم الفلوس ويرجع ..

وسكت قليلا .. وتذكرت ان والدى كان يبيت ليلتين كل أسبوع خارج البيت بحجة انه فى العزبة .. وكنت أحب دائما أن أصدق حجته حتى لا أتعذب بخيالى وأنا أتخيله يقضى الليل فى شقته الخاصة ..

وقلت وأنا لا أستطيع أن أواجه جرجس بعيني ..

— يعني مافيش ولا خمسميت جنيه ؟

قال وهو يهز رأسه وينش فوقها بمنشته العتيقة :

— ياريت والله ياست هانم ..

وانتظر قليلا كأنه يفكر ، ثم انطلق قائلا بصوت مرتفع كأنه كان يختزن أنفاسه حتى يجد فى نفسه الجرأة ليطلقها :

— ده حتى البيه الشهرين اللى فاتوا باع عشرين فدان من العزبة لجارنا عبد الغفار باشا بتراب الفلوس .. وقبض التمن نقدا ومن يومها ماشفناش سعادة البيه ..

ورفعت اليه عينى فى دهشة ورعب ثم خفضتهما بسرعة كأنى أخفى عنه دهشتى ورعبى ..

وتجرأ جرجس أفندى أكثر وقال بعد قليل :

— أنا عارف سيدى البيه بيعمل بالفلوس دى كلها ايه.. ده عمره ما كان كده !!..

ونظرت اليه نظرة غاضبة كأنى اعتبرته يتهجم على أبى ، وقلت وأنا أستجمع ارادتى كلها حتى احتفظ بعينى مسلطتين عليه :

— أصل البيه دخل فى شركة جديدة ويعمل مصنع جديد !

وهز جرجس أفندى رأسه كأنه لا يصدق ، وقال :

— ربنا يوفقه ياست هانم .. والله ما فى بركة الا فى الأرض . شركات ايه ومصانع ايه !!..

قلت كأنى أطرده :

— على كل حال متشكرة قوى ياجرجس أفندى .. أنا حادير الفلوس من حته تانيه .. ماتنساش تسلم علىأم عطية..

وتركته وانصرفت الى حجرتى .. وسمعته ورائى يقول :

— البركة فيكى ياست هانم .. أم عطية توفاها الله من تلات أشهر !

وتوقفت خطاى كأنى طعنت بسكين ..

ثم خطوت الى حجرتى دون أن أرد عليه ، أو أترحم على أم عطية ..

وأخذت أخطو جيئة وذهابا داخل غرفتى كأنى حبيسة فى سجن أسود لا أرى فيه نورا أفر منه ..

ماذا حدث ؟!

ماذا حدث لنا ياربى ؟!

أم عطية تموت .. آخر الأحياء من أيام جدى والتى كنا نكرمها جميعا كأننا نكرم ذكرىعزيزة علينا .. تموت فلا يعلم أبى .. وربما علم ونسى أن يخبرنى كأن موتها ليس خبرا يستحق أن نتناقله بيننا ..

وأبى يبيع أطيانه ..

أبى الذى كاد يجن عندما استولى الاصلاح الزراعى على مائتى فدان من أراضيه .. يبيع الآن الأطيان ليبعثر ثمنها على نساء أشبه بالمحترفات ..

ماذا حدث ؟!

وكيف أحول دون كل هذه المصائب .. كيف أنقذ البقية من أبي .. ومن أرضنا ..

لماذا لا أستطيع أن أفكر ؟

لماذا لا أجد حلا ؟

لماذا كان عقلي ينشط ويلمع ويبرق عندما كنت أفكر في جريمة .. في شر .. ولماذا يتكاسل الآن ويصيبه الغباء .. وأنا أحاول أن أبحث عن طريق الخير ، أحاول أن أكفر عن جريمتي وأنقذ ضحيتي ..

وأحسست أني في حاجة الى انسان بجانبي ..

انسان يعينني ..

انسان يأخذ بيدي في طريق الخير ..

ووجدت مصطفى يقفز الى خيالي ..

لماذا مصطفى ؟

لماذا هو بالذات ، وقد اعتقدت اني ابتعدت عنه .. وانه لم يعد في حياتي سوى ذكرى لا أستطيع أن أنساها ولا أستطيع أن أستعيدها ..

لا أدري .. ربما لأنه انسان مجرب يستطيع أن يدلني على طريق التعامل مع مثل هذه المرأة التي تطالب بقيمة الكمبيالة .. وربما لأنه فيلسوف يستطيع أن يدلني على الطريق الذي أستعيد به أبي ..

لست أدري .. انما ذهبت اليه .. ذهبت واجفة القلب ..

كانت قد مضت ستة شهور لم أر فيها مصطفى .. شهور تعسة مظلمة ، حزينة ، قضيتها فى حداد على ضحايا جريمتى..

وفى خلال هذه الشهور كان جسـدى كله راكدا فى انكسار وحزن .. لم تتحرك فيه رغبة ، ولم تشتعل فيـه دماؤه ؛ ولم تهف عليه ذكرى قبلة أو لمـة .. بل كنت أحيانا أتحسس مواضع قبلات مصطفى ولمساته فلا أجد لها أثرا ، كأن أمواج الحوادث التى مرت بى مسحت كل آثار الحياة من فوق الشاطىء .. من فوق جسدى !..

غريب أمر هذا الجسد !!

انه يصوم أحيانا صياما طويلا ، حتى تعتقد أنه زهد فى الحياة ووهب نفسه للدير ..

وأحيانا يقبل على الحياة فى نهم ويستسلم لرغباته فى عنف حتى يخيل اليك انه لن يشبع أبدا .. يخيل اليك ان الرغبة ستدمره وتفجره ولا تبقى منه الا شظايا متماسكة ..

لماذا ؟..

ربما لأننا لانستطيع أن نفصل الجسد عن الروح .. ليس هناك جسد خالص ولا روح خالصـة .. كلاهما مرتبط بالآخر .. وكلاهما خاضع للآخر .. عندما تنشـط الروح ينشط الجسد ، وعندما تركد الروح يركد الجسد ..



... أحياناً يقبل الجسد على الحياة فى نهم حتى يخيل إليك أنه لن يشبع أبدا ...

هذا الجسد الغالى ليس مجرد آلة .. ليس عربة ترام تسير فى خطوط منتظمة .. يصعد اليها الناس وينزلون فى محطات معينة .. ويقوم المجتمع بدور « المفتش » ليحسب عدد الركاب ويعاقب المخالفين .. ويقوم الأب والأم بدور « الكمسارى » يمنحان تذكرة ركوب لكل راغب فى الزواج.. لا .. ليس الجسد عربة ترام .. انه أغلى من ذلك .. انه روح .. ولن نستطيع أن نحكم أجسادنا الا اذا حكمنا أرواحنا .. لن نستطيع أن نصون هذه الأجساد وننظمها مهما اشتد نشاط « المفتشين » ومهما بذل « الكمسارية » من جهد الا اذا استطعنا أن نصون الروح .. أن نجعل أرواحنا تتنفس فى جو صالح ، وسط مجتمع صالح حتى لاتتعقد وتضطرب فيضطرب معها الجسد ..

هل هذا صحيح ؟..

لست أدرى ..

ولكنى كنت أشعر وأنا ذاهبة الى مصطفى ، بأن جسدى لا يزال فى صيامه الطويل ، وأن كل ما فيه راكد فى انكسار وحزن ..

ورغم ذلك .. كنت واجفة القلب !

كنت أحس كأن يدا مجهولة تمسك بذيل ثوبى وتجرنى الى الوراء . الى الوراء السحيق .. الى الأيام التى كنت أتردد فيها على شقة مصطفى لأصهر جسدى وقلبى وعقلى فوق صدره العارى الأسمر ، فى لون شريحة البفتيك المشوى

نصف شواء .. وخيل الى ان هذه الأيام بعيدة جدا .. كأنها ذكرى طفولة فى خيال امرأة عجوز !!

ودخلت من باب العمارة وأنا ألتفت حولى كأنى أرى ذكرياتى مرسومة فوق الباب وفوق الجدران .. وحدق البواب فى وجهى كأنه يحاول أن يتذكرنى ، ثم كأنه تذكرنى فهب واقفا وبين شفتيه ابتسامة كبيرة .. ولكنى تجاهلته وسرت نحو المصعد ، فجرى ورائى وفتح لى باب المصعد وهو يقول :

— ازاى الصحة ياست هانم ؟

ولم ألتفت اليه .. لم أرفع عينى الى وجهه .. ولم أرد عليه ، انما اكتفيت بأن حركت شفتى فى تمتمة ليس لها صوت ولا معنى .. ودخلت المصعد ، وأغلق بابه ورائى ، وصعدت كأنى أهبط !..

انه نفس البواب الذى كنت أمنحه نقودا ليراقب مصطفى ويبلغنى أخباره .. ونفس المصعد الذى أوقفته مرة بين دورين لأبدل ثيابى وأفاجىء مصطفى فى ثوب أشبه بثوب العروس فى الليلة التى قضيتها معه ..

ومر شريط ذكرياتى فى مخيلتى بسرعة عجيبة ، كأنى رأيت عمرى كله تجمع فى لحظة واحدة . ثم تنبهت لأسائل نفسى مرة ثانية : لماذا أنا هنا ؟!

انى هنا لأعرض على مصطفى مشاكلى ..

انى مريضة .. ومصطفى الطبيب ..

مصطفى بكل تجاربه ، وبكل فلسفته يستطيع أن يكون طبيبي ..

واسترحت الى هذا الرأى .. استرحت الى مصطفى كطبيب !

ولكن مصطفى لم يستقبلنى كطبيب .. لقد فتح لى الباب وفى عينيه نفس النظرة التى تعود أن يستقبلنى بها ، وبين شفتيه نفس الابتسامة ، وهو مرتد — كعادته — قميصا مشمر الأكمام مفتوح الصدر ، وسروالا ..

عجيب أمره ..

انه لا يتغير .. لايكبر .. ولا يصغر وليس أبدا أقل سعادة ولا أكثر سعادة ..

يمر بى الزمن فأسعد وأشقى : وأمرض وأشفى ، وأخطىء وأندم .. ويمر الزمن بأبى فيتزوج ويطلق ، ويكسب ويخسر ، ويؤمن ويكفر .. ويمر بعمى فينقله كل يوم من حال الى حال .. ولكن الزمن يمر بمصطفى ، فيتركه كما هو .. بل ربما لا يمر به أبدا .. ينساه .. يتخطاه ويعفيه من آثار خطواته ..

ووقفت مترددة أمام الباب ..

لا أستطيع أن أعود ، ولا أستطيع أن أدخل ..

وكنت مرتبكة .. لا أدرى كيف أبتسم ولا ماذا أقول .. بل لم أكن أدرى هل أفرح بلقاء مصطفى أم آسف على عودتى اليه .

وربما طال ترددي ، فقد رأيت نظرة مصطفى تضطرب بين عينيه كأنه يسألني لماذا التردد ؟.. ورأيت ابتسامته تضيق كأنه احتار من أمري .. ثم قال في صوت متقطع كأنه يأتي من مجرى مليء بالصخور :

— أهــلا ..

ثم سكت ..

وخطوت الى الداخل .. واستدار مصطفى الى وهو يمد ذراعه ويدفع ضلفة الباب ليغلقها .. وأدرت رأسي الى الباب وهو يغلق ، كأني أتأكد من أني أستطيع أن أفتحه عندما أريد !!

وأمسك مصطفى بكلتا يدي ، وأدارهما في يده ، وانحنى يقبل باطن كفي .. كعادته ..

ولم تسر قبلته في أعصابي .. لم أحس بها في قلبي وفي رأسي ، كما تعودت .. أخذتها كامرأة مجربة لم يعد يجدي معها تقبيل باطن كفيها !!

ووقف أحدنا في مواجهة الآخر .. وقلت وأنا أحاول أن أمزق الصمت من حولنا :

— ازيك يامصطفى ؟

قال وهو يطوف بعينيه فوق وجهي :

— ازيك انتي .. يظهر ان مرض الكلا بيحلي الناس .. انتي احلويتي قوي يانادية .. انما كفاية حلاوة ، وكفاية عيا..

قلت وأنا أحاول أن أبتسم :

— خلاص .. بعد كده مش حاعيا الا باذنك !!

وسكت مصطفى كأنه يفكر فى شىء يجب أن يقوم به .. ثم مد ذراعيه وأحاط بهما خصرى وجذبنى اليه .. لم يضمنى بعنف .. بل ضمنى برقة وحذر كأنه يخاف أن يلقى ثقله على مرة واحدة ..

واستسلمت .. شعرت ان ليس من حقى أن أقاومه .. بل شعرت أكثر من ذلك .. شعرت انى يجب أن أغمض عينى وأن أهيم فى أحضانه .. أن أعطيه من روحى ومن جسدى ما تعود أن يأخذه .. انه صاحب حق مكتسب ليس من حقى أن أحرمه منه .. ولكنى لم أستطع . لم أستطع أن أعطيه شيئا من روحى ، ولم أستطع أن أنفخ فى جسدى ليتجاوب مع جسده .. وخيل الى أن دقات قلبى ليست متفقة مع دقات قلبه .. كل قلب يدق نغما يختلف عن الآخر .. كل ما شعرت به وأنا بين أحضانه انى أضم ثوب طفولتى .. أضم ذكرى من ذكرياتى .. ولم أستطع أن أهيم فى هذه الذكرى .. لم أستطع أن أفقد رأسى وأنسى وجودى .. كان عقلى واعيا نشطا يرقب كل حركة من حركاته .. وكنت أحس بوجودى.. كنت أرى ذراعيه اللتين تحيطان بخصرى .. وأرى صدره وأرى لون قميصه .. وأرى المقاعد .. وقطع الأثاث من حولى .. وأرى الصور المعلقة على الجدران .. كنت واعية تماما .. وعيا يحول دون استسلام جسدى وروحى !

وأحسست بشفتى مصطفى تلمسان خدى .. ولم أنفر

من قبلته .. ولكنها لم تثر فى نفسى الاحساس القديم .. سقطت على خدى وبقيت هناك ، فلم ينتشر تأثيرها فى بقية أعضائى .. كانت أقرب الى قبلة أخ لى ، أو قبلة أبى ، أو قبلة احدى سيدات العائلة .. مجرد لمسة من شفتين .. أى شفتين . فوق خد .. أى خد !!

وأطلقنى مصطفى من بين ذراعيه ..

ورأيت فى عينيه حسرة .. كأنه يتحسر على شىء جميل فقده .. ثم أمسك بيدى وقادنى الى غرفة المكتبة — كما تعودت أن أسميها — ووقفت على بابها كأنى أرى أمامى أعنف أيام حياتى ، وركزت عينى فوق الأريكة العريضة التى كثيرا ما ضمت جسدى عاريا .. وابتسمت فى نفسى .. ابتسمت لجسدى العاري الذى أراه بخيالى ممددا فوق الأريكة .. وخيل الى انى أراه جسدا جميلا .. جميلا جدا .. كجسد طفلة تلهو فى « البانيو » ساعة الاستحمام !!

غريبة .. انى أشعر وسط كل هذه الذكريات بأنى .. عجوزة !

وسبقنى مصطفى داخل الغرفة ، وقال وهو يفتح « البيك آب » :

-- تحبى تسمعى اسطوانات ايه ؟

وابتسمت ابتسامة كبيرة ..

انه مصطفى .. لم يتغير !!

وقلت من خلال ابتسامتى :

— اللى يعجبك !!

ووضع مصطفى فى « البيك آب » نفس المجموعة الغريبة المتناقضة من الاسطوانات .. اسطوانة لشوبان ، واسطوانة لسيد درويش ، واسطوانة لعبد الوهاب ، واسطوانة لاسماعيل يس . وعلى صوت الاسطوانة الأولى تنبهت الى انى جئت اليه لأعرض عليه مشكلتى .. لأقول له كل شىء ، حتى يدلنى على طريق الخير ..

ولكنى فجأة أحسست انى لا أستطيع أن أقول له كل شىء .. لا أستطيع أن أروى له مثلا قصة الكمبيالة التى كتبها والدى لهذه المرأة الرخيصة .. أحسست أن مصطفى غريب ليس من حقه أن يعلم أسرار والدى وأسرار حياتنا .. بل انى سأشعر بالخجل ، والذل ، لو علم بحال والدى الآن ، والدرك الذى وصل اليه ..

ورغم ذلك .. فقد كان هناك جزء من المشكلة أستطيع أن أرويه له وأسأله رأيه فيه ..

وقلت فى تردد :

— فيه حاجة يامصطفى عايزه أسألك فيها ..

قال وهو لا يزال مشغولا بضبط صوت « البيك آب » :

— خير .

قلت بسرعة ، كأنى خفت ألا أقول شيئا :

— بابا ..

والتفت الى فى حدة كأنى فاجأته ، وقال كأنه يتعجلنى :

— ماله ..!!

قلت وأنا أجلس على الأريكة :

— اتغير خالص .. من يوم ما طلق طنط صفية بأم واحد تاني .. ومش عارفه أعمل ايه .. مش عارفه أسعده ازاى .. ورجعه زى ما كان ..

قال فى صوت خفيض وهو ينظر الى قدميه :

— باباكى غلط غلطة كبيرة ..

قلت فى مسكنة :

— أنا عارفة .. انما غلطة ممكن تتصلح .. نصلح الغلطة دى ازاى ؟!

قال كأنه غاضب على أبى :

— الغلطة دى مش ممكن تتصلح .. مش ممكن !!

قلت كأنى أعاتبه :

— يعنى أسيب بابا يعمل فى نفسه العمايل دى كلها ؟..

قال فى برود :

— سيبيه .. كلها يومين .. وبعديهم ينسى ، ويفوق لنفسه ويرجع زى ما كان ..

وتجاهلت كلامه وقلت كأنى أحادث نفسى :

— أنا كنت بافكر انه يرجع لطنط صفية .. بس مش عارفه أرجعهم لبعض ازاى ؟

وارتفع صوت مصطفى .. وقال فى حدة أدهشتنى ، وكأنه يصد شرا عن نفسه :

— مش ممكن .. مش ممكن يرجعوا لبعض تانى .. الطبق اللى ينكسر عمره ما يتصلح !!

قلت والدهشة لحدته تسرى فى كلامى :

— بالعكس .. الطبق اللى ينكسر بيتصلح ، وفيه مثل بيقول : « الطبق المشروخ يعيش أكتر » !!

قال وهو لا يزال محتدا :

— يمكن يعيش أكتر صحيح .. انما يفضل طول عمره مشروخ .. مرسوم عليه خط اسود . الخط الأسود ده حيفضل دايما فى حياة أبوكى ومراته لو رجعوا لبعض .. حيفضلوا دايما شايفينه واقف بينهم . حيفضل أبوكى مذلول دايما لمراته لأنه مش حيقدر ينسى غلطته .. وحيفضل دايما يشك فيها .. ويدور فى حياتها على عذر لغلطته القديمة ، وحتفضل مراة أبوكى خايفة منه دايما ، خايفةيتجنن ويطلقها تانى .. وحاتفضل فاكره له الغلطة .. عمرهم ما حيرجعوا لبعض زى ما كانوا .. عمرهم ما حيبقوا سعدا زى ما كانوا سعدا . الطبق لما ينشرخ يفضل مشروخ على طول ..

ولم أتكلم .. خيل الى أن مصطفى هدم كل آمالى حتى لم أعد أستطيع أن أرفع رأسى من بين أنقاضها ، لأحرك لسانى ..

وهدأ مصطفى قليلا وعاد يقول فى صوت أقل حدة :

— الأديان اللى حرمت الطلاق كانت عارفه انها مش ممكن تتصلح .. والنبى لما قال « ان أبغض الحلال عند الله

الطلاق »كان عارف انه بيعالج مر بمر .. لو كان الطلاق ممكن يتصلح ما كانتش الأديان حرمته ، ولا كان ربنــا كرهه .. كانوا سابوا الناس تتطلق وترجع فى طلاقها زى ما هى عايزة .. وزى ما قلتلك .. الطبق اللى ينشرخ يفضل مشروخ على طول ..

قلت فى صوت خفيض منكسر :

— يعنى من رأيك ان ما فيش فايدة !!

وجلس مصطفى بجانبى ، وأخذ يدى بين يديه ، وقال كأنه يواسينى :

— سيبى كل حاجة تاخد حدها .. أنا عارف ان باباكى حالته اتغيرت .. بقالى مدة باشوفه فى البارات .. وباشوفه بيشرب كتير ، وباسمع عنه حاجات كتير .. انما كل حاجة بتاخد حدها وتفوت . وبكره بابا يرجع زى ما كان .. بس انتى اصبرى ..

ونكست رأسى ولم أرد .. وتمنيت أن أبكى ..

ووضع مصطفى يده تحت ذقنى ورفع وجهى ، وقال وهو ينظر فى عينى بحنان :

— فين ابتسامة شفايفك ؟!!

وابتســمت .. أو حاولت أن أبتسم ..

وقرب مصطفى وجهه من وجهى .. ووضع خده على خدى .. ثم زحف بشفتيه واستقر بهما فوق زاوية شفتى .. ولم أنتفض .. ولم أغمض عينى .. ولم أحس بقبلتــه

تتحدى موضعها . ولم أفقد رأسي ولا سيطرتي على أعصابي، كنت واعية ، أرى الصور المعلقة على الجدران والأثاث من حولي ، وأسمع أنغام الاسطوانات صادرة من «البيك آب» لا من السماء .

وقال وشفتاه ترتطمان بخدي :

— أنا ما وحشتكيش يانادية ؟!

قلت في مسكنة كأني أحرص على ارضائه :

— وحشتني يا مصطفى ..

وربما كانت الدموع المحبوسة في عيني قد ألهبت وجنتي، فانتقلت سخونتها الى وجنتي مصطفى .. فقد شعرت بأنفاسه تسرع وتتهدج .. وأحسست بذراعيه يرتفعان الى خصري وتزحف كفاه فوق ظهري .. ويضمني برفق .. ثم بعنف .. ثم تنفرج شفتاه وتلتقطان شفتي في قبلة .. لا .. لم تكن قبلة .. رغم كل فن مصطفى في القبل .. لم أشعر بها كقبلة .. كمخدر .. انما مجرد شفتين فوق شفتي .. قبلة استسلمت لها وأنا أفكر متى تنتهي !!

وربما أحس مصطفى ببرودي .. أحس اني لا أتجاوب معه .. ولكنه استمر ..

رأيت يده ترتفع الى رأسي وتمسح فوق شعري .. ثم تسلل أصابعه لتنزع مشابك شعري وتتركه ينسدل فوق ظهري كما كانت عادته عندما يريدني ..

وفي هذه اللحظة أحسست — ولأول مرة — ان أنفاس

مصطفى قد هبت فى غير موسمها ، وان لمساته تقع فى غير موضعها ، وقبلاته تأتى فى غير موعدها .. فانفلت منه قبل أن يحل شعرى ، وقمت واقفة على قدمى ..

ولم أتكلم .. لم أجد ما أقوله ..

وخفض مصطفى رأسه وأخذ ينظر الى قدميه ، ثم هز كتفيه كأنه يقول لى : « لقد حاولت أن أقوم بالواجب » ثم رفع رأسه وقام واقفا دون أن يلتفت الى بعينيه ، واتجه الى « البيك آب » ، وهو يقول .. كأنه يريد أن يقول لى أى شىء :

— تحبى أسمعك اسطوانة جديدة لسه جاية امبارح .. و ..

وقاطعته فى صوت رقيق كأنى أحاول أن أخفف عنه :

— أنا لازم أنزل دلوقت يامصطفى .. لسه عندى مشاوير كتير .

واستدار الىّ ..

ووقف قبالتى صامتا ، وهو ينظر الى بكل عينيه كأنه يحاول أن يغوص فى أعماقى ، ثم قال فى صوت خجول :

— أنا آسف ..

وفهمت ماذا يعنى .. وابتسمت كأنى صفحت عنه ..

وسار معى حتى الباب .. وأمسك بيدى بكلتا يديه ، وقال فى رقة صدق واخلاص :

— مهما حصل يانادية .. كل اللى باطلبه منك انك

تعتبرينى دايما جنبك .. صـديقك .. أبوكى .. عمك .. أخوكى .. أى حاجة .. انما دايما جنبك !!

قلت وأنا أعنى ما أقول :

— انت دايما جنبى يا مصـطفى .. دايما بافكر فيك كل ما احتاج لحد جنبى ..

وابتسم فى وداعة ، كأنه قنع بمكانه بجانبى ..

وفتح الباب ..

وأطلق يدىّ من بين يديه ..

وهممت أن أخطو خارجة ، ولكنى استدرت اليـه ، وقبلته قبلة سريعة فوق خده .. ثم خرجت دونأن أنظر اليه..

وأقفلت الباب ورائى بنفسى ..

* * *

ولم أندم على زيارتى لمصطفى .. بالعكس .. شعرت والمصعد يهبط بى انى أرتفع .. أرتفع من الماضى الى الحاضر، والى المستقبل ، أحسـست أنى أزحت عن صدرى عبئا ثقيلا.. كأنى شفيت من المخدر الذى كنت أدمنته .. كأن ما كان بينى وبين مصطفى ليس سوى حلم ومضى .. والأحـلام ليست خطيئة .. ان الله لا يعاقبنا على الأحلام .. حتى لو كانت جميلة !!

ما أعجب الانسان !!

ما أعجبنى !!

لو جاءنى الانس والجن منذ عام واحد وقالوا لى ان

كل ما بيني وبين مصطفى ليس سوى حلم .. حلم سينتهى بكل بساطة وبلا ضجة وبلا حادث ، انما يذبل فى رقة كما تذبل الزهرة الجميلة الضعيفة .. لكذبتهم .. ولأقسمت لهم على حبى .. حبا أبديا لا ينتهى ، ولا يذبل ، ولا يمكن أن أفيق منه !!

ولكن هكذا الانسان .. سيعيش عمره لا يعرف نفسه ، ولا يرى غده ، ولا يمسك بأمسه .. انه لايستطيع أن يرسم لنفسه صورة أبدية يضعها داخل اطار ويعلقها أمامه ، ويقول: « هذا هو أنا » .. أبدا .. ان « أنا » هذه ليس لها صورة .. انها معنى .. مجرد هواء .. « أنا » اليوم غير « أنا » غدا ، وغير « أنا » أمس .. أنا اليوم سعيدة . وأنا غدا تعسة .. أنا اليوم أحب .. وأنا غدا لا أحب .. أنا اليوم أحلم ، وأنا غدا لا أحلم ..

كيف يرسم الانسان هذه « الأنا » .. كيف يرسم نفسه وهو لا يعرفها .. ولا يعرف لها حالا مستقرا فى يوم واحد ، ولا فى دقيقة واحدة .. ولا فى لحظة واحدة .. ان كل شيء يمكن أن يحدث لهذه النفس فى كل وقت ..

بل ليس هناك ما نستطيع أن نسميه « اليوم » .. كل الأيام أمس .. وكل الأيام غدا .. لا تكاد تمسك بيومك حتى تجده أمس أو غدا ..

كيف نستطيع أن نستقر فى هذه الدنيا ؟

كيف نستطيع أن نضع لعواطفنا « معنى » محدودا والنفس التي تتأجج بهذه العواطف ، ليس لها معنى ؟!!

كيف تستطيع أن ترسم الحب ، اذا كانت النفس التي تحب ليس لها صورة ؟!

كيف تستطيع أن تعرف شعورك اذا كنت لا تعرف نفسك ؟

لا .. ليس هناك حب .. ولا كراهية ولا حقد .. ولا شهامة ولا أي معنى من هذه المعاني .. لو كان هناك حب لاكتشفنا صورته وشكله ومركباته ، ولاستطعنا أن نحقن أنفسنا به عندما نريد ، وننفضه عن نفوسنا عندما نريد .. ولكن لا .. ان كل ارادتك لا تساوى شيئا لأنك مخلوق ضعيف لا تستطيع شيئا . انك تحب رغم أنفك ، وتكره رغم أنفك ، وتحقد رغم أنفك ، وتكون شهما رغم أنفك .. لا أسباب .. ولا حيثيات .. هكذا خلقت .. وهكذا قدر عليك .. فاخضع أيها الانسان .. اخضعي يامادية فهذا نصيبك من الحياة .. هذه هي نفسك التي رزئت بها !!

دارت كل هذه الخواطر في نفسي ، والمصعد يهبط بي وأنا أبتسم في راحة واستسلام ..

الاستسلام لنفسي ..

كنت أتعجب .. ولكني لم أكن ثائرة .. ولم أكن متحسرة على نصيبي من الحياة .. كنت أترك مصطفى كأني أودعت

عنده ماضيً معه .. تخلصت من هذا الماضي .. وارتحت .. كل ما بقى لى هو ظل من مصطفى يرسب فى أعماقى .. ظل عزيز .. وسيبقى مصطفى دائما عزيزا .. انه الانسان الوحيد الذى لم أحقد عليه ، ولم يصبه شيء من شرى .. ولم يكن ضحية لى تعذبنى وتصرخ فى صدرى لتوقظ ضميرى ..

وخرجت الى الشارع ..

وتذكرت ان المشكلة لم تحل .. انى لازلت أبحث عن وسيلة أدفع بها لهذه المرأة الرخيصة قيمة الكمبيالة التى كتبها لها أبى وهو مخمور .

من أين أحصل على خمسماية جنيه دون أن أثير فضيحة.. ودون أن يدرى أبى ؟!!

وناديت سيارة أجرة ، وضعت نفسى فيها وأمرت السائق أن يحملنى الى فندق الكونتيننتال ..

كان عمى عزيز يقيم هناك منذ افترق عن أبى . ولم أكن قد رأيته منذ وقع الطلاق ومنذ مرضت .. كان يحادثنى كثيرا فى التليفون ، وكان يعدنى بأن يلقانى يوما خارج البيت .. ولكنه لم يدعنى أبدا الى لقائه .. ولم أكن ألومه .. فقد كانت طبيعة حبه لى ألا يحمل نفسه مسئوليتى .. كان يدللنى ويعطف على ويجيب كل ما أطلبه منه .. ولكنه لم يكن يتعمد أن يرانى مادام يستطيع أن يفعل شيئا آخر .. كان طيب القلب ولكنه لايضع لطيبة قلبه مظهرا معينا ، ولا تقاليد يحرص عليها ..

ودخلت فنـــدق الكونتننتال دون أن ألتفت حولى .. كنت أشعر وأنا أخترق أبهاء الفندق انى أقتحم دنيا للرجال فقــط ..

وقلت لعامل المصعد فى خجل كأنى أهرب من العيون التى تلاحقنى :

— أودة ميتين واتنين من فضلك !!

ونظر الى العامل كأنه يفحصنى .. وقال فى أدب بارد :

— حضرتك عايزة مين ؟

قلت وأنا لازلت أستحثه :

— عزيز بك لطفى !!

قال دون أن يتحرك :

— تسمحى تتفضلى فى الهول لغاية مانديله خبر !!

قلت فى حدة :

— أنا بنت أخوه .. و ..

وقاطعنى :

— والله ممنوع زيارة الستات فى أود النزلاء !!

ورفع رأسه الى السقف .. وأخذ يصفر بشفتيه نغمــا خافتا فى وقاحة .. دون أن يتحرك من وقفته ، وفكرت قليلا ، ثم فتحت حقيبتى ، وخيل الى أن العامل خفض رأســـه واحتوى كل ما فى الحقيبة فى نظرة واحدة ..

وأخرجت ورقة مالية من ذات الخمسة وعشرين قرشا ،

وكورتها فى يدى ثم دستها فى يده الملقاة الى جانبه .. وأصابعها تتحرك كأنها تبحث عن أى شىء تلتهمه ..

وعدت أقول :

— أودة ميتين واتنين من فضلك .

وقال وهو ينحنى فى أدب ويفسح لى الطريق داخل المصعد :

— حضرتك بنت أخو عزيز بيه .. اتفضلى ياأفندم .. عزيز بيه زبون قديم .. اتفضلى !!

وأشحت عنه بوجهى فى غيظ واحتقار ..

وعندما وصلنا فتح لى الباب وهو يقول فى أدب يقطر سما :

— رابع أوده على الايد اليمين ..

ونقرت على الباب دون أن أسمع ردا !!..

وأدرت الأكرة ودخلت ..

كان عمى — كعادته — لا يزال نائما والغرفة مظلمة .. رغم أن الساعة قد قاربت الواحدة بعد الظهر ..

وجلست على حافة الفراش ، وملت عليه وقبلته فى جبينه .. ثم قبلته فوق وجنته .. ثم قبلته فوق وجنته الأخرى .. ثم عدت أقبله فوق جبينه . كما كانت عادتى عندما كان يقيم معنا فى الدور العلوى من البيت الكبير فى حى الدقى . كنت قد عودته أن أوقظه بقبلاتى ..

ومد عمى ذراعــه وأحاطنى بها وهو لا يزال مغمض العينين كأنه يحلم ..

ورقدت فوق صدره وعدت أقبله من جديد ..

وفتح عينيه ..

ثم عاد وأغمضهما ، وعاد وفتحهما ثم صاح :

— نادية ..

وضحكت ، وأسلمته وجهى ينهال عليه تقبيلا ، ثم قال وهو يحتضننى فى قوة كأنه يريد أن يدخلنى فى قلبه :

— نادية .. ياحبيبتى يانادية ..

وحاولت أن أبتعد عنه وأنا أقول :

— ازيك ياأونكل .. وحشتنى ..!؟

وجذبني الي صدره وهو يقول فى حنان ضاحك :

— لــه .. لــه على الأقل ألف بوسة !!

وعاد يقبلنى ..

ثم قال :

— دى مفاجأة عجيبة .. كان متهيأ لى انى باحلم .. مش كنت تضربى تليفون قبل ما تيجى ..

قلت :

— حبيت آجى أصحيك بنفسى ..

وأبعدنى عنه وهو يضع على وجهى مزيدا من القبلات ، ثم قفز من فراشه واتجه الي النوافذ يفتحها وهو يقول :

— وازاى صحتك . .وازاى دادا حليمة وازاى الواد عبده السفرجى ..؟

ثم عاد الى وقال ولهجته أكثر جدية وحنانا :

— انتى كنت وحشـــانى يانادية .. ماتتصوريش كنتى وحشانى قد ايه .

قلت ضاحكة حتى أخفف من حدة عواطفه :

— أتاريك كنت بتسأل عنى كل يوم .. ده حتى وعدتنى انك تحدد لى « راندفوه » ولغاية دلوقت ما سألتش عنى ..

قال وهو يضحك :

— أنا أصلى متعود أتقل على الستات .. أفضل أتقل لغاية ما ييجو لحد عندى ..

قلت وأنا أفتعل الغضب :

— أنا مش ستات ..

قال :

— والبنات كمان باتقل عليهم ..

وضحكنا ..

ثم فجأة انقطعت ضحكتنا كأنها قطعت بمقص حاد .. وأدار رأسه عنى وقال فى تردد وبصوت خافت :

— وازاى أخويا أحمد ؟

وتنهدت وقلت فى حسرة :

— الحمد لله ..

والتفت الى وأمسك بكتفى وقال ، وهو ينظر فى عينى:

— فيه ايه يانادية .. أخويا عمل ايه كمان .. قوليلي..
قلت وأنا أهرب من عينيه :
—ما فيش حاجة ..
قال :
— مش ممكن .. مش ممكن مافيش حاجة . مش ممكن تيجيلي هنا في اللوكاندة ومايكونش حصل حاجة ..
قلت في انكسار :
— بابا ما عملش حاجة .. انما ..
قال في حدة :
— انما ايه .. حصل لك ايه ؟!
قلت :
— أنا ماحصليش حاجة .. انما هو حصل له حاجات كتير !
قال كأنه يقاوم عواطفه : — المهم انتي ..
قلت كأني أدافع عن أبي :
— المهم هو..أنا مش ممكن حبقىسعيدة ولا حاستريح، الا ما أشوفه سعيد ومستريح ..
قال وكأنه يتنهد :
— أنا عارف انه اتغير .. عارف انه داير زى المجنون ماحدش عارف يلمه ويحطه في مستشفى المجاذيب ..
قلت :
— بابا مش مجنون .. فيه حاجات انت مش عارفها ..

ماحدش عارفها ، انما لازم ننقذه قبل ما يخرب نفســه .. تعرف انه ابتدأ يبيع فى الأرض بتاعته ؟

قال وهو يتنهد تنهدة أخرى :

— عارف ..

قلت كأنى قدرت أن عواطفه قد لانت ليقبل مساعدتى :

— تعرف انه كتب كمبيالة لواحدة ست ومش قادر يدفعهـا ..

قال فى دهشة :

— كمبيالة لواحدة ست . مين دى ؟

قلت كأنى أهم بالبكاء :

— ما اعرفش .. واحدة جت البيت وقالتلى ان معاها كمبيالة من بابا بخمسميت جنيه ، اذا ما دفعهاش حتروح المحكمة ..

وسكت عمى ولم يتكلم ..

وعدت أقول وأنا أخرج منديلا صغيرا من حقيبتى :

— تصور يا أونكل . تصور لما بابا يقف قدام واحدة ست زى دى فى المحكمة ، تصور الفضيحة اللى تحصل ، حودى وشى فين .. وحتودى وشك فين ..

قال كأنه يحلق فى عالم بعيد .. يرى فيه أخاه وراء القضـبان :

— وجايه لى علشان الموضوع ده ؟

قلت كأنى ألومه :

— أمال كنت عايزنى أروح لمين ؟

قال فى يأس كأنه لا يستطيع أن يقاوم عواطفه :

— وعايزانى أعمل ايه ؟

قلت :

— ما أعرفش .. أنا نفسى مش عارفه أعمل ايه .. ماقدرتش أسأل حد .. مافيش حد لى أسأله الا أنت .. حتى بابا ما يعرفش انى عارفه بالحكاية دى ..

قال وهو يضرب ركبته بقبضة يده :

— يعنى عايزانى أدفع أنا الخمسميت جنيه ؟!!

قلت :

— اعمل اللى أنت عايزه ياأونكل !!

قال وهو لا يزال يضرب بقبضته :

— والله عال ، أخويا يطلق مراته أبأه أنا السبب .. يمشى مع واحدة ويكتب لها كمبيالة تقوم تيجى على دماغى برضه .. لا ياستى .. يفتح الله .. أنا خلاص اتبريت من أخويا . ما ليش دعوه بيه .. يعمل اللى هوه عايزه بس بعيد عنى ..

قلت فى ذلة وانكسار :

— انما أنا ماقدرش أتبرأ من بابا .. كل اللى حيحصل له ، حيحصل لى أنا كمان ..

ولم يرد عمى .. وقام وأخذ يروح ويجىء فى الغرفة بخطوات عصبية ..

وحاولت أن أبكى لعل بكائى يذيب ما بقى من مقاومته..
ولكنى لم أستطع .. لم أجد دموعا أبكى بها ، فاكتفيت بأن رفعت منديلى على عينى فوق وجنتين جافتين ..

وطالت فترة صمته ..

ثم سمعته يقول فى صوت محشرج كأنه ينطلق رغما عنه:

— والست دى ماتعرفيهاش .. ماتعرفيش هيه فين ؟

قلت وقد بدأت الفرحة تسرى فى قلبى :

— ادتنى نمرة تليفونها .. وقالتلى اذا ما كانتش تستلم الفلوس يوم السبت الجاى .. يوم الحد حتكون فى المحكمة..

قال وهو ينظر الى :

— طيب حطى نمرة التليفون عندك ، جنب السرير !!

قلت وأنا أخرج الورقة الصغيرة التى تحمل رقم التليفون:

— مرسى ياعمى ..

قال فى حدة وهو يستدير الى :

— بس اسمعى .. تانى مرة تأكدى انى مش ممكن حا..

وقبل أن يتم قفزت اليه وتعلقت برقبته ، وأنا أقول :

— ربنا يخليك لنا ياأونكل .. يخليك لى ويخليك لبابا..

وقال وهو يترك وجهه لى لأملاه بقبلاتى :

— ربنا يكون فى عونك يابنتى ..

ثم قبلنى وهو يقول :

— انزلى انتى بأه خلينى أدخل الحمام ..

قلت فى دلال :

— مش حاتزل الا لما تدينى « راندفوه » ..
قال مبتسما :
— بعدين ..
قلت :
— لا دلوقت .. كفاية تقل ياأونكل .. حرام عليك ..
قال ضاحكا :
— طيب ياستى .. بكره ناخد الشاى سوا فى جروبى الساعة خامسة ..
قلت وأنا أقبله :
— ألف مرسى .. أرفوار ..
وانطلقت الى الباب وقبل أن أخرج نادانى فى صوت عال .. كأنه ينادينى من آخر الدنيا :
— تعالى هنا ..
وعدت اليه فى دهشة ، قائلة :
— نعم ياأونكل ..
قال فى رقة وحب وهو يحتوينى بين ذراعيه :
— بوسينى كمان !!
وقبلته عشرات القبل ..
وخرجت ..
وكنت سعيدة .. خيل الى أن الله قد صفح عنى وانه بدأ يعيننى على حل مشاكلى .. بسهولة وبساطة ..
ولكن المشكلة الكبرى لم تحل بعد .

أبى ..

كيف أعيده هادئا حنونا وقورا كما كان ؟

كيف أنتشله من الهاوية التى تردى فيها ، ومن العذاب الذى يتقلب على ناره ؟

وسرت بين ممرات الفندق وأنا لا أدرى بما حولى .. ووضعت نفسى فى المصعد يهبط بى .. وخرجت وأنا أفكر .. وأفكر .. وخيل الى أنى أسير فى ضباب كثيف أسود باحثة عن النور ..

وعندما وصلت الى الشارع لمع فى ذهنى بريق خيل الى انه نور ..

لقد وجدت الحل للمشكلة الكبرى :

ان أبى يجب أن يتزوج !!

لم لا .. انه لم يتم بعد الثانية والأربعين من عمره .. عنفوان الرجولة .. وان لم يستطع أن يعود الى زوجته السابقة ، فليبحث عن زوجة أخرى .

أنا التى سأبحث عنها .

لقد فشلت فى اسعاده .. فشلت أن أكون ملكة على عرش بيته ، أهبه الهدوء والاستقرار والسعادة ، فلأتنازل عن العرش لأخرى ربما استطاعت أن تسعده ..

وربما ارتاح ضميرى ..

وربما عوضت أبى عن جريمتى فى حقه ..

أصبحت أنظر الى أبى وهو فى عربدته كما ينظر الطبيب الى مريضه المجنون ريثما يعد له دواء مسكنا .. أو حقنة مورفين !!

وكان الدواء الذى أعده له هو أن أزوجه ، أن أبحث له عن زوجة تعوضه عن تلك التى فقدها .. وتعيد اليه سعادته ووقاره واحساسه بالمسئولية ، وتعيده الى البيت !

وألهتنى هذه الفكرة عن عذابى برؤية أبى فى حاله .. عذابى بأكاذيبه .. وعذابى باهماله لى .. وعذابى برؤيته مخمورا دائما .. وعذابى بغيرتى عليه وخوف من الطريق المجهول الذى يسير فيه ويسحبنى اليه وراءه ..

وأصبحت أقضى يومى أستعرض النساء اللاتى أعرفهن لأنتقى من بينهن زوجة لأبى .. وكنت أتعمد أن أصل ما بينى وبين المجتمعات ليتسع أمامى مجال الاختيار ..

أصبحت كأنى طفلة فى سوق العرائس أنتقى عروسة لنفسى ألهو بها وأضعها فى فراشى بين ذراعى لعلى بعد ذلك .. أنام !

ولم يكن فى خيالى أوصاف معينة للزوجة التى أختارها لأبى ، الا شرط واحد ، هو أن تكون سمراء .. فكل النساء اللاتى رأيتهن فى حياة أبى كن سمراوات .. أمى سمراء ،

لطنط صفية سمراء .. حتى هذه المرأة الرخيصة التى كتب لها أبى كمبيالة ، كانت سمراء .. ويبدو أن النظرية التى تقول ان الرجل الأشقر يفضل المرأة السمراء ، والمرأة السمراء تفضل الرجل الأشقر .. نظرية صحيحة !!

واستعرضت عشرات السمراوات .. وكنت أتفحص كل واحدة منهن وأضعها تحت اختبارى لمدة أسابيع كأنى أم تبحث عن عروس لابنها ..

ثم أذعت بين صديقاتى ان أبى يبحث عن زوجة لنفسه.. وانتشر الخبر .. وبدأت كثيرات من السيدات يتوددن الى ويزرننى فى البيت .. ويدعيننى أنا وأبى الى بيوتهن .. وكان أبى يرفض كل هذه الدعوات ، ويرفض أن يجالس الزائرات.. كان سادرا فى حياته العربيدة ، وكان يبدو عليه أنه يحقد على كل نساء الأسر الكريمة منذ حقد على زوجته السابقة ..

ولم تحد الشائعات التى كانت تحيط بأبى ، وبحياته التى يحياها ، وبقصة طلاقه ، من طمع الأسر الكريمة فى اصطياده .. فقد كان وهو فى سن الثانية والأربعين جميلا رشيقا ، وان كان قد أصابه بعض الترهل نتيجة اسرافه فى تعاطى الخمر .. ثم انه كان غنيا .. وكان العرش الذى أقامه لطنط صفية يجعل كل فتاة تطمع فى مثله .

ورأيت العجب من نفاق الأسر الكريمة فى توددها الى والى أبى .. ولكن رغم كل هذا النفاق لم تعجبنى واحدة من كل السمراوات اللاتى رأيتهن .. هذه تخينة .. وهذه

قصيرة .. وهذه ثقيلة الدم ، وهذه متعجرفة ، وهذه عابثة ..
كل واحدة منهن كنت أجد فيها عيبا .. حتى بدأت أتهم نفسى
بأنى لا أريد أن أزوج أبى ، وإنى أتخيل هذه العيوب لأعلل بها نفسى ..

الى أن انتقلنا الى الاسكندرية فى الصيف ..

وبدأت أتعرف بأسر المصيفين وأجالسهم فى الكبائن
وتحت الشماسى باحثة بينها عن سمراء تصلح لأبى ..

كانت الفكرة تلح على الحاحا شديدا ، الحاحا تغلب
على انطوائى ، وعلى صمتى الدائم ، فأصبحت جريئة فى
مخالطة الناس كثيرة الكلام .. حتى عرفنى الشاطىء كله ..
عرفنى كفتاة مهذبة مترفعة لا تختلط الا بالأسر ولا تجالس
الا النساء .. فلم يكن لى حب ، ولم يكن لى رجل ..

الى أن قابلت صديقتى كوثر ..

انى لازلت أذكرها كما تركتها عندما كانت زميلة لى فى
مدرسة « مدام أورلى » بالمعادى .. كانت تكبرنى .. وكانت
سمراء رقيقة طيبة ، تمشى كأنها تسبح فى الفضاء ، وتتكلم
كأنها تترنم بنغم جميل وتبتسم وكأنها تشرق ، وتسدل
شعرها الأسود الطويل خلف ظهرها كأنها ملاك يحتمى بالليل
من النهار ..

وكانت أيامها تحب مدحت ، حبا راقيا عفا ، وكان يمكن
أن ينتهى حبهما الى زواج ، لولا أن تدخلت بينهما وسلطت
عليهما خططى السوداء الشريرة حتى فرقت بينهما ..

ونظرت الى كوثر كأنى أنظر الى عمر ضاع منى ..

ولكنها لم تعد ضعيفة ولا رقيقة ..

ليس فيها شيء يسبح في الهواء ..

ان كل شيء فيها قد تغير ..

ابتسامتها الجريئة تقفز فوق وجنتيها كما تقفز حبات الذرة الساخنة فوق النار الملتهبة وتتفتح « كالفشار » .. ولفتات عينيها سريعة عصبية كأنها تريد أن تجمع كل ما حولها في لفتة واحدة وتشبع منه ، وشفتاها مثيرتان وتتعمد أن تترك بينهما فرجة ضيقة حتى تكونا أكثر اثارة .. وجسدها قد نضج حتى تكاد كل قطعة منه تسقط عن عودها ..

لقد تزوجت كوثر وطلقت بعد عام من زواجها ، وعاشت من يومها مطلقة ، وقد رأيتها لأول مرة على الشاطيء جالسة في كابين يجمع بضع سيدات مطلقات ، وبضع سيدات على وشك الطلاق !!

ولا أدري لماذا تتجمع المطلقات بعضهن مع بعض دائما . ولماذا لا تقع بينهن صديقة متزوجة حتى يلحقها الطلاق !؟

يخيل الى أن المطلقات يعشن في عالم آخر غير الذي تعيش فيه الزوجات .. عالم له تقاليد خاصة ، وأخلاق خاصة ، وأحاديث خاصة .. عالم تتجمع فيه شلل المطلقات ويقضين النهار والليل بعضهن مع بعض ، وكل ما في رءوسهن اختطاف الرجال أو تدبير خطة لخراب بيت !!

وقد رأيت هذا العالم عندما التقيت بكوثر ..

كنت أمر أمام هذا « الكابين » عندما سمعتها تناديني صارخة :

— نادية .. نادية ..

والتفت اليها ورأيتها وصحت فرحة :

— كوثر .. ازيك ياكوثر ؟!

وقفزت من الكابين ، وجاءت الى واحتضنتني وهي تقول :

— نادية لطفي .. والله زمان .. لسه طويلة زي ما انتي .. أطول مني بأربع قراريط . انما انتي خسيتي قوي يانادية .. لازم اتجوزتي .. اتجوزتي مين .. مدحت ..؟!

كانت تتكلم بسرعة ومرح ، حتى لم أستطع أن ألاحقها، الى أن سكتت برهة قلت فيها :

— أبدا .. ماتجوزتش ولا حاجة !

قالت بسرعة :

— يبقى لازم بتحبي .. أنا عارفاكي من يوم ما كنا فى المدرسة وانتي غاوية حب !

قلت فى ابتسام :

— ولا باحب ..

قالت فى تخابث :

— عليّ أنا الكلام ده .. أمال خسيتي ليه ؟

قلت وأنا لا أستطيع أن أحرم نفسي من فرحتي بها :

— كنت عيانة ..

وسحبتنى من يدى ، وقالت وهى تدخل بى الى الكابين:
— تعالى أما أعرفك بصاحباتى ..
ثم التفتت الى صديقاتها قائلة فى لهجة خطابية مضحكة :
— أقدم لكم نادية لطفى .. أحلى واحدة كانت معايا فى المدرسة !
قلت كأنى أتودد لها :
— لأ .. انتى طول عمرك كنتى أحلى منى ياكوثر ..
قالت ضاحكة :
— وعلى ايه تتخانق .. انتى كنتى أحلى « بلوند » وأنا كنت أحلى « برينت » ..
وضحكنا جميعا .. وبدأت تقدمنى الى صديقاتها . وجلست بينهن وبدأنا نتحدث..وقد بدأنالحديث متحفظات ثم انطلقن فيه .. وكان الحديث كله عن الرجال ..
والتفتت واحدة منهن قائلة :
— أنا سمعت ان باباكى لطفى بيه ناوى يتجوز ..
قلت كأنى أقتلع آمالها من قلبها ..
— أبدا .. هوه ماشبعش جواز !!
وقالت أخرى :
— الحقيقة كان حظه وحش قوى فى المرتين اللى اتجوز فيهم ..
وقالت ثالثة :

— مع ان الناس كلها بتشكر فيه ، طيب .. وراجل .. وشكله وجيه ..

وقالت كوثر :

— انتم ما حلتكمش كلام الا على الرجالة .. ياللا نبتدى نقطع في فروة الستات شوية !!

وضحكن .. وبدأن فعلا يتحدثن عن النساء ..

وبعد قليل قمت واقفة مستأذنة في الانصراف ، وقامت معي كوثر قائلة :

— استنى لما آجي أمشي معاكي .. أصلى لسه ما عملتش استعراض الصباح !!

وسرنا على الشاطىء .. كانت كوثر تسير بجانبي كأنها مظاهرة تهتف بالأنوثة والجمال .. وكانت العيــون تلتف حولنا ونظرات الاعجاب تفرش الطريق تحت أقدامنا ، كنا نحن الاثنتين ، أجمل سمراء وأجمل شقراء على الشاطىء.. وأحســست بالزهو وأنا أسير بجانبها .. أحســست كأني أرتدى ثوبا جديدا رائعا يلفت الأنظار .. أحســست كأني وحدى نصف الجمال ، وكأني معها كل الجمال ..

وكانت كوثر تتحدث كثيرا .. لاتكف عن الكلام ولا عن الضحك ، ثم تقطع كلامها لتحيى أسرة جالسـة في كابين ، أو لتصافح صديقة تمر بنا ، أو تقطع الموضوع الذي تتحدث فيه ، لتقول كأنها تهمس :

— شايفه اللى فات ده .. ده ماشى مع انجى شريف ،

ولاوى يسيب مراته ويتجوزها .. هو صحيح شكله كويس انما دمه تقيل ..

كانت تعرف كل الناس وكل أخبار الناس ، كانت شعلة متوهجة تضيء بالحياة .. وقد أحسست وأنا بجانبها بهذه الحياة .. أحسست بالمرح والنشاط ، وتفتحت الدنيا أمام عيني ..

ووصلنا فى سيرنا الى شمسيتنا ولمحت أبى قد جاء وجلس تحتها يتلفت حوله فى ملل ومرارة — كما كانت عادته — كأنه يتعجل الليل حتى يخفى عذابه فى ظلامه ..

وجذبت كوثر من يدها ، وأنا أقول فى مرح :

— تعالى لما أعرفك ببابا ..

والتفت اليها أبى ، ثم قفز واقفا كأنه ينفض الملل عن كتفيه ويبتلع مرارته .. وقلت وأنا أنظر فى عينيه كأنى أحاول أن أرى فيهما صورة كوثر :

— كوثر زميلتى فى المدرسة .

ومدت له يدها فى رقة وفى دلال متزن . .ومد لها يده فى تردد كأنه يقاوم شيئا يبهره ..

وقال فى ارتباك :

— اتفضلى .. اتفضلى ياكوثر هانم ..

وهمست كوثر فى أذنى وهى تجلس قائلة :

— ده باباكى صغير قوى .. ماكنتش فاكراه كده ..

ودار بيننا حديث طويل حاول أبي خـلاله أن يحتفظ بشخصيته كأب ، أن يبدو عاقلا رزينا ناصحا .. ولكن وجهه الطيب وعيناه البريئتان كانتا تكشفان فى صراحة عن اعجابه بكوثر .. اعجابه بجمالها الأسمر ، واعجابه بالحياة النشطة المرحة التى تضج حولها . .

وقال أبى ملتفتا الى وهو يبتلع ريقه ويتلعثم فى كلامه :

— انما لازم كوثر هانم تكون صغيرة قوى ما دام كانت زميلتك فى المدرسة ..

وقالت كوثر بسرعة :

— لو كنت صغيرة قوى ، ما كنتش قلت لى : هانم .. كان زمانى كوثر بس !!

وقلت وكأنى أنفى عن صديقتى تهمة :

— وهو أنا صغيرة يابابا . ما تنساش انى حاتم تسعتاشر سنة كمان شهرين !!

وعادت كوثر تقول :

— على كل حال .. أنا معترفة بأنى أكبر من نادية .. يعنىعندى دلوقت خمسة وعشرين !!

وقال أبى مبتسما :

— مش معقول !!

وقالت كوثر فى دلال :

— طيب تلاتة وعشرين علشان خاطرك !

ورفع أبي عينيه واتجه بهما نحو السماء كأنه يفكر في عملية حسابية يحسب بها عمري وعمر كوثر .. وعمره !

وانتهزت فرصة مرور احدى صديقاتي وتعمدت أن أقوم من تحت الشمسية لأصافحها .. تعمدت أن أتركهما وحدهما .. أبي وكوثر .. وعندما عدت وجدت الحديث متصلا بينهما .. ووجدت وجه أبي زاخرا بالسعادة .. سعادة تضيء عينيه وترتسم فوق شفتيه .. وسمعته يضحك كأن قلبه يرفرف في صدره .. يضحك كما لم أسمعه ضاحكا منذ طلق طنط صفية ..

ودعوت كوثر يومها الى تناول الشاي عندي ..

ويومها تلكأ أبي في الخروج .. وظل يتلكأ حتى جاءت كوثر وكنت أرقبه في تلكئه وقلبي يبتسم ، كأني أرقب طفلا عزيزا تدعه أمه يخدعها !!

وسارت الحوادث بعد ذلك بأسرع مما قدرت لها .. أصبحت كوثر معي دائما .. وأصبح أبي معنا دائما .. وعرفت العائلتان كل منهما الأخرى .. أصبحوا يزوروننا ونزورهم.. وأصبح أبي يدعونا — كوثر وأنا — الى السينما والى الحفلات العامة ، والى الغداء والعشاء .. بدأ يعود كما كان، هادئا طيبا مستقرا ، واستطاعت ابتسامات كوثر أن تمسح عن قلبه العذاب وأن تنسيه الصدمة التي هدته ، وأن تغنيه عن التردد على الحانات ، وعلى شقته الخاصة التي استأجرها ليلتقي فيها بالنساء .. أصبح أبي كما أريده .. سعيدا هذه

السعادة الهادئة المنظمة .. سعادة يستمدها من مرح كوثر وحيويتها وشخصيتها النشطة الزاخرة بالحياة والجمال والدلال ..

وأحسست انى استرددت أبى .. عاد الى حنونا كريما كما كان قبل أن يتزوج طنط صافى ، وعندما كان يعيش لى وأعيش له .. أصبح يجلس الى طويلا ، وبدأ يحكى لى طرفا من مشاكله ، ثم اعترف لى انه أهمل الاشراف على العزبة طويلا ، بل اعترف بأنه باع منها عشرين فدانا ووعدنى بأن يعمل على استردادها ..

وكنت سعيدة ..

كنت من فرط السعادة .. لا أنام كنت أقضى ليلى قلقة على هذه السعادة .. أخاف أن تفلت من يدى مرة ثانية .. ان أفقدها .. أن أعود الى عذابى .. وكنت أعلم دائما انى لن أستطيع أن أضمن أبى الى جانبى الا اذا تزوج كوثر ..

لم يعد عندى شك فى أن أبى يحبها ، ويريدها .. حبا مترددا متحفظا كأنه لا يستطيع أن ينسى فارق السن بينهما، ولا يستطيع أن ينسى انها صديقتى وانه مسئول عنها مسئوليته عن ابنته .. ورغم ذلك كان يتقدم فى حبه بخطى ضيقة ضعيفة .. كان فى حديثه معها يلقى بتلميحات بعيدة كأنه يتكلم بلغة القرن الثامن عشر ، وكان عندما يراقصها يزدرد وجهه وتجف شفتاه ، ويحتفظ بينه وبينها بمسافة

تفصلهما كأنه يخشى ان ضمها الى صــدره أن يذوب بين ذراعيها ، أو يفقد وعيه ..

وكنت أثور عليه بيني وبين نفسي . كنت أتمناه قويا جريئا يفرض ارادته على كوثر ويخضعها لشخصيته ، كنت أريده كمصطفى ، يستطيع عندما يراقصها أن يلصقها بصدره لتحس بقوة ذراعيه وسخونة أنفاســه ، وأن يحملها فوق الأنغام الى عالم خال الا منهما .. الا من قلبــه وقلبها .. وجسده وجسدها .. يهمس في أذنها ويكوى خدها بخده ، وكنت أريده عندما يتحدث أن يبهرها بآرائه ، وأن يجعلها تفضل الاستماع على الحديث .. أن تنسى كل آرائها ، وكل كيانها ، وأن تستمد منه الحياة أكثر مما يستمدها منها ..

ولكن أبي لم يكن من هذا النوع من الرجال ..

كان من النوع المتحفظ المتردد المخلص الطيب ..

وقد تعبت من كثرة ما مهدت له الطريق ، وأعطيته من الفرص التي تجمعه بكوثر في خلوة .. بل اني جعلته يفهم اني أتعمد أن أتركهما وحدهما كلما جاءت الى زيارتي ، واني أتعمد أن أجلسها بجانبه في السيارة كلما خرجنا سويا .. واني أتعمد أن ألح الى فكرة زواجه بها ..

كنت أقول له أحيانا :

— تعرف يابابا ان كوثر معجبة بيك جدا .. امبارح شوفنا فيلم بيمثل فيه فان جونسون ، وأول ما شافته قالت عليه انه شبهك تمام ..

وكان يقول فى حياء كأنه يدارى تواضعه :

— ياشيخه حرام عليكى . فان جونسون ده لسه شاب صغير !!

فأقول كأنى أترافع :

— أبدا ولا شاب ولا حاجة .. ده أكبر منك .. عنده تسعة وأربعين سنة .. وتفتكر كلارك جابل عنده كام سنة .. عنده خمسة وخمسين ومتجوز واحدة عندها تلاتين سنة !

فيقول :

— دكه اسمه كلارك جابل ..

فأقول :

— انت أحسن منه .. وكوثر هيه كمان بتقول كده !

فيقول وهو يضحك :

— انتو الاتنين لسه صغيرين !

فأقول محتدة :

— كوثر مش صغيرة .. الست أول ما تتجوز وتطلق ما تبقاش صغيرة حتى لو عندها ستاشر سنة ، بتكبر مرة واحدة ويبقى عندها تلاتين .. عقلها بيكبر وقلبها بيكبر وروحها بتكبر .

وكان أبى يبتسم ، ثم يسكت كأنه يفكر ..

وأجن أنا غيظا لتردده ..

وكان يخيل الى أن كوثر نفسها تحاول أن تمهد له الطريق ، وتشجعه على التقرب اليها .. كان اعتناؤها بثيابها

وزينتها كلما التقينا ، لايمكن أن يكون عفوا .. وكانت دائما تشغله بنفسها عما حوله ، وتهتم به أكثر من اهتمامها بغيره .. حتى بدأت أتأكد أنها تسعى الى زواجه ..

ولم أحاول خلال هذه الفترة أن أبحث وراء تصرفات كوثر ، لم أحاول أن أبحث عنها ، كنت أعلم ان هذه الحيوية الدافقة ، وهذا القلب النشط ، وهذا الذهن اليقظ ، لايمكن أن ترمز الى حياة هادئة ، ورغم ذلك لم أحاول أن أنظر وراءها ولا أن أبحث فى أيامها .. كنت محتاجة اليها .. وكانت حاجتى اليها تغفر لها كل شيء ولم أكن محتاجة لها لأحتفظ بأبى فحسب ، بل كنت محتاجة لها للحياة التى تقلتنى اليها ، لأنها تستطيع بروحها اللاهية أن تلهينى عن عذابى .. أن تلهينى عن مرض نفسيتى .. عن شرورى .. وعن جرائمى ..

وقررت أن أحتفظ بها بأى ثمن !!

وسألتها يوما وكنا وحدنا :

— ايه رأيك فى بابا ياكوثر ؟

قالت ضاحكة :

— أبو كى ده باين عليه راجل خطر .. بيتسحب زى القط من غير ما حد يسمع رجليه ، لغاية الواحدة ما تلاقيه جوه قلبها .

وضحكت .. كنت أعلم أنها تنافقنى فان أبى أعجز من أن يتسلل كالقط ، ورغم ذلك تجاهلت نفاقها ، وقلت فى براءة :

— أبدا والله ياكوثر .. ده بابا راجل طيب خالص ، ياريته يتجوزك !!

وبهتت كوثر عندما فاجأتها بهذه الكلمة ، ولكنها لم ترفض الفكرة .. انما قالت وهى تفتعل الابتسام :

— يا اختى .. ده مش باين عليه بتاع جواز !

قلت :

— بالعكس .. ده بابا من الصنف اللى ما ينفعش الا ف الجــواز .

قالت :

— اللى يسمعك بتقولى الكلام ده ياناديه يتهيأله انك أمه وبتخطبيله ..

قلت ضاحكة :

— ما هو أنا لغاية دلوقت بنته وأمه ومراته .. عايزاكى تشيلى عنى حاجة .. عايزاكى تساعدينى فيه .. اختارى لك حاجة ، ياتبقى بنته يا أمه يا مراته !!

قالت كأنها لاتعنى ما تقول :

— أنا ما أنفعش بنته ، ولا أمه !!

قلت وأنا احتضنها بعينى كأنى أحاول اغراءها :

— تصورى ياكوثر لما نعيش احنا الاتنين مع بعض على طول .. متهيأ لى اننا مش حانشبع من بعض أبدا !!

— قالت :

— ليه .. هو انتى مش حاتتجوزى .. بكره تتجوزى وما حدش يشوفك ، ولا تسألى فى حد !!

قلت فى لهجة جدية :

— أنا مش ممكن أتجوز الا لما يتجوز بابا !!

وعادت تضحك فى دلال قائلة :

— يبقى لازم يتجوز حالا .. أحسن أنا نفسى أشوف عريسك شكله ايه !

وتكررت هذه الأحاديث بيننا .. وكنا نضفى عليها دائما طابع الهزار والمرح ، كأننا لا نعنيها ولا نعبر بها عن أمل مرتقب ..

انها تسعى الى زواجه ..

انها تريد الزواج بأبى ..

هذا لاشك فيه ..

ولكن هل تحبه ؟!!

لم أحاول أن أسأل نفسى هذا السؤال .. ربما لم تكن تحبه ، ربما تريد زواجه لغناه وللحياة الباذخة التى يستطيع أن يوفرها لها .. ربما أى شىء .. ولكن ماذا يهم ، ما دام أبى سيكون سعيدا .. ما دمت بهذا الزواج أستطيع أن أكفر عن جريمتى .. أن أعوضه عما فعلته به !!

وفى هذه الأثناء عرفت محمود ..

عرفتنى به كوثر ونحن نسير على الشاطىء . شاب فى الثلاثين من عمره .. ليس طويلا ولا قصيرا .. انما متوسط

القامة .. وليس جميلا .. ليس فيه هذا الجمال الذى يثيرك أو يدير رأسك ، انما تمر به كما تمر بعشرات الشبان غيره.. وليس أسمر ولا أشـقر ، ان لونه ضارب الى الصفرة .. كأنه مريض أو على وشك أن يقع مريضا .. وعيناه مهمومتان كأنه رفعهما توا عن كتاب معقد وراح يحاول أن يتفهـم ما قرأه .. وشفتاه رقيقتان تخفيان ما فى نفسه فلا تعرفه ان كان غاضبا ولا تعرفه ان كان فرحا ..

ويوم عرفته لم أجد نفسى أتكلف شيئا .. لم أحاول أن أطيل فى وقفتى ولم أحاول أن أختار ابتسامتى ، ولم أحاول أن أنتقى كلماتى ، كما تعودت كلما عرفت انسانا لأول مرة .. بالعكس وجدت نفسى على طبيعتى ، كأنه أخى أو أبى .. أحسست انى لست فى حاجة الى اغرائه ولا هو يحاول اغرائى .. شعرت بالاطمئنان اليه حتى اتصل الحديث بيننا مباشرة .. حديث ليس فيه تكلف ، وليس فيه غزل .. مجرد حديث كان يبدو من خلاله جادا كأن كل شيء فى الحياة مشكلة تستحق دراسة عميقة وبحثا علميا .. حتى لون ثوبى!!

واتصلت بيننا الأحاديث ..

كنت ألاقيه دائما بصحبة كوثر فى الكبائن وتحت شماسى الأصدقاء ، ثم أصبحت ألاقيه وحدى كلما تعمدت أن أترك كوثر لأبى ..

ومرت أسابيع قبل أن أعرف مكانه فى قلبى .. أسابيع عرفت خلالها أمه وشقيقته .. وقضيناها نتحدث عن آماله

آمالي .. وعرفت خلالها انه معيد في كلية العلوم بجامعة القاهرة ، وانه مرشح لبعثة دراسية قصيرة لمدة عام .. وكان يحدثني كثيرا عن الجامعة وعن البعثة التي سيذهب فيها ..

ولم يكن في حديثه أبدا ذكر لمغامرات نسائية ، ولا تلميح لعاطفة تتجاوب في صدره ..

أبدا .. انما كنا نتحدث عن باريس — مثلا — فيستطرد في الحديث كأنه قرأ عن باريس ألف كتاب .. وكنا نتحدث عن الثياب .. فيستطرد كأنه عاش حياته في « آتيليه » جاك فات ، أو كريستيان ديور .. كانت كل أحاديثه معلومات قرأها في الكتب ، أو ملاحظات استوعبها من الحياة بعقل واع ونظر ثاقب .. وكنت أحس وأنا أستمع اليه اني أكبر.. عقلي يكبر .. ووجداني يكبر والعالم من حولي يكبر .. كل شيء يكبر ويتسع ، وكلما كبر واتسع اكتشفت مزيدا من الجمال .. جمال يبهرني حتى أنسى فيه نفسي .. أنسى الماضي .. وأنسى الحاضر .. ولا أرى الا المستقبل ، مستقبلا سعيدا هادئا ، فيه حب وطيبة وسلام ..

الى أن قال لي يوما خلال الحديث :

— تفتكري الراجل اللي يقدر يسعدك ويحقق آمالك ، تكون أوصافه ايه .. من أي نوع ؟

وفكرت كأني أستعرض في مخيلتي جميع الرجال الذين رأيتهم وجميع الشخصيات التي عرفتها .. حتى شخصيات القصص والأفلام السينمائية .. ثم لم أجد الا هو .. محمود..

وكأنى اكتشفت حقيقة كنت أحاول أن أنكرها .. نورا كنت أحاول ان أداريه وأن أغمض عينى عنه .. حلما كنت أحتفظ به فى أعماقى وأقاوم حتى لا يرتسم على قلبى وعقلى ..

محمود الطيب الهادىء الرزين الفاهم .. وأمه التى تذوب رقة وحنانا ، وتكاد يد الله ترسم حول وجهها الصبيح الخالى من الأصباغ هالة من نور .. وأخته التى تصغرنى .. الحلوة المهذبة كأنها ملاك كريم يطوف على الشاطىء ليهدى الناس الى الفضيلة ، والى جمال الروح والى الخفر والعفة ..

أى رجل آخر غير محمود يستطيع أن يوفر لى السعادة والهناء .. أن يفهمنى بعقله ، وأن يحتملنى بهدوئه وأن ينقذنى بوعيه من تفسيتى التى تعذبنى لأكفر عن جرمى ..

وقلت أرد عليه وأنا أدير عينى عنه كأنى أخاف أن يفهمنى :

— الراجل اللى يعجبنى .. لازم تكون له شخصية .. يكون عقله كبير .. راجل أحس قدامه انى لسه تلميذه ، وانه دايما أستاذ .. ما يهمنيش يكون جميل .. ولا غنى .. انما يهمنى انه يكون له شخصية .. يكون متعلم ، ومخلص وقلبه على ..

وسكت ، وأدار هو الآخر عينيه عنى كأنه فهمنى .. فهم ما أعنيه ، ثم قال بعد قليل :

— تعرفى ان ذوق البنات فى الرجاله تطور تطور كبير جدا .. كانوا البنات الأول يحبوا الراجل القوى .. الراجل

اللى عنده عضلات ويقدر يموت خصمه بضربة واحدة .. وبعدين بقوا البنات يحبوا الراجل الجميل .. القوة بقت قوة الجمال .. جمال الشكل .. وبعديها بقوا دلوقت يحبوا الراجل اللى عنده عقل .. المفكر المتعلم .. بقى الجمال جمال الفكرة مش جمال الشكل .. والعالم كله تطور نفس التطور ده ..

قلت كأنى تلميذة صغيرة تتلقى درسا من أستاذها :

— ده صحيح انما مش كل الرجاله اليومين دول عندهم شخصية .. لسه معظمهم بيهتموا بعضلاتهم وبجمال شكلهم..

قال وهو يضحك :

— أصل احنا دلوقت فى فترة انتقال !!

وعندما افترقنا يومها ، أحسست وهو يصافحنى بيده تضغط على يدى ..

وودت لو أعطيته يدى الى الأبد ..



هل الحياة تتسع لأكثر من حب واحد ؟
انى أحب محمود ..
وقد كنت منذ عام واحد أحب مصطفى !

فهل قلبى صادق فى حب محمود .. وهل كان صادقا فى حب مصطفى أم هل يضللنى الحب . وقلبى يخدعنى ويكذب على ؟!

لست أدرى !

ولكنى أستطيع اليوم أن أقسم على حب محمود ، كما كنت منذ عام أقسم على حب مصطفى .. رغم الاختلاف الكبير بين حبى لكل منهما .. الاختلاف فى نوع الحب ، وفى مظاهره ، وفى الخيال الذى يثيره ..

كان حبى لمحمود حبا هادئا ، صافيا ، شفافا .. يسرى فى قلبى وأعصابى كالغدير العذب ، ليست فيه أمواج ولا تخطر عليه عواصف .. ولم يكن هذا الحب يثيرنى انما كان يرقد فى قلبى كالملاك البرىء ، ولم يكن ينطلق فى جسدى كالصواريخ ، انما كان يملأ صدرى كنسيم الصباح .. حتى عندما كنت أتخيله يقبلنى ، وأكاد أحس بشفتيه فوق شفتى ، لم يكن هذا الخيال يطلق فى رغبة جامحة أو يدفعنى الى مغامرة كمغامراتى مع مصطفى ، انما كنت أحس بشفتيه

كأنهما لمسة حب يفرح بها قلبي ويبتسم لها جسدى .. فى هدوء ووقار !؟

لم أكن أتخيل محمود أبدا فى مغامرة عنيفة .. انما كنت دائما أتخيله بجانبى كزوج .. وأتخيله جالسا يقرأ وأنا بجانبه أطرز أو أشتغل « تريكو » .. وأتخيله عائدا من الجامعة وأنا أستقبله عند الباب ، وأحمل عنه حقيبته التى يضع فيها مذكراته الدراسية ، ثم أقبله فوق وجنتيه ، وأقوده من يده الى غرفة الطعام .. وأتخيله يسير بجانبى فى شارع قصر النيل ندخل سويا الحوانيت .. وأتخيله أبا لأولادى ..

كنت أفكر فيه كزوج ..

كانت كل آمالى أن أتزوجه ..

الرجل الأول الذى أردته زوجا ..

ولم يكن محمود قد فاتحنى فى الزواج ، ورغم ذلك فقد كان الزواج بيننا فكرة تجمعنا .. فكرة يجب أن تتحقق .. بل خيل الى أن زواجنا أصبح أملا لأمه وأخته .. كنت أستطيع أن أرى فى عيونهما وفى لحاتهما أن هناك مشروعا يعد لنا ..

هل يتحقق هذا المشروع ؟!

هل يرضى عنى الله ويعفينى من انتقامه الذى أخافه ؟

ان الله غفور رحيم .. لعله يرحمنى ويغفر لى !

وكنت فى اقبالى على محمود ، قد تركت كوثر لأبى بعد أن تحققت انها تسعى الى الزواج به .. وكان كل شىء يسير

كما أريد ، وكما أتمنى .. وكأن الله قد وضع القدر بين يدى أصنع به ما أشاء .

الى أن عدنا من المصيف ..

ولم ينقض يومان على عودتنا حتى دخل أبى الى غرفتى فى الصباح الباكر وأيقظنى من نومى بقبلاته ، ثم جلس على حافة الفراش ، وقال فى تردد يمزق ابتسامته :

— انتى بقيتى أكسل منى .. ايه النوم ده كله !!

وفتحت عينى ، وأنا أسأله :

— الساعة كام ؟

قال كأنه يغالى :

— الساعة بقيت تمانية ونص !

قلت وأنا أقبله :

— أصلك لسه ما عودتنيش على انك تصحى بدرى ..

وسكت والدى ..

وبدأ يعبث بأصابعه فى غطاء السرير كأنه يبحث تحته عن كلام يقوله ثم قال كأنه اتخذ قرارا بالتأجيل :

— قومى اغسلى وشك ياناديه .. علشان نقعد نتكلم شويه !!

قلت وأنا أبحث بعينى فى وجهه :

— طيب ما نتكلم دلوقت ..

قال وهو يهم بالوقوف :

— لا .. بعد ما تغسلى وشك .. أصله كلام مهم !

قلت :

— أنا كل الكلام المهم متعودة اسمعه وانا ف السرير .. والنبى عايز تقول ايه يابابا ؟

قال :

— بعدين .. بعد ما تغسلى وشك !

قلت وأنا أمسك بيده حتى لا يقوم :

— لا دلوقت .. وحياتى عندك .. ما تشغلتيش !

قال وقد زاد ارتباكه ، واحمر وجهه وخيل الى أن قطرات من العرق كندى الصبح بدأت تنبثق فوق جبهته :

— لأ ما فيش حاجة .. أصل انتى عارفه ان عيشتنا لوحدنا برضه عيشة ناقصة .. طول النهار والليل وأنا خايف عليكي .. مش عارف أعمل لك ايه .. مش عارف ..

وقاطعته فرحة مهللة :

— عارفه ..

قال فى دهشة :

— عارفه ايه ؟!

قلت وأنا ألقى بنفسى فوق صدره :

— حتتجوز ..

قال وقد استبدت به الدهشة :

— ايه عرفك ؟!

قلت ضاحكة :

— وتحب أقول لك حتتجوز مين كمان .. كوثر !!

وفغر فاه كأنه روع بذكائى .. وقال :

— لازم حد قال لك !

قلت وأنا أحتضنه وأضغطه الى صدرى :

— أبدا وحياتك .. انما ماتنســاش انى بقيت كبيرة وبافهم .. وبقالى تلات أشهر وأنا مستنية اليوم ده .. يوم ما تيجى تقول لى انك حتتجوز كوثر ..

قال وكأنه يعتذر :

— أنا ما كنتش ناوى أفكر فى الجواز الا لما تتجوزى انتى و ..

قلت أقاطعه :

— وأنا ماكنتش ناوية أتجوز الا لما تتجوز أنت .. انما خلاص .. ما دام انت اتجوزت ، حابتدى أفكر فى الجواز من بكره ..

وقمت من الفراش فى مرح وجريت الى التليفون واتصلت بكوثر ، وصحت فيها :

— اخص عليكى ياخاينة .. تعملى العملة من غــير ما تقوليلى !

أقسمت لى كوثر ان أبى لم يفاتحها فى الزواج الا أمس، وانه لم يتقدم لخطبتها رسميا بعد ..

وتمت الاجراءات بعــد ذلك بسرعة .. وكانت كوثر وعائلتها يختصرون من هذه الاجراءات بشكل ظاهر ، كأنهم يخافون أن يعدل أبى عن رأيه ..

وذهبت مع أبي واشترينا « دبل » الخطوبة .. وذهبت معه واشترينا « الشبكة » بعد أن اتفقت عليها مع كوثر .. ثم أخذت أذهب مع كوثر كل يوم لنطوف بمحال الأزياء ، ومحال الأثاث .. و .. و ..

كنت أشعر ان نصف آمالي قد تحققت .. كنت سعيدة، وكان أبي سعيدا ، كريما ، لم يبخل بشيء على كوثر ، بل ربما تمادى في كرمه الى حد خيل الى أنه عاد يبيع من أطيانه، أو أنه اقترض عليها مبلغا جسيما من المال ..

وتم الاتفاق على أن يعقد القران بسرعة ، وقبل مضي أربعة أسابيع على اعلان الخطبة ، واتفقوا على أن تنتقل كوثر الى بيتنا ، فلا نبحث عن بيت جديد الا بعد الزفاف .. وأن لا نغير من الأثاث الا غرفة النوم ، وأن يقتصر الحفل على تقديم الشاي ، وألا يدعى الا عدد قليل من المدعوين من بين أفراد الأسرتين .. وكان أبي يريد أن يصحب كوثر الى أوروبا لقضاء شهر العسل ، ولكن كوثر رفضت بحجة توفير النفقات ، وألح أبي عليها كثيرا ولكن كوثر أصرت على الرفض ، وقالت بدلالها وخفتها :

— ياسيدى هو العسل اللى فى أوروبا مش زى العسل اللى هنا .

قال أبي وكأنه يتهالك عليها :

— بس أنا عايز أفسحك ياكوثر .. نبعد شوية عن مصر ودوشة مصر ..

قالت ضاحكة :

— من هنـا ورايح مش حاتسمع دوشـة فى مصر الا دوشتى .. ودوشتى حاتخدها معاك أوروبا .. يبقى أحسن نوفر المصاريف علشان البيت الجديد ..

قال وهو لا يزال يلح فى تهالك :

— ياستى مالكيش دعوة بالمصاريف .. نسافر ، وبرضه البيت الجديد يتعمل زى ما انتى عايزة ، وأكثر شويه !

وقالت كوثر وهى لا تزال تتدلل :

— ما دام عايز تصرف فلوس والسلام .. يبقى بدال ما نسافر هاتلى البروش اللى شفته أنا ونادية عند الياكيم .. أحسن ما نصرف الفلوس فى شهر ، نصرفهم فى حاجة تفضل معانا طول العمر ..

ولا أدرى لماذا وجدت نفسى أقف بجانب كوثر وأدافع عن رأيها .. لم أفكر ساعتها فيما يمكن أن يدفعها الى الغاء رحلة شهر العسل .. ولم أسائل نفسى كيف ترفض عروس شابة أن تسافر مع زوجها الذى تحبه الى أوروبا !؟

لم أفكر فى شىء من هذا ، انما انطلقت فى حماس :

— صحيح يابابا .. كوثر لها حق .. أنا كمان ما أقدرش انك تسيبنى شهر بحاله .. وأنا اتفقت مع كوثر ان لها فيك النص ، وأنا ليه النص التانى .. ومش عايزه النص بتاعى يسافر !!

وألغيت رحلة شهر العسل ..

واشترى أبى « البروش » لكوثر ..

وأقيم الحفل الصغير .. وبدت كوثر فى الثوب الأبيض والطرحة القصيرة كملاك جميل لفحته الشمس وهو فى طريقه الى الأرض .. فاسمر لونه !

وكنت قد صممت على دعوة محمود وعائلته الى الحفل بحجة ان شقيقته من أعز أصدقائى .. وربما كانت كوثر تعلم ما بينى وبين محمود ، فلم تمانع فى دعوته .. وقد جاء مع شقيقته واعتذرت والدته بمرضها ..

وكنت فرحة به ..

كنت أتخيل نفسى فى ثوب كوثر .. ثوب العروس ..

وكنت أتخيله فى مكان أبى .. مكان العريس ..

وهمس محمود فى أذنى ونحن نتناول الشاى وصوت زغرودة ضعيفة تطلقها من بعيد احدى الخادمات ، ولا يصل الينا منها الا صداها :

ـــ أنا لازم أشوفك النهارده .. أشوفك لوحدك !

واستجبت لدعوته بلا تفكير .. واتفقت معه على أن يوصل شقيقته الى البيت بعد انتهاء الحفل .. ويعود ليجدنى فى انتظاره أمام البيت ..

وانتهى الحفل فى الساعة الثامنة مساء ..

وذهب أبى وعروسه الى فندق مينا هاوس ليقضيا هناك ثلاثة أيام .. وبقيت فى البيت وحدى مع دادا حليمة .

وفى الساعة التاسعة كنت فى انتظار محمود أمام باب العمارة .. لم أكن أحس بأنى مقدمة على مغامرة ، ولم يثر الليل فى نفسى شيئا أتهيبه أو شيئا يثيرنى .. كانت ثقتى بمحمود أقوى من الليل . وكان كل ما أنتظره هو أن يخطبنى محمود الى نفسه فى هذه الليلة بالذات ، وكل ما كنت أحس به رعشة خفيفة فى قلبى كأنه طير صغير يستيقظ على نور الصباح وينفض عن ريشه ندى ..

وجاء محمود فى سيارته ، وقفزت الى جانبه .. والتفت الى وابتسم .. ثم قاد سيارته دون أن يتكلم ..

واشتدت رعشة قلبى . كأن ندى الفجر أثقل من أن تنفضه رعشة خفيفة .. أحسست أن الموقف أخطر مما قدرته..

وطال صمت محمود ..

وحاولت أن أقطع صمته .. أن أحدثه عن الحفل وما جرى فيه ، وما قيل عنه .. ولكن محمود كان يستمع ولا يتكلم وربما لم يكن يستمع أيضا !!

واتجهنا من طريق الهرم ، وانحرف فى طريق النازلة .. ثم وقف تحت شجرة ضخمة فى شارع هادىء .. نفس الشارع ونفس الشجرة التى أوقف مصطفى سيارته عندها عندما التقينا لأول مرة ..

وتشاءمت ..

خفت أن يكون محمود كمصطفى ..

والتفت الى محمود ، ثم عاد ونظر أمامه ، وقال فى صوت عميق :

— أنا مسافر يانادية ..

وكأنه صفعنى .. وقلت ملتاعة :

— مسافر !!

قال وهو لا يزال ينظر أمامه :

— مسافر بعد بكره .. كنت فاكر ان اجراءات البعثة حاتاخد أكتر من كده .. وكنت ناوى أكلمك فى حاجات كتير .. انما جانى أمر لازم أسافر بعد يومين !!

وسكتنا نحن الاثنين ..

ثم عدت أقول وكأن كلامى بكاء ، وكأن صوتى شلال من الدموع :

— وحاتغيب كتير ؟!!

قال وهو لا يزال ينظر أمامه :

— مدة البعثة سنة .. انما أنا حارجع بعد ست أشهر ..

ثم التفت الى وفى عينيه توسل واعتذار :

— كل اللى أقدر أقوله يانادية دلوقت .. انى أتمنى انك تستنينى ..

ولم أتكلم .. انما تعلقت عيناى بعينيه فى صمت حزين..

واقترب منى ، وأحسست بأنفاسه هادئة دافئة تطوف بوجهى كأنها أجنحة فراشات ترقص فى الهواء ..

— حاتستنينى يانادية ؟

ولم أجب .. انما وجدت رأسي يسقط على كتفه ، ووجهي يختبيء في صدره ، ويدى تتشبثان بحافة سترته كأني لا أريده أن يذهب ..

وارتفعت ذراعه ثم هبطت في رفق على كتفي .. وضمني اليه ، كأنه يسمعني دقات قلبه ..

ثم رفع رأسي اليه بيده الأخرى .. وعاد يطوف بعينيه فوق وجهي كأنه يراني لأول مرة .. وأغمضت عيني حتى لا أرى شفتيه .. حتى أقاوم نفسي فلا أقبله قبل أن يقبلني !!

وجاءت شفتاه ..

رقيقة حانية كأنها تحمل رسالة الله وتودعها شفتي ..

ولم أستطع أن أفتح عينيّ .. خيل الى أني أريد أن أنام بين شفتيه ملتفة بأنفاسه .. أنام بعد العمر الطويل الذى قضيته .. لا أنام !!

كم مضينا في قبلات ؟

لست أدرى .. فلم أرفع رأسي عن كتفه ، الا لأضع نفسي بين شفتيه .. وربما تكلم .. ربما قال لي شيئا .. ولكني لم أسمعه .. ولم أرد بشيء .. كان خيالي كله في البيت الذى يضمنا .. في ثوب العروس .. في حياة هادئة مستقرة .. لم أكن أدرى بما حولي .. لم أحس بأني في سيارة تقف تحت شجرة في شارع هاديء من شوارع النازلية .. كان يخيل الى أني في بيت .. بيتي .. وأن محمود زوجي .. وهذه السيارة



... وارتفعت ذراعه ثم هبطت فى رفق على كتفى . . وضمنى إليه ...

فراشنا .. وكان يستطيع أن يأخذ كل شيء .. وكنت سأعطيه كل شيء .. انه زوجي !!

وحملني حبه وحنانه الى عالم بعيد جميل .. هادىء .. لم أعد منه الا وهو يرفع ذراعه عن كتفي ، كأنه يتخلى عنى ويتركني أسقط في الفضاء الواسع .. والهواء الرطيب يملأ ثيابي .. ثم مد يده وأدار مفتاح السيارة ، وهو يقول :

— ياه .. الساعة بقت حداشر !

وأحببته أكثر في هذه اللحظة ..

أحببته وهو يصونني من نفسي ومن نفسه .. أحببته وهو يعوضني عن ضعفي بقوته .. ويكمل ارادتي بارادته .. ويحد خيالي المنطلق بحقيقته القوية الرائعة ..

وقلت له وأنا أنزل من السيارة عند باب البيت .. قلت كأني أقسم : — حاستناك يا محمود !!

عدت كأني أطير .. ورقدت في فراشي كأني أحتضن السعادة .. وخيل الى أني سأنام .. ولكني لم أنم .. بدأت قطع صغيرة من السحاب الأسود تزحف على خيالي وتنتشر في سماء سعادتي .. بدأت أقول لنفسي : « لماذا لا يتقدم محمود لخطبتي الآن .. قبل أن يسافر ؟ لماذا لا يتزوجني ويأخذني معه ؟ انه سيغيب ستة شهور .. ما أدراني ما يمكن أن يحدث لي وله خلال هذه الشهور ؟ ربما التقى هناك بواحدة أخرى ؟ ربما عدل عن رأيه ونسي حبه ؟ وربما ... ».

وبدأ ذكائي يتحرك .. الذكاء الشرير .. خيل الى أني

فى حاجة الى خطة لأمنع بها محمود من السفر .. محمود زوجى .. وأحسست بقوى دافقة من الحقد والكراهية تنبثق فى صدرى .. كرهت لندن التى يسافر لها محمود ، حتى تمنيت أن تعود الحرب وتدكها قنابل الألمان .. وكرهت الانجليز .. وكرهت الحكومة التى أرسلت محمود فى بعثة .. لماذا يأخذون منى حبيبى .. وخطيبى .. وزوجى ؟!

وخيل الى انى سأهب من فراشى وأذهب الى محمود وأصرخ فيه حتى لا يتركنى .. خيل الى أن أذهب الى رئيس الحكومة وأتوسل اليه أن يترك حبيبى .. خيل الى أن أجمع ثيابى وألحق بمحمود فى لندن وأسلمه نفسى هناك..كزوجة!!

وقلت فى نفسى فى خلال زوابع الثورة : « لماذا وعدته بأن أنتظره .. لماذا لم أسلط عليه انوثتى ، حتى أفقده مقاومته .. وأفقده عقله .. فيتزوجنى قبل أن يسافر .. لماذا لم أدع — كما تدعى كل البنات — بأن هناك آخر تقدم لخطبتى وأخشى أن يقبله أبى ؟ لماذا لم أستعمل ذكائى ؟ انى أعلم انى قررت بينى وبين نفسى أن أكون خيرة ، أن أقاوم ذكائى الذى يدفع بى الى جرائم تعذبنى . ولكن ما دخل الخير فى الذكاء .. وهل يشترط فى كل فتاة طيبة أن تكون غبية ؟ ثم انى محتاجة لذكائى لأحقق سعادتى .. هدفا شريفا هو الزواج من حبيبى .. فلماذا لم أستعمله .. لماذا لم ألجأ اليه .. لماذا يتخلى عنى ذكائى كلما احتجت اليه ، ويسعفنى كلما أردت شرا بالناس ؟؟ »

كنت أقول لنفسي هذا الكلام ، ثم أعود وأقول لنفسي : « لا .. لا يمكن أن يدوم زواج يقوم على خدعة .. يجب أن أثق بمحمود .. انه أقوى من الشك .. انه ليس أي رجل .. وليس أي زوج .. انه حبيبي » !

ولم أخف من ذكائي قدر ما خفته هذه الليلة ..

كنت أهز رأسي فوق الوسادة في حركات متتالية عنيفة ، كأني أطرد منها ذكائي ، وأطرد منها كل خطة يوحي بها الى هذا الذكاء الشرير .. وكنت أتشبث بغطاء السرير وأقبض عليه بعنف كأن أصابعي تشنجت فوقه ، كأني أقاوم قوة جبارة تحاول أن تدفعني الى طريق لا أريده ، وكنت أعض بأسناني على شفتي حتى خيل الى أني أدميتهما ، كأني أكتم صرخة شيطان تكاد تنطلق من بينهما ..

كنت أقاوم حتى لا أتدخل في قدري ..

كنت أريد أن أترك كل شيء لله .. يفعل بي ما يشاء ..

ولم أنم ..

قضيت الليل لا استطيع أن أغمض عيني ولا أن أفتحهما .. أخاف أن أغمضهما فيدهمني الشر في أحلامي ، وأخاف أن أفتحهما فأرى الشر في رأسي ..

ولم أكن أخاف الا على محمود ..

وقمت في الصباح على جرس التليفون .. وكان محمود يواعدني على اللقاء في الساعة السادسة مساء .. وقلت :

— حاضر ..

قلتها فى ضعف وخفوت .. كأنى أخاف ان اطلقت نفسى أن يصيبه منها أذى ..

وقضيت اليوم مع « دادا حليمه » .. ولأول مرة وجدت أنى لا أستطيع ان أكف عن ذكره حتى فى احاديثى مع دادا حليمه ..

ولكن دادا حليمه كانت بعيدة عنى وعن عواطفى .. فلم تفهم ما ألمح اليه .. ولم تلحظ محمود فى الحفل حتى تشاركنى فى اهتمامى به .. ان محمـــود صنف من الرجال لا تلحظه ولا تهتم به الا اذا عرفته ..

وكان حديث دادا حليمه كله عن الحفل .. وكانت تتعمد أن تعرج فى حديثها عن كوثر .. وخيل الى أنها تتحدث عنها بفتور يوحى بأنها لا تستريح لهـــا ، ولا تحبها ، وليست فرحة بها ..

وقالت وهى تتنهد وتريح رأسها فوق راحة كفها :

— الحقيقة سيدى البيه مش حيلاقى زى صفيه .. ماحدش حيقدر يملا مطرحها أبدا !

ووجدتنى أصرخ فيها كأنى أهم بصفعها :

— السيرة دى خلصنا منها .. احنا حنفضل نعدد طول عمرنا . ستك كوثر صاحبتى وأنا عارفاها .. اذا ماكنتش زى صفية تبقى أحسن منها .

وسكتت حليمه على مضض ..

وأمسكت أعصابى ، وقلت فى هدوء مفتعل :

— روحى شوف الطباخ حيعمل ايه النهارده ..

وقامت دادا حليمه تجرجر أقدامها كأنها تسير فى جنازة ميت ! ولم أهدأ الا بعد فترة طويلة ..

ومنذ الساعة الرابعة بدأت استعد للقاء محمود ..

وعندما أصبحت الساعة السادسة الا خمسا ، ألقيت نظرة اخيرة الى المرآة ، وخيل الى أنى لم أكن جميلة أبدا قدر ما أنا جميلة اليوم ..

ونزلت ..

ورأيت الحب بين عينى محمود وهو يفتح لى باب السيارة ..

وحملنى الى مينا هاوس .. ولم تجلس هناك .. انما عاد يحملنى الى مصر الجديدة .. وكنا نتحدث .. تحدثنا عن كل شىء ولكنه لم يحاول أن يتحدث عن الزواج ..

الى أن قلت وأنا أدير رأسى وأطل من خلال نافذة السيارة :

— أنا متهيأ لى زى ما تكون مسافر فى ميدان الحرب وأنا باودعك ..

قال فى هدوء :

— حرام عليكى .. حرب ايه .. ما فيش فى سفرى حرب الا مع نفسى .. باحارب نفسى علشان أقدر أسيبك وأسافر..

قلت وأنا لا زلت أنظر خلال الطريق :

— أنا قريت قصص كتير عن الحرب .. كان العسكرى ياخد أجازة أربعة وعشرين ساعة علشان يتجوز البنت اللى بيحبها ، ويرجع يحارب تانى ..

قال كأنه يشرح نظرية فلسفية لاتحتمل الشك :

— كانت كلها قصص مآسى .. كان الجواز اللى من النوع ده جواز من غير عقل .. جواز كله أنانية .. قبل ما أموت الحق آخد لى حاجة .. وكان العسكرى يرجع يحارب ويموت ، ويسيب وراه أرملة كان يقدر يعفيها من الترمل ، ويسيب يتيم كان يقدر يستغنى عنه ويعفيه عن عذابه يتمه . طفل مسكين يتولد بعد ما أبوه يموت .. ذنبه ايه .. ذنبه ايه غير ان أبوه ما قدرش يستنى لغاية حياته ما تستقر .. انما أبوه كان راجل أنانى ، نسى ابنه اللى حيتولد فى الليلة القصيرة اللى حيقضيها مع حبيبته !

قلت كأنى أدافع عن كل الجنود المحاربين :

— انما ما كانوش كلهم بيموتوا .. كانوا بيرجعوا ويعيشوا فى التبات والنبات ..

قال مستطردا وكأنى لم أقاطعه :

— اللى ما بيموتش بيتغير .. واللى ما يتغيرش بيرجع يلاقى فى مراته حاجات ماكانش عارفها من الأول .. يكتشف فيها نواحى ما قدرش يشوفها وهو مستعجل قبل ما يرجع الميدان ، وهو خاضع لعواطفه وناسى عقله ..

قلت وأنا لازلت أدافع عن رأيى :

— انما ساعات الظروف هيه اللى تتغير .. ظروف البنت اللى يسيبها حبيبها من غير جواز ويسافر .. أنا فاكره فى رواية « جسر واترلو » الراجل اللى سافر يحارب ، وساب حبيبته لوحدها تقاوم الظروف اللى حواليها لغاية ما تعبت وسقطت ضحية الظروف .. ولما رجع من الحرب .. كان خلاص .. ماكنش ممكن يتجوزها .. انما لو كان اتجوزها قبل ما يسافر كان الجواز حماها من الظروف الوحشة اللى اتلمت فوق دماغها .. وكان رجع لقاها مستنياه .

قال :

— أنا باعتقد ان الفترة دى .. الفترة اللى يسافر فيها الراجل ويسيب البنت بتاعته ، تعتبر فترة اختبار .. على أد ما هم الاتنين يقدروا يقاوموا ، ويقدروا يستنوا ، ويقدروا يحتفظوا بعواطفهم يكون الجواز أمتن ويتمتموا بيه آكتر ..

قلت :

— انما فيه حاجات الواحدة ما تقدرش تحسب حسابها، مثـلا ..

قال يقاطعنى فى حدة :

— الجواز مش قصة ياناديه .. مش رواية .. الجواز حاجة كبيرة قوى ياناديه .. الجواز يعنى العمر كله ، يعنى استقرار .. ومش ممكن الواحد يتجوز الا لما يستقر ..

قلت :

— ليه .. ما يمكن واحد متشرد يتجوز واحـــدة ، ويتشردوا هم الاتنين سوا .. مش أحسن ما يتشرد لوحده ؟

قال فى اختصار :

— والولاد ؟!

وسكت برهة ، ثم قلت كأنى اقتنعت :

— لك حق ..

وضحكت ضحكة خافتة ، كأنى أحاول بها أن أزداد اقتناعا برأيه ، واستطردت أقول :

— الحمد لله انك مش رايح تحارب ، والا كنت خفت عليك تتغير !!

وابتسم ابتسامة كبيرة ، ومد ذراعه وجذبنى اليـــه ، وأراح رأسى على صدره ، وهو يقود السيارة بيده الأخرى .

* * *

وسافر محمود فى الفجر .. بعد أن وقع بامضائه فوق قلبى ، وفوق خيالي ، وبين شفتى .. وتركنى فى مخزن أمانات القـــدر ..

ولم نفترق على وعد محدد الا أن يكتب لى ، وأكتب له ..

وكان آخر ما قاله لى وهو يسحب شفتيه من بين شفتى:

— استنينى يا نادية ..

وآخر ما قلته له ودمعته حائرة بين رموش عينى :

— حاستناك يا محمود ..

وعشت بعدها وأنا أعتبر نفسي مخطوبة له ..

وكنت خائفة على هذا الأمل .. كنت حريصة فى كل خطوة أخطوها ، وفى كل فكرة تخطر على بالى ، وفى كل كلمة أقولها .. كنت كمن يسير على قشر البيض وأخشى أن أفتته تحت أقدامى .. كنت أخاف أن أفسد شيئا مما حولى فلا يتحقق لى أملى ..



انى أذكر اليوم حادثا صغيرا مر بى ، ولم ألق اليه بالا ..

كان ذلك خلال الحفل الذى أقيم احتفالا بزواج أبى وكوثر .. فقد دق جرس التليفون ، ورفعت السماعة وقلت « آلو » عدة مرات ، فلم يرد أحد ، وانما سمعت «تكتكة» السماعة وهى تلقى فى وجهى .. وبعد قليل دق التليفون مرة ثانية ورفعت السماعة فلم يرد أحد أيضا .. ثم دق التليفون مرة ثالثة ، ورأيت كوثر وهى فى ثوب العرس تهرع الى التليفون وتسبق يدى الى السماعة ثم تتكلم بصوت خفيض، فترة قصيرة ، ثم تضع السماعة وتعود الى المدعوين ، وتقف بجوار أبى وبين شفتيها ابتسامتها الحلوة الواسعة المليئة بالنشاط والحياة ، دون أن تذكر شيئا عن المتحدث فى التليفون !!

لم ألق بالا الى هذا الحادث فى يومه ، فقد كنت سعيدة، وكنت صافية القلب والعقل ، فرحة بزواج أبى ، وفرحة بوجود محمود بجانبى .. فلم أكن على استعداد لأن أسيء الظن بأحد ، ولم أكن أستطيع — على الأخص — أن أسيء الظن بعروس فى حفل زفافها !

ومرت أسابيع وأنا لا ألقى بالا الى شيء ..

كان تفكيرى فى محمود يشغل كيانى كله ، وكنت أحس

به فى كل ثانية تمر بى .. كنت أحيانا أخلد الى نفسى فأحادثه، وأعاتبه ، وأناجيه ، وأحيانا أتصوره وهو فى شوارع لندن ينتقى لى هدية الزواج .. وأحيانا أراه بعين خيالى فى صحبة فتاة أخرى ، فأثور بينى وبين نفسى ، وأغضب ، ولا أنام .. وكنت دائما فى انتظار خطاباته ، كأنى فى انتظار موعد لقاء ..

وكان أبى يكاد يطير من السعادة .. عاد يمشى فى خيلاء ووقار كأن الأرض كلها ملكه ، وعاد يغنى فى الحمام كل صباح ويملأ البيت ضجيجا مرحا ، وعاد يحتضننى بعنف ويحاول أن يرفعنى عن الأرض كأنه يحاول أن يثبت لى قوته ويتباهى أمامى برجولته ، وعاد منتظما كما كان .. يخرج فى ميعاد ، ويدخل فى ميعاد ، ولا يتأخر أبدا عن موعد الغداء أو العشاء .. وعاد يقبل الدعوات العائلية ويتردد على السهرات بصحبتنا ، كوثر وأنا ..

وكانت كوثر تبدو دائما سعيدة .. تشرح القلب .. كانت ابتسامتها الواسعة تضم البيت كله وتشيع فيه الخفة والمرح.. ولكنها لم تكن « ست بيت » .. أبدا .. كانت مدللة « شخلوعة » ، أو كما يقول الفرنسيون : « كوكت » . لم تكن تطيق الاشراف على البيت .. أو محاسبة الخدم .. أو الدخول الى المطبخ ، أو « مسك » مصروف البيت .. تركت كل هذه المواضيع لى ولدادا حليمة ، وقد أقبلت على مهام البيت فى لهفة وانهماك ، فقد وجدت فيها تسليتى خلال فترة انتظار محمود ، ولأقول الحق .. فقد وجدت فى

احتفاظى بالاشراف على البيت احتفاظا بمكانتى وأهميتى فيه . أما دادا حليمة فقد كانت دائما متبرمة ، ودائما «تبرطم» فلم يكن يعجبها من كوثر أن تهمل بيتها الى هذا الحد ، حتى لو حللت أنا مكانها ..

ومضت هذه الأسابيع الزاهية ..

وبدأت ألاحظ أشياء ..

كان أبى لا يكاد يخرج من البيت حتى تأخـذ كوثر التليفون وتختفى به فى حجرتها ، ويطول اختفاؤها ، ثم تخرج مهوشة الشعر ، وقد احتقنت الدماء فى أذنيها الصغيرتين من أثر ضغط سماعة التليفون عليها .. كأنها كانت تحتضن صوت محدثها بأذنيها ، أو كأن محدثها كان يشد هذين الأذنين فى عنف يحاول أن يرفعها من بيتها اليه ..

وكانت أحيانا تخرج من البيت وحدها بعد خروج أبى ، ودون أن تدعونى للخروج معها ، محتجـة بزيارة والدتها أو احدى صديقاتها ، ثم تعود قبل موعـد عودة والدى ، مرتبكة متعبة ، وتسألنى فى لهفة من خلال ابتسامة منهوكة تكاد تسقط من فوق شفتيها :

— ما حدش سأل عليه .. أحمد ما سألش عليه ؟!

وعندما أجيبها بالنفى ، تبدو كأنها ارتاحت وتدخـل حجرتها لتبدل ثوبها وتسوى نفسها ، ثم تبدو مرحة نشطة كأنها لم تخرج من البيت ..

ولم تكن كل هذه « الحركات » تغيب على ..

ولم آكن غبية غريرة ، حتى لا أستطيع أن أدرك ما وراء هذه الحركات ..

وبدأت العواصف تجتاح نفسى .. بدأت أتساءل :

هل هى على علاقة برجل آخر ؟!

هل تخون أبى ؟!

ولم آكن فى حاجة الى التساؤل .. كانت الحقيقة أوضح من أن تدع مجالا للتساؤل ..

نعم .. أنها تخون أبى .. تسلبه شرفه .. تسفك كرامته تحت أقدام رجل آخر !

لقد طردت من حياته الزوجة المخلصة لأضع مكانها زوجة خائنة ..

بعت البريئة .. واشتريت المجرمة ..

يا ربى ..

هل بدأ انتقامك !!!

يا ربى ..

ألا تستطيع أن تنسى ؟!!

يا ربى ..

أيها المنتقم الجبار .. متى تكون غفورا رحيما ؟!

وبدأت جفونى تطرد الليل عن عيونى .. بدأت أحس كأن فى ثيابى ثعبانا يزحف فوق جسدى ويقشعرنى .. بدأت أحس كأنى أعيش فى صندوق قمامة .. كل شىء حولى قذر.. كل شىء حولى رياء .. نفاق .. كذب .. خديعة ..

لماذا تخونه ؟

ماذا ينقصه دون الرجال ؟!

أي شيء لا يعطيه ، يعطيه رجل آخر ؟

ربما كانت لا تحبه .

... لماذا تزوجته ؟

ربما لأن حبيبها من هذا الصنف من الرجـال الذى لا يتزوج .. صنف كمصطفى .. وربما تزوجت أبى ليوفر لها المظهر الذى يتطلبه المجتمع ، ويوفر لها الحياة الرغدة التى تحياها .. تزوجته بنية خيانته ، وباتفاق مع حبيبها .. وخانته مع سبق الاصرار والترصد .. كما يقول القانون ..

كانت كل هذه الخواطر تطوف برأسى ثم أتساءل ماذا أفعـل ؟

انى أستطيع أن أسحقها .. أستطيع أن أطردها من البيت كالكلبة .. ان عقلى لا يعجز أبدا عن الهدم .. واذا كان لا يعجز عن هدم الخير والاطاحة بالأبرياء ، فهو لن يعجز عن هدم الشر والاطاحة بالمجرمين ..

ولكن أبى ..

أبى المسكين ..

هل يتحمل صدمة أخرى ؟

هل يتحمل أن يفقد زوجتين كلتاهما بتهمة الخيانة ؟!

هل تتحمل كرامة رجل ، كل هذا الحب ، وكل هذا الألم وكل هذا العذاب ؟

وتذكرت حال أبي عقب أن طلق صفية .. تذكرته مشردا، مخمورا ، مسرفا ، تعبث به النساء الرخيصات .. وأحسست بقلبي ينقبض في لوعة كأنه يضم شيئا صغيرا .. صغيرا جدا .. هو أبي .. يضمه ليحميه من العواصف .. ومن البرد .. ومن النـاس ..

لا .. يجب أن لايعلم أبي ..

يجب أن تبقى كوثر في حياته .. بأى ثمن .. ومهما تكلفت وكلفتني من رياء ، ونفاق ، وخديعة ..

ثم ما هي الخيانة الزوجية ؟

ان الخيانة الزوجية جريمة لاتتم الا بعلم الزوج .. والزوج عادة آخر من يعلم ، والى أن يعلم فالجريمة لم تقع بعد .. انها كجريمة النصب ، فما دمت لم تعلم بأن هناك من نصب عليك ، فليس هناك جريمة نصب .. ما دمت لم تعلم أن هناك شيئا سرق منك ، فالسرقة — في نظرك — لم تقع ..

والقانون في الخيانة الزوجية يعترف بأنها جريمة لاتتم الا بعلم الزوج .. واذا كان هذا القانون قد أعطى الزوج حق التنازل عن اتهام زوجته بالخيانة ، فهو بالأولى يعتبر الزوج الذي لا يعلم في حالة تنازل مستمر عن حقه ..

والمجتمع أيضا .. انه لا يعاقب الزوجة الخائنة الا اذا علم الزوج بخيانتها .. قد يهمس المجتمع ، وقد يشير من بعيد اشارات خفية ، ولكن هذا المجتمع لا يصرخ ، ولا يهتم ،

ولا يعاقب الا اذا علم الزوج .. ويوم يعلم .. يوم يتم الطلاق وتقع الكارثة ، يفتح المجتمع فمه الى آخره لتخرج منه آلاف الألسن تطرقع كالكرابيج !

هل هذا صحيح ؟

لست أدرى .. فلم يكن يهمنى فى هذه الأيام الا أن أبحث عن منطق أشد به أزرى .. منطق يقنعنى بالتستر على زوجة أبى .. ابقاء على سعادة أبى !

وقد تماديت فى اقناع نفسى الى حد انى بدأت أتهم نفسى بأنى أنا السبب فيما وصلت اليه كوثر ..

لم لا ؟!

لقد كانت كوثر وهى تلميذة معى فى المدرسة ، فتاة هادئة صافية نقية كالبلور ، ثم أحبت مدحت ابن خالى حبا عفا طاهرا ، كان يمكن أن ينتهى الى زواج ، لولا انى تدخلت بينهما ومزقت حبهما ، كما رويت فى بداية قصتى .. وكادت كوثر أيامها أن تجن .. جفت كأن لم يعد فيها دماء .. ثم زوجوها من رجل بعيد عن قلبها ، بعيد عن مزاجها ، بعيد عن أحلامها .. وطلقت منه بعد عام أو عامين .. وتركت نفسها بعد الطلاق للدنيا .. للمجتمع الفاسد .. لم يعد لها أمل تحمى نفسها به ، لم يترك لها القدر فضيلة تدافع عنها .. انها تخطىء اليوم .. وربما أخطأت كثيرا قبل اليوم .. ولكن لماذا ؟ لأنها لم تجد سعادتها فى الفضيلة .. لم تجد فيها الا العذاب والهوان .. وحياة مع رجل لا تحبه !!

ترى لو أنها تزوجت مدحت ، هل كان يحدث لها كل ذلك .. هل كانت تخونه كما تخون أبي اليوم .. هل كانت تكون عابثة طامعة كما هي اليوم ؟!

لا أظن .. فالزوجة اما أن تكون زوجة تحب زوجها ، واما أن تكون زوجة خائنة .. ليس هناك زوجة تحب زوجها وتخونه ، وليس هناك زوجة لا تحب زوجها ولا تخونه ، حتى لو خانتــه مع نفسها .. هكذا كان يقول مصطفى .. ويبدو أنه على حق فيما يقول !

وأنا المجرمة في كلتا الحالتين ..

أجرمت يوم فرقت بين كوثر وحبيبها وتركتها لتكون زوجة خائنة لرجل آخر ؟!

وأجرمت يوم اخترتها زوجة لأبي ليكون هو الزوج المخدوع !

هكذا كنت أقول لنفسي لأزداد اقتناعا بالتســتر على خيانة كوثر ، حرصا على سعادة أبي ..

وقد كانت كوثر تحرص معي على سعادة أبي ..

لا أستطيع أن أتهمها بالتفريط في سعادة أبي ، كما كانت تفرط في عرضه ..

وبالعكس .. كانت تعود من لقاء حبيبها ، فتمنح أبي ضعف ما تعودت أن تمنحه من دلال وحنو واستسلام .. كأنها تحاول أن تعوضه عن حقه المنهوب ، أو تحاول أن تخفف من العبء الذي يرزح تحته ضميرها ..

وكان أبى الساذج الطيب يسعد فى هــذه الأوقات ..
وتبدو عليه السعادة كما لم أرها على وجهه الجميل من قبل .

وكنت أنا وحدى التى أتعذب ..

أنا وحدى التى لا أطيق ثيابى ..

أنا وحدى التى أشم رائحة الخيانة ، تزكم أنفى وتضغط على رئتى .. كأنها طعام ثقيل حامض لا تستطيع رئتاى أن تهضمه !

ومع مرور الأيام عرفت كوثر انى عليمة بسرها ..

وعرفت أيضا انى أتستر عليها ..

لم يكن ممكنا أن نعيش نحن الاثنتين فى بيت واحد ، دون أن تكشف احدانا أسرار الأخرى .. ولم تكن كوثر من الغباء بحيث يخيل اليها انها تستطيع أن تختبىء هى والتليفون فى غرفتها كل هذه الفترات الطويلة ، وتخرج من البيت فى هذه المواعيد المريبة ، وتعود بهذه الحالة الأشد ريبة ، دون أن يثير كل ذلك فى نفسى الشك فى تصرفاتها .

ورغم ذلك لم نتكلم فى هذا الموضوع ..

وربما بدا فى شعورى نحوها بعض الجفاء .. ولكننا كنا نحن الاثنتين نتجاهل هذا الجفاء .. وكنا نحن الاثنتين نتعمد أن نتغلب على ما بيننا من جفاء ، ونبدو كصديقتين حميمتين كلما جلس أبى بيننا ..

لم أفاتحها ولم تفاتحنى ..

الى أن كان يوم ..

وقالت كوثر ونحن على مائدة الافطار انها ذاهبة لزيارة أمها .

وابتلعت الألم مع اللقمة التى أمضغها ..

ووافق أبى ، قائلا فى حب وطيبة :

— ما تقوليلها تيجى تتعشى معانا النهارده .. بقالنا يومين ماشفناهاش .. أنا عمرى ما شفت حما بالشكل ده ..

وخرج أبى

وخرجت كوثر بعده بقليل ..

وجلست أشرفه على البيت ، ثم أخذت أقرأ خطابات محمود للمرة الألف .. وقد كانت هذه الخطابات هى كل سلوتى .. وكل أملى .. كل ما أعيش لأجله .. كنت أرى بين سطورها محمود وهو عائد من لندن ليتزوجنى .. ليحملنى بعيدا عن هذا البيت .. بعيدا عن كوثر .. بعيدا عن أبى الذى أنهكنى حبه .. الحب الذى أفسد حياتى .. وأفسدت به حياته ..

كنت أريد أن أرتاح .. ولم يكن لى أمل فى الراحة الا : محمود ..

وكانت خطابات محمود دائما رقيقة .. أرق مما يبدو عليه .. أرق من حديثه الهادىء ونظراته الحانية ، وخلقه الرفيع ، وقبلاته التى ترقد بين شفتى كأنفاس الملائكة ، وأرق من أنفاسه التى تطوف حولى كأجنحة فراشات صغيرة هائمة ..

كتب لى مرة فى احدى خطاباته :

« .. عجيبة ، لم أكن أعتقد ان نساء لندن بلا رؤوس .. فانى لا أرى هنا رأسا لامرأة .. بل لم أر الا رأسا حملته معى من القاهرة فى خيالى .. رأس فتاة ذهبية الشعر فى عينيها ألوان ، وبين شفتيها غدير عذب ، وفوق وجنتيها ورد .. وبشرتها نسجتها الطيبة ، ولفتاتها ساذجة ، وابتسامتها طفلة .. » .

وكتب لى :

« لقد رأيت اليوم فى — ريجنت ستريت — صالون ايـون ، ورأيت غرفة للمكتب .. ان المكتب كبير أستطيع عندما أجلس اليه أن أضع فوقه صورة الفتاة التى أحبها .. ورأيت حجرة نوم .. سرير واحد .. والستائر ذهبية .. ولكنى أفضل أن تكون الستائر فى لون العقيق أو زرقاء فى لون المحيط ، حتى تبرز الشعر الذهبى الذى ستكون اطارا له » .

وكتب لى :

« انى أتساءل أحيانا ما الذى يجمعنا .. هل نحن متشابهان أم نحن متناقضان .. لا .. ان أحدنا يكمل الآخر .. أنت شقراء وأنا أسمر .. أنت أطول قليلا مما يجب ، وأنا أقصر قليلا مما يجب .. وأنت عاطفية وأنا منطقى .. أنت قلب وأنا عقل .. أنت تنظرين الى السطح وأنا أنظر الى الأعماق .. أنت ملاك وأنا انسان .. وأنت وأنا نكون الانسان الكامل..

كل منا نصف الآخر .. وانى أحس وأنا هنا بعيدا عنـك بأنى « نص » .. أريد أن أعود الى نصفى الآخر » !

وكنت هائمة فى قراءة هذه الخطابات .. هائمة وراء الصور الجميلة الحلوة الطيبة .. صورتى كما ترتسم فى عينى محمود عندما دق جرس التليفون .. وكان المتحدث أبى ..

وقال أبى وصوته يعلو وينخفض كأن فيه مطبات :

— هيه كوثر راحت فين .. أنا سألت عليها عند والدتها ماالقيتهاش .. ماتعرفيش راحت فين !؟

وارتبكت ، وبذلت مجهودا كبيرا لأخفى ارتباكى ، ثم قلت كأنى ألقى نفسى فى البحر لانقاذ غريق :

— أظن يابابا انها راحت عند الدكتور !!

وقال أبى بتعجب :

— دكتور .. دكتور ايه .. ما أنا سبتها كويسه الصبح .. أنا جاى حالا ..

قلت بسرعة :

— ما تنشغلش يابابا .. دى زمانها جايه .. ما أظنش ان فيه حاجة كبيرة .. هيه بقالها يومين بتشكى ومش راضية تقول لك علشان ما تنشغلش ..

وقال أبى فى لهجة باترة :

— أنا جاى حالا ..

ووضع السماعة بعنف ..

ودرت فى البيت كالمجنونة ، أطل من النوافذ بحثا عن كوثر حتى اطمئن الى عودتها قبل عودة أبى ..

ولكن كوثر لم تعد ..

وعاد أبى .. وعندما لم يجدها قال يسألنى فى حدة :

— ما قالتش لك راحت عند أى دكتور ؟

قلت :

— أبدا .. أصـــلى كنت بساوى أودتى ما فتكرتش أسألها .

وأخذت أهدىء والدى وأصبره ، وأنا فى أشد الحاجة لمن يهدئنى ويصبرنى .. الى أن اعتقدت ان موعد عودة كوثر قد حان ، فاستأذنت أبى فى الذهاب الى شقة الجيران لآخذ من ابنتهم رسم « الكاناناه » .. ولم أنتظر حتى يأذن لى أبى، بل خرجت مسرعة ونزلت الى الشارع ، ووقفت فى انتظار كوثر ، وأنا ألتفت يمينا ويسارا حتى أقنع البواب بأنى فى انتظار سيارة أركبها .

وجاءت كوثر بعد قليل فى سيارة أجرة ..

وقبل أن تضع قدمها على الأرض كنت بجانبها أهمس فى أذنها بما جرى ، وأوصيها بأن تقول لأبى انها كانت عند الدكتور .. وانها لم تذهب عند والدتها ..

ثم تركتها تصعد قبلى ..

وصعدت بعدها بقليل ، لأسمع والدى وهو يقول لها فى لهفــة :

— بس مش تقوليلي عندك ايه .. وحتى للدكتور ليه؟!

وقالت كوثر في دلال عجيب :

— لا .. ما أقولكش !

واقتحمت الحديث بينهما قائلة :

— انتي جيتي .. شغلتينا عليكي !

وعاد أبي يقول في توسل :

— وحياتي عندك ، طمنيني !

وقالت كوثر وهي أكثر دلالا ومرحا ، حتى حسدتها على قوة أعصابها :

— يا أخي انت مالك ومال حاجات الستات .. بعدين أقول لك .. لوحدنا !

واقتربت منه وقبلته في جبينه ، ونظرت اليه في حنان مفتعل ، وأضاء وجه أبي ولمعت عيناه وفغر فاه كأنه فهم شيئا ..

وكأن ما فهمه أبي ، أدهشه حتى أعجزه عن الكلام ، فظل فاغرا فمه ، ينظر الى كوثر بعينين مدهوشتين ، فيهما بجانب الدهشة عبادة ..

وقلت لأحبك الكذبة الكبرى :

— صحيح والنبي ياكوثر ؟!

وقالت كوثر وهي تمثل حياء الأمومة :

— الدكتور لسه مش متأكد !!

ومن يومها تمادى أبي في تدليل زوجته ، وتمادى في

الحرص عليها ، وفى تتبعها فى كل ما تأكله وفى كل خطوة تخطوها ، وتمادى فى شراء كتب تربية الأطفال ، والعناية بالحوامل ، حتى اضطرت كوثر الى أن تصحبه معها يوما الى الطبيب .. ولا بد أنها كذبت على الطبيب كذبة أخرى ، وخرجت تقول لأبى أنها ليست حاملا ، وانما ألم بها ضعف ..

ومن يومها أصبح الأمر صريحا بينى وبين كوثر ..

أصبحت صريحة أمامى فى خيانة أبى ..

وأصبحت صريحة فى التستر عليها ..

ولم تعد السماعة تلقى فى وجهى عندما أرد على التليفون، ويبدو أن كوثر قد قالت لصاحبها انى أصبحت موضع سرها ، وأنى أتستر عليها ، فقد وجد فى نفسه الجرأة ليحادثنى :

— آلو .. نادية هانم .. والله أقدر أكلم كوثر !

وكنت أعلم انه هو .. صاحبها .. ولكنى تجاهلته لعله يتجاهل الحقيقة هو الآخر ، ويدعى انه شقيق احدى صديقاتها — مثلا — فسألته فى برود :

— حضرتك مين ؟

قال فى صوت مهذب ولكنه وقح :

— أنا سمير ..

ولم أستطع الا أن أحمل اليها التليفون ..

وهكذا عرفت أسمه .. سمير !

ورغم ذلك فلم أترك لكوثر الفرصة لتحدثنى عنه ..

كنت أريد أن أنأى بنفسى عنهما .. أن أبتعد بقدر ما أستطيع عن هذه الرائحة الثقيلة التي لاتهضمها رئتاى .. رائحـة الخيـانة !

وفى مرات كثيرة كنت أصدها عن الحديث عن نفسها وعن صاحبها .. وكنت جافة حازمة فى صدها .. ولكنها لم تكن تأبه .. كانت تبتسم فى سخرية كأنها تهزأ منى .. كانت تعلم أنها تمسك بى من عنقى ، وانى لن أستطيع أن أفعـل شيئا حيال خيانتها .. كانت تعلم انى أشرب المر صامتة ، وانى أضع كرامتى تحت قدمها صاغرة .. وانها تستطيع أن تمزقنى بالسياط فلا أتأوه ولا أشكو . كانت تعلم انى أتستر عليها لا حبا فيها ، ولكن حبا فى أبى وابقاء على سعادته .. وكانت تعلم انى أضحى بكل شيء .. بكرامتى وراحتى وحياتى كلها فى سبيل هذا الحب .. حب أبى .. وفى سبيل هذه السعادة.. سعادة أبى !

وقد استغلت حبى لأبى .. أسكتتنى من أرق وأضعف قطعة منى ، وبدأت تعذبنى ..

وتعذبت كثيرا ..

منتهى العذاب ..

تعذبت بجرحى الذى تنزف منه كرامتى .. وتعذبت بخديعة أبى .. وتعذبت بغيظى من كوثر .. غيظ يكوينى ، ويحرق قلبى ، ويفتت كبدى .

وقد سكت على هذا العذاب طويلا ..

كنت أخاف من عذابى .. أخاف أن ينفجر بى ويحرك قوى الشر فى نفسى فأهدم البيت فوق رأس أبى ، كما هدمته مرة من قبل ..

وكنت أحاول أن أهرب من هذا العذاب الى محمود.. فكنت أكتب له طويلا .. أحدثه عن كل شىء .. عن كوثر وعن خيانتها وعن أبى المخدوع .. وأشكو .. وأستجير به ، وأستحلفه أن يعود لينقذنى ..

ثم أمزق كل ما كتبته ..

لا يجب أن يعلم ..

يجب أن يبقى دائما نظيفا من كل هذه المشاكل التى انغمس فيها .. نظيفا طاهرا لأعيش معه نظيفة طاهرة .

وأنهكتنى مقاومة العذاب .. ذوى عودى وأصبح كل شىء فى منكسرا ذليلا .. عيناى ذليلتان .. وشفتاى ذليلتان.. ووجنتاى مصفرتان كأن دماءهما تخجل من مواجهة أبى ومواجهة الناس .. أصبحت كتمثال من الشمع صنعته يد فنان بائس فطبعته بالبؤس ..

وطال صمتى .. ولكنى كنت أحاول أن أبدو مرحة أمام أبى حتى لا أشغله بنفسى ، وكنت أتعمد أن أخرج معه ومع كوثر حتى لا أزعجه باعتكافى ، وحتى لا أترك لكوثر فرصة تشمت بى .. وتزيد فى تعذيبى ..

وذهبت مرة معهما الى الأوبرج .. وفى طريقنا الى مائدتنا رأيت مصطفى .. !

مع من ؟

مع صفية !!

وكان معهما شقيق صفية ، وبعض الأصدقاء والصديقات..

رأيتهما وقد انشغل كل منهما بالآخر عن الآخرين .. كان كل منهما ذائبا فى حديث مع الآخر ، كأنهما يتمان نفس الحديث الذى دار بينهما عندما التقيا لأول مرة منذ سنوات ..

ورأى أبى صفية وتجاهلها ..

ونظرت اليها كوثر فى تعال رخيص ، ثم وضعت ذراعها فى ذراع أبى وضحكت ضحكة عالية ، كأنها تريد أن تغتصب كل الأنظار من حول صفية ..

أما أنا فقد نظرت اليهما فى مسكنة وذل ، وأطلت النظر..

ونظر الى مصطفى كأنه يتذكر أنه رآنى من قبل !

ونظرت الى صفية نظرة حلوة ، وابتسمت ابتسامة كبيرة كأنها فرحت بلقائى ، ثم هزت رأسها محيية من بعيد ..

وفى هذه البرهة القصيرة لم أهتم بمصطفى .. لم أشعر بوجوده ، انما كنت متجهة الى صفية بكل عواطفى .. بكل عذابى .. أحسست كأنى أريد أن ألقى بنفسى فوق صدرها وأبكى .. أريد أن أحكى لها ما جرى لى .. أريد أن تأخذ بى معها الى بيتها بعيدا عن كوثر .. بعيدا عن الخيانة .. بعيدا عن الخداع والنفاق والكذب .. وعن الرائحة الثقيلة التى لا تهضمها رئتاى !

وقضيت السهرة ذاهلة ..

ولم كن أفكر فى صفية ومصطفى وما يمكن أن يجمع بينهما .. ولكنى كنت أفكر فى نفسى .. فى حياتى .. فى جرائمى .. فى قدرى .. فى عذابى .. فى خيبتى ..

وطال ذهولى ، حتى اقترح أبى أن نعود الى البيت ، ظنا منه أنى متعبة ، ولكن كوثر رفضت ، لأنها لا تريد أن ترحل قبل رحيل صفية ، حتى لاتبدو أقل سعادة منها ..

وبقيت أنظر الى مصطفى .. وهو يراقص صفية كأنه يضم بين ذراعيه ملاكا يخاف عليه من نفسه .. أنظر اليهما وكأنى أنظر من بين قضبان سوداء الى عالم جميل طردت منه ..

وعندما أصبحت فى فراشى ، كانت كل خلجة منى تهتف : محمود ..

كان كل ما بقى لى من أمل فى النجاة ..



وكان يوم ..

وكنا مدعوين الى زفاف احدى صديقاتنا ، وذهبت أنا وكوثر فى الصباح الى الحلاق ، وانتهينا من تصفيف شعرى وشعرها فى وقت واحد ، وكانت الساعة قد بلغت حوالى الثانية عشرة ظهرا .

وبعد خروجنا من عند الحلاق ، اقترحت كوثر أن تذهب الى جروبى لنتناول قدحا من عصير البرتقال ..

ورفضت ..

وألحت كوثر .. وقالت كأنها تستجديني :

— والنبى يانادية .. ده أنا حاسة انى طالعة من فرن .. المشوار داوش دماغى ، وزى ما أكون دايخة .. نقعد فى جروبى خمس دقائق بس تشرب كباية عصير ، ونروح ..

قلت فى جفاء :

— بعد خمس دقايق حنكون فى البيت وهناك تقدرى تشربى الفريجدير كله .

وقالت وفى عينيها توسل وبين شفتيها ابتسامة نفاق :

— اخص عليكى يانادية .. علشان خاطرى !

قلت وكأنى ألقى عليها درسا فى الأخلاق :

— وكمان ما يصحش ان اتنين ستات يقعدوا في جروبي لوحدهم ..

قالت وهي تبتسم ابتسامة خبيثة :

— لا .. ده انتي اتغيرتي خالص ياناديه .. بقيتي زي ستي الحاجة .. تعالي بس ياشيخة ، الرجالة كلهم في شغلهم وجروبي في الساعة دي يبقى فاضي ، مافيهش حد الا الستات..

وجذبتني من يدي ونحن في الطريق .. وهي تضحك ضحكة كبيرة خليعة ..

وانقدت لها كأني أتجنب فضيحة يمكن أن تثيرها كوثر وسط الشارع ..

وكان محل جروبي على بعد خطوات من الحلاق ..

ودخلنا ، وهي لا تزال قابضة على يدي كأنها تخشى أن أهرب منها ..

ولم يكن هناك كثير من الرجال فعلا .. مائدة أو مائدتان يحتلهما بعض الرجال العجائز يقرأون الصحف .. وموائد أخرى تحتلها بعض الشخصيات الأجنبية .. والمكان كله يسوده هدوء أقرب الى الصمت ، وتلفه ريح رطبة ، وينتشر فيه ضوء خافت كأنه ظلام ..

وانقبض صدري .. أحسست احساسا خفيا بأني منساقة الى مؤامرة ..

وانتقت كوثر مائدة منزوية ، جلسنا اليها ، وطلبت من الجرسون كوبين من عصير البرتقال ..

وأخذت أتلفت حولى فى ضيق كأنى أبحث عن طاقة من النور ، تبدد هذا الضوء الكالح الذى يغمر جروبى ..

وقبل أن يعود الجرسون بكوبى العصير ، انتصب أمامنا فجأة شاب .. كأن الأرض قد انشقت ولفظته من جوفها ثم عادت وانطبقت بعد أن استراحت منه .. لم أدر من أين جاء ، ولا أية ريح قذفت به الينا ، انما وجدته أمامنا منتصبا كلوح الخشب !

شاب ، كل خط فيه مرسوم بالبرجل والمسطرة ، كأن الذى صنع حلته مهندس لا ترزى .. وكأنه صنعها من حجر لا من قماش . وكأن الذى لف رباط عنقه كان يحاول أن يخنقه .. وكأن الذى حلق ذقنه تحات لا حلاق ، فترك وجهه لامعا فيه بياض كثير كأنه « الجير » .

عيناه منتفختان كأنه جمع تحت جفونهما ليالى عمره .. وشفتاه غليظتان منفرتان ترتسم فوقهما الشراهة والجوع .. وشعره أسود لامع طويل ، كل شعرة قد التصقت بالأخرى بالبريانتين ، حتى يبدو كأنه شعر مستعار . وحركاته كلها مسرحية كأنه يستعرض فى كل حركة عضلاته واناقته وخفة دمه !!

ومدت كوثر يدها له فى دلال وابتسامتها تعربد فوق وجهها .. وانحنى يقبل يدها فى رشاقة مفتعلة سمجة ، ثم التفت الى ونظر نظرة وقحة كأنه يعرينى من ثيابى .. وأحسست بابتسامته كأنها سائل لزج يسيل على وجهى !

واتسعت ابتسامة كوثر وهي تقدمه لي قائلة :

— طبعا انتم تعرفوا بعض بالصوت بالتليفون .. أهو ده ياستي سمير .. سمير حسام الدين !!

والتفتت اليه واستطردت :

— طبعا عارف دي تبقى مين . نادية !

وشهقت شهقة خافتة ..

ومد يده .. فمددت يدي فى تردد كأنى أضن بها عليه .. وانحنى يحاول أن يقبلها ، فسحبتها منه بسرعة كأنى أخاف أن يلوثها ..

وسحب مقعدا وجلس معنا دون أن يستأذن ، وكأنه كان معنا على موعد .

ونظرت الى كوثر فى حدة كأنى أطلق عليها الرصاص .. ولكنها تجاهلت نظرتى ، وأقبلت على سمير تحادثه .. وكأنه من الطبيعى أن تلتقى معه على موعد فى محل عام .. ومن الطبيعى أن أكون معهما .. أنا . أنا ابنة الزوج المخدوع !!

الى هذا الحد بلغت وقاحتها ..

والى هذا الحد كان يجب على أن أحتمل ..

وأخذت أفحص سمير من طرف خفى .. سماجتــه .. وتفاهته .. وافتعال حركاته .. وميوعته .. وحديثه الفارغ .. ماذا فيه .. ماذا تحب كوثر منه .. أى شيء يفضل به أبى ؟!

ووجدتنى أقارن بينه وبين أبى .. ثم ثرت على هــذه

المقارنة .. لأنه لا يقارن به .. انه لا يصل الى كعب حذاء أبي .. انه تافه .. سافل .. حقير !

انى أعرف هذا النوع من الشبان .. أعرفه جيدا .. هذا النوع الذى ينحدر من عائلات قديمة معروفة منحلة ، فقدت تراثها الأخلاقى ، وفقدت ثروتها المادية ، فنشأ فيها جيل يحتفظ بالاسم الكبير وبالأرستقراطية الزائفة ، ثم لا يجد شيئا يعيش عليه ، الا أن يحتال على النساء .. يخدعهن .. ويبتز شرفهن وكل شيء حولهن .. نوع تخصص فى ملاحقة النساء والايقاع بهن ..

نعم .. انى أعرف هذا النوع ..

حتى لو لم يكن سمير من هذا النوع فهذا ما يبدو عليه..

وأحسست بأعصابى تلتهب .. أحسست انى لم أعد أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك ، والا انفجرت .. كان كل شيء فى مجروحا ينزف الدم .. كرامتى .. شرف .. حبىلأبى..

وخبطت على المائدة بيدى ، وقلت فى صوت مبحوح تخنقه النار المندلعة فى أعصابى :

— أظن نقوم بأه يا كوثر ؟

وقالت كوثر بلا مبالاة :

— مش لما نشرب البرتقال ؟

وقال سمير كأنه يطيب خاطرى :

— يظهر ان نادية هانم مستعجلة قوى ..

ولم أرد عليه ..

وقالت كوثر كأنها تهون أمرى عليه :

— ولا مستعجلة ولا حاجة .. هيه بس اليومين دول اللى عصبية شوية ..

وددت لو صفعتها ..

أحسست بيدى تكاد تتحرك رغما منى وتهوى على خدها ..

ونظر سمير الى ، هذه النظرة الوقحة التى تطل من تحت حاجبيه الكثيفين ، وقال كأنه يلقى جملة تمثيلية محفوظة :

— كوثر كانت دايما تقوللى عنك انك جميلة .. انما ماكنتش فاكر انك جميلة للدرجة دى .

وقالت كوثر كأنها تشده ناحيتها :

— وبعدين ياسمير .. انت عينك حتزوغ والا ايه .

وعدت أقول فى حدة وأنا أهم بالقيام :

— أظن احنا تأخرنا قوى ..

ولم أكد أقف على قدمى حتى جاء الجرسون يحمل أكواب العصير ، وقالت كوثر وهى تنظر الى بغيظ وحنق :

— أظن تسمحيلنا نشرب البرتقال والا بلاش !؟

وألقيت نفسى مرة ثانية على المقعد كأنى أسلم أمرى لله..

ونظرت الى عصير البرتقال كأنه نقيع السم ، ولم أمد يدى اليه .. وأدرت رأسى ناحية الباب كأنى أبحث عن طريق النجاة .. ثم صرخت صرخة مكتومة اقتلعت قلبى ..

لقد رأيت أبى ..

رأيته يدخل من الباب متجها الى قسم المشتريات ..

وتعلقت نظرتي به كأني أحاول أن أدفعه عنا برموش عيني ..

و في برهة خاطفة ، تخيلته يقف قبالتنا ، ثم يخرج المسدس من جيبه .. ويطلق رصاصتين يقتل بهما كوثر .. ورصاصتين يقتل بهما صاحبها .. ورصاصتين يقتلني بهما .. ويبقى الرصاصة الأخيرة ليقتل بها نفسه ..

والتفت الى كوثر في هلع وأنا أهمس :

— بابا .. بابا ..

ورفعت كوثر رأسها ورأته .. فامتقع لونها كأن دماءها كلها قد تسربت من أصبع قدمها .. وارتعشت شفتاها ، وقفزت الى عينيها نظرات حائرة خائفة ، وأدرات رأسها الى سمير كأنها تحتمي به من طلقات المسدس ، ثم التفتت الى كأنها تتوسل وتستنجد .

والتفت سمير ناحية أبي ، ثم مد يده وأخذ يعبث برباط عنقه ، وأخذ يمد رقبته خارج ياقة القميص ، ويجز على شفتيه بأسنانه ، ثم يضغط على أنفه بأصبعه ، ويبرطم بكلمات لم أسمعها ولم أفهمها الا كصوت فحيح ..

وقبل أن يتحرك أحدنا ، كان أبي بجانبنا ..

والتقت عيوننا نحن الثلاثة في نظرة خاطفة ، وكأن عيوننا قد نسجت في هذه النظرة ، شبكة للايقاع بأبي المسكين .

وسمعت صوت أبي يقول في تساؤل كأنه حساب :

— الله .. ايه اللى جابكم هنا .. انتم مش قلتم رايحين عند الكوافير ..

ولم أدر كم مضى من الوقت قبل أن أسمع صوت كوثر.. ربما مضت ساعة أو ساعتان ، وربما مضت دقيقة ، أو ثانية ، الى أن سمعتها :

— جينا نشرب عصير برتقان .. أصل .. أصل .. أصل الواحدة بتخرج من عند الكوافير دايخة .. و ..

وكان سمير قد وقف على قدميه ، بجانب أبى .. وهو لا يزال يعبث برباط عنقه ويمد رقبته خارج ياقة قميصه ، ويضغط بأصابعه على أنفه ..

والتفت والدى اليه .. ورأيت فى عينيه نظرة جامدة بلا معنى ، كأنه ينتظر أن تقدمه اليه واحدة منا نحن الاثنتين ، قبل أن يحدد معنى نظرته ..

ولا أدرى ماذا حدث لى فى هذه اللحظة ..

ولا أدرى ماذا جرى لعقلى .. وأين فر منى ذكائى ..

لقد خيل الىّ لحظتها أن كوثر لن تتكلم أبدا .. ان لسانها قد شل من هول الموقف .. ثم خيل الى أنها لو تكلمت فستعترف .. ستقول ان هذا هو صاحبها .. وانها تخون أبى معه منذ زواجها .. وانها تحبه .. وانها له .. و .. وخيل الى أن أبى سمع هذا الاعتراف .. وانه نطق بكلمة الطلاق .. ثم اهتز من ثقل الصدمة ثم وقع على الأرض .. ومات .. مات بالسكتة القلبية .. وخيل الى انى صرخت !!

مر كل هذا بخيالي في لحظة خاطفة .. واعتقدت اني يجب أن أفعل شيئا .. أن أقول شيئا .. أن أنقذ الموقف .. أن أنقذ أبي من الموت .. كما أنقذت جان دارك وطنها فرنسا .. ثم احترقت بالنار !

وسمعت نفسي أقول لأبي :

— حضرته سمير بيه .. سمير بيه حسام الدين !

ومد سمير يده لأبي ، وتصافحا ..

ثم نظر أبي الى كأنه يسألني مزيدا من التفاصيل ، فقلت — بلا وعي — وأنا أرخي عيني في خفر مفتعل ، كأني عروس في ليلة زفافها :

— بعدين حاتعرف كل حاجة يابابا ..

والتفت سمير الى في دهشة ..

وتعلقت عينا كوثر بي ، كأنها تبحث بهما عما في رأسي ..

وقال أبي وقد بدأ يفتعل الهدوء :

— حاعرف ايه ؟!

قلت وأنا لازلت أدعي الحياء والخفر :

— بعدين يابابا . كوثر حاتقولك على كل حاجة !!

ولمحت بطرف عيني ابتسامة كبيرة قد قفزت الى شفتي كوثر وخيل الى أن الدماء قد عادت تتدفق في وجنتيها .. لقد فهمت ما أرمي اليه ..

وفهم سمير أيضا . وأراد المجرم أن يحبك الكذبة الكبرى، فقال لأبي في وقاحة وجرأة ، لا يقدر عليهما الا نصاب عالمي:

— والله يا أفندم أنا كنت عايز أتشرف بمقابلتك من زمان .. انما سبت لنادية انها تختار الميعاد اللى يناسبها ..

وردد أبى كأنه يستمتع بكل ذكائه :

— اللى يناسبها !!

ثم كأنه فهم أخيرا ، فقال وقد بدأت ابتسامة صغيرة تقفز الى شفتيه :

— آه .. طيب .. بس .. و ..

وقاطعته كوثر ، وهى تقفز واقفة وقد استردت كل دلالها وخلاعتها ، وقالت وهى تضع ذراعها فى ذراع أبى :

— الكلام دلوقت ماينفعش .. بعدين تتكلم على مهلنا.. ياللا بينا يا أحمد ..

ومدت يدها فى حركة رسمية الى سمير ، وهى تقول :

— تشرفنا قوى ياسمير بيه .. اطمئن كل حاجة متسهلة باذن الله !!

ثم التفتت الى قائلة كأنها أم حنون فرحة بابنتها :

— يا للا يا نادية يا حبيبتى !!

وصفعتها بعينى ..

ووددت لو مددت يدى وخنقتها ..

ومد سمير يده والتقط يدى ، ونظر الى نظرة تمثيلية كأنه يتنهد حبا وغراما .. ثم انحنى على يدى يقبلها ويضغط عليها بشفتيه الشرهتين الجائعتين ..

واضطررت أن أترك له يدى .. كأنى أضعها فى النار ..
وخرجنا ، بعد أن اشترى أبى بعض الحلوى والفطائر ..
وجلسنا نحن الثلاثة فى المقعد الأمامى من السيارة .. أبى فى مكان القيادة وكوثر ، وأنا .. وصفقت الباب ورائى بقوة بعد أن ركبت ، كأنى أضرب به الدنيا كلها ..
وقال أبى وهو ينظر أمامه :
— أنا مش فاهم حاجة .. ايه الحكاية بالضبط .. ؟
وقالت كوثر وهى تلف ثوبها حول ساقيها :
— بعدين يا أحمد .. صبرك بس أما نوصل البيت ..
وقال أبى كأنه يلح :
— أيوه .. انما مهما كان الأمر .. ايه اللى يخليكم تقعدوا فى جروبى مع واحد ما أعرفوش ولا شفتوش !
وقالت كوثر دون أن يهتز منها رمش :
— بصراحة .. الموضوع خاص بنادية !!
وقال أبى وهو لا يزال ينظر أمامه :
— وعرفتيه منين يانادية .. اتقابلتم كتير قبل كده ؟!
قلت وأنا أكاد أبكى غيظا وحنقا من الموقف الذى وضعت نفسى فيه :
— أبدا يابابا .. شفته فى اسكندرية الصيف اللى فات.. وبعدين كلمنى فى التليفون كام مرة .. وطبعا ماكنتش باديله وش .. لغاية ما طلب يقابلك ، فافتكرت انى أعرفه بكوثر الأول .. علشان هيه اللى تكلمك ..

وقال أبي وهو يتنحنح كأنه يبحث في موضوع خطير :

— هو يقرب ايه لفتحى باشا حسام الدين ؟ .

وقالت كوثر بسرعة كأنها تسعفني :

— يبقى ابن أخوه ..

وعاد أبي يقول :

— هيه عيلة كبيرة .. انما فقرا !!

وقالت كوثر كأنها تدافع عنه :

— هو برضـــه مش غنى قوى .. انما موظف كبير في شركة التأمين ..

وكنا قد وصلنا الى البيت ..

ونزلنا أنا وكوثر أمام الباب ، بينما اتجه أبي بالسيارة نحو الجراج .. كانت أعصابي قد بدأت تنهار ، وكان الحنق والغيظ قد حرقا قلبي حتى خيل الى انى أشم رائحة شياط ، وأن دخانا تجمع في صدري ويكاد ينفجر بي ..

وملت على كوثر أهمس همســا كالصراخ ، وأنا أكاد أمزقها بعيني :

— اتفضلي بأه حضرتك خلصيني من الورطة بتاعتك .. وحياة بابا .. وحياة ماما .. والله العظيم .. والله العظيم ، ان دي آخر مرة يكون ليه دعوة بيكي ولا أدخلك في موضوع .. وبعد كده يحصل اللي يحصل .. أنا خلاص شبعت ذل ، وشبعت قرف ..

وقالت كوثر وهى تبتسم ابتسامة خبيثة ، كأنها واثقة من أنها قابضة على عنقى ، تستطيع أن تفعل بى ما تشاء :

— بس ما تزعليش نفسك ياناديه .. كل حاجة حتتصلح وتروح لحالها ..

وجاء أبى ..

وابتسمنا له نحن الاثنين .. كأننا كنا فى حديث عن الأزياء !!

ووضع أبى ذراعه فوق كتفى ، ونحن فى المصعد ، وقال فى حنان وطيبة :

— أنا ماكنتش فاكر انك بتخبى عليه حاجة ياناديه .

ولم أتكلم ..

خيل الى انى لو فتحت فمى ستنهمر دموعى !

واعتقد أبى انى لا أتكلم .. حياء !

وتناولنا غداء سريعا صامتا ، كأن كلا منا مشغول عن الآخر بنفسه ..

وكنت ساهمة ..

كنت أفكر فى هذا المأزق الذى وضعت نفسى فيه ..

لماذا تطوعت بهذه الكذبة الكبرى ؟!

لماذا أثق دائما بذكائى الى هذا الحد ، رغم ان ذكائى لا يجر على الا الندم ؟

لماذا لم أنتظر .. فربما كانت كوثر تجد مخرجا آخر لنفسها !

انى مغرورة بنفسى .. وغرورى هذا هو الذى يدفعنى الى الاعتقاد بأنى أستطيع أن أجد حلا لكل معضلة ، ومخرجا لكل أزمة !!

ربما لم يكن الغرور .. ربما كانت لهفتى على سعادة أبى ، وحرصى على التستر على زوجته الخائنة ، هما اللذان دفعانى الى هذا الادعاء ؟!

ولم أتماد كثيرا فى تقدير نتائج هذا الادعاء ، وما يمكن أن يجره على من مصائب .. فقد وجدت نفسى أفكر فى محمود ..

وخيل الى انى خنته بهذه الكذبة ..

انى جرحت كرامته عندما ادعيت انى لرجل آخر ..

خيل الى انى أجر محمود معى الى الطين .. الى عالم كريه لا تعيش فيه الا الزوجات الخائنات !

وانتفضت واقفة ، وجريت الى غرفتى دون ان اعتذر لأبى بكلمة ، وأخرجت خطابات محمود وصورته ، وأخذت أقبلها ..كأنى اعتذر له .. وكأنى أتوسل اليه ان يغفر لى .. وكأنى أعده بأن ارتفع اليه فى عالمه النظيف ، ولا أشده معى الى عالمى الأسود .

ولم أخرج من غرفتى الا فى المساء عندما حان موعد ذهابنا الى حفلة الزفاف دون ان ادرى شيئا مما دار بين أبى وكوثر من حديث ..

وقد حاولت ليلتها ان أبدو جميلة أنيقة .. ولكنى فشلت.

كان قلبي منقبضـــا .. كان شيء في نفسي يهمس همسات تخيفني .. كنت أحس انى ضـــعيفة ، مسكينة ، مكسـورة الجناح .. ولم يكن لى جناح أطير به في عالم ســـعيد الا : محمود ..

وجلست بين المدعوين في حفلة الزفاف صامتة ، مكتئبة ، لا كلمات عابرة أرد بها تحية أو أجامل بها انسانا ..

وكنت طول الوقت أفكر في محمود .. وكان تفكيري فيه حزينا يائسا ، كأني فقدته .. وكأنه لن يعود الى ..

وفي ساعة « الزفة » أخذت أبحلق فيالعروسين ، وأحاول أن أضع محمود مكان « العريس » وأضـــع نفسي مكان « العروس » ، وأن أفرح بهذا الخيال .. ولكني لم أستطع .. كانت الصورة الحلوة كلما ارتسمت في خيالي اهتزت بعنف ثم تلاشت .. وكلما حاولت ان أستعيدها بعدت عني ، كأني لا أستطيع أن اقنع نفسي بأني سأكون يوما زوجة لمحمود .. وأحسست برغبة في البكاء ..

وارتفعت من حولى دفوف العوالم تدق في عنف كأنها صرخات شياطين تطوف فوق رأسي .. وتلوى جسد الراقصة أمام عيني كأنه ثعبان ضخم يقترب مني ليبتلعني ..

وتجمعت دموعي تحت جفوني ، وبذلت مجهودا كبيرا حتى لا أطلقها .. حتى لا أبكي وأصرخ حسرة على نفسي ..

لماذا يا ربي ، لا يكون لى مثل هذا الفرح !؟

لماذا ليس محمود بجانبي الآن ؟

لماذا هذا الانقباض .. وهذا اليأس .. وهذا السواد الذى يحيط بى ؟

وخرجنا بعد الزفة مباشرة .. وانا اترنح فى مشيتى كأنى آكاد أسقط !!

وقال لى أبى ونحن على الباب ، وهو يبتسم لى ابتسامة ذات معنى ، وينظر لى كأنه يعنى ما يقول :

— عقبال فرحك يا نادية ..

وتمتمت :

— مرسى ..

ولم آكد أجد نفسى وحدى فى حجرتى حتى بكيت ..

بكيت حتى خيل الى انى سأموت غرقا فى دموعى !

ولم اخرج من حجرتى الا فى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى ..

كان أبى قد خرج ..

وكانت كوثر جالسة فى « الانتريه » ولم نكد نلتقى ، وقبل ان نتبادل تحية الصباح ، حتى دق جرس التليفون .. وأسرعت كوثر اليه ، وسمعتها تقول :

— صباح النور .. ازيك يا سمير .. و ..

وأخذت تتكلم وهى تحمل آلة التليفون فى يدها وتتجه الى غرفتها الى ان دخلتها وأغلقت بابها عليها ..

ولم أهتم ..

كنت متعبة ، منهمكة الى حد لا أقوى معه على الاهتمام بشيء .. وناديت على « دادا حليمة » وطلبت منها ان تعد لى كوبا من اللبن الساخن ، لعله يهدىء أعصابى .. لعل بياضه يغسل عن صدرى السواد ، ولعل سخونته تنشط أعصابى .

وبعد ان شربت اللبن ، عدت الى غرفتى وأخذت أكتب لمحمود .. أكتب له كعادتى خطابين : خطابا اروى فيه كل شيء وكل ما حدث لى كأنى اسجل مذكراتى واعترافاتى ، وخطابا أحدثه فيه عن حبى ولهفتى اليه وأكرر وعدى بأنى سأبقى فى انتظاره ..

وأمزق الخطاب الأول ..

وأرسل له الثانى ..

وكنت اجد راحة فى اعترافاتى لمحمود ، كنت أسعد بكتابتها اليه أكثر من سعادتى بكتابة الخطاب الثانى .. ولكن هل كان يمكننى أن أرسل بها اليه .. وبهذه الاعترافات ؟ وهل كان يرضى بى زوجة بعد أن يقرأها ؟ لا أظن !

وبينما انا اكتب ، دخلت كوثر وقالت فى دلال وهى تحاول ان تتودد الى :

— سمير بيسلم عليكى ..

ولم أرد وبقيت أكتب ..

وعادت تقول وهى تقترب منى :

— تعرفى انه معجب بيكى جدا .. و

ولم أرد ..

وقالت وهى تضع يدها فوق كتفى :

— ده طول الوقت كان بيتكلم عليكى !!

والتفت اليها بحدة وصرخت فى وجهها :

— من فضلك ماتجيبيش سيرته .. مش عايزه اسمع الاسم ده أبدا .. انتى مابتنكسفيش .. مش كفايه اللى بتعمليه ..

وابتعدت عنى كوثر ، ونظرت الى نظرة قاسية مليئة بالحقد والكراهية ، ثم استعادت هدوءها سريعا ، ومسحت النظرة القاسية من عينيها ، وقالت فى عتاب ضاحك :

— من فضلك ماتزعقيش فيه كده .. انا عارفة ايه اللى مخسر أعصابك . .مافيش حاجة مخسرة اعصابك الا الجوابات اللى بتكتبيها دى .. اعقلى بأه ياشيخة .. البعيد عن العين بعيد عن القلب !!

وصرخت كأنى أحمى حبى .. وأملى :

— مالكيش دعوه بيه .. ما تكلمينيش .. ماتدخليش أودتى .. من فضلك سيبينى .. سيبينى لوحدى !

وهزت كتفيها فى استخفاف ، وقالت وهى تخرج :

— بلاش .. الحق عليه ..

وقمت وصفقت الباب وراءها ..

وبقيت فى حجرتى كالمجنونة .. مزقت الخطابات التى كتبتها . ونثرت الوسائد على الأرض .. وحطمت « الفاز » .. وشددت شعرى ..

ثم هدأت .

وخرجت لأجلس مع أبى على مائدة الغداء . صامتة حزينة مكتئبة ، لا أرفع عينى الى كوثر كأنى أقسمت ألا تقع عيناى على وجهها .. الى أن سمعت أبى يقول لى :

— الأستاذ سمير ما ضربش تليفون النهارده .. ولا ايه ؟

ورفعت رأسى متعجبة ..

كنت معتقدة ان كوثر قد أنهت موضوع سمير مع أبى.. قالت له أى شىء .. كذبت أى كذبة .. ولم أكن أنتظر أبدا أن يعود أبى ويسألنى عنه ..

وتمالكت أعصابى ، وقلت كأنى أتجاهل أهمية السؤال :

— لا ..

وقال أبى وهو يبتسم ابتسامة كبيرة :

— كده !! وعلشان كده زعلانه .. لا ياستى ما تزعليش!

ونظرت الى كوثر فى تساؤل ..

وحولت كوثر عينيها عنى وهى تبتسم ابتسامة خبيثة ، كأنها لاتريد أن تجيبنى ..

وعدت أنظر الى أبى ، وابتسامته الكبيرة لا تزال تغطى وجهه كله ..

ثم قذفت « الفوطة » فوق المائدة ، وقمت فى عصبية الى غرفتى .. وضحك أبى ضحكة صاخبة لاحقتنى حتى ألقيت نفسى فوق فراشى ..

ماذا يعنى أبى ؟
هل يسخر منى ؟
ولماذا لم تتكلم كوثر ؟
وما معنى هذه الابتسامة الخبيثة التى ارتسمت على شفتيها ؟
والى متى سأسكت على هذا الحال ياربى !!..

ولم أطق البقاء فى البيت .. وخرجت فى الساعة الرابعة بعد الظهر وذهبت لزيارة احدى صديقاتى ، ولكنى لم أطق البقاء أيضا عند صديقتى .. فخرجت من عندها وذهبت الى زيارة أمى ..

وساءلت نفسى مرة ثانية وأنا جالسة معها : « هل أستطيع أن أشركها معى فى مشاكلى ؟ .. هل أستطيع أن أروى لها ما تفعله بى كوثر ، وقصة خياناتها لأبى ؟ .. هل أستطيع أن أحدثها عن حبى لمحمود ، وانتظارى له ولهفتى عليه ؟.. هل أستطيع أن أفتح لها كل قلبى لتتدفق منه كل عواطفى وكل خواطرى .. ثم أسألها النصيحة والرأى » ؟

ووجدتنى أجيب على نفسى فى يأس : « كلا .. انها لن تفهمنى .. انها بعيدة عنى .. بعيدة جدا .. فى عالم غير عالمى.. عالم ساذج برىء لا تدخله مشاكلى ولا حياتى المعقدة » !

وجلست معها أستمع منها الى أحاديث الأزياء وأفلام السينما . وكنت شاردة .. كنت طول الوقت أحس أن هناك مصيبة تنتظرنى .. حفرة سأقع فيها .. ربما ستهب على ،

ولا أدرى متى ومن أين تهب .. وكنت خائفة .. خائفة أن أعود الى بيتنا .. وخائفة أن أفكر .. وخائفة من شبح أسود ضخم يقترب منى ..

وكان يجب أن أعود الى البيت .. فقمت كأنى أنتزع نفسى انتزاعا . واحتضنت أمى كأنى أحتمى بها ، أو كأنى سأفارقها الى الأبد ، وعدت فى الساعة السابعة مساء ، وما كدت أدخل البيت حتى وجدت حجرة الصالون مضاءة ، وسمعت منها صوت أبى ، وصوت زوجته كوثر وصوت رجل غريب ..

ودخلت حجرة الصالون ..

ووقفت على بابها مبهوتة .. كأنى سمرت فى الأرض ..

وأخذت أنقل عينى بين كوثر وأبى .. فى دهشة وارتباك.. ثم فى ثورة مكبوتة تكاد تمزقنى ..

لقد كان الرجل الغريب هو سمير !!

سمير حسام الدين !!

عشيق كوثر !!

ماذا جاء به ؟.. ماذا يفعل هنا ؟

ولم أنتظر حتى أجيب نفسى .. بل استدرت دون أن أحيى أحدا .. حتى ولا أبى .. ثم دخلت حجرتى وأنا لا أدرى هل أسير على قدمى .. أم على ركبتى ؟!!

الوقحة .. المجرمة .. لم يبق الا أن تأتى بعشيقها الى البيت وتجمع بينه وبين أبى فى حجرة واحدة !!

ولكن لماذا ؟

ما حاجتها الى دعوته الى البيت ؟

وسمعت صوت البـاب الخارجي يفتح .. وأصـوات توديع .. ثم يغلق الباب .. ثم جاء أبي ودخل غرفتي وعلى وجهه ابتسامة كبيرة ترقص لها وجنتاه ، وقال في فرح وحنان:

— مالك جريتي كده زى البنات الصغيرين .. تعالى .. تعالى نتكلم سوا في أودة المكتب ..

وقمت معه وأنا مذهولة !!

ونادى على كوثر لتنضم الينا ..

ثم أقفل الباب علينا بحرص كأنه يعد اجتماعا خطيرا .. واستدار الى ووضع يديه فوق كتفي ، وأخذ ينظر الى من بعيد كأنه لم يرني من قبل .. ثم ضمني الى صدره وضغطني في رفق وحنو ، وقبلني فوق جبيني ، وقال كأن قلبه يتهدج :

— مبروك يانادية .. ألف مبروك ياحبيبتي !!

وسمعت صوت كوثر في هذه اللحظة تقول هي الأخرى في فرحة مفتعلة :

— مبروك يانادية ..

ثم قامت تقبلني وأنا لا زلت بين أحضان أبي ..

وابتعدت عنها ، وقلت وأنا لا أفهم شيئا :

— مبروك على ايه ؟

وقال أبي كأنه يعاتبني على غبائي :

— أنا خلاص وافقت ..

قلت وقد بدأت أحس من أين تهب الريح ، ومن أين تأتى المصيبة :

— وافقت على ايه ؟!!!

وقال أبى كأنه يكلف نفسه الصبر :

— وافقت على سمير ..

صرخت فى حدة :

— ماله ..؟!

وقالت كوثر فى برود :

— لأ . .انتى زودتيها قوى ياناديه ..

قلت ، وقد بدأت أفقد أعصابى :

— زودتها يعنى ايه ؟!!

وقال أبى كأنه يهدئنى :

— اسكتى أنت ياكوثر ..

ثم التفت الى قائلا :

— ياستى سمير جه خطبك النهــارده وأنا وافقت .. الجدع كان مكسوف قوى ، انما بينى وبينك ، أنا كنت مكسوف أكتر كان متهيأ لى انه بيخطبنى أنا .. واتفقت انه ييجى بكره يتمشى معانا وتقعد كلنا سوا ..

واتسعت عيناى فى ذعر .. رأيت الهوة السحيقة المظلمة فاغرة فاها تحت قدمى .. وقلت وأنا أكبت غيظى ، وأحس بأعصابى كأنها أوتار كمان تتمزق ، وتطلق فى تمزقها رنينا أجوف متتاليا :

— مين قال انى عايزة أتجوزه .. مين ؟!!

وقال أبى فى دهشة :

— مين قال !!.. كوثر قالت لى على كل حاجة !!

ووضحت خيوط المؤامرة ، ولكنى تمالكت نفسى وقلت بعد أن حدجت كوثر بنظرة كأنها السكين :

— انما أنا مش عايزة أتجوزه ..

وارتفع صوت أبى كأنه لم يعد يطيقنى :

— مش عايزه تتجوزيه .. ازاى الكلام ده .. أمال كنتى عايزه تمرفيه من غير جواز .. وكنتى بتروحى تقابليـه ، وتاخدى كوثر تقابله معاكى ، وانتى مش ناوية تتجوزيه .. أمال كنتى بتقابليه ليه ؟ .. فهمينى ؟!!

ونظرت الى أبى صامتة ، وقد خيل الى أن دمائى قد غلت حتى تبخرت ولم يعد فى دم .. وفكرت ســاعتها أن أعترف له .. أن أقول ان هذا الرجل هو عشيق زوجته .. وأننا — هو وأنا — سنروح ضحية مؤامرة خسيسة دنيئة تنسج حولنا ..

ولكن ، هل كنت أستطيع أن أعترف .. أن أقضى على سعادته بضربة واحدة ؟ لا ، انى أحب أبى أكثر من ذلك بكثير .. وقد جربت مرة كيف يكون حاله عندما يطلق زوجته بتهمة خيانته ..

جربت وتبت !!

وقلت وأنا أحاول أن أكون هادئة :

— كوثر كانت معايا علشان ترجع تطلب منك انك تسأل عن أخلاقه .. وحالته .. و ..

وقاطعنى كأنه يتسرع انهاء الموضوع :

— سألت ياستى .. يعنى كنت حا أقبله من غير ما أسأل عليه .. النهارده كل أصحابى فى النادى شكروا فيه ، وفى عيلته ، وسألت عليه مدير شركة التأمين مدح فيه جدا ، وقال عليه انه شاب ذكى وله مستقبل .. و ..

وقاطعته بدورى قائلة ، وأنا لازلت أحاول الاحتفاظ بهدوئى :

— انما برضه نستنى شوية لغاية ما نتأكد !!

والتفت الى كوثر قائلة وأنا أمزق وجهها بعينى :

— مش كده ياكوثر ؟!!

وقالت كوثر فى برود عجيب :

— أنا مش شايفة داعى أبدا اننا نستنى .. انتى اللى طول عمرك مترددة وخصوصا فى مسألة الجواز ..

وقال أبى كأنه يكمل كلامها :

— اسمعى يانادية .. انت بتنخطبى من يوم ما كان عندك ستاشر سنة ، وكل واحد بييجى كنتى بترفضيه .. دلوقت بأه عندك عشرين سنة ولازم تتجوزى .. ما قدرش أسيبك على كيفك لغاية ما تضيعى مستقبلك ..

قلت كأنى أحنن قلبه :

— أنت اتضايقت من عيشتى معاك يابابا ؟!!

وقال أبي ف صوت خفيض وهو يقترب مني ويحيطني بذراعيه :

— أنا مش عارف حاقدر أعيش من غيرك ازاى يابنتي .. انتي طول عمرك حتة مني .. حتة من صباحي ومن ليلي .. ده أنا كان متهيأ لي وسمير بيخطبك انى أشترط عليه انكم تقعدوا معانا .

وقاطعته كوثر قائلة :

— ياريت والنبي يا أحمد !!

ولم يأبه أبي بها واستمر في كلامه وهو يمسح بيده على شعرى :

—ده باين عليه جدع كويس يانادية من عيلة .. ومتعلم.. وحالته مش بطالة .. وانتي بتحبيه .. ويبقى ناقص ايه .. اذا كان مش غنى فانتي ولله الحمد مش محتاجة .. عندك اللى يكفيكوا أنتم الاتنين وزيادة ..

وألقيت رأسى على صدر أبي .. ولم أتمالك نفسى .. وبكيت !

وكانت المرة الأولى التى أبكى فيها أمام كوثر ..

وخيل الى انى أقبل قدميها بدموعى لترحمنى ..

ولكنها لم ترحم ، وسمعتها تقول فى دلال وكأن قلبها حجر :

— لا .. حقه ما بقاش الا العياط .. ده انتي زى ما يكون عندك اتناشر سنة وجالك عريس ..

وضمنى أبى ، وأخذ يربت على ظهرى ويقول كأنه حائر:

— ليه بس يانادية .. الحياط دلوقت لزمته ايه ؟

وقلت من بين دموعى :

— ما بحبوش يابابا .. ما بحبوش !!

وقال أبى كأنه لا يصدقنى ، وكأنه يحاول أن يخفف عنى:

— ازاى ياه .. هوه أنا اللى اختـرته والا انتى اللى اخترتيه ، وخدتى كوثر علشان تنقيه معاكى !!

وضحك أبى كأنه قال نكتة ..

وترددت ضحكته فى صدرى نشيجا ، وقلت ونشيجى يقطع كلماتى :

— أعمل معروف يابابا .. ما تتسرعش .. ما تغصبنيش على حاجة .. على الأقل خلينا نفكر شوية ..

وقال أبى وهو لا يزال يربت على ظهرى :

— أنا عمرى ما غصبتك على حاجة يانادية .. الأمر دايما أمرك .. اللى انتى عايزاه بيتعمل .. انما ما تنسيش انك قربت على العشرين ولازم تتجوزى اذا ما كنش النهارده يبقى بكره .. وأحب أقول لك كمان ان سمير ده باين عليه جدع كويس ..

قلت وأنا أحرق دموعى بأنفاسى :

— طيب سيبنى أفكر يابابا .. سيبنى أفكر !!

وتخلصت من ذراعيه ، وخرجت من الحجرة متعثرة فى خطاى !

وحاول أبى أن يلحق بى ، فسمعت كوثر تقول له دون أن تتحرك من مقعدها :

— سيبها يا أحمد .. دلوقتى تهدا ، كلنا لما اتجوزنا أول مرة عملنا كده !!

وصفقت الباب ورائى بعنف ..

وارتميت فى فراشى .. وأفرغت ما بقى من دموعى ..

ثم هدأت .. ارتخى كل شىء فى ، كأن كل شىء قد تعب منى . وتخلى عنى ، ونام .. وظلت عيناى مفتوحتين أبحلق بهما فى السقف ، وأرى خيوط المؤامرة التى تحاك حولى ..

انها خيوط واضحة لا تحتاج الى ذكاء كبير لتبينها ..

لقد أراد سمير وكوثر أن يستغلا تسترى على خيانتهما ، وأن يستغلا خدعتى لأبى عندما أقنعته بأن سمير هو صديقى لا صديق كوثر ، حتى أخلصها من الحرج عندما فاجأنا أبى ونحن جلوس فى جروبى ..

أرادا أن يستغلا هذا الموقف .. فاتفق سمير مع كوثر على أن يتزوجنى .. فأنا عروس دسمة غنية .. والدى يملك ثلثماية فدان ، غير البيوت ، وحصة فى وقف كبير لم يصف بعد .. وعمى غنى وليس له وريث .. وأمى غنيــة .. والأهم من ذلك .. ان أبى أمن على حياته لصالحى بمبلغ عشرين ألف جنيه تستحق يوم زواجى .. وقد دفع أقساط بوليصة التأمين كلها قبل أن أتم السادسة عشرة من عمرى ..

وكل ذلك سيذهب الى سمير وكوثر !!

سيتز سمير العشرين ألف جنيه ويضمن حياة فاخرة هنية بجانبي .. ويضمن في الوقت نفسه أن يكون دائما قريبا من كوثر .. أن تنتقل خياتها الى داخل البيت .. بدل « الشحططة » في « الجرسونيرات » .. الزوج يخرج من هنا ، والعشيق يدخل من هنا .. دون أن يشتبه أحد ، أو يتحرك لسان ..

يا فرحة سمير في أبي المسكين .. سيأخذ ابنته ، وزوجته، وماله !!

ولكن .. كيف ترضى كوثر بأن تتنازل لي عن عشيقها ؟

من قال انها ستتنازل عنه .. أبدا سيبقى لها بعد زواجه، كما بقيت له بعد زواجها .. ألم تتزوج رجلا غنيا وظلت على علاقتها به ، فلماذا لا يتزوج هو الآخر فتاة غنية ويبقى على علاقته بها ..

وابتسمت في مرارة وأنا أرى هذه الخيوط السوداء ترتسم أمام عيني في سقف الحجرة ..

ولكن هل ينجحان في تنفيذ هذه المؤامرة .. هل تتحقق لهما آمالهما الدنيئة ؟

لقد اعتقدت يومها أني شريرة ..

فوعدني الله بأشر مني ..

وحاولت ليلتها أن أحادث كوثر على انفراد .. خرجت من غرفتي وأنا أحمل فوق وجهي عيني المقرحتين من أثر البكاء ، وهمست في أذنها :

– أنا عايزه أكلمك لوحدك !!

فردت في براءة مفتعلة :

– بس موش دلوقت ياناديه .. ما أقدرش أسيب أبو كي لوحده .. يعدين الراجل يقول ايه ؟

وفهمت أنها تتهرب مني ..

فهمت أنها تمد شيئا .. خيطا آخر من المؤامرة تحاول أن تخفيه عني ..

وعدت الى غرفتي ذليلة منكسرة ، كأنها صفعتني على وجهي بفردة حذائها ..

ولم أنم ..

كنت أفكر .. كنت أشحذ كل شيء لأجد خطة أحمي بها نفسي من هذا الزواج .. ولأنتقم .. لأذل كوثر كما أذلتني.. أعذبها كما عذبتني . ولكن ذكائي خانني .. لم أجد خطة .. ولم أجد انتقاما .. كنت أحس كأني قطة محبوسة في قفص وتدور على نفسها بينما النار مشتعلة في ذيلها ..

وكنت مصممة على ألا أتزوج هذا المخلوق .. سمير !!

كنت مصممة على المقاومة حتى النهاية ..

انى لا أستطيع أن أضحي بنفسي الى هذا الحد .. أن أضحي بكل آمالي .. وأضحي بمحمود .. وأضحي بحبي .. وأستسلم لجماعة من المحتالين .. لا .. أبدا .. مستحيل !

وأخذت أناجي محمود ..

لو كان بجانبي لما حدث كل ذلك .. لاحتميت به وبحبه.. لتقدم ليتزوجني .. وينقذني !!

وشعرت بخوف .. وانقلب الخوف في نفسي الى ثورة .. شعرت ان في يدي سكينا أطعن به كوثر .. وأظل أطعنها حتى تقع على الأرض وأغسل قدمي بدمهــا .. ثم أنحني وأقطع جسـدها قطعة قطعة وألقي بها الى الكلاب ..

وأفقت من هذا الخيال لأجد قبضة يدي ترتفع وتهوى على الوسادة في ضربات عصبية عنيفة .. كأني فعلا ، أطعن كوثر ! .. وفي الصباح جاء أبي الى غرفتي ، وجلس بجانبي على حافة الفراش .. ونظر الى وجهي الممتقع ، وقال بعد أن قبلني :

— انتي يظهر عليكي ما نمتيش ؟

قلت وأنا أرسم ابتسامة ضعيفة فوق شفتي :

— نمت بس قلقت شوية !!

قال وهو ينظر الى في حنان كأنه يحملني برموش عينيه :

— اسمعي يانادية .. أنا ما عرفتش أكلمك امبارح .. كنتي عصبية أكتر من اللازم .. وكنت عايز أقول لك اني مهما كنت سعيد مش ممكن تتم سعادتي الا بسعادتك .. بالعكس كل ما سعادتي تزيد كل ما أفكر في سعادتك أكتر .. يعني أنا باحب كوثر .. باحبها ما تتصوريش أد ايه .. عمري ما كنت أعتقد اني أقدر أحب للدرجة دي .. لكن كل ما بحبها أكتر بافكر فيكي أكتر .. أفكر في اليوم اللي ألاقيكي فيه بتحبي

تجوزك زى أنا ما باحب كوثر .. وتكونى سعيدة زى ما أنا سعيد معاها .. علشان كده عايزك تتجوزى سمير .. علشان تسعدى .. مش علشان تتجوزى والسلام .. وأنا واثق انك حتبقى سعيدة معاه ..

ونظرت اليه فى اشفاق ..

خيل الى انه طفل كبير مغمض العينين لايدرى شيئا مما حوله .. طفل أحبه .. طفلى !!

هل أفتح عينيه ليرى الدنيا على حقيقتها .. ليرى زوجته تخونه .. ويرى عشيق زوجته يتقدم للزواج من ابنته ؟!!

هل أوقظه من الحلم الجميل ؟!!

لا ..

لقد أشفقت عليه فى هذه اللحظة كما لم أشفق عليه من قبل .. أحسست بحبه يعصر قلبى ، وكأن هذا القلب قطعة من الأسفنج أعصرها بيدى لأقطر منها رحيق السعادة فى فم أبى ..

سيبقى سعيدا ..

سيعيش فى حلمه الجميل .. لن يفيق منه أبدا ، كما أفاق مرة ورأى سعادته وهما ..

بأى ثمن ، ومهما حدث ..

وقلت له وأنا أبتسم ، وكأنى أصنع من ابتسامتى مهدا ناعما أضع فيه طفلى الكبير :

— أنا عارفه يابابا .. عارفه ان احنا الاتنين لبعض ..

وحاكون سعيدة ان شـاء الله ، علشان تكمل سعادتك .. النهارده بالليل حاتعرف كل حاجة !!

وخرج طفلى الكبير ..

وقمت بعد مدة ، لأجد كوثر جالسة فى «الأنتريه» تقلب فى احدى المجلات .. وشددت عودي ، وجذبت أنفاسا من أعماقي ، كأنى أستعد لمعركة .. وقلت فى لهجة حاسمة ، دون أن أحييها تحية الصباح :

— اسمعى ياكوثر .. كلمة واحدة .. حكاية الجواز دى مش ممكن تتم .. فاهمه يعني ايه .. مش ممكن تتم ..؟

ورفعت رأسها من فوق صفحات المجلة ونظرت الى نظرة باردة ، وقالت فى فتور :

— ليه .. ده سمير جدع كويس !!

قلت وقد صدمتنى ببرودتها :

— عجايب .. قصدك ايه ، فهمينى ؟

قالت وهى تبتسم كأنها تتلذذ بتعذيبى :

— ولا قصدي ولا حاجة .. راجل معجب بيكى وجاى يخطبك .. فيها ايه دى ؟!!

قلت وأنا أحاول أن أطفىء نارى بالسخرية منها :

— ما كان معجب بيكى انتى !!

قالت وهى ترد سخريتى بسخرية ألذع منها :

— ده اعجاب برىء .. صدقينى !!

قلت وقد بدأت أعصابى تفلت منى :

— برىء مش برىء .. أنا مش حاتجوز .. اتفضلى قوليله أنى مش حتجوزه ولو دبحونى .. ويعمـــل طيب لو ماجاش الليلة على العشا ..

ونظرت الى نظرة قاسية ، ثم هزت كتفيها ، وقالت فى هــدوء :

— يبقى أتجوزه أنا ..

قلت كأنى أشهق :

— ايه .. بتقولى ايه ؟!!

قالت وهى تخفى وجهها فى صفحات المجلة :

— أصله صعبان على .. مسـكين عايش لوحــده .. وما دام مش لاقى حد يتجوزه .. أتجوزه أنا ..

قلت وأنا أصرخ :

— انتى مجرمة .. سافلة .. أنا عمرى ما شفت ستات بالشـكل ده !!

قالت دون أن تهتز :

— وفرى على نفسـك الشتيمة .. وأحسن لك تتجوزيه!!

قلت وأنا أكاد أنفجر غيظا :

— واذا ما اتجوزتوش .. حيحصـل ايه ؟

قالت وهى تقلب صفحات المجلة :

— أبوكى حيعرف انى باحبه .. وانى ماشية معاه ، وانى باخونه معاه ، وبعد كده الباقى معروف !!

وارتميت على مقعد كأني أصبت بطلقة مسدس ، وقلت كأني أتنهد :

— وأبويا ذنبه ايه ؟

قالت دون أن تنظر الي :

— ما لوش ذنب .. انما ده اللى حيحصل !!..

قلت كأني أتوسل اليها :

— انما انت عارفه انى باحب واحد .. وانه حيرجع من أوروبا علشان يتجوزنى .. حرام عليكى .. حـرام عليكى ياكوثر ..

قالت وقد ألقت المجلة من يدها :

— بتحبى .. وماله .. أنا حبيت مدحت وأنا تلميـذة معاكى وماتجوزتوش .. اتجوزت واحد تانى لا كنت باحبه ولا باعرفه ، وحبيت سمير وما اتجوزتوش اتجوزت أبوكى من غير ما أحبه .. الحب حاجة والزواج حاجة تانية ..

قلت فى صوت ضعيف كأنه السم البطىء :

— انتى عمرك ماحبيتى .. لو كنتى بتحبى سمير ماكنتيش سمحتى له انه يتجوزنى !!

قالت وهى تبتسم فى خلاعة :

— برضه أقول لك .. الحب حاجة والجواز حاجة تانية!!

قلت وأنا أتشبث بمقعدى حتى لا أهب وأصفعها :

— كويس خالص .. يعنى يتجوزنى أنا ، ويحبك انت .. وأنا أتجوزه .. وأحب محمود !!..



وصرخت : دى سفالة .. إجرام .. انتى وهوه تعابين

قالت ف فتور :

— ياستى سيبى الحاجات دى لظروفها !!

وصرخت :

— ماسيبهاش . دى قذارة .. سفالة .. اجرام .. انتى وهوه نصابين .. طمعانين ف فلوسى .. وفلوس أبويا .. مش حاتجوزه .. ويحصل اللى يحصل !!

وهبت واقفة وألقت المجلة على الأريكة وقالت ف حدة :

— لا .. انتى زودتيها قوى .. أنا نازلة علشان ما عكرش دمى بكلامك البايخ .. ولما ييجى أحمد قولى له انى باتغدى مع سمير .. مع حبيبى سمير .. عاجبه على كده ، عاجبه .. مش عاجبه يطلقنى !!

وخرجت وصفقت الباب وراءها ..

وتركتنى ف دوامة سوداء تلف بى .. وتمزق عقلى .. وقلبى .. وتنزع ضلوعى من صدرى ..

وف وسط هذه الدوامة كنت أبحث عن طرف الخيط .. عن الحل ..



كان عليّ أن أختار :
أنا .. أو أبي !!
سعادتي .. أو سعادته !!
حبي .. أو حبه !!
حياتي .. أو حياته !!

ولم يكن هناك طريق آخر .. لم أجد حلا أجمع به بين سعادته وسعادتي .. كانت كوثر وسمير قد دبرا مؤامرتهما بذكاء حاد شرير ، فلم يتركا بابا أهرب منه ..

وربما كان الذنب ذنبي منذ تسترت على خيانة كوثر ، فقد علمت كوثر انى لاأتستر عليها حبا فيها أو تأييدا لخياناتها، انما تسترت عليها حبا فى أبي وحرصا على هنائه ، فاتخذت من هذا الحب وهذا الحرص سلاحا تطعنني به وتشهره فى وجهى لتبتز مالى وحياتى ..

ولكن هل كنت أستطيع غير ذلك ؟

هل كنت أستطيع أن أفضحها .. وأهدم البيت على رأسها ورأس أبي ورأسي ؟

اذن .. لماذا ينتقم منى الله ؟!!

هل مجرد التستر على الخطيئة .. جريمة تستحق عقاب الله ؟

ولكن هل هذه هى جريمتى الوحيدة ؟

ومرت أيام حياتي في مخيلتي كأنها شريط سينمائي سريع ، وشاهدت الضحايا الذين صرعتهم .. الصبي الذي استدرجته حتى البيت ليضربه البواب .. وكوثر نفسها التي حطمت حبها لمدحت .. حبها الأول العف .. ثم صديقتي مرفت التي وشيت بها الى أهلها . ثم طنط صفية .. ثم عمي الذي قطعت ما بينه وبين أبي بوقيعة خسيسة .. والليالي التي حررت فيها نفسي من كل القيود وقضيتها بين أحضان مصطفى .. بل اني رأيت عروستي التي حطمتها في طفولتي كأنها ضحية من ضحاياي .. والخادم الذي طردته .. ودادا حليمة التي صددت حبها لي وقسوت عليها .. و .. و .. وخيل الي ان شيئا في نفسي يصرخ مرتاعا كلما مرت بخيالي صورة احدى ضحاياي ..

ولكني حاولت أن أكفر عن كل هذه الخطايا ..

حاولت كثيرا ياربي .. فلماذا لا تغفر لي ؟

ماذنبي في جرائمي ؟

وما ذنبي في عقابك ؟

ربما كان لي ذنب .. ربما كان ذنبي اني اعتمدت طول حياتي على ذكائي .. كنت واثقة من ذكائي .. الى حد بعيد .. وكان ذكاء بلا مبادىء .. لم تكن لي مبادىء أصونها وتصونني ، وأحرص عليها وتحرص علي ، وترسم دائرة محددة يدور فيها ذكائي ولا يخرج عنها ..

نعم .. لم تكن لي مبادىء !!

لم يحاول أحد أن يعلمنى هذه المبادىء ، فانطلق ذكائى بلا وعى .. وبلا هدف .. انطلق وحده تقوده شطحات نفسى .. يقوده الحقد أحيانا .. والأنانية أحيانا .. والغرور أحيانا .. والغيرة أحيانا .. وكان لابد لهذا الذكاء أن يخطىء مرة ، أن يتخلى عنى ، أن يتركنى أسقط .. وقد سقطت .. سقطة لا أستطيع أن أقوم منها ..

وربما كان هذا هو حال كل من يعيش بلا مبادىء معتمدا على ذكائه .. تكفى غلطة واحدة ليسقط .. فليس له شيء آخر يحميه من أخطاء الذكاء .. ليس له مبادىء !!

وقد أخطأ ذكائى عندما اخترت كوثر زوجة لأبى ..

خطأ قصم ظهرى ..

ولن ينفعنى الندم .. ولكن هل أستسلم لهذا الخطأ .. هل أتحمل كل تبعاته بلا مقاومة ؟

وعدت أسائل نفسى .. وأنا لا زلت فى جلستى لم أتحرك منها : « هل كوثر جادة فى تهديدها .. هل حقيقة ستطلق أبى ان لم أتزوج سمير .. هل تضحى بكل هذا الهناء الذى يوفره لها أبى .. ولكن لماذا ؟ ربما لتتزوج سمير ان لم أتزوجه .. ولكنها لو كانت تريد أن تتزوجه فلماذا تتركه يتزوجنى » ؟

وكدت أعتقد أن كوثر لا يمكن أن تكون جادة فى تهديدها ولكنى عدت أقول لنفسى : « اذا لم أتزوج سمير فهو لن يترك كوثر تهدأ .. سيظل وراءها حتى تطلق أبى ..

وماذا يهمه اذا طلقته .. لاشيء .. سواء تزوجها أو لم يتزوجها فلن يهمه شيء .. وحتى ان لم يطلقها أبي فستنغص حياته .. ستقلب حياته الى جحيم .. انى أعرفها .. انها تستطيع أى شيء » !!

وأحسست بضربات قلبى تشتد .. كأن كابوسا مخيفا يجثم فوق صدرى .. وأخفيت عينى براحة يدى كأنى لا أريد أن أرى السكين التى تذبحنى .. لا أريد أن أرى نفسى ضحية ملقاة تحت قدمى كوثر وسمير ، يتلذذان بسلخ جلدها وتقطيع لحمها ..

وكانت الدوامة التى تلف فى رأسى تشتد ، ويخيل الى أنها فى لفها تئز فى صوت كالصفير .. صفير حاد يمزق رأسى ويفتتها ويحيلها الى كتلة من الألم ..

كان فىرأسى صداع قاس يعذبنى .. وفى وسط هذا الصداع كنت أفكر . .وكنت أحاول أن أحدد موقفى ..

لماذا لا أترك أبى وشأنه .. ما حيلتى فيه اذا كان هذا هو نصيبه من الدنيا .. لماذا لا أطلعه على الحقيقة وأنتهى .. وأستريح . وليحدث بعد ذلك ما يحدث .. ولكنه أبى .. ليس أبى فحسب .. انه أبى وأمى .. أبى الذى حرم نفسه من شبابه حتى بلغت السادسة عشرة من عمرى .. وعاش لى.. وحدى ..

وتذكرته عندما كان يحملنى ليضعنى فى فراشى وأنا طفلة .. وتذكرته وهو يقرأ لى فى كتب الأطفال . . وتذكرته

وهو واقف بجانب دادا حليمة وهى تبدل ثيابى .. وتذكرته لهوفا على فى مرضى .. وتذكرت لياليه التى قضاها بجانب فراشى حتى أنام .. وتذكرته وهو يحيطنى بحبه وحنانه وأنا صبية ثم وأنا شابة .. ان كل يوم من أيامى قطعة منه .. نفس من أنفاسه ..

وخيل الى انه يطل على بوجهه الطيب الجميل ، ويبتسم لى ابتسامته الحلوة البريئة ، وينظر الى بعينيه الحنونين ، نظرة كأن فيها عتابا . كأنه يعاتبنى لأنى فكرت فى لحظة ما أن أتخلى عنه .. ثم سمعت صوته وهو يقول لى فى هـذا الصباح : « .. أنا باحب كوثر .. باحبها ما تتصوريش أد ايه .. عمرى ما كنت أعتقد انى أقدر أحب للدرجة دى » !!

هل أتخلى عنه ؟

هل أفتح عينيه على الوهم الكاذب الذى يعيش فيه ؟

لا .. لا أستطيع .. مستحيل .. ان حبى له أقوى من أنانيتى ..

اذن ..

أتخلى عن محمود ..

حبيبى محمود ..

أتخلى عن حبى .. عن هنائى .. أهدم بيدى كل أحلامى.. أترك الجنة وألقى بنفسى فى الجحيم ..

وأحسست كأن قلبى يتمزق ، كأنى أسمع صوت ضلوعى وهى تتحطم كأعواد الحطب اليابس ..

محمود الطيب الكريم الرجل .. الحصن الذى أعددته لأحتمى به من نفسى ومن الدنيا .. هل أضحى به بعد أن انتظرته هذا العمر الطويل لأجده .. لأجد الرجل الوحيد الذى تمنيته زوجا ..

لماذا ياربى ؟

ياربى .. هل أنت موجود ؟

أين أنت لترحمنى .. لتنقذنى !!

وأحسست انى أريد أن أبكى .. لعل البكاء يريحنى ويعيدنى الى حظيرة الله ، ولكنى لم أجد دموعى .. كان الصداع الذى ينهك رأسى قد امتصها كلها .. فمددت أصابعى وقد خيل الى أنها تشنجت حتى أصبحت كالمسامير ودستها فى شعرى وأخذت أشده بها كأنى جننت .. وكأنى أحاول أن أقتلع شعرى لأنزع من تحته الصداع الذى يمزق رأسى..

ولا أدرى كم مضى على فى هذه الحال .. ولكنى افقت على صوت الباب يفتح وأبى يدخل ..

ونظر الى أبى دهشا .. وقال وهو يحاول أن يبتسم :

— مالك عاملة فى نفسك كده .. انتى لسه ماغسلتيش وشك .. ولا ايه ؟

قلت وأنا أفتش بين همومى عن ابتسامة :

— الحقيقة لسه .. أصلى صحيت تعبانه .. قمت من السرير جيت قعدت على الكرسى ده..ومن ساعتها ماتنقلتش!!

قال وهو يمسح بيده على شعرى ، كأنه يسوى خصلاته المتناثرة :

— طيب قومى اغسلى وشك وتعالى .. أنا جايبلك معايا مفاجأة مدهشة .. ثم التفت حوله واستطرد قائلا :

— فين كوثر .. كوثر .. ياكوثر ..

واتجه الى داخل البيت .. فانتفضت من مقعدى ، وجريت وراءه ، وقلت وأنا أحاول أن يكون صوتى طبيعيا هادئا :

— كوثر حتتغدى النهارده عند خالتها .. أمها ضربت لها تليفون وقالت لها ان خالتها عيانه .. فاتت عليها وراحوا لها سوا ..

وكنت أعلم انه ليس فى بيت خالة كوثر تليفون ..

وقال أبى وقد اضطربت عيناه كأنه يعز عليه أن يحرم من كوثر ساعة الغداء :

— عيانه قوى ؟!!

قلت وأنا أتفادى أن ألتقى بعينيه :

— ما أظنش !!

قال فى لهفة :

— طيب ماتيجى ننزل عليهم علشان تطمن ؟

قلت كأنى أحاول أن أخفف عنه :

— على ايه .. مافيش لزوم .. انت عارف عيلة كوثر .. لما واحد فيهم يجيله شوية زكام يتلموا كلهم ويقعدوا حواليه ..

قال وهو لا يزال آسفا :

— ما قالتش حاترجع امتى ؟
قلت :
— أظن حترجع بعد الغدا على طول ..
قال وكأنه يلح على نفسه ليقنعها :
— طيب ما نروح نجيبها دلوقت .. علشان نبتدى نشوف حنعمل ايه للعشا .. ده سمير بيه جاى النهارده ..
وخيل الى انه صفعنى وهو ينطق اسم سمير ، ولكنى تمالكت وقلت وكأنى أدفع عنه خواطره :
— لو رحنا دلوقت حيمسكوا فينا على الغدا .. وما يصحش !
وزفر أبى كأنه أطلق كل أنفاسه ، وقال فى استسلام :
— طيب !!
واتجه الى غرفته ، وتعلقت به وقلت وقد استطعت أن أضع على فمى ابتسامة كبيرة تخفف عنه :
— ايه هيه المفاجأة اللى جبتها لى ؟
قال فى فتور :
— لما تيجى كوثر !!
قلت فى دلال كأنى أعاتبه :
— علشان خاطرى يابابا ..
قال وتحت أسنانه ابتسامة باردة :
— أصل المفاجأة ما تكملش الا وكوثر موجودة !!
ودخل غرفته وغاب فيها دقائق ثم عاد وجلس فى الاتريه..

ودخلت الى غرفتى وغسلت وجهى بالكريم ثم عدت اليه .. وجلسنا على مائدة الغداء ..

ولم تتكلم كثيرا .. ولم أرفع اليه عينى .. كنت ساهمة أسقط الطعام فى فمى دون أن أحس بطعمه .. ولم أكن أفكر فى محمود ، ولا فى سمير ، ولا فى أبى .. كنت أفكر فى كوثر وحدها ، وكنت أغالب نفسى حتى أتغلب على ضعفى أمامها.. كنت أستجمع كل طاقتى وأحاول أن أحولها الى شر ..

كنت أريد أن أعود شريرة ..

أشر وأدهى مما كنت ..

لم تعد هناك جريمة أندم عليها ، وأحاول أن أكفر عنها .. ولكن كانت هناك جريمة تواجهنى ، وكان من المحال أن أقابلها بالصفح والغفران والاستسلام .. كان يجب أن أقاومها بالشر .. أن أنتقم من المجرمين .. أن أسقط وأنا مالكة لزمام نفسى .. وكنت فى حاجة الى كل قواى ، وكل شرى وكل ذكائى ..

وقال أبى وقد كدنا ننتهى من الغداء وكأنه كان هائما وراء زوجته ، وكأنه صمت طويلا لأنه لا يجد لسانه الا اذا أخرجته له كوثر :

— ياترى قررت ايه يانادية بخصوص الموضوع بتاع النهارده !

ولم أحاول أن أتجاهل ما يقصده ، بل قلت فى صوت خفيض كأنى خجلة :

— احنا اتفقنا انك حتعرف النهارده بالليل !!

وابتسم أبى فى ثقة كأنه يعرف مقدما كل شىء ..

وقمت بعد الغداء .. وجلست فى الانتريه فى انتظار كوثر ..

كان يجب أن أراها قبل أن يراها أبى ..

ولم آكد ألمح خيالها وراء زجاج الباب — وقد جاءت حوالى الساعة الرابعة — حتى قمت بنفسى وفتحت لها البـاب ..

ونظرت الى نظرة تحـد وهى تبتسم ابتسامة خليعة ساخرة .. وقبل أن تنطق ، قلت لها بصوت خفيض :

— أنا قلت انك اتغديتى عند خالتك ..

ونظرت الى كأنها تطالبنى بثمن اقرارها لهذه الكذبة ..

واستطردت وأنا أعلق على شفتى ابتسامة مرحة :

— هوه سمير حاييجى الساعة كام .. ماقالكيش ؟!!

وابتسمت كوثر ابتسامة كبيرة ..

فهمت انى خضعت لها ..

ودخلت ، وأعطت وجنتيها الى أبى ليقبلها فى لهفة كأنها غابت عنه سنين .. وقالت كأنها متعبة :

— أنا آسفة يا أحمد .. كان لازم أروح عند خالتى !!

وقال أبى كأنه استرد روحه :

— وازيها دلوقت ؟

— الحمد لله .. ما عندهاش حاجة .. انما انت عارف خالتي .. يوم ماتكح يتهيأ لها انها حتموت ..

وقال الرجل الطيب :

— يبعد الشر ..

ودخلت كوثر لتخلع جاكت التايير وعادت الينا بعد أن ساوت نفسها .. وجلست وهي تنظر الى في تساؤل ، كأنها لا تصدق انى رضخت لها .. وبهذه السهولة ..

وقال أبي وقد اتسعت ابتسامته :

— أنا كنت محضر مفاجأة لنادية .. انما ما حبتش أوريها لها الا لما تيجي ..

ووضع يده في جيبه وأخرج علبة صغيرة من القطيفة الزرقاء وهو يقول :

— وآدي المفاجأة ياستي ..

وفتح العلبة فلمع منها بريق خاتم ماسي سوليتير ، وقدمها الى وبريق ابتسامته يكاد يطغى على بريق الماس ..

وقبل أن أمد يدي لآخذ العلبة كانت كوثر قد اختطفتها من يده ، وقالت وهي تبحلق في الماس بعينين اتسعتا حتى ابتلعتا نصف وجهها :

— الله .. ايه ده كله .. شوفي يانادية شوفي .. يابختك.. ده أنا عمري ماشفت فص جميل بالشكل ده ..

وناولتني العلبة بيد ضنينة مترددة .. وأخذت أنظر الى قطعة الماس في برود .. حاولت أن أفرح بها فلم أستطع ،

وحاولت أن أفتعل الدهشـــة فأخفقت ، وقلت فى استـــلام كأنى ساحرة أنظر الى مستقبل مظلم فى كرة من البلور :

— مرسي .. ياترى مناسبتها ايه المفاجأة دي ؟!

وقال والدي وقد أسند ظهره الى مقعده ومد قدميه أمامه كأنه يتباهى بعبقريته :

— الفص ده كان بتاع أمي الله يرحمها ، وأهدته لك يوم ما توالدتي .. خدته وركبته على الخاتم ده ، وبعدين حطيته فى البنك وقررت ان ما حدش يشوفه ، ولا أديه لك الا يوم ما تتجوزى .

قلت كأنى أهزأ من تفكيره :

— لكن أنا لسه ما تجوزتش !

قال وهو ينظر الى فى حنان :

— أنا حاسس انك خلاص اتجوزتى !!

ثم صمت برهة واستطرد :

— ياريتك تلبسيه النهارده على العشا ..

وقالت كوثر بسرعة :

— صحيح .. والله فكره .. دى كمان تبقى مفاجأة لسمير بيه !

قلت وأنا أقف على قدمى :

— أما أشوفه ..

واتجهت اليه وانحنيت عليه لأقبله فجذبنى وضمنى بين ذراعيه فى حنان ، وهو يقول :

— ربنا يسعدك يابنتى ..

قلت فى صوت خفيض :

— مرسى يابابا .. ألف مرسى !!

وتركتهما ودخلت غرفتى وأنا قابضة على العلبة الصغيرة الزرقاء كأنى قابضة على جمرة من نار ..

وفتحت العلبـة قبل أن ألقى بها فى دولابى ، ونظرت الى الفص الماسى الكبير مرة ثانية .. ومرة ثانية حاولت أن أفرح به .. أن أحس بجماله .. ولكنى لم أستطع !

لم أفرح .. ولم أحزن ..

وخيل الى انى لن أفرح أبدا ولن أحزن أبدا ..

اكتشفت فى هذه اللحظة أنى فقدت قلبى ..

وفقدت احساسى ..

بل انى حاولت ساعتها أن أفكر فى محمود .. أن أناجيه كعادتى .. أن أستلهم صورته المعلقة فى خيالى .. أن أستعيد آراءه ومبادئه .. ولكنى لم أستطع .. وجدت محمود بعيدا عنى جدا .. بعيدا .. بعيدا .. وصورته تهتز فى خيالى كأنه يجرى الى بعيد هربا منى ..

ووجدت نفسى باردة ..

باردة كالثلج ..

وخيل الى أنى سأبقى باردة كالثلج طول عمـرى .. بلا قلب ، وبلا احساس .. لا أحب ولا أكره .. ولا أرضى ولا أغضب .. ولا أهدأ ولا أثور .. ولا أفرح لجمـال

ولا أمتعض لقبح .. باردة .. جافة .. قاسية ، كتمثال جميل من حجر ..

وجاءت كوثر الى غرفتى ، ووقفت على بابهـا ، وقد أسندت ذراعها على الباب ومالت بخصرها فى حركة خليعة رشيقة .. وقالت وهى تنظر الى الخاتم ، وعلى شفتيها ابتسامة خبيثة :

— تعرفى انه خاتم ثمين قوى .. ده مافيش منه دلوقت !

قلت ووجهى البرىء جامد لا يتحرك :

— فعـلا ..

قالت وهى تقترب منى :

— أنا ماكنتش مصدقة انك توافقى على سمير بالسرعة دى !

قلت وأنا أفتعل ابتسامة :

— ليه .. ده جدع كويس وعاجبنى !

قالت فى دهشة :

— لكن انتى النهارده الصبح ماكنتيش راضية بيه !

قلت وأنا أفتعل .. لهجة ساذجة بريئة :

— انتى عايزه الحق .. كنت خايفه لتزعلى ..

قالت وكأنها اقتنعت :

— أنا !! بالعكس ..

قلت وكأنى أتودد لها :

— الحقيقة هو عاجبنى .. انما ما اقدرش أقول انى باحبـــه !

قالت متسائلة فى جزع كأنها تخاف أن أحب سمير :

— انتى مش بتحبى واحد تانى ؟!

قلت وأنا أرفع اليها عينى ثم أخفضهما كأنى خجلة منها :

— أيوه !!

قالت ضاحكة :

— خلاص ..

قلت وأنا أردد ضحكتها وكأنى تحررت من خجلى :

— وعلى رأى المثل .. الجواز حاجة ، والحب حاجـــة تانيـــة !

واقتربت منى وضمتنى بين ذراعيها ، وأخذت تتأرجح بى ، كأنها طفلة تلهو مع طفلة ، وقالت فى لهجة مرحة صاخبة:

— ده احنا حنعمل عمايل يابنتى .. حانهيص !!

وضحكنا نحن الاثنتين ..

كانت ضحكتها منطلقة صافية كأنها وجدت كل أحلامها..

وكانت ضحكتى مرتفعة فارغة كأنها أجراس تصرخ ..

ثم تركتنى قائلة :

— أما اروح أشوف الطباخ حيعمل ايه للعشا .. أنا عارفه كل الحاجات اللى سمير بيحبها ..

وخرجت ..

ونظرت وراءها كأني أحاول أن أطلق من عيني سياطا تمزق ظهرها ..

وألقيت بنفسي فوق فراشي .. وأحسست بأبخرة الحقد تتجمع في صدري ثم تتصاعد في رأسي .. وبدأ شيء في رأسي يتحرك كأنه يزحف ويتلوى .. وبدأت أحس اني في ظلام أرى فيه شياطين الانتقام ترقص أمامي ، ثم يتقدم زعيمها ويحملني بين ذراعيه وهو يقهقه ثم يقذفني الى أتباعه .. ثم يتقاذفونني فيما بينهم . وأحسست بنشوة وأنا أطير وأقع بين أذرع الشياطين .. نشوة الخوف .. ونشوة الظلام .. ونشوة الذكاء .. ونشوة القامر .. وهو يقتحم المجهول مقامرا بكل ماله طامعا في الربح ..

كنت أضع خطة .. وكنت أنسج خيوطها في دقة ومهارة كأنها خيوط عنكبوت عتيق مجرب .. وخيل الى أن الذباب قد وقع بين هذه الخيوط .. وأني امتصصت دمه !!

وكانت الساعة السابعة مساء عندما أزحت ستر الظلام من حولي ، وقمت وجلست أمام مرآتي ، لأستعد للعشاء .

ونظرت الى وجهي ..

انه لا يزال كما هو ..

الوجه البريء كوجه طفلة لم يمتد بها العمر بعد حتى تقف على الأرض وتسير في زحام الناس ويتعكر نقاؤها بضجيجهم .. وعيناي في لون الزرع الأخضر وقد بلله الندى ، لا تلمح فيهما أبدا شيئا مما في نفسي ، حتى عندما أبكي

لا تعبران عن البكاء انما تنسكب فوقهما الدموع كأن يدا غريبة تطوعت بغسلهما .. وفمي الصغير ترسمه شفتان مكتنزتان ، يخيل اليك انك لا تكاد تلمسهما حتى يتفجر منهما الدم ..

وابتسمت ساخرة ..

ساخرة من وجهي ..

وفتحت درجا بجانبي لألتقط علبة الكريم ، فالتقت عيناي بصورة محمود ملقاة فيه ، فعدت أغلقه بسرعة كأني أهرب منه كما هرب مني .. وفي انغلاقه انطبق الدرج على أصبعي .. وخيل الي أنه انطبق على عنقي .. وأني ألفظ أنفاسي الأخيرة .. ولكني لم أتألم ..

لم يعد في شيء يستطيع أن يتألم ..



.. وبعد أسبوع أعلنت خطبتى الى سمير فى حفل صغير هادىء كأننا نحتفل بذكرى راحل عزيز ..

وقام كل منا بدوره خير قيام !!

كان سمير سعيدا كأنه عقد صفقة العمر ..

وكانت كوثر سعيدة كأنها هى التى تتزوج سمير .. ألم يعد يعيش معها فى بيت واحد ؟!

وكان أبى سعيدا ، معتقدا أنه حقق سعادتى !

كان أهلى وأهله ، والمدعوون كلهم سعداء .. ما عداى أنا .. أنا وحدى كان الغيظ والحنق يمزقان أحشائى ، وكان الشر وشهوة الانتقام يسدلان حجابا أسود كالحا أمام عينى.. ورغم ذلك لم يبد على شىء .. كنت مسيطرة على أعصابى تماما .. وكنت أرقب كل شىء حولى كأنى أشهد مسرحية ليس لى فيها الا دور المتفرجة ..

ودفعنى المجهود الذى أبذله للسيطرة على أعصابى الى أن أبدو متعالية ، متكبرة ، باردة .. وكنت فى دخيلة نفسى أشعر بنوع من « القرف » وكانت الرائحة الكريهة الحادة — رائحة الجريمة — تنخر فى رئتى .. وكنت أنظر الى سمير فى لفتات سريعة فأحسده على صفاقته .. لم يكن يبدو عليه

أثر للجريمة وكأن جلده المشدود اللامع قد صنع خصيصا لمثل هذه المناسبة ..

وأودعت نظرتي اليه نوعا من الرثاء والاحتقار .. الرثاء للمستقبل الأسود الذي أعده له ، والاحتقار لشأنه ولمطامعه في الحياة .. ولنذالته !

ووضع سمير دبلة الخطوبة في اصبعي وانحنى يقبل يدي .. ولم يكن حتى هذه اللحظة قد لمسني أو وطأت شفتاه قطعة مني .. وأحسست بقبلته كقطرة من الزيت البارد تنزلق فوق يدي .. وأحسست كأن كل خلجة في جسدي قد اقشعرت وتململت ثم ثارت .. حتى كدت أمسح قبلته من فوق يدي ، بيدي الأخرى ..

ونظرت اليه دون أن أبتسم أو تبدو على فرحة ..

لم أستطع أن أبتسم أو أفرح ..

انما نظرت اليه بعينين تائهتين ، وأنا أسائل نفسي : « هل أستطيع أن أكون زوجة لهذا الرجل .. هل أطيقه بجانبي .. هل أطيق شفتيه فوق شفتي .. هل أطيق ذراعيه فوق جسدي .. لا .. مستحيل .. مهما فعلت .. ومهما قسوت على نفسي .. لن أطيقه .. ولن أستطيعه » !

ورفعت عيني التائهتين الى أبي كأني ألومه .. كأني أحمله مسئولية عذابي .. كأني قديسة صلبوها على باب سعادته ولم تملك الا الاستسلام ..

ورأيت ابتسامة أبي الكبيرة ، وسعادته التي تضيع في

عينيه ، فابتسمت له فى مرارة .. ابتسمت لطفلى الكبير الذى لا يدرى مدى العذاب الذى يحمله لأمه !

ثم التفت الى أمى .. انها المرة الأولى التى تدخل بيتنا منذ طلاقها من أبى .. أى منذ ثمانية عشر عاما .. وهى جالسة بجانب زوجها كأنها تحتمى به من ذكرياتها البعيدة .. جالسة كالغريبة كأنها مدعوة الى حفلة خطوبة بنت الجيران .. انها لاتحس بى .. لا بفرحى ، ولا بحزنى .. وربما كانت هى وزوجها يعدان الدقائق على انتهاء الحفل ليتخلصا من حرج وجودهما فى بيت أبى ..

ونظرت الى كوثر..كانت سعيدة لأنخطتها قد نجحت.. لأنها حققت ما أرادته .. ورغم ذلك ، فعندما نظرت فى عينيها خيل الى أن سعادتها مهزوزة .. سعادة فيها خوف وفيها شك، كأنها تخشى أن تضل الطريق .. كأنها تخشى أن يرتد الخنجر الى صدرها .. أن تقع فى البئر التى حفرتها بأظافرها .. كانت تنظر الى نظرات سريعة أضبطها بالصدفة وأفتش فيها فأجد الحقد والغيرة .. وأحيانا تطيل النظر الى كأنها تسبر غورى، كأنها ليست مطمئنة الى سذاجتى .. ليست مطمئنة تماما الى أن الضحية قد استسلمت للذبح .. ثم كانت تنظر الى سمير كأن هناك سؤالا يحيرها .. كأنها نسيت معه شيئا قبل أن تتركه يركب القطار !!

وتلفت حولى كأنى أبحث عن شخص غائب ..

عن عمى ..

عمى عزيز ..

لو كان هنا .. هل كان ينقذنى ؟ هل كان يرشدنى الى النور ؟ الى الفضيلة .. الى طريق الهروب .. الى الهواء النقى؟

ولكن ، هل كنت أستطيع أن أعترف له .. هل كنت أستطيع أن أقول له ان كوثر تخون أبى .. وتخـونه مع الانسان الذى قضى على أن أتزوجه ؟

لم يكن ليصدقنى !!

كان سيعتقد ان القصة ليست سوى وهم آخر ، كالوهم الذى ثار فى رأس أبى عندما اتهمه بأنه يخونه مع زوجته صـفية !!

ورغم ذلك فقد أحسست لغيبة عمى بفراغ كبير .. كأنى فقدت سندى !

وعندما خرج آخر المدعوين فى الساعة العاشرة مساء ، ولم يبق سوى نحن الأربعة .. أبى ، وكوثر ، وسمير ، وأنا.. قلت لأبى وأنا أحايله بابتسامتى :

— تعرف مين كان ناقص النهارده ؟

قال فى حنان :

— مين يانادية ؟

قلت بسـرعة كأنى أتجاهل كل شىء :

— عمى عزيز !

واكفهر وجهه كأن سحابة سوداء قد اكتسحته .. ولم يتكلم ..

وعدت أقول كأنى ألح :

— أنا النهارده ضربت له تليفون علشان أعزمه كنت عايزه أعملك مفاجأة ..

قال باهتمام كأنه يزيح السحابة السوداء من أمام عينيه:

— وقال لك ايه ؟

قلت فى حسرة :

— ما لقيتوش .. وضربت له امبارح برضه مالقيتوش.. يظهر انه مسافر !

وصمت أبى كأنه أصيب بخيبة أمل ، وقالت كوثر كأنها تحشر نفسها فى الموضوع حشرا :

— صحيح يا أحمد .. كان حقك عزمته .. مهما كان بينك وبينه .. انما فى يوم زى ده كان لازم أخوك يتعزم ..

ونظرت اليها كأنى أقول لها : « وانتى مالك يابارده » ؟

وقال أبى كأنه يتنهد :

— يتعزم فى الفرح باذن الله !

وابتسم قلبى .. خيل الى انى أزحت عبئا ثقيلا من على قلبى .. انى أصلحت ما أفسدته جريمتى ..

وتعلقت برقبة أبى وقبلته قائلة :

— ربنا يخليك ليه يابابا ..

وفهم أبى سر فرحتى ، وأخفى فرحته تحت قناع الوقار.. فرحته باحساسه انه قد صفح عن أخيه .. ثم قال :

— ياللا بينا كلنا نروح نتعشى فى سميراميس !

وجفلت ..

كان معنى ذلك أن أبقى مدة أطول مع سمير .. وأن أراقصه .. وأن أركب بجانبه فى سيارته وحــدنا .. وقلت بسرعة :

— بلاش النهارده يابابا .. أنا تعبانه .. من امبارح وأنا واقفه على رجليه ..

وقال سمير فى لهجة رسمية مهذبة :

— والله يا أفندم .. أنا باقول نروح نقعد فى حته هادية ، أصــل ..

وقاطعته فى لهجة حازمة عودته عليها :

— أنا تعبانه .. نوبة تانية باذن الله .

وسكت سمير ، كأنه تلقى أمرا بالسكوت ..

وقالت كوثر وهى تنظر الى أبى :

— ياسيدى الأيام قدامنا كتير ..

وقال أبى مبتسما فى سذاجة :

— كده .. طيب ياللا بينا ياكوثر ..

ووضع يده فى يد زوجته ، وسار بها نحو حجرتهما .. وترددت كوثر قليلا .. ولكن أبى غمز لها باحدى عينيه ، كأنه يذكرها بأن أصــول الاتيكيت تقتضى أن يتركانا أنا وسمير وحدنا ..

وما كادا يتركان الصالون ، وقبل أن يصلا الى حجرتهما ، مددت يدى الى سمير قائلة :

— بونسوار ياسمير بيه .. أنا آسفة قوى .. تعبانه !

ونظر الى سمير فى دهشة ، ثم ابتسم ابتسامة الخبير بأمور النساء ، وانحنى يقبل يدى .. وضع عليها قطرة أخرى من الزيت البارد ، وقال :

— بونسوار يا أفندم !

ثم خرج يخطو فى رشاقة مفتعلة كأنه يسير بالزمبلك ..

وتعمدت أن ترانى كوثر قبل أن تدخل الى غرفتها ..

ورأيت على وجهها مسحة من الارتياح .. ارتاحت لأنى لم أبق مع سمير وحدنا ..

ودخلت حجرتى .. ونظرت الى نفسى فى المرآة .. الى ثوبى الغالى الذى خاطته لى مدام سافيدس خصيصا لحفل اعلان خطبتى .. وكان ثوبا من « التل » المشغول « برتون » فى لون شراب الورد المخفف .. كان من أغلى ثيابى وربما أجملها .. ولكنى لم أحس بجماله .. أحسست كأنه مصنوع من صفيح ينطبق على صدرى وكأن لونه الوردى ، دم باهت انسكب عليه .. دم أعصابى !

وخلعت الثوب وتركته ملقى تحت أقدامى على الأرض.. كأنه بقية من أشلائى !

وأخذت أدور فى أنحاء الغرفة وأنا « بالكومبينزون » أحاول أن أجد شيئا ألهى نفسى به .. أن أسكت الضجيج الذى بدأ يصحو فى رأسى .. ثم جلست أحاول مرة أخرى — ربما للمرة العاشرة — أن أكتب خطابا الى محمود ..

ومنذ اقتحم سمير حياتى ورضيت باعلان خطبتى اليه وأنا أحاول أن أكتب الى محمود .. كتبت اليه خطابات كثيرة اعترفت له فيها بكل الحقيقة وبكل التفاصيل ، ثم مزقتها .. وخطابات أخرى حاولت أن أكذب فيها عليه .. أن ألف وأدور وأروى له خيالات أعلل بها خطبتى الى رجل آخر .. ولكنى مزقت هذه الخطابات أيضا ..

وأمسكت القلم وكتبت :

« حبيبى محمود .. »

« لا تسألنى .. ولكن ثق أنى أحبك .. وسأحبك دائما..

و .. »

وحاولت أن أتم الخطاب .. ولكنى لم أجد شيئا آخر أكتبه ، وقبل أن أمزقه ، طويته بسرعة ، قبل أن أوقعه ، ووضعته فى ظرف كتبت عليه اسم محمود وعنوانه .. كأنى أرسل له نعيى ، وأخاف أن يلحقنى الموت قبل أن أتم كتابته..

وتركت الخطاب فوق المائدة الصغيرة ، ثم قمت وألقيت نفسى فوق فراشى ..

وبدأت أستعيد فى ذهنى الخطة التى وضعتها ..

* * *

وكانت الخطة التى وضعتها بسيطة سهلة .. فى منتهى السذاجة !

كان على أن أدع سمير يقع فى حبى .. أن يحبنى حقا .. حتى أسيطر عليه ، وأبعده عن كوثر تماما .. وعندما ترى كوثر أنها فقدت سمير ، وانه تخلى عنها ، ستعميها الغيرة عن

خطتها ، وتثور عليه ، وتنقلب ضده ، وتعمل على فسخ زواجه بى ..

وكان يجب لتنفيذ هذه الخطة أن أمثل دورين :

دورا أمثله أمام سمير حتى يقتنع بأنى أحبه ، وبأنه ملكنى ، وانه يستطيع أن يستغنى بى عن كوثر ، ويستطيع أن يسيطر على بحبى له ، بدل أن يسيطر على بالتهديد .. التهديد باعلان خيانة كوثر لأبى ..

ودورا آخر أمثله أمام كوثر حتى لاتلحظ خطتى .. حتى تطمئن على فتقف بجانبى وتتجه بكل ثورتها الى سمير ..

هذه كانت خطتى ..

لم أجد غيرها ..

وكان يجب أن يتم تنفيذها قبل أن يعقد قرانى ..

هل أستطيع ؟

لقد سألت نفسى آلاف المرات :

« هل سمير من السذاجة بحيث يصدقنى الى حد أن يتنازل عن سلاحه الذى يهددنى به .. يتنازل عن كوثر » ؟!

وساءلت نفسى آلاف المرات : « هل كوثر من البساطة بحيث لاتفطن الى خطتى ؟! ثم انها عندما قبلت أن تزوجنى لسمير قد روضت نفسها على أن تحتمل نوعا من الغيرة .. أن تحتمل بقائى معه كزوجة وزوج .. فهل أستطيع أن أنفخ فى نار هذه الغيرة حتى تثور على سمير وتتخلى عنه » ؟!؟

لا أدرى ..

كنت دائما فى شك من نجاح خطتى .. ولكنى أقدمت على تنفيذها كأنى أقامر بحياتى !!

وبقيت أياما بعد اعلان الخطبة وأنا أتحاشى أن أنفرد بسمير ، كنت لا أجلس ولا أخرج معه الا ومعنا كوثر وأبى.. واطمأنت كوثر .. عرفت أنى قبلت أن أكون زوجة لسمير ولكن فى حدود ضيقة لا أريد أن أتعداها ، ولا أشجعه على أن يتعداها ...

وقلت لها يوما بينى وبينها :

— الحقيقة انه ينفع جوز .. انما مش معقول أنى أحبه.. التيب بتاعى غير كده خالص !

وابتسمت كوثر ابتسامة واسعة ، وقالت :

— ما انتى عندك اللى بتحبيه !

وتنهدت قائلة :

— ادعى معايا ياكوثر ، انه يرجع بالسلامة !

وهكذا كنت أحاول أن أكتسب ثقة كوثر .. وأحاول أن أقنعها بأنى أسير سيرها .. وانى مؤمنة معها بأن الزواج شىء والحب شىء آخر .. وأنى سأترك لها سمير .. لهـا وحـدها !

وذهبنا الى السينما نحن الأربعة .. وكنت أتعمد دائما كلما ذهبنا الى السينما أن أدع سمير يجلس بينى وبين كوثر، وكنت أظهر لها تعمدى حتى تزداد اقتناعا بأنى أتركه لها ..

ثم خرجنا من السينما ، واتجهنا الى موقف السيارات، ووقف أبي يقول لي :

— أظن تركبي انتى فى عربة سمير يانادية ..

ولم أتكلم ..

ونظرت الى كوثر كأنى أستغيث بها .

وابتسمت كوثر فى استخفاف كأنها لا تأبه بهذه الصغائر، وركبت فى سيارة أبي .. وركبت أنا فى سيارة سمير .. وقال وهو يقود سيارته :

— تحبى تتفسح شوية .. ؟

ولم أرد ..

وقاد سيارته الى طريق مصر الجديدة ، وسمعته يقول وأنا متعمدة أن أدير رأسي عنه ملتفتة الى الطريق :

— أنا حاسس يانادية اننا بعاد عن بعض قوى .. لانتقعد مع بعض ، ولا بنخرج مع بعض .. ولا كأننا مخطوبين !

قلت بصوت حزين وأنا ألتفت اليه نصف لفتة :

— انت اللى عايز كده ..

قال :

— أنا !! ازاى ؟!

قلت كأنى غاضبة :

— انت عارف !

قال كأنه يتجاهل :

— عارف ايه ؟

قلت :

— عارف انك ما بتحبنيش .. بتحب واحدة تانية !

قال كأنه يلقى فقرة من مسرحية :

— أنا ما بحبكيش !! كل ده وما بحبكيش .. ده أنا أول ما شفتك في جروبي وكل حاجة في اتغيرت .. مبادئي اتغيرت.. أخلاقي اتغيرت .. ماكنتش ممكن أفكر في الزواج الا بعد ماشفتك ..

قلت وأنا أسرف في غضبي :

— أنا كمان كنت فاكره كده .. انما للاسف ..

قال :

— ما تصدقيش أي حاجة ياناديه .. صدقيني أنا ..

قلت في حدة مفتعلة :

— يعني قصدك ما صدقش عنيه ، وما صدقش وداني.. وأصدقك انت !

قال :

— أنا عارف انتي بتقصدي مين .. كوثر .. مش كده؟.. أحلفلك ان كل حاجة راحت لحالها .. دي كانت شقاوة شباب ..

واستدرت اليه كلي ، وقلت وأنفاسي مبهورة كأني صدقته :

— صحيح .. صحيح ياسمير ؟!!

وأوقف سيارته في جانب مظلم من شارع البارون ،

واقترب مني ووضع ذراعه فوق مسند المقعد ، وقال :

— أحلفلك بايه ؟

وتركته ينزل بذراعه الى أن يضعه فوق كتفي ، ثم اقترب مني بوجهه ، وتحملت أنفاسه كموجـة مؤذية من رياح الخماسين ، ولفت وجهي اليه وأنا مغمضة العينين ، كأني في انتظار أن يقبلني ..

وقبل أن تلمس شفتاه شفتي ، فتحت عيني ، وأدرت رأسي عنه .. ودفعته عني برفق وأنا أقول :

— لا .. مستحيل .. انت ما بتحبنيش !

قال وهو يلاحقني بوجهه وقد استبدت به لهفته :

— باحبك .. باحبك ياناديه !

قلت وأنا أزداد ابتعادا عنه :

— اثبت لي .. اثبت لي انك بتحبني !

قال وأنفاسه تنفح من صدره كأنها تخـرج من منفاخ مخروق :

— أثبت لك ازاي بس ؟!

قلت :

— ما أعرفش .. أهو اقنعني بحبك والسلام .. ومن فضلك تروحني دلوقت أحسن كوثر تزعل !

قال :

— طيب علشان أثبت لك ان كوثر ماتهمنيش ، حافضل معاكي للصبح ..

قلت فى برود وفى لهجة حازمة :

— أنا يهمنى أن كوثر ما تزعلش .. ما تنساش انها قاعدة معايا فى البيت .. وانها مراة أبويا ..

واعتدل فى جلسته وقال :

— يعنى نرجع ..؟

قلت فى اصرار :

— أيوه ..

ومكثنا صامتين خلال العودة ، الى أن قلت وأنا أتنهد ، كأنى أحادث نفسى :

— أنا كنت فاكره انك ضحكت على كوثر علشان تتجوزنى .. أتاريك ضحكت على ولسه بتحب كوثر ..

وقال كأنه اتخذ قرارا هاما فى حياته :

— بكره حتعرفى كل حاجة .. حتعرفى أد ايه باحبك ..

ووصلنا الى البيت ..

ولم أسمح له وهو يودعنى ، الا بأن يقطر من شفتيه قطرة أخرى من الزيت البارد ويضعها فوق يدى ..

ودخلت البيت لأجد كوثر فى انتظارى جالسة فى الأتريه وبين يديها مجلة ، وقالت بمجرد أن رأتنى وهى تفتعل ابتسامة كبيرة وفى عينيها اضطراب :

— أهلا .. تصورى انى ما أقدرتش أنام .. وقاعدة أقرا، وكل دقيقة أتمنى انك ترجعى علشان نقعد ندردش سوا ..

وقلت فى حدة وأنا ألقى حقيبتى فوق المائدة ، وأنزع قفازى بحركات عصبية :

— اسمعى ياكوثر .. الحركات بتاعة سمير دى أنا ما أستحملهاش .. ازاى يصمم يطلع بى مصر الجديدة .. غصب عنى .. احنا اتخطبنا واحنا فاهمين بعض كويس .. يبقى لزومه ايه الحركات دى ؟..

ورحبت كوثر بثورتى ، وقالت فى اهتمام كبير :

— وعمل ايه ؟

قلت وأنا لازلت محتدة :

— عمل .. مابقاش ناقص كمان .. طبعا ما عملش حاجة.. قعد يكلمنى عن نفسه وعن تاريخ حياته ..

قالت مبتسمة فى فرح وهى تهدئنى :

— أصل سمير يحب الكلام عن نفسه كتير ..

قلت وأنا ألتقط حقيبتى وأهم بالدخول الى حجرتى :

— وحياتك ياكوثر ، أول حاجة تعمليها الصبح انك تضربى له تليفون ، وتقولى له يبطل الحركات دى .. الأيام قدامنا كتير علشان يحكى لى عن تاريخ حياته ..

قالت :

— طيب مش تقعدى معايا شوية ..

قلت وأنا أتركها :

— لا .. أنا متنرفزة !

ودخلت غرفتى والشعور الخبيث يملأ صدرى .. شعور

المقامر وهو يرقب عجلة الحظ تدور أمام عينيه الجاحظتين ، بينما قلبه يضج ويدق كأنه مسكن الشياطين .. الشعور الذى كان يجتاحنى دائما كلما دبرت خطة وعشت فى انتظار نتائجها ..

وفى اليوم التالى أبلغت كوثر رسالتى الى سمير .. قالت له انى غاضبة لأنه صحبنى رغما عنى الى مصر الجديدة ..

وطبعا أنكر سمير .. واتصل بى بعدها ، وقال لى وهو يبدو غاضبا :

— انتى قلتى لكوثر انى طلعت بيكى مصر الجديدة غصب عنك ؟..

وصرخت فيه :

— أمال كنت عايز أقول لها ايه .. كنت عايز أقول لها انى باحبك علشان تشعل نار فى البيت .. علشان تبعدك عنى.. علشان تموتنى ..

قال فى دهشة :

— أنا ماكنتش فاكر كده ..

وقاطعته وقد خفضت من صوتى كأنى أبكى :

— انت مش عارف حاجات كتير ياسمير .. مش عارف العذاب اللى أنا متعذباه .. مش عارف انى ما بقدرش أجيب سيرتك فى البيت خايفه من كوثر .. مش عارف انى لازم أفضل أقول انى ما بحبكش ومش طايقاك .. علشان أريحها.. وعلشان ما تهدش البيت على دماغى .. ودماغ أبويا .. وأكتر

من كده ياسمير .. اللى أكتر من كده انى ما بقدرش أقول لك أنت حاجة .. متهيألى ان أى حاجة أقولها لك حاتروح تقولها لكوثر .. بقيت عايشة لوحدى لا أقدر أشكى لك ، ولا أشكى لبابا ، ولا أشكى لها ..

وقال سمير فى حماس :

— أنا أقول حاجة لكوثر .. أنا !! انتى مش عارفانى يانادية .. وحياة أمى أنا عمرى ما قلت لها حاجة من الكلام اللى بتقوله ..

قلت كأنى قد انهرت :

— اسمع ياســمير .. أنا اتجــوزتك وأنا فاكره انك بتحبنى .. لكن اكتشفت انك ماتحبنيش .. وابتديت أعيش على أمل انك تحبنى بعد الجواز .. لكن اذا كان مافيش فايده .. قول لى دلوقت .. قول لى وارحمنى ..

قال كأنه يستجدينى :

— بس أخليكى تصدقينى ازاى ؟

قلت :

— ياريت . ياريت أصدقك يا سمير !

* * *

وهكذا كنت أقوم بتنفيذ خطتى ..

كنت أعيش فى هذه الشهور مفتحة الذهن ومفتحة العينين ليل نهار .. أرقب كل شىء حولى ، حتى لا تفوتنى حركة أو همسة ، وأحسب حساب كل شىء حتى لا أخطىء وحتى لا تسبقنى كوثر الى شىء ..

وكان سير أسهل مما كنت أعتقد ، كان غروره بنفسه وبجماله وبذكائه قد أعماه عن كل شيء .. صدق أنى أحبه .. وصدق انى ساذجة بريئة .. ثم بدأ يقتنع أن كوثر عقبة فى طريقه .. فى طريق سيطرته على وعلى ثروتى .. وبدأ يتعمد أن يولينى اهتمامه ، ويفصح عن حبه لى بعينيه وبعبارات ملتوية كلما كانت كوثر معنا ..

وبدأ يتعمد ألا يجلس بينى وبينها عندما نذهب الى السينما .. بل يجلس بجانبى بعيدا عنها .. ثم بدأ يختصر أحاديثه معها فى التليفون بعد أن عرفه — عن طريقى — انها تطلعنى على كل ما يقول لها ..

وكنت خلال ذلك أسلط عليــه كل حيلى وكل أنواع العواطف .. كنت أخاصمه وأصالحه ، وأقبل عليه وأبتعد عنه ، وأمنيه بنفسى ثم أحرمه منها .. كنت دائما أثير أطماعه فى ثروتى ..

قلت له يوما :

— أنا مش عارفه أعمل ايه بالعشرين ألف جنيه قيمة التأمين . أشترى أرض ولا فيلا .. ولا أقول لك .. انت مش بتعرف فى الأسهم والسندات .. تاخدهم وتشترى لى بيهم أسهم .. دى أحسن طريقة اليومين دول .. الأرض خلاص مابقتش تنفع ..

وقال كأنه شعر بالعشرين ألف جنيه فى جيبه :

— الحقيقة .. أنا مافيش حاجة غاويهــا وأفهم فيهــا

الا الأسهم والسندات .. امبارح أسهم بنك القاهرة ارتفعت عن أول امبارح .. و ..

قلت أقاطعه ضاحكة :

— ماتقوليلش .. مش حافهم حاجة ، أنا متهيأ لى انك تقدر تعمل من العشرين ألف .. مليون ..

وسكت قليلا .. ثم قلت فى حزن :

— بس ياترى الفلوس هى كل حاجة .. ياترى مليون جنيه تغنيني عن الحب ؟!!

قال وهو يضغط على يدى :

— حيبقى عندك المليون جنيه ومعاهم الحب !!

قلت وأنا أبادله الضغط على يده :

— ونسافر أوروبا كل سنة نقعد ستة أشهر .. و ..

وقاطعني وهو يضحك ضحكته السمجة :

— أنا كمان نفسى أسافر أمريكا ..

قلت وأنا أفتعل نظرة حب ووله :

— وما نرجعش ..

قال وقد فاضت به أحلامه :

— نروح نقعد فى هوليوود على طول ..

وما كدت أتركه بعد هذا الحديث حتى هرعت الى كوثر وقلت لها وأنا أمثل دور من ضاقت به الحياة :

— سمعتى ياستى المشروع الجديد .. بتاع سى سمير.. عايز يسافر أمريكا بعد الجواز على طول !!

قالت فى جزع :

— أمريكا .. يعمل ايه فى أمريكا ؟

قلت فى حدة :

— يهاجر .. ياخدنى وتعيش هناك على طول .. أنا مش عارفه الراجل ده قصده ايه ؟

وقالت كوثر كأنها تحادث نفسها :

— سمير اتغير .. اتغير قوى .. لكن على مين ؟!!

ثم التفتت الى قائلة :

— وانتى وافقت على حكاية أمريكا دى ؟

قلت صارخة كأنى ألومها :

— طبعا لأ .. وده معقول !!

وطبعا .. قلت بعد ذلك لسمير أن كوثر غضبت عندما سمعت بمشروع سفره الى أمريكا .. حتى يعتقد أنها ستقف حائلا دون كل مشروعاته !!

وكانت كوثر خلال كل ذلك قد بدأت تعتقد أن حب سمير لها قد بدأ يتغير .. كنت ألمح نظراتها وهى ترقبه فى غيظ وحنق كلما تودد الى وتجاهلها ووجه كل اهتمامه نحوى .. وكنت ألمح على وجهها حيرتها واضطرابها ومقاومتها لنفسها .. كان تعلقها بسمير قد بدأ يتغلب على أطماعها .. وعلى الخطة الشريرة التى وضعتها لتزويجى به ..

كنت ألمح كل ذلك .. فأتمادى فى خطتى .. وأضرب على أعصابها ضربات متتالية ، ولكن فى حرص وتأن حتى لا أفقد

ثقتها بي .. وكان أهم ما اعتمد عليه فى الاحتفاظ بثقتها هو علمها بأنى أحب رجلا آخر .. أحب محمود .. وكنت دائما أحدثها عنه وعن حبى له ، بل كنت أكتب اليه خطابات وهمية أطلعها عليها .. ثم أمزقها ..

وشيئا فشيئا بدأت كوثر تصرح لى بمخاوفها .. بشكها فى نيات سمير ، وشكها فى حبه لها ، وكانت تصريحاتها فى بادىء الأمر عائمة كالفقاقيع التى تطفو على السطح .. ثم أفاضت حتى كشفت لى عن أعماقها ..

كانت تقول لى :

— الرجالة دول مش ممكن الواحدة تطمئن لهم !

فكنت أقول لها كأنى لا أفهم ماتعنيه :

— يعنى انتى مش عارفه الرجالة ؟

ثم أصبحت تقول لى :

— سمير ده باين عليه راجل مش كويس .. يظهر انى كنت مغشوشة فيه !!

— انتى تعرفيه أكتر منى .. وانتى المسئولة .. الحقيقة انى مش مستريحه للجوازه دى !!

الى أن كان يوم .. وكان قد مضى ثلاثة شهور على يوم اعلان خطبتى لسمير ..

وعرفت ان كوثر ذاهبة للقاء سمير ، عرفت من طريقة استعدادها للخروج .. من لهفتها ومن نظرات عينيها .. ومن الكلمات المتقطعة الحائرة التى كانت تلقيها هنا وهناك ..

وما كادت تخرج من البيت .. حتى اتصلت بسمير فى التليفون وقلت له فى برود :

— أنا كنت عايزاك تنزل معايا عند باروخ الجواهرجى .. لكن طبعا مش حتقدر .. كوثر زمانها عندك ..

واضطرب سمير وقال وكأنه لايدرى أين يهرب :

— كوثر .. مين قال الكلام ده ؟

قلت فى حدة :

— ما تحاولش تكذب .. هيه اللى قالتلى .. وكل اللى كنت باطلبه منك انك تقوللى علشان ما أنكسفش قدامها .. علشان ما أحسش بالذل اللى حسيت به .. أنا عملت فيك ايه يا سمير بس .. ده ذنبى انى حبيتك .. ذنبى ان كل ما أفكر فى حياتنا مع بعض تهدم كل تفكيرى ؟

وقال سمير كأنه يعترف أمام راهبة :

— الحقيقة يانادية ان كوثر بتحايل على انها تشوفنى بقالها شهر .. ورضيت أقابلها علشان أصفى اللى بينى وبينها.. انما ما دام قالت لك .. يبقى نيتها سيئة .. تبقى عايزة تخرب بيتى وبيتك .. حاطردها .. حا ..

قلت أقاطعه كأننى فى رعب :

— لأ .. لو عرفت انى كلمتك وقلت لك على حاجة ، حترجع تنتقم منى وتحط همها على دماغى .. بلاش أعمل معروف ..

قال كأنه شهم :

— مش حتعرف انك كلتيني .. انما برضه حاطردها .. وحتكون عندك تانى مسافة السكة ..

— اعمل اللى انت عايزه ياسمير ..

ووضعت السماعة ..

ولم تنقض ساعة حتى عادت كوثر .. عادت وكل شيء فيها ينتفض .. عيناها تنتفضان .. وشفتاها تنتفضان .. ووجنتاها تنتفضان .. وأصابعها تنتفض .. وكل شعرة فى رأسها تنتفض ..

وكانت قد دخلت توا الى غرفتى .. وأخذت تروح وتغدو أمامى فى خطوات عصبية ، وأسنانها يصطك بعضها ببعض كأنها تمزق بها ماضيها كله .. ثم أخذت تضغط على ذراعيها بيديها كأنها تحول دون سقوطهما عن جسدها ، وهى تصيح: « السافل ، الكلب ، المجرم » !!

وقلت كأنى دهشة :

— ايه ياكوثر .. مالك !

ولم ترد على .. انما ظلت تروح وتغدو أمامى .. ثم التفتت الى فجأة وصاحت :

— انتى مصممة على الجوازه دى ؟

قلت وأنا أدعى منتهى الدهشة :

— ايه المناسبة للسؤال ده دلوقت ؟

قالت فى حدة :

— جاوبينى .. انتى مصممة تتجوزى سمير ؟

قلت وأنا أهز كتفي :

— آهي جوازه .. مش انتي اللي جاياه .. وانتي اللي كنت عايزاني أتجوزه ؟

قالت كأنها تصرخ :

— خــلاص ما بقتش عاوزاكي تتجــــوزيه .. ده مايستهلكيش .. ده مجرم .. سافل .. منحط ..

ثم فجأة ألقت نفسها على فراشي منكفئة على وجهها وأجهشت بالبكاء ، بينما أخذ جسدها كله يرتعش .. كأن كل مسامه تعصر دموعها ..

ولم أهتز لرؤية دموعها ..

لم يلن قلبي .. ولم أحس بعطف عليها ..

وقفت أنظر اليها في شماتة وتشفى .. كأني أنظر الى فرخــة تذبح أمامي .. وكأني أتمنى أن تختنق بدموعها .. وكأني أغسل بهذه الدموع لمسات سمير التي لوث بها يدي وشفتي .. وأغســل بها الأحزان التي سودت قلبي .. وأغسل بها الأيام والليالي التي قضيتها .. لا أنام ..

ولكن كان يجب أن أستمر في خطتي حتى النهاية .. فأقبلت عليها ، وجلســت بجانب جســدها الممدد على فراشي وأخذت أربت على ظهرها ، وأنا أقول في صوت محشرج كأني أشاركها البكاء :

— ايه اللي حصل بس ياكوثر .. قوليلي ياحبيبتي .. حصل ايه !

وهدأ بكاؤها قليلا ، ثم قالت من بين دموعها ، دون أن ترفع وجهها الى :

— أنا ضحكت عليكى ياناديه .. خدعتك .. بعد كل اللى عملتيه ليه .. خدعتك وضحكت عليكى . سمير هو اللى خلانى أعمل كده .. كان طمعان فى فلوسك .. وطمعنى معاه.. طاوعته لأنى كنت باحبه .. لكن عرفت دلوقت انه زى ما كان عايز يضحك عليكى ، كان بيضحك على أنا كمان .. سامحينى ياناديه .. سامحينى .. أنا حاموت نفسى .. حانتحر ..

وانحنيت أقبل رأسها قبلة باردة .. دون أن يهتز قلبى.. ثم قلت فى حرارة مفتعلة :

— بعد الشر عليكى .. كلنا بنغلط ياكوثر .. الواحدة منا لما بتحب ما تبقاش عارفه هيه بتعمل ايه ، والحمد لله اللى جت على كده ..

وارتفع نشيج كوثر .. وعادت دموعها تنهمر فى سيول .. وقلت بعد قليل كأنى آسفة حزينة :

— انتى عارفه انى رضيت بيه علشان خاطرك .. عمرى ماحبيته ..

وارتفع نشيجها كأنها تصرخ وقالت :

— كنت غلطانه .. غلطانه .. غلطانه ..

قلت بعد فترة صمت كأنى أفكر :

— ودلوقت العمل ايه ؟

ورفعت رأسها الى وقالت وعيناها تبرقان ببريق مخيف..
كأنها تودع خنجرا فى صدر سمير لتنتقم منه :

— نفسخ الخطبة .. تسيبيه .. لازم يفهم انه اذا قدر يضحك على واحدة منا مش حايقدر يضحك علينا احنا الاتنين !

قلت وأنا أمثل دور المستسلمة البريئة :

— وبابا !؟

قالت وعيناها لا تزالان تبرقان هذا البريق المخيف :

— أنا حاقنعه !!

وجلسنا نحن الاثنتين فى انتظار أبى نرتب ما نقوله له ..



لم يكن من السهل علينا — كوثر وأنا — اقناع أبي بفسخ الخطبة ، رغم التمثيلية الرائعة المحبوكة الأطراف التي مثلناها أمامه ..

فلم نكد نسمع الباب الخارجي يفتح ، وخطوات أبي تتجه نحونا ، حتى انكفأت على وجهي فوق الفراش وادعيت البكاء .. ومالت كوثر على تربت على ظهري كأنها تخفف عني .. ووقف أبي عند باب غرفتي مبهوتا ، وقال كأنه فقد صـــوته :

— ايه .. جرى ايه .. نادية بتعيط ليه ؟

وقامت كوثر بعد أن ملكت أعصابها تماما ، وقالت وهي تتجه اليه :

— تعال يا أحمد .. عايزاك في كلمة ؟

وجذبته من يده ، ودخلت معه الى غرفة المكتب ، وقالت له اني قد صممت على فسخ خطبتي من سمير ، واني لم أعد أطيقه .. واني في خلال الشهور الثلاثة التي قضيناها مخطوبين لم أسمح له بتقبيلي قبلة واحدة لأني لم أستطع أن أحبه .. واننا — هي وأنا — قد اكتشفنا ان له صديقة ايطالية لم يقطع علاقته بها .. وانه سبق أن خطب فتاة في الاسكندرية ، ثم فسخت الخطبة بعد أن سرق سوارا من خطيبته ، وفضلت عائلة الفتاة ألا تبلغ البوليس هربا من الفضيحة .. و .. و ..

وسردت له تاريخ سمير وكل ما يثار حوله من أقاويل ، مما تعرفه أكثر منى ..

ورغم ذلك لم يقر أبى فسخ الخطبة .

كان الأمر أخطر فى نظره من أن يسلم به ..

وكان يخشى كلام الناس .. ويخشى أن تخدش الألسن اسمى .

وجاء الى غرفتى ووراءه كوثر ، وكنت قد جلست أمام مرآتى ، ادعى انى أمسح دموعى .. وقال وهو واقف ورائى ووجهه المكفهر يرتسم أمامى فى المرآة :

— أنا مش مصدق الكلام ده كله يانادية ..

وقررت أن أتبع « تاكتيك » جديدا ، فبدل أن أعاود البكاء وأحاول أن أثير حبه وعطفه ، التفت اليه كأنى أنتفض وصرخت فى وجهه المكروب :

— انت السبب يابابا .. انت اللى رمتنى الرمية السودة دى .. انت اللى بعتنى لانسان مجرم سافل .. ماكنتش فاكره انك عايز تتخلص منى للدرجة دى .. كنت موتنى أحسن ، بدل العذاب اللى أنا شايفاه ..

وقال أبى مبهوتا كأنه لا يصدق أذنيه :

— أنا .. أنا يانادية !!

وقاطعته وأنا لازلت أصرخ :

— أيوه حضرتك .. كان لازم تسأل عليه قبل ماتشبكنى الشبكة دى ..

قال فى وجوم :

— سألت ..

قلت فى حدة :

— ده سؤال ده .. رحت غبت ساعتين فى النادى وجيت تقوللى انه كويس ..

قال وهو يحاول أن يهدئنى ، ويحاول أن ينفى عن نفسه المسئولية :

— مش انتى اللى وافقتى ياناديه !

قلت وأنا أضرب مائدة الزينة بيدى :

— أنا وافقت علشان خاطرك .. فضلت تلح على لغاية ما وافقت .. أنا مستعدة أموت علشان خاطرك يابابا ، بس مش الموته دى .. حرام عليك .. حرام عليكم يا اخواتى !

وقالت كوثر وهى تربت على كتفى :

— بس ياناديه .. كل حاجة لها حل ، وتروح لحالها ..

ثم التفتت الى أبى قائلة :

— الحقيقة احنا اللى غلطانين يا أحمد .

وقال أبى وكأنه يكاد يجن :

— غلطانين ازاى بس .. ده أنا شفتها بعينى قاعده معاه فى جروبى ، وفهمت انها بتحبه ..

قلت وصوتى يخرق الجدران :

— يعنى لما أكلم واحد فى التليفون ولا أكلمه كلمتين على البلاج يبأه اسمى بحبه .. واحد طلب منى أتجوزه .. كنت

عايزنى أعمل ايه غير انى آخد كوثر علشان تسمع كلامه وتجى تقوله لك .. البنات الكويسين يعملوا ايه آكتر من كده .. آكتر من أنهم يسيبوا باباهم يتصرف فى جوازهم ومستقبلهم .

وسكت أبى كأنه اقتنع بأنه فعلا مخطىء ، وبأنه تسرع فى اعلان خطبتى الى سمير ..

وهدأت ..

وقلت كأنى أتنهد :

— اعمل فى اللى انت عايزه يابابا .. الأمر أمرك ..

قال وهو لاينظر الى كأنه يخجل منى :

— أنا مش حاعمل الا اللى انتى عايزاه ياناديه .. بس أنا باقول نستنى شوية لما نتأكد من الكلام اللى سمعناه ..

قلت كأنى أحادث نفسى :

— ده مش كلام ، دى حقايق .. أنا بقالى شهرين باحاول أكدب نفسى .. مش قادرة .. كل حاجة باشوفها العين من التانية .. وماقلتش لك حاجة الا بعد ما عرفت ان مافيش فايدة ..

قال كأنه يرجونى :

— طيب نفكر شوية .. المسألة مش بسيطة ..

قلت بنفس الصوت الحزين :

— أنا فكرت كتير .. وكوثر فكرت معايا كتير .. فكر حضرتك لوحدك !

ونظر الى أبى صامتا .. وحرك شفتيه كأنه يريد أن يقول شيئا ، ولكنه لم يقل .. وأدار ظهـره لى وخرج فى خطوات بطيئة حزينة كأنه يسير على أشلاء .. وخرجت وراءه كوثر بعد أن نظرت الى نظرة ذات معنى ، كأنها تطمئننى على نجاح الخطـة .

وابتسمت ..

ابتسامة الفوز ..

وبقيت فى حجرتى .. ورفضت أن أخرج منها لأجلس الى مائدة الغداء .. ورفضت أن أخرج للعشاء ، وتركت أبى لكوثر تزيد فى اقناعه ، وتحقنه بالثورة على سمير ..

وفى الساعة السابعة دق جرس التليفون .. وكان سمير يتحدث كعادته كل مساء .. ولم أقل له شيئا .. بل حادثته برقة وعذوبة كعادتى ، واعتذرت عن لقائه بأنى مريضة وأشعر بصداع ، وواعدته على اللقاء فى مساء اليوم التالى ..

كان يجب ألا يعلم شيئا قبل أن تتم الخطة ، ويفاجأ بها ، حتى لا يحاول افسادها ..

وفى صباح اليوم التالى خرج أبى مبكرا ، وقالت لى كوثر انها استطاعت أن تقنعه بفسخ الخطبة ، ولكنه صمم أن يعاود السؤال عن أخلاق سمير حتى يطمئن الى أنه لا يخطىء .. وكانت كوثر تحادثنى وفى نفسها مرارة قاسية.. كانت زائغة العينين .. مرتجفة الشفتين .. وكان شعرها مهدلا ولم تبدل ثياب نومها ، كأنه لم يعد لها من تتزين له ، وتمقص

له شعرها ، وتبدل له ثيابها .. وكانت في خلال ذهولها تنظر الى نظرات سريعة أتبين فيها الحقد والكراهية .. وكنت أرى فيهذه النظرات اتهاما واضحا .. انها تتهمني بأني أنا السبب.. أنا الذي حطمت قلبها وفرقت بينها وبين حبيبها .. وربما تذكرت ساعتها ان هذه ليست المرة الأولى التي حطمت فيها قلبها .. لقد حطمته مرة سابقة عندما كانت طالبة تكبرني في مدرستي ، وكانت تحب ممدوح ابن خالي ..

وكنت أقدر شعورها ..

وكنت أخاف هذا الشعور ..

وكان يجب أن أطمئن الى وقوفها بجانبي الى أن يتم فسخ الخطبة .. كان يجب أن أنفخ في نار حقدها على سمير ورغبتها في الانتقام منه ، حتى لا تعدل عن الخطة التي دبرناها ، وتحاول أن تسترضيه ثانية ..

وقلت لها وأنا أتنهد :

— والله يا كوثر أنا مش عارفه اللي بنعمله ده صح ولا غلط .. يمكن سمير يكون مظلوم !؟

وبرقت عيناها .. هذا البريق المخيف الذي أريده أن يضيء أمامي دائما الى أن أفسخ خطبتي .. وقالت كأنها انفجرت :

— مظلوم .. ده يستاهل الشنق ، ده بقاله ثلاثة أشهر مرمطني .. وكان حيمرمطك انتي أكتر وأكتر .. اسأليني أنا عليه .. ده مجرم ..

وأخذت أدعى التردد والحيرة .. وهى تشـجعنى على الاستمرار فى الخطة وتصر عليها .. الى أن عاد أبى ..

عاد يحمل هم الدنيا كلها فوق رأسه ..

كان قد طاف بالكثيرين ممن يعرفهم يسألهم عن سمير وأخلاقه وماضيه ، وربما سأل بعض من سبق أن سألهم قبل أن تعلن الخطبة .. ولكن الناس عندما رأوا على وجهه دلائل الكرب والهم . وخمنوا انه يعرف عن سمير ما يعرفونه ؛ بدأوا يصرحون له بالحقيقة .. الحقيقة البشعة لماضى سمير ، وربما زادوا عليها من خيالهم لتزداد بشاعة ..

وهكذا الناس ..

انهم لا يقولون لك رأيهم .. ولكنهم يقولون لك الرأى الذى يعتقدون انك تريده .. اذا اعتقدوا انك تريد أن تسمع مديحا فى انسان أو تأييدا لفكرة .. مدحوا وأيدوا .. وان كنت تريد تشهيرا ورأيا معارضا .. شهروا وعارضوا !!

ترى .. كم فتاة نكبت بعد الزواج ، لأن الناس كذبوا فى رأيهم عندما سئلوا قبل الزواج !!

وجلس أبى بجانبى ، متهدما ، محرجا ، كأنه مذنب يستجدى الغفران .. وقال فى صوت ضعيف يقطع القلب :

— أنا غلطت صحيح .. سامحينى يابنتى !!

وألقيت نفسى فوق صدره ، وأخـذت أقبله ، وهو يقبلنى .. كلانا يحس بأنه مذنب ، وكلانا يطلب الغفران من الآخر .. كنت أريد أن أقول له بقبلاتى انه ملاك .. انه أنقى

من فى الدنيا . وانى أنا المذنبة .. المجرمة . وهو الضحية البريئة .

ولم تتمالك كوثر نفسها وهى ترانا يقبل أحدنا الآخر .. فبكت .. واعتقد أبى انها تبكى حبا فيه وفى .. وفسرت أنا بكاءها على أنه حسرة على نفسها !

وتقل أبى عينيه بينى وبين كوثر .. وارتمت الى شفتيه ابتسامة صغيرة كأنه يحمد الله على حبنا له .. ثم استمد من هذا الحب قوة نفخ بها صدره .. ثم قام الى التليفون وطلب سمير فى مقر شركة التأمين وحدد له موعدا لمقابلته فى الساعة الرابعة فى النادى لأمر هام ..

وخلعت الدبلة من يدى ، كأنى أنزع من يدى أشواكا انغرزت فيها .. وأعطيتها لأبى قائلة فى مرح :

— ما تنساش تديله دى !!

وجن سمير وهو يستمع الى أبى يبلغه بفسخ الخطبة ..

وروى لنا أبى ما قاله سمير ، وكيف أخذ يرجو ويستعطفه ويكذب ما يقال عنه ، ويقسم على حبه لى .. و .. و .. الى أن قال :

— أنا عارف مين اللى عمل كده .. أنا عارف مين .. اللى عمل كده ياسعادة البيه كوثر هانم .. أصلها ما تقبلنيش .. زعلانه منى .. و ..

وقاطعه أبى صاخبا :

ــ أنا ما أسمحش لك تتكلم باللهجة دى على الست بتاعتى .. اتفضل ..

ورمى له الدبلة وتركه وانصرف ..

ولم يقل له سمير شيئا عن علاقته بكوثر ، فقد كان لايزال يأمل فى أن يجد طريقا يعود به الى .. ولكننا أقفلنا فى وجهه كل الطرق .. سلط علينا كل من يعرفهم من أصدقائنا، فرفضنا مجرد الحديث فى الموضوع .. حاول أن يتصل بى فأبيت وكنت ألقى بسماعة التليفون بمجرد سماع صوته .. وحاول الاتصال بكوثر ، وربما حادثها مرة أو مرتين .. ولكن كوثر لم تعد تستطيع شيئا بعد كل ما حدث ، حتى ولو صفحت عنه وعادت اليه ..

وعندما فقد سمير أمله .. بدأ يتحدث فى المجتمعات عن علاقته بزوجة أبى ، وربما تعمد أن تصل أطراف من هذا الحديث الى أسماع أبى .. ولكن أبى كان يفسر كل ذلك على أنه مجرد تشهير على لسان انسان موتور قذر .. فلم يأبه به ..

وأنقذت نفسى ..

وأنقذت أبى .

ولكن هل هدأت الدنيا .. وهل صفت سمائى .. وهل نمت ؟!

لا ..

انى لازلت .. لا أنام !

فى خلال كل هذه الأحداث كانت خطابات محمود قد انقطعت عنى .. لم يعد يكتب الى .. ولم أعد أسمع منه هذه الكلمات الحلوة كطرقات رقيقة على باب الأمل .. ولم أعد أجده بجانبى لأستند اليه ، وأستمد الخير من خيره ، والقوة من قوته ، والمبادىء من مبادئه .. كنت فى هذه الأيام وحيدة .. أخوض وحدى ألسنة اللهب التى تحيط بى ، لأصل اليه .. الى محمود .. وربما لو لم أكن أريد الوصول اليه لفضلت أن أبقى بين ألسنة اللهب .. فى النار !

وقد خمنت أن شقيقته أو أمه قد كتبت اليه بخبر خطوبتى .. فانقطع عن الكتابة الى .. ولم أكتب له أنا أيضا، بعد الخطاب القصير الذى أرسلته اليه أطلب منه أن يثق بحبى .. لم أكن أريد أن أكتب له الا بعد أن يتم فسخ خطبتى الى سمير .. لم أكن لأجد شيئا أقوله قبل ذلك .. وكنت اكتفى بأن أمسك بصورته كل مساء وأملأ عينى منها ، وأنا أبتسم ابتسامة مسكينة كأنى أنظر اليه وأناجيه وعنقى تحت المقصلة .. ثم كنت أقول له : « تصبح على خير » وأضع الصورة فى درجى كأنى أضع حبيبى فى فراشه .. ثم أعود أبنى بخيالى أعمدة الشر التى أعدها لأنتصر بها على شر كوثر وسمير .. وكنت خلال هذه الأيام أيضا كلما ضقت بنفسى وضقت بالحياة وأكاد أيأس وأستسلم للمكائد التى تدبر

حولى ، أخرج خطاباته وأفتحها أمام عينى .. لم أكن أقرأها .. انما كنت أقرأ سطورها فى قلبى .. كان كل ما فيها أحفظه صم .. وكنت أفتحها أمامى كأنها أوراق بيضاء شربت عيناى سطورها وأودعتها قلبى ..

وبعد أن فسخت الخطبة جلست أكتب اليه ..

لم أقل له كل الحقيقة .. انما قلت له أنى أجبرت على خطبتى الى سمير ، وأنى استطعت أن أفسخها من أجله .. وانى لا زلت عند وعدى .. أعيش كل يوم فى انتظاره .. بل لا أعيش الا لأنتظره .. وأنى أحبه ..

ولم يكد ينقضى يومان بعد أن أرسلت اليه هذا الخطاب، حتى جاءت شقيقته الصغيرة تزورنى على غير موعد ، وربما لم تكن تريد رؤيتى ، انما جاءت تحمل شيئا الى .. ولكنى — بالصدفة — فتحت لها الباب بنفسى وفرحت بها كأنها يد محمود امتدت الى من لندن .. واحتضنتها كأنى أحتضن قطعة منه .. وقبلتها كأنى أقبل وجنتيه ..

ولكنها كانت متحفظة ..

كان يبدو عليها الحرج ..

وترددت كثيرا قبل أن تقبل أن تدخل وتجلس معى ..

ثم قالت فى ارتباك وحياء :

— مبروك يانادية !

قلت فى دهشة :

— مبروك على ايه ؟

قالت وكأنها تؤدى واجبا رسميا :

— مبروك على جوازك !

قلت وأنا أضحك ، ضحكة خالصة ، كأن كل ما مر بى لم يترك أثرا :

— انتى مش عارفه انى فسخت خطبتى .. الدنيا كلها عرفت !

وقامت من على مقعدها وكأنها لم تسمع ما قلته ، وقدمت لى شيئا صغيرا كأنه علبة ملفوفة فى ورق أنيق ، وقالت فى حياء :

— ماما باعتالك دى .. أورفوار باه .. لازم أنزل .. ماما مستنيانى فى العربية تحت !

واختفت آثار ضحكتى كأن يدا ظالمة قد خنقتها ، وأحسست بضربات قلبى تخفت وتضعف ، وقلت وأنا حائرة بينما الطرد الصغير بين يدى لا أنظر اليه :

— ما تخليها تتفضل ..

قالت وهى تتجه بسرعة نحو الباب :

— لا .. مرسى .. أصل ورانا زيارات كتير .. أورفوار!

ولم تمكنى من أن أصحبها حتى الباب .. فقد سبقتنى اليه .. وفتحته .. ثم أغلقته وراءها !

وجلست ساهمة ، أنظر الى الطرد نظرات شاردة .. ثم فضضت الورق من حوله .. فوجدت علبة فضية أنيقة ، فتحتها دون لهفة وألقيت نظرة واحدة بداخلها فعرفت مافيها..

خطاباتي ..

الخطابات التي أرسلتها الى محمود منـذ سافر الى لنـدن ..

ما أروعه !!

انه لا ينسى الأصول أبدا .. ان كل شيء في الحياة له أصول وقواعد .. حتى الأخلاق الكريمة علم كعلم الحساب له أرقام مقررة ، وعمليات جمع وضرب لا تستطيع أن تخرج عنها .. وقد طرح خبر خطبتي الى سمير من حبي له ، فكانت النتيجة أن يرسل الى خطاباتي !

بل ما أظلمه !!

هذا العقل المتزمت القاسي الذي لا يرحم ولا يبحث عن الأعذار .. العقل الذي يسيطر على القلب الى حد أن يخضعه لهذه العمليات الحسابية .. كأن الناس أرقام .. والحياة أرقام .. والحب أرقام ..

لا .. مستحيل !

ان الحياة لا يمكن أن تكون أرقاما .. ومبادىء الحب والأخلاق لايمكن أن تكون مبادىء جامدة مقررة كالأرقام.. انك لا تستطيع أن تتهم الجائع في خلقه اذا سرق..ولاتستطيع أن تتهم المظلوم في خلقه اذا قتل .. ولا تستطيع أن تتهمني في حبي لمحمود اذا قبلت خطبتي الى سمير .. ان كل فرد في الدنيا له دوافعه ونوازعه وأسبابه التي تجعل منه كائنا مفردا ليس كالآخرين ، وتجعل له دنيا خاصة ليست كالدنيا

التى يعيش فيها الآخرون .. فلا يمكن أن تصدر حكما واحدا يطبق على البشر كلهم ، ولا يمكن أن تكون نتائج العمليات الحسابية بين الأفراد ، متفقة واحدة كما هى بين الأرقام ..
محمد + قتل = مجرم .. ولكن .. على + قتل = بطل ..
و .. خديجة وخليل + حب = زواج .. ولكن .. سـنية وسامى + حب = انتحار ..

أليس هذا صحيحا !؟

ولكن محمود لا يؤمن بهذا الكلام .. انه رجل يعيش بعقله لا بقلبه .. وعقله لا يرحم ولا يتلمس الأعذار للآخرين.. انه يرسم للدنيا خطوطا مستقيمة منتظمة ، وكل من يخرج عن هذه الخطوط فقد خرج عن دنياه ..

ولكنى أحب هذا القاسى ، الظالم فى قسوته ..

أحبه ..

وأتمناه ..

وأريده زوجا لى ..

وحملت العلبة التى تضم خطاباتى كأنى أحمل جثتى .. كنت ساهمة واجمة ، وكنت أحادث نفسى .. وكنت أسمع صدى مزعجا لحديثى مع نفسى ، كأنه يتردد بين سلسلة من الجبال الموحشة الشامخة فى واد أسود أجرد .. ومن بين هذا الضجيج كان يلوح لى أمل واحد ، وهو أن يعدل محمود عن موقفه بعد أن يسمع خبر فسخ خطبتى ، وأن يرد على خطابى الأخير الذى أرسلته اليه ..

ومرت الأيام ..

أيام قاسية ، زاد فى قسوتها انى لم أعد أطيق كوثر ، ولم تعد كوثر تطيقنى .. فقد كنت أتهمها بأنها السبب فى هجران محمود لى ، وكانت تتهمنى بأنى السبب فى التفريق بينها وبين سمير . ولم نكن نتبادل هـذا الاتهام صراحـة وعلانية ، بل كنا نتبادله احساسا مقيتا يغلى فى نفسينا ، وتضطرب به صدورنا .. ولم يكن يجمع بيننا الا حرصنا نحن الاثنين على البقاء فى هذا البيت . لأن ليس لأى منا بيت آخر !

ولم يرد محمود ..

وكتبت اليه خطابا آخر عاتبته فيه على اعادته خطاباتى الى .. قلت له انى كنت مطمئنة الى سرى حتى لو كنت قد تزوجت من رجل آخر .. ولكنى لم أتزوج ولا أزال انتظره.. لأنى أحبه .. وأعيش له ..

ومرت أيام أخرى .

أيام أشد قسوة ، فقد بدأ أملى يبتعد ويتلاشى حتى لم أعد أرى منه الا وهما كالخيال البعيد .. وبدأت كوثر تشتط فى معاملة أبى والاساءة اليه .. انها من هـذا الصنف من الزوجات الذى لايستطيع أن يحمل السعادة الى بيته الا فى خلال الخيانة الزوجية .. الصنف الذى لا يستطيع أن يسعد الزوج الا تكفيرا عن جريمة مستمرة .. جريمة خيانته مع رجل آخر .. وكنت أرى هذه المعاملة السيئة فأثور ، وأحس

بكل قطعة مني تتمزق غيظا وحنقا ، ولكنى لم آكن أتدخل .. فقد كان أبى راضيا .. كان حبه لها يتسع لكل شيء .. واشتد بى الغيظ والحنق حتى خيل الى فى أحوال كثيرة انى لم أعد أحتمل ، وانى على وشك أن أرتكب جريمة أخرى .. ولكنى كنت أقاوم .. وكنت فى مقاومتى أتمنى أن أهرب من هذا البيت .. أن أهرب من حب أبى الذى جلب على كل هذه المصائب .. كنت أريد أن أهرب الى بيت آخر .. الى بيت محمود ..

ولكن محمود لم يرد .. لم يصلنى منه شيء ..

وعلمت أن الله ينتقم منى ..

الله الذى خلقنى .. ينتقم منى !

ربما خلقنى ليجد شيئا ينتقم منه .. فلم يهن عليه وهو يرفع عنى بلاءه عندما فسخ خطبتى بسمير ، الا أن يحتفظ لى ببعض هذا البلاء ، فيحرمنى من محمود ..

أستغفرك ياربى .. ولكنى أريد أن أعرف .. أريد أن أفهم ماذنبى فى كل ما مر بى .. ماذنبى فى هذه النفس المعقدة .. من عقدها ؟!

لست أنا التى عقدتها ؟!

عقدها شيء فى ظروف ، لاذنب لى فيه ..

فلماذا تنتقم منى ؟!

لماذا ياربى ؟!

وسارت بى الحياة بطيئة .. مملة فارغة .. ووجدت نفسى

تائهة لا أدرى كيف أدفع الأيام لتتحرك ، ولا كيف أدفع عنى الملل ، ولا كيف أملأ فراغى .. كنت أخرج كثيرا كأن بيتى هو الشارع .. ودخولى هو الخروج .. كنت أخرج كل يوم صباحا ومساء .. أطوف بالمحال ، وأسرف فى الشراء ، وأكثر من زيارة الصديقات ، وأحطت نفسى بمجموعة ضخمة من الصديقات والأصدقاء ، وعرضت نفسى لغـزل الشبان .. تركتهم يلقون فى آذانى كلماتهم ، ويراقصوننى ويسحون ذقونهم فى خدى خلال الرقص .. ورغم ذلك لم تسقط كلمة فى قلبى .. ولم يستطع ذقن أن يشمل خدى .. كان الفراغ — رغم كل ذلك — يتسع بى .. والملل يجثم على صدرى.. حتى كرهت وجهى من كثرة ما رأيته أمامى فى المرآة ، حتى خيل الى أنه انطبع عليها .. وانه هناك دائما فوق المرآة حتى لو لم أقف أمامها .. وكرهت فراشى الذى أنام عليه من طول ما نمت عليه .. الفراش البارد الضيق كأنه سجن صنع خصيصا على مقاس طـولى وعرضى .. وكرهت البيت .. وكرهت .. وكرهت ..

وفى يوم كنت أدخل محل « رينيه » عندما التقيت بصفية ومصطفى .. كانا سويا .. وحدهما .. وهللت صفية عندما رأتنى واحتضنتنى وقبلتنى ، ثم قدمتنى الى مصطفى :

— أظن فاكره مصطفى !!

وقلت وأنا أمد يدى اليه :

— أيوه .. ازاى الصحة .. ؟

ونظر الى مصطفى نظرة طويلة .. نظرة فيها حنـــان واهتمام .. ليس فيها غزل ولا شيء مما مضى .. ولكنه كان كمن يسألني عن حالي ، ويريد أن يطمئن على سعادتي ..

وضغط على يدي وقال بصوته الكـــول ، كأنه صوت ينطلق من ماضي حياتي :

— ازيك ياناديه هانم ..؟

وقالت صفية :

— سمعت انك فسخت خطبتك .. الحمد لله .. ما كانش يستاهل ؟!

ومر بذهني خاطر سريع : ترى لو كانت صفية لا تزال زوجة لأبي ، هل كان يعترض حيـــاتي انسان كـسمير ؟ لا أظن ..

ولا أدري ما الذي هبط بعيني الى يد صفية ثم الى يد مصطفى كأني أفتش فيهما عن شيء .. وقد وجدت شيئا ..

وجدت دبلتين !!

ولم تقل لي صفية انها خطبت لمصطفى ، كأنه يكفي أن يراهما الناس وحدهما ليعلموا أنهما مخطوبان .. ولم أشعر بغيرة عندما عرفت بخطبتهما .. انما شعرت بنوع من الحســد.. حسد أبيض .. لو كانت لي شخصية صفية وقوة ارادتها فربما كنت أنا التي خطبت الى مصطفى .. أنا التي تغلبت على مبادئه البوهيمية وتهربه من المسئولية ..

ترى ما الذي يخلق الشخصية ؟

لابد أنها الظروف التى تحيط بالانسان منذ يولد ؟

هذا ما قاله لى مصطفى فى يوم من الأيام ..

فما ذنبى فى ظروف ، اذا كانت قد أوجدت لى هـذه الشخصية المعقدة ؟

وما فضل صـفية فى ظروفها التى أوجدت لها هـذه الشخصـية الواضحة الحلوة القوية ؟

ليس لواحد منا ذنب ، ولا فضل ..

كلنا من عمل الظروف !!

وابتسمت وأنا أستعيد تعاليم مصطفى التى كان يلقنها لى ، ثم قلت وكأن هذه الابتسامة لهما :

— مبروك !!

وقالت صفية بمرحها الهادىء :

— الله يبارك فيكى .. عقبالك يانادية !

وعدت الى البيت ، ولمحت لأبى ساعة الغداء ، عن مقابلتى لصفية وعن خطبتها لمصطفى . ولم أكن أقصد بذلك الا أن أزيل كل أثر قد رسب فى صدره من اعتقاده بأن عمى قد خانه معها ..

ولكن أبى لم يهتم كثيرا بالنبأ الذى حملته له .. كان حبه لكوثر قد ابتلع كل شىء حتى ماضيه !

وكنت فى خلال كل هذه الشهور الطويلة ، أتصل دائما بعمى عزيز بالتليفون .. وكنت أكذب عليه وأقول له ان أبى

ذكره بكيت وكيت .. ثم دعوته عندنا لتناول الشاى ، ولكنه رفض أن يلبى الدعوة الا اذا وجهها له أبى .

وقلت لأبى فى ساعة حنان :

— انت فاكر لما وعدت انك تعزم عمى فى فرحى .. أدينى ما اتجوزتش ، لكن عايزه أعزم عمى ..

قال وهو يبتسم فى طيبة كأنه نسى كل شىء :

— بس مش نستنى لما تيجى مناسبة علشان تبقى طبيعية.. ده أنا حتى عايز آكلمه على الراجل اللى مأجر أرضه .. دا راجل حرامى بيسرقه عينى عينك !

قلت وأنا آمره فى دلال :

— أهو تكلمه بكره .. أنا عزمته على الشاى .. انما مارضيش ييجى الا لما تعزمه انت !

قال كأنه يزيح عن صدره عبئا :

— طيب هاتى ياستى التليفون .. وأنا أكلمه ..

وطلبت عمى فى التليفون ، وحادثه أبى .. وما كدت أسمعه يقول : « ازيك ياخويا » حتى خيل الى أن أبواب السماء قد فتحت لى .. ويد الله امتدت منها لتمسح على رأسى وتغفر لى ..

ولكن الله لم يغفر لى ..

وقد علمت يوما أن محمود قد عاد من لندن .. عاد ولم يتصل بى .. وترددت كثيرا قبل أن أتصل به .. ولكنى أحبه.. أحبه الى حد أن ضعفت كرامتى أمام حبى ، فاتصلت به أنا..

وما كاد يسمع صوتي حتى قال بلهجة طبيعية ولكنها جافة :

— ازاى الصحة ياناديه هانم !!

قلت وقلبى يضطرب كأنى أقفز بين قطع السحاب :

— يصح يا محمود ترجع من غير ما تقول لى ولا تتصل بى ..

قال فى لهجته المهذبة :

— والله يا أفندم كنت مشغول .. جيت أمد مدة البعثة وراجع تانى !

قلت كأنى طعنت :

— تمد البعثة !

قال :

— أيوه .. حاعمل بحث تانى .. ياخد منى سنتين !

قلت كأنى أستعطفه :

— محمود .. أنا لازم أشوفك .. لازم أكلمك .. فيه حاجات كتير لازم تعرفها .. انت ظالمنى يامحمود .

وسكت قليلا كأن قلبه قفز من صدره ويحاول أن يعيده ويغلق عليه بعقله ، ثم قال فى تردد :

— والله يا أفندم مش ممكن .. أنا مسافر الليلة .. راجع لندن ..

قلت كأنى أصرخ فى ضعف :

— الليلة !!

— أيوه ..

وسكتنا نحن الاثنين ..
سكتنا طويلا .. ثم قال فى تردد :
— والله ياأفندم ، فيه حاجة معايا كنت عايز أبعتها لك ..
قلت فى مرارة ساخرة :
— عارفه .. جواباتى اللى لسه مارجعتش ..
وسكتَ ..
وسكتُ ..
لم أكن أستطيع أن ألقى السماعة من يدى ، كأنى ان ألقيتها ألقيت عمرى .. كنت متشبثة به كأنه الحياة ..
وسمعت صوته :
— دى فرصة سعيدة قوى يانادية هانم !
وأجبت وأنا أودع الحياة :
— اورفوار يامحمود . الله يسامحك !
وألقيت السماعة قبل أن أسمع رده ..
انه لم يصفح ولم يعذر ..
هناك رجال من هذا النوع .. لايصفحون ، ولا يتزوجون من لا يصفحون عنهن !

* * *

انى الآن فى الواحدة والعشرين من عمرى ..
أعيش فى ملل وفراغ ، وأكره مرآتى وفراشى وبيتى ..
ولا أدرى ما هو الخير والشر .. لم أعد أحاول أن أعرف ..
فليس فى حياتى ما يستحق أن يكون خيرا أو شرا .. انها

حياة كالماء ليس لها لون ولا شكل .. ولا تستطيع أن تمسكها بيديك .

انى انسانة من العدم .. من الفراغ .. من لاشىء .. لى تصرفات ، ولكن تصرفاتى ليس لها أهداف ولا أحاول أن أحكم دوافعها .. قد يكون بعض هذه التصرفات خيرا ، وقد يكون بعضها شرا .. وقد يؤدى الخير بى الى الشر .. ولكنى لم أعد أدرى .. أو أحاول أن أدرى .. اننى مجموعة تصرفات أو نزوات !

ولا أفكر فى الزواج .. لأن الزواج له دوافع وهدف .. وأنا ليس لى دوافع ولا أهداف ..

وأبى لا يحاول أن يجبرنى على الزواج .. لأنه يخاف أن يخطىء كما أخطأ عندما زوجنى لسمير .. ولأنه رجل .. والآباء الرجال لايستطيعون أن يفهموا البنات ..

وأمى لا تزال بعيدة عنى .. سعيدة مدللة .. لا تحتمل شيئا أو هما فى حياتها .. حتى همى ..

وعمى يدللنى .. ولكنه لا يحمل مسئوليتى ، وهو يعيش بعيدا عنا ولم تعد علاقته بأبى كما كانت ، ولكنها علاقة فيها الكثير من المجاملات والرسميات ..

وأنا أكره كوثر ..

وكوثر تكرهنى ..

هذه الكراهية أصبحت الحقيقة الوحيدة فى حياتى .. حقيقة أحرص عليها لأنها تقنعنى بأنى لازلت من الأحياء .



متى أنام . . ؟؟

والانسان الوحيد السعيد فى بيتنا .. هو أبى .. الزوج المخــدوع !

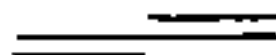
وأنا لا أنام ..

لم يعد النوم يعذبنى ، ولم يعد التفكير فى الشر يقلقنى.. ورغم ذلك فانى لا أنام ..

ربما لأنى كى أنام يجب أن أصحو .. وأنا لا أصحو .. ليس فى حياتى اليوم صحوة ولا نوم .. انى ميتة .. أسير كالميتة ، وأرقد فى فراشى كالميتة .. ميتة مفتحة العينين ، لم تجد من يسدل جفنيها فوق عينيها ، حتى تبدو كأنها نائمة ..

أريد من يسدل جفونى .. حتى أنام !

متى أنام ؟!!



مطبعة مصر ٤٢٧٩/٥٧/١٥٠٠٠